

تاريخ المسلسلات

في شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم



الأستاذ الدكتور أحمد محمود السيداتي
كلية الآداب - جامعة القاهرة ومعهد الدراسات الإسلامية

دار قصبة الشرق
جامعة القاهرة



تاريخ المسلمين

في شبه القارة الهند وباكستانية وحضارتهم

القسم الأول : من الفتح العربى حتى قيام الدولة المغولية

القسم الثانى : للدولة المغولية حتى التقسيم (وبه مقدمة عن الهند

القديمة وملحق به فصل فى تاريخ أفغانستان)

لكتور

أحمد محمود الساداتى

الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

ومعهد الدراسات الإسلامية

النشر

دار نهضة الشرق

الكتاب : تاريخ المعلمين في شبه القارة الهند وباكستانية

ومحاضراتهم

المؤلف : دكتور أحمد محمود السادقي

المراجع : محمود محمد عباس

تاريخ الإصدار : يناير - ٢٠٠١ م

حقوق الطبع والنشر : محفوظة للنشر

الناشر : دار لمضة الفوق - جامعة القاهرة ت : ٠١٢٢٢٥٩٧٨٨

رقم الإيداع : ١٨١٢٨ / ٢٠٠٠ م

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-245-141-7

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَكَلِّمَاتُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ...

وبه استعين ، والصلاة والسلام على خير المرسلين ،،،

شبه القارة الهندية التي تضم اليوم دولتي باكستان الإسلامية والهند الهندوكية^(١) بدأ أظهر أدوارا تاريخية - على إجماع من المؤرخين - بالفتوحات الإسلامية، وأخصها تلك التي فيها الغزنويون ، ومن جاء من بعدهم ، بهذه البلاد منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، وصحبهم فيها جملة من العلماء والمؤرخين والرحالة المسلمين الذين درسوا أحوال الهند وكانوا عما كان بها من حضارات ومذنيات عريقة تقصوا أسسها وتفصيلاتها .

وتاريخ شبه القارة الهندية القديم ، وفيما قبل فتوح المسلمين ، غاليته الغالبة عموماً يكتنفه الغموض الشديد . ولولا القليل منه الذي استشفه المؤرخون من الكتب الهندية الدينية القديمة ، ومن أكداش أساطير الهنود القدماء وما وصل إلينا من تكوينات جواربي هذه البلاد في الأزمنة الغابرة لظل ماضي هذه البلاد مجهولاً إلى درجة كبيرة . ذلك أن آثارها وعادياتها القديمة ، التي اكتشفت حتى اليوم ، لا تعد في الغالب ثبثاً وثيقاً مفصلاً لماضيها على نطاق واسع نظير ما عند مصر واليونان .

والمسلمون الذين أسهموا في حفظ تراث اليونان وزادوا عليه ، هم أنفسهم الذين أظهروا العالم على الكثير من تراث الهند الذي أطلعوا عليه ، فجر الإسلام ومطلع ضحاه ، فحبب إليهم الاستزادة بما عند غيرهم من مختلف فنون المعرفة^(٢) ودفعهم إلى طلبها .

فلقد دخل المسلمون إقليم السند أواخر القرن الأول الهجري ثم انطلقوا - ابتداء من أواخر القرن الرابع الهجري - يوغلون في هذه البلاد ، فإذا بعلمائهم

(١) لفظ هندوكي أو هندوسي - وهو معرب - عدا عند كتّاب العربية المحدثين علماً على أصحاب العقائد الهندية القديمة من سكان شبه القارة الهندية، وهو ما ذهبت إليه في هذا الكتاب.

(2) Havell, E.B The History of Aryan Rule in India London p. 254 - 56 .

يقفون على ما عند الهنود من فنون المعرفة الكثيرة ، على نطاق واسع من ألفواه المشتغلين بها من رجالهم بعد ما كانوا قد اطلعوا على قدر منها في بطون كتبهم ، ويتعرفون على أحوالهم وعقائدهم بمخاطبتهم ومساولة كهنتهم ورهبانهم ومناظرة فلاسفتهم. وكان إمام هؤلاء العلماء الأعلام جميعا هو العلامة أبو الريحان البيروني للعارف بلغات الهند . وفيما تركه من كتب قيمة عن هذه البلاد ثبت لذلك كله .

وأخذ هؤلاء الفاتحون يستقرون بالبلاد التي فتحوها ابتداء من القرن السابع الهجري ، فحفظت بذلك أموال الهند وثرواتها عليها بعد أن كان الغزاة يحملون معهم الكثير منها إلى بلادهم .

وما لبثت عقيدة الإسلام السمحة الفقية - بمبادئها الإنسانية الرفيعة ونظمها الاجتماعية القائمة على المساواة التامة بين معتققيها ، والتي لا تعترف بنظام الطبقات - أن طفت تجتذب إلى صفوفها ألوفاً وألوفاً من الهنود في ازدياد متدرج، فهم اليوم يشبه القارة هذه يزيد عددهم على مائة وعشرين مليوناً .

والمسلمون بناء حضارات أينما حلوا ونزلوا . وفي طبيعة الإسلام أنه يدفع دائماً بعجلة الحضارة والمدنية إلى السير من جديد في كل بلد يدخله . وأصحابه حين توغلوا بالهند ، ومعهم حضارتهم ، التي كانت قد بلغت خارج هذه البلاد درجة عالية من الرقي ، لم يهملوا أمر حضارة الهند وثقافتها ، بل شغلوا بها وانهمك علماءهم في كل العصور في النقل منها ، حتى ترجموا أقساماً من المهابهارتا نفسها سفر الهنادكة المقدس .

ولا تجد حتى عقد أشد المؤرخين الهنادكة كراهية للحكم الإسلامي إشارة واحد إلى إحراق المسلمين لكتب الهنادكة وأسفارهم أو إتلافها .

وما هو ذا المؤرخ الهندوكي المعاصر إشاروي براساد يقرر صراحة بأن الحكم الإسلامي في شبه القارة الهندية كان فيه الكثير من الخير ، ويرد ما يسمو به المجتمع في هذه البلاد اليوم من الخصال الحميدة وما يروج فيه من رسوم وعادات راقية إلى تقاليد هؤلاء الفاتحين^(١) .

(1) Prasa p. Mod. India pp. xxxi

ولئن كانت شبه القارة الهندية قد عرفت أظهر أنوارها التاريخية أيام الحكم الإسلامي بها ، فقد شهدت تلك البلاد أروع مظاهر الحضارة والمدنية بها في عهد دولة المغولية التي قامت بشبه القارة الهندية في القرن العاشر الهجري ، فوصلت لحكم الإسلامي في هذه البلاد إلى أرقى صورته ، وينفذ المسلمين إلى أوسع مداه ، بالعقيدة الإسلامية إلى أقصى درجاتها من الذبوع والانتشار ، حتى بلغت بذلك كله في تحويل ملايين عديدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى دين المسلمين ، عن قنوتهم ولغاتهم ورسومهم إلى قنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم .

عاصرت هذه الدولة ، أول نشأتها ، دولتين إسلاميتين قويتين كبيرتين هما : دولة الصفوية التي قامت في فارس وامتد سلطانها على خراسان والعراق ، الدولة العثمانية التي كانت إذ ذلك تحكم في آسيا الصغرى وأجزاء من أوروبا والتي ألبثت أن أغارت على الشام ومصر وأجزاء من فارس فاغتصبتها .

كانت الدولة المغولية أحدث هذه الدول جميعاً ، وأصحابها كانوا أكثر ملوك صهرم تسامحاً وأعظمهم كلفاً بالحضارة والمدنية ، فلم يدانيهم في ذلك عامل لا في الشرق ولا في الغرب .

وهم من أصلاّب المقول والترك الذين أتزلوا الخراب والدمار بكثير من بلاد عالم الإسلام ، ثم ما غدوا أن انقلبوا ، بفعل الحضارة الإسلامية ودخولهم في إسلام ، إلى بناتين للمدنيات ، حتى ازدهر على أيديهم كثير من المدن التي رابها أجدادهم من قبل ، وصادقت المدنية والحضارة في عهدهم رواجاً كثيراً^(١) .

لم يجر حكام هذه الدولة في تسامحهم على مجرد إطلاق حرية العبادة لأهل بلاد من الهناذكة فحسب ، حتى فتحوا لهم أبواب المناصب ، وقربوهم منهم أصبحروا إليهم ، وحضوا رعاياهم من المسلمين على ذلك . ليستوى الإسلام من مد ذلك كثيراً منهم ، بقوله بالمساواة التامة بين معتنقيه ، فيقبلوا على الدخول فيه نواجاً ، حتى لنرى المسلمين في شبه القارة الهندية اليوم ، بعددهم الذي ينيف على مائة والعشرين مليوناً ، هم في غالبيتهم الغالبة من أبناء هذه البلاد الأصليين .

ولقد هدف هؤلاء الأمراء التيموريون ، أصحاب هذه الدولة بتسامحهم هذا في تألف سكان الهند واتحاد شعوبها لتقوى بهم دولتهم وترسخ أسسها حتى كان

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٩٥ - ٩٨ .

منهم من تعدى تقريب الهناكة والإصهار إليهم إلى التفكير فى محاولة ابتداء مذهب جديد يقوم على التوحيد ، وتذوب فيه عقائد الهند كلها ولا يتعارض مع أسسها ، ليبلغ بذلك إلى توحيد هذه البلاد كلها توحيدا حقيقيا فى ظل الدولة .

ومن آيات هؤلاء السلاطين ، أنهم فى كلهم وشغلهم الزائد بالثقافة والمدنية ، لم يغفلوا شأن الثقافة والمدنية الهندية . فلم يكفوا بالإطلاع عليها بل انطلقوا بحرضون أهلها ، فى الغالب ، على الأشغال بتراثهم القديم وإحيائه وتطويره ، لينجم عن ذلك كله مزيج عجيب بلغ بالحضارة الإسلامية الهندية إلى أرقى صورها فى كافة نواحي المعرفة .

وأدى الإسلام ببساطته وقوله بالمساواة التامة بين أتباعه إلى تأثير فريق من مفكرى الهناكة ومصالحوهم بتعاليمه ، فنادوا بمذاهب ومبادئ جديدة خففت كثيرا من غلواء نظام الطبقات ، وأنكرت صراحة عبادة الأوثان ، ودعت إلى عبادة إله واحد أكرم عباده عنده هو أنقامه ، بصرف النظر عن العرق أو الطبقة والجنس ، واعتبرت للأرملة والأيم بحق الزواج . وصادفت جهود هؤلاء من التوفيق قدرا غير قليل بين الطبقات المستتيرة ، غير أن سلطان البراهمة بقى عند العامة أقوى من كل حركات المصلحين ، فأقامت شعوب الهند فى الغالب ، على خلائقاتها المدمرة التى مزقتها شيئا وطوائف ، فلم يجد المستعمرون البريطانيون ، حين أقبلوا على الهند ، مشقة كبيرة فى إخضاعها لهم ، ليمعنوا من بعد ذلك فى إذلالها ويمسئزفوا فى يسر تام كل خيراتها ومواردها وثرواتها .

إن عقائد الهند تقوم عليها نظمها الاجتماعية لسكانها جميعا . والمسلمون الهنود يغيرون سواهم من سكان هذه البلاد مغايرة تامة فى عقيدتهم وتقاليدهم ورسومهم ، فلم يكن لهم بذلك مناص من أن يصروا على قيام دولة خاصة بهم تضم المناطق التى يسودونها بشبه القارة الهندية ، فلا تضيق بذلك أقليتهم الضخمة فى وسط الغالبية الهندوكية ، وتم لهم ما أرادوا ، فى الغالب ، عام ١٩٤٧م ، بقيام دولة باكستان الخاصة بهم على حدود لا ترضيهم ، قبلوها ليضعوا بذلك حدا للمزاج الكبيرة التى سقط فيها من المسلمين بفعل الاستعمار ، أكثر مما سقط من الهناكة.

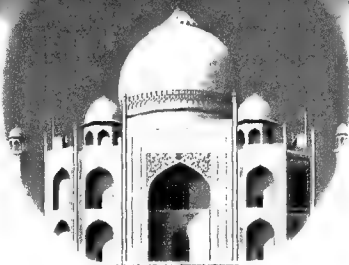
والله المستعان ،،،

أحمد محمود الساعاتي

القاهرة - المعادى

نتائج المسح الإسلامي

في شبه القارة الهندية وإكسباته وحضارتهم



الأستاذ الدكتور أحمد محمود الساداتي

مكتبة الآداب - جامعة القاهرة ومعهد الدراسات الإسلامية

دار خضعة الشرق

جامعة القاهرة

« كلما تقدمت الحضارة وتطور الناس زاد عدد المسلمين ، فأسفر عن ابن تعصب الطوائف وانتشار المبدأ القاتل بإله واحد في ذلك القطر المملوء بالخرافات انحناء النفوس بالتكبريج أمام جلال الله وعظمته - حقاً إن فتح الإسلام للهند لما يتم ، وهو سائر بطبناً صامتاً على طريقه فلم يقف تقدمه سلطان إنجلترا النصرانية .»

(من كتاب حضارة الهند لجوستاف لوبون)

موضوعات الكتاب

صفحة

القسم الأول :

١٥

- الهند القديمة :

جغرافية الهند - سكان الهند - معتقدات الهند - لغات الهند -
تاريخ الهند القديمة وحضارتها .

٤٤

الفتوحات الإسلامية في شبه القارة الهندية :

- فتوح العرب بالسند :

معرفة العرب بالهند قبل الإسلام - محمد بن القاسم وفتح السند -
يزيد بن أبي كشة - حبيب بن المهلب - عمرو بن مسلم البلطي -
جنيد بن عبد الرحمن - الحكم بن عروالة - عمرو بن محمد بن
القاسم - يزيد بن غرار - منصور بن جمهور الكلبى - عبد
الرحمن بن أبي مسلم العبدى - موسى بن كعب - عمرو بن حفص
- عبد الله بن محمد الأشتر العلوى - هشام بن عمرو التتلبى -
الليث بن ظريف - داود ابن يزيد - بشر بن داود - موسى بن
يحيى البرمكى - عمران بن موسى - عمر بن عبد العزيز
الهبارى - نتائج الفتح العربى للسند .

٦٥

- الغزنويون وخلفاؤهم :

سبكتكين - محمود الغزنوى - مسعود - السلاجقة - محمد
الغزنوى - مودود ومجدود - إبراهيم بن مسعود - علاء الدين -
وسنجر - بهرام والغوريون - التتركمان - خسرو بن بهرام -
غياث الدين بن سام الغورى - بهرام شاه التتلى .

٨٤

- الغوريون :

معز الدين محمد بن سام الغورى وقواده .

٩٠ - دولة المماليك :

قطب الدين أيبك - شمس الدين التمش - جلال الدين شاه
خوارزم - ركن الدين فيروز شاه - الملكة رضية - بهرام شاه -
علاء الدين مسعود شاه - ناصر الدين محمود شاه - آل بابين :
غياث الدين بلبن - محمد ويغراخان - طغرل - كيقياز .

١٠٦ - الخلاجيون :

جلال الدين فيروز شاه - علاء الدين ونظمه - كافور - قطب
الدين مبارك شاه - خسرو شاه .

١١٩ - آل تغلق :

غياث الدين تغلق - محمد تغلق وخطمه . فيروز تغلق وإصلاحاته
- غياث الدين تغلق الثاني - أبو بكر ومحمد تغلق - محمود تغلق
- ملوك الشرق - نصرت شاه - ملو إقبال خان - ملوك خان
- الغزو التيموري وآثاره .

١٤٤ - ملوك الطوائف :

الكجرات - مالوه - خاندش - جوندور - البنغال - الدكن .
سلطنة بهمنى : برار - بيجابور - أحمد نكر - غولكونده - بيدر
(بيدار) - نياياتكر - أسرة السادات بدهلي .

١٦٠ - اللودهيون الأفغان :

بهاول لودهي - سكندر شاه - إبراهيم لودهي - دولت خان لودهي
- علاء الدين علم خان - باتي بت .

١٧٠ - الدولة الإسلامية في دورها الأول بشبه القارة الهندية

القسم الثاني :

١٨١ - الترك والمغول :

منازل للترك - حضارة للترك وإسلامهم - المغول في
أوطانهم - تيمور لنگ وخلفاؤه - لبيبة في بلاد ما وراء النهر .

حكام الدولة المغولية :

٢٠٧

- بابر :

على عرش سمرقند - في أرض كابل و غزنه - عود إلى سمرقند . فتح الهندستان : غزوة بهيرة ، البلاد شاه في لاهور ، واقعة بابي بت - على عرش أكرا - معركة خاتوه - القلاقل الشرقية - شخصية بابر - حكومة الهندستان - وصف بابر للهندستان - بابر نامه .

٢٥٠

- همايون :

غزو الكجرات - البنغال و بهار - شير شاه - همايون في منفاه - خلفاء شير شاه - عودة همايون .

٢٦٣

- أكبر :

حرب آل سور - نهاية بيرم خان - تقريب الهندكة - حروب الشمال والوسط : غوندوانا - جتور ، ونكتهور ، الكجرات ، غزو البنغال - ثورة ميرزا حكيم - فتوح الدكن - المذهب الإلهي - نظام الدولة - الحياة الفكرية والثقافية - شخصية أكبر .

٣٠٥

- جهانكير :

ثورة الأمير خسرو - اضطرابات البنغال - ملك عنبر الحبشى - ثورة شاهجهان - مهابت خان - شخصية جهانكير - البريطانيون عند جهانكير .

٣١٨

- شاهجهان :

ممتاز محل - ثورات الدكن - المجاعة والقحط - البرتغاليون - حروب الدكن - بلخ و بدخشان - قندهار - أورنكزيب في الدكن - فترة الأمراء - شخصية شاهجهان .

٣٣٤

- أورنكزيب عالمكير :

آسام و البنغال - البطلمان والأفغان - الحيات والستاميون - المسك - الراجبوتيون الشيعية والمرهتيا - شيولجي - بيجاوير - شمبهوجي - شخصية أورنكزيب - البريطانيون عند أورنكزيب .

٣٥٦ - خلفاء أورنكزيب :

بهار شاه - الراجپوتيون والسك - جهاندلر - فرخ سير - السك
والمرهتا - محمد شاه القرم - الغزو الفارسى - تادر شاه
القرم - الغزو الأفغانى - أحمد ابدالى الدرلى - عالمكير الثانى -
بلى بت - البريطانيون فى البنغال وبهار - موقعة بلاسى - شاه عالم
- موقعة بكسر - المرهتا فى دھلى .

٣٧٤ - الاحتلال البريطانى :

طرد المناقسين - سلطان ميسور - حرب المرهتا - حرب
الأفغان - إخضاع السك والبلوخ - خاتمة سلاطين الدولة المغولية
(أكبر الثانى - بهادر شاه الثانى) - الثورة الوطنية - دولة
باكستان - مشكلة كشمير .

٣٩٣ - حضارة الدولة المغولية :

نظام الحكم - المجتمع - الصناعات - العمارة - النقش - حدائق
المغل - الموسيقى - الحركة الفكرية - اللغة الأوردوية - حركة
الإصلاح الدينى .

٤٠٧ - تاريخ كلفاتستان .

٤٣٣ - مكتبة البحث .

٤٤٣ - فهرس أبجدى عام .

الهند القديمة

جغرافية الهند :

لم تكن الهند فى القديم هى شبه القارة المترامية الأطراف المتعارف عليها فى العصور الحديثة ، إذ كانت هذه التسمية يضيق منلولها حيناً ما فلا يعرف به إلا شقة ضيقة من الأرض ، أو يتسع لتساعاً كبيراً حيناً آخر فوشغل رقعة واسعة من جنوب القارة الآسيوية .

واختلف الناس فى منشأ تسمية هذه البلاد فمنهم من نسبها إلى الإله « إندرا » إله الهند القديم ، ومنهم من ردها إلى السند الذى كان يعرفه الفرس القدماء باسم « هند هو » أى النهر ، جريا على عادتهم فى إبدال المين السمنسكرىتية بالهاء ؛ وكان نفوذهم قبل غزو الإسكندر قد عم الجزء الغربى من هذه البلاد وتوغلوا فيه .

وهؤلاء الفرس هم الذين أطلقوا كذلك اسم الهندستان (أى أرض الأنهار) على الشمال بأكمله من هذه الإقليم .

وشبه القارة الهندية ، التى تضم اليوم جمهوريتى باكستان والهند ، هى كتلة بالغة الضخامة من اليابس تصل مساحتها إلى المليونين من الأميال المربعة ، أى بما يزيد على نصف مساحة القارة الأوربية ، فيها تمثيل كامل لمختلف عروق الإنسان وما عرفه من فنون وآداب وعلوم وما اعتنقه من مختلف العقائد منذ ظهور الوثنية حتى اعتداء الناس بالتوحيد . وفيها أنواع الأجواء المتباينة من الصنوع القطبى وتلوجه بالهملايا ومرتفعاتها بالشمال إلى فيض المناطق الاستوائية وشواطئها بالجنوب . وفيها كذلك من صنوف الحيوان والطيور والنبات والمعدن ما يصلح لأن يكون إجمالا لما بالعالم كله منها . فهى فى الحق دنيا قائمة بذاتها قد عزلها عن بقية اليابس الآسيوى لمنع مترس أكامته الطبيعة بين بلدين وهو جبال الهملايا التى تعرف بسمق الدنيا . وبهذه الجبال الشامخة مسارب تجارية ضيقة تنفذ إلى التبت وبلاد التركستان ولكنها لا تصلح لممرور القوافل الكبيرة.

والحدود الشرقية للهند جبلية كذلك ، وتتمثل فى جبال آسام ، وبها بعض الممالك التى تصل أرض الهند بالصين الغربية وشرقى آسيا .

وتمتد فى الغرب جبال الهند كوش من الشمال حتى البحر جنوبا . وتختربها بدورها كذلك ممالك تصل إلى التركستان وأواسط آسيا عبر بلاد الأفغان ، وإلى إيران عبر بلوختان . وعن طريقها نفذ الغزاة والمهاجرون ، آريون وإغريق وهون وسيث وفرنس وأتراك ومغول ، إلى شبه القارة الهندية ، فلم يظهر طابعهم قويا إلا فى الشمال والشمال الغربى منها ، حتى أصبحت هذه الأجزاء التى تعرف باسم الهندستان تغاير فى ثقافتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية نظرنا فى الوسط والجنوب .

وكان مما سد حضارة الشمال عن التسرب جنوبا ووقف حائلا فى وجه الغزاة تلك الوحدة الضيقة الضيقة التى تنوسط شبه القارة ممتدة من الشرق إلى الغرب عند شمال الدكن ، وتقع فيها جبال الوندھايا وتلال ساتپورا مع نهر ترپدا .

وفيما عدا ما ذكرنا من حدود جبلية لشبه القارة الهندية فالبحر من حولها محيط .

وفى شمال الهندستان يحرق كذلك أعظم أنهار الهند وهما السند والكنج اللذان يستمدان ماءهما من تلوج الهماليا .

والهنداكة يتقدمون مجارى المياه قاطبة لما تهبه لهم من خيرات ونعم . وسهر الكنج هو أقدمها جميعا عندهم حتى ليتطهروا بمائه كل يوم . بل إنهم ليلقون بجثث موتاهم فيه تبركا ما ألفتوا من الرقابة . وطوى لمن يكتب له منهم الحجيج إلى منابه العليا المقدسة .

وأكبر روافده هما جمته ويراھماترا ، وينهيرانه الاثنى عشر التى تولى تولى لثاته يصيب إقليم البنغال خصبا عموما .

ولئن كان الكنج هو أقدم الأنهار عند الهنداكة فإن السند بأمااله الكف أطولها جميعا . وروافده الخمسة ، وهى سلتج وجيناب ورياس وجهلم ورلوى ،

قد عرف الإقليم الذى تجرى فيه بعدها ، فالبنجاب يعنى الأنهار الخمسة وللهند كذلك رافد سانس هو نهر كليل الذى ينبع من الهند كوش ويلتقى بالنهر الرئيسى فى ناحية الغرب وإقليم البنجاب هو من يوابات التجارة الهندية الكبرى ، ومنه نفذ أغلب الغزاة والفتاحين فأوغلوا فى شبه القارة .

ويضم وديان السند والكنج أغلب أراضي الهند الزراعية ، وإن كان وديان الثانى أكثر اتساعا وخصبا وبالتالى أعص بالمكان ذلك أن الكنج تمتد على طول مجرى روافد عدة تستمد ماءها من تلوج الهملايا الدائمة ، وهو ما ليس للسند منه نصيب فضلا عن السيابة فى أرض يغلب الاستواء عليها مما يؤدي إلى بطء جريانه وضياح الكثير من مائه فى صحراء النار أكبر صحراوات الهند والتي تفصله عن الكنج . وتعرف هذه الصحراء أيضا باسم « الراجبوتانا » نسبة إلى الأمراء الهنداكة الراجبوتيين الذى جرى بذكر شدة بأسهم وبطولتهم ووقوفهم دائما فى وجه الغزاة والفتاحين ، وتاريخ الهند وأساطيرها على السواء .

وفى وسط الهند يجرى نهر تريندا ، وإلى الجنوب منه يجرى مهندي ، وتحتيه جودافرى أعظم أنهار الكنج ثم يليه نهر كرشنا .

وأنهار شبه القارة الهندية هذه برغم كثرتها لا تكفى لرى أراضيها ، لذلك كان اعتماد الزراع الأكبر على مياه الأمطار الموسمية التى يؤدي امتصاصها إلى مجاعات مروعة متوامة . فلم يكن عبثا إذا أن ذكر المطر فى كتب الهنداكة المقدسة القديمة بأنه عطاء الآلهة الذى يهب لهم الزرع قوام الحياة^(١) .

سكان الهند :

وأصل سكان الهند لم يصل إليه الباحثون على وجه التحقيق ، وإن كان الثابت المعروف أنه قد ورد على شبه القارة هذا موجات متتابعة من هجرات أجناس مختلفة .

(١) تنبه هنا إلى أن كلمة هتوكى ليس لها أى دلالة جنسية أو عرقية فهي تطلق فى

V Le Bon Les Civilisations de l'Ind Paris 188 p. 3456

وكما تتباير الهند في أحوالها تغايرا واسعا المدى فهي كذلك تختلف في
أجناسها اختلافا بينا شديد الوضوح ففي مناطقها الشمالية يعيش جماعات لهم
سمات الشعوب الشمالية ونشاطها في الغالب . وبجانبهم أقوام آخرون لهم خصوصيات
في وسط الجنوب ، سواد سكان المناطق الحارة حيث تقسو حرارة الشمس على
الناس فتضعف أبدانهم وتقل من نشاطهم^(١)

وأقدم من سكن الهند في الغلب قوم سود ، لهم سمات الأجناس الحامية قطنوا
الغابات ، ولا تزال منهم بقايا مفترضة منعزلة وسط الهند حتى اليوم .

وقدم الهند من بعد ذلك ، في عصور ما قبل التاريخ ، موجات ثورانية وافدة
من الشمال فدخلوا بأهل البلاد أمامهم صوب الأماكن الجبلية في الوسط وما لبثوا أن
توالدوا معهم فظهر الدراويون والتمول أقدم من سكن الهند في التاريخ . ومنهم
أغلب سكان شبه القارة اليوم .

وتوالت موجات الآريين البيض من السيث واليهون على الهند من بعد ذلك
قادمة من ناحية الشمال الغربي فاكتمت أمامها الثورانيين وأخضعتهم والدراويين
والتمول لسلطانها وعن الدراويين أخذ هؤلاء الغزاة نظمهم الحكومية والاقتصادية .

وسكن هؤلاء البيض في بادئ الأمر إقليم البنجاب ، باب الهند الآرى ثم
أخذوا من بعد ذلك ينتشرون في منطقة الدرب التي صارت مركزا لحضارتهم .

وخاف البراهمة مغية اختلاط بني قومهم الآريين بعناصر الهند الأخرى
فوضعوا نظام الطبقات وجعلوا أنفسهم وللنبلاء المحاربين من الآريين على رأسها .
فلجيش يقوده النبلاء في الحرب والبراهمة يؤيدونه ويشدون من عضده بالدعاء
الذى أن يتم له النصر يدونه^(٢) .

وإلى جانب الطبقتين الآريتين . وهم الكهنة البراهمة والأكثرية المقاتلة من
النبلاء أن الذين يرون في موت الرجل منهم بمخدعه عارا وأى عار ، سلك

(١) الهند على إتباع عقائد الهند القديمة .

(2) Dunhar, G. A. History of India from the earliest times to the present day Vol. I
p.15

التورانيون في منطقة الويشية التجار ولا يأتي من بعدهم سوى طبقة الثوودرا التي
نظم الرراع والصناع والعمال ، وكانوا أغلب سكان شبه القارة الأصليين إذ ذلك .

أما الباريا . وهم المنبونون . فكانوا في يدي أمرهم جماعة صغيرة لا تنتمي
إلى الطبقات الأربع ساقلة الذكر وقوامهم بعض القبائل الوطنية وأسرى الحرب ،
ورجال تحولوا إلى عبيد عقابا لهم بسبب ولانتهم عن زواج بين براهة وشودرية ،
أو لعجزهم عن وفاء بالدين ، أو لممارستهم المهن الحفيرة التي تضم الكناسين
والجزارين والجلادين والحواة ومن إليهم . وهم بعدهم المتزايد الذي ينوف على
الأربعين مليوناً ونفوسهم للثائرة مع عطف البشر البالغ عليهم ، حين يزداد الوعي
الإنساني تغلغلا في صفوفهم ، كفيولون يزلزلة كيان النظام الطبقي كله والقضاء عليه .

وأثر الأريين العظيم في الحضارة والمننية يتجلى في ديانات الهند القديمة
وعاداتها وطباعتها ولغاتها

وإذا كانت غلبة الجنس الأري تظهر واضحة في مناطق الهمليا العليا حيث
يتميز السكان ببياض بشرتهم ، فإيها ما تثبت أن تأخذ في القلة إذ ما اتجهنا صوب
الجنوب حيث تأخذ سمرة اللون في الظهور بزيادة متكرج

حتى إذا ما نزلنا وادي الكنج ، أخصب بقاع الهند والذي يزحم فيه أكثر من
ثلث سكان البلاد ، وجدنا به تمثيلا يكاد يكون كاملا لعروق الهند من الدراوريين
والأريين والتورانيين على تفاوت هذا والعنصر الأخير أي التوراني ، كان أبعد أثرا
في سكان الهند من الناحية الجثمانية وأظهر من كافة العناصر الأخرى التي قدمت
هذه البلاد من بعده

وإذا كان وادي الكنج قد اختلطت فيه عروق الهند من أريين وتورانيين
ودراوريين ، وتجاورت فيه كذلك دياناتها وعقائدها من برهمية وبوذية وهندوكية
وإسلامية ، فإننا نجد التنبج وأغلب وادي السند يكاد يكون وقفا على عرقين
أثنين ، هما العرق التوراني والعرق الأري ، وعقيدة واحدة هي الإسلام .

ومن بين سكان التنبج والسند قبائل الميذ واللجات (الزط) الذين عرفوا
بشجاعتهم ، ومهارتهم في التجارة . وقد قيل إن على أبي طالب استخدمهم على

حراسة أموال البصرة في وقعة الجمل ، كما أنزلهم الأمويون ثغور الشام فشاركوا في حمايتها^(١) .

وهذه القبائل ومعها الكهكر فيهم المسلمون وفيهم الهنادكة ، وتمتد منازلهم حتى صحراء الراجيرتانا .

أما وسط الهند وجنوبها فغالبيتها سكانه الساحقة من الدراوريين والتمول للتدماء، وهم عند البراهمة يعدون من الشودرا والياريا نغاية البشر ومنبوذيه في الغالب .

وأما ما كان من تباين عروق الهند واختلاف أجناسها الشديد فقد عمت البيئة الواحدة طباع وعادات مشتركة ، ولا غرو فلتبعاغ تأثير في الطباع على حد قول المقدسي جغرافى العرب .

وسكان شبه القارة الهندية الذين يبلغون اليوم أربعمائة مليون ، أى خمس سكان الدنيا بأسرها - إذا غرضنا الطرف عن قلة ضئيلة من أهل القطرة تسكن أماكن منعزلة متناثرة ، ولا تزال على عقائدها الطوطمية الأولى فتزله الأنعام والقرود والتمرة ، فضلا عن ممارستها إلى عهد غير بعيد لعادة تعدد الأزواج من الذكور حيث يبنى بضعة أقارب أو أخوة في العادة بامرأة واحدة ويقومون أسرة - يمكن أن نكتلم في ككتلين كبيرتين على هدى البيئة وأساسها .

وأكبر الككتلين هي الكتلة الهندوكية التي تقطن غالبيتها جمهورية الهند اليوم . وهي تكلف ثلاثة أرباع سكان شبه القارة الهندية كستانية على كل حال . وقد أدى معيشة هؤلاء الهنادكة في بيئة واحدة تخضع لعقائد واحدة منذ القدم، إلى قيام صفات عامة مشتركة كثيرة فيما بينهم .

وأما الكتلة الثانية فهي كتلة المسلمين الذين يجاوز عددهم اليوم المائة مليون من الأنفس ، وتضم أغليبيتهم جمهورية باكستان . ورغم وفود جموع الغزاة المسلمين من العرب والفرس والأكرار إلى هذه البلاد فإن غالبية المسلمين هناك في أصولهم الأولى هنادكة خالص . ذلك أن المسلمين في مدى قرون قليلة حكموا فيها

(١) فتح البلدان للبلاذرى طبع ليدن ص ٣٧٠ .

بالهند ، أطلقوا فى تغيير معتقدات هذا الفريق الهندوكى الكبير إلى دينهم وعقيدتهم . بل لقد بلغوا به كذلك إلى تغيير لونه وفنونه إلى لونه وفنونه ، وهو ما مارسوه فى كل البلاد التى فتحوها وعجز عنه غيرهم من الأمم ورجال الدين . وكان من أهم أسباب انتشار الإسلام فى شبه القارة الهندية خاصة ، شهادة ثقات المؤرخين حتى فى العصر الحديث ، هو قوله بالمساواة ، فلم تستطع بريطانيا ومن سار فى ركابها ، حين كانت تحتل هذه البلاد أن تحد من نشاطه فيها ، ذلك النشاط الذى جرف كل ما كان يقام فى طريقه من معوقات وعراقيل^(١) .

معتقدات الهند القديمة :

فى شبه القارة الهندية كما قلنا من قبل تمثيل كامل لكافة العقائد التى عرفتها الدنيا ومراحل تطورها من الطوطمية الوثنية إلى التوحيد الكامل ، وعليها تقوم النظم الاجتماعية لسكانها جميعا

ولقد عرفت الهند قبل البرهمية كثيرا من معتقدات الأريين والأسويين الذين كانوا قد وفدوا إليها قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرنا ، فاعتنقت الناجا الطوطمية وعبدت إلهها الأعوان ، كما عبدت هاتومان الإله القردونافندس الإله الثور ، وكلمت الأشجار والموتى من الأسلاف اعتقادا منها بخلود أرواحهم ، وقدمت لهم القرابين ، وصلت من أجل سعادتهم فى مثوانم الأبدى ، واستخدمت الرقى والتعاويذ والسحر لجلب السعادة وإطالة العمر ودفع الأرواح الشريرة وإيقاع الارتباك بالأعداء . وقد انتقل كثير من ذلك كله إلى الهند فى العصر التاريخي ، وما زال اليوم قلة منقرضة منقرلة تولى التمرة والقردة والأفاعى والأفاعى .

وقد ورد بكتب الوبدا ، أقدم أساطير الهند ، تفصيل لآلهة الأريين الكثيرة هذه ومن بينها ما يمثل قوى الطبيعة نفسها وعناصرها مثل الإله إندرا الذى ينسب إليه البعض تسمية الهند ، وهو إله العواصف والسماء ، وهو الخالق البارئ الأعلى الذى يجلب الأمطار والماء أصل الحياة ، وأغنى إله الثمار موجب الحياة الكونية والعالم والآلهة ، وشرويا إله الشمس .

(١) حضارة الهند لجوستاف لوبون ، تمريب عادل زعير - القاهرة ١٩٤٨ من ٦٢٦ .

ولئن اختلف الراى فيمن ينسب إليه خلق العالم من بين هذه الآلهة العاتية ،
فقد أجمعوا ، على كل حال ، على وجوب رد الأمر كله إلى خالق واحد قهار^(١) .

وصار للبراهمة بعد العصر اللويدي السلطان والمنة فثبتوا نظام الطبقات
الذى كانوا قد أقاموه من قبل ، ووضع قديسهم الأعظم منو شرائعه وبقه الذى غدا
مستور الهند وفنونها الأساسى فى كلفة نواحي الحياة بها .

وظهر فى هذا العصر ، قبل الميلاد بقرون أربعة ، ملاحم المهابهارتا
والراماينا . والأولى تشتمل اليوم على قرابة ربع المليون بيت من الشعر فى حين
تضم الثانية بين دفتيها ثمانية وأربعين ألف بيت ، أى أضعاف أضعاف المائة هو
ميروس : فهذا كانتا أضخم آثار العالم الأدبية القديمة على الإطلاق.

ولا يستقيم مع العقل القول بكتابة هذه الأسفار فى بضع سنين . فهى قد
تمرضت ، دون أدنى رية ، إلى إضافة كثيرة غزيرة على كر القرون حتى بلغت
صورتها الأخيرة .

وللمهابةارتا على الخصوص دراسة عظمى عند الهناكة ، كدراسة القرآن عند
المسلمين ، والإنجيل عند أتباع المسيح ، حتى ليعدون قراءة ما يؤسر منها مجلبة
للرحمة والمغفرة .

هذا وتتم شرائع منو على امتيازات للبراهمة لا يرقى إليها الملك نفسه الذى
كان عليه ألا يقطع أمرا دون الرجوع إليهم فيه أو يصير حتى على حاجة لهم .

فهذه الشرائع التى رسمت بكل طائفة من الطوائف حدودا لا تتعداها^(٢) قد
أطلقت فى الوقت نفسه ليدى البراهمة من كل قيد وجعلت لهم زعامة الناس جميعا .

(١) أبو الرحين البيرونى « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للقل أو مردولة » طبع للندن
١٨٨٧ ص ١٢ .

(٢) نص منو ذكر ما ساستر بقه الهندوس الأكبر على أن البرهمى - سيد الطبقات جميعا - هو
المعلم والكاين والقاتضى والوزير الأكبر الذى لا يقضى لملك فى أى شأن بدون رايه ، أما
الأكشترى - وكان الملك من بين الأكشترية - عليه أن يتمم ويقدم القوانين ويقصد ويحمل
السلاح دفاعا عن الوطن ، وأما الويشى عليه أن يتجر ويجمع المال وينفق على رجال الدين
وأهل العلم ، وأما الشودرى عليه أن يقدم هذه الطوائف الثلاث الشرقية . (حضارة الهند) .

فالبرهمى لا يندس بذهب حتى ولو قتل أهل الكون جميعا ، فهم وما يملكون ملكه
يمينه .

ولإباح منو لأبناء الطبقات الثلاث الأولى حق المصاهرة فيما بينهم على قدر ،
حتى إذا ما تجاوزه إلى طبقة الشودرا الذين حرم عليهم مخالطتهم ، انقلبوا منيونين
يصيبهم الخزي فى الدنيا والآخرة .

وكم من شودرى نلّى من الأرض لمحاولته التطلع إلى من هم أعلا منه طبقة .
وكم منهم من جرّع الحميم من الزيت القوار أو قطعت يده لمجرد معارضته للبراهمة .

ولما ما كان من صرامة شرائع منو بشأن استزاج الطبقات ، قد
استطاعت المرأة الهندية بقتتها أن تحطم هذه القيود وتخترق هذه الحواجز فى
أحوال كثيرة كافية لأن تنفى اليوم القول بنقاء نماء لبناء الطبقات العليا .

هكذا أتاح منو بشرائعه ذلك السلطان المطلق والنفوذ الواسع لطبقة الكهنة ظل
براهما على الأرض - رب الكون الذى يحيط بجميع المخلوقات بجسم مؤلف من
عناصر الطبيعة الخمسة - فأخضعوا أتباعهم للنظام مرهوب خشعوا له خشية سوء
المصير فى الآخرة .

وضاق الناس ذراعا بطرود سلطان البراهمة واشتداد وطأتهم عليهم ، حتى
بدت لهم تباشير الخلاص على لدى مصلحين عظميين ظهروا من بينهما فى القرن
السادس قـم وهما مهاتير صاحب الديانة الجينية وكوتا ما يده صاحب البرهنية .

ولقد غصت حياة هذين المصلحين ، اللذين يقس اسميهما ملايين من البشر
اليوم ، أشد الغموض على اللذين تصدوا للكتابة عنهما وعن مبادئهما فلم يجدوا ما
يعتمدون عليه فى الغالب إلا الأساطير .

وعلى حد قول جوستاف لويون ، الذى طاف بالهند سنوات عشرًا باحثًا
ودارسًا ومتقبا حتى لخرج كتابه المشهور عن حضارتها ، فياستثناء للنبي الأكرم
محمد ﷺ ، نجد أن مؤسسى الأديان لم يؤلف سيرهم إلا بعد وفاتهم بزمان طويل
مما أعصر الإطلاع على حياتهم إطلاعا صحيحا^(١) .

(١) حضارة الهند ص ٢٤٤ .

والجينية ، أى عقيدة قهر النفس ، هى أسبق فى الظهور من البوذية . وفيها ينظر نبيها مهابير (أى البطل العظيم) إلى الحياة بأنها لحظة على المرء أن يتخلص منها بنعمة الانتحار البطي جوعاً لينال سر الوجود ، ويدرك الحقيقة المجردة للنفس لا تتكشف إلا للمواصلين . ذلك أن الحقيقة والمعرفة عند أهل الدنيا المتعلقين بأهذاب الحياة فيها لا تتجاوز النسبى فى الزمان والمكان فيها ، فما هو عند فريق منهم حق محسوب هو عند غيرهم باطل معلوم فى الغالب (١) .

وطريق الخلاص عند الجينيين يقتضى الامتناع عن إيذاء أى كائن حى أو جماد فالمعادن والحجارة والأشجار لها بدورها أرواح كامنة فيها ، حتى امتنعوا عن ممارسة أى عمل من الأعمال وغطوا قواهم بأيديهم كى لا تتسرب إليها كائنات من الهواء تقتل ، وكتسوا الأرض برفق زائد أمامهم ومن تحتهم خوفاً القضاء على ما يصرح فيها من هوام حين يشون وحين يجلسون أو يرقدون . يفعلون ذلك كله إلى أن يتم لهم أعظم انتصار تظهر به الروح على إرادة الحياة وهو الانتحار البطي جوعاً .

هذا وحياة الهند وعقيدته كما ترويها الأساطير تلتق فى كثير وسيرة المسيح بن مريم وتعاليمه . فهوذا (البد) قد ولد كعيسى عند جذع شجرة (٢) مثمرة ، وأشرقت السماء بنور ربه عند مولده ، وسمع الأصم ونطق الأكم وأقبل الملوك من أقصى الأرض يرحبون بمقدمة . وهو يماثل عيسى عليه السلام فى الصيام فى البرية ومحاولة الشيطان أن يغويه . هذا كما نرى كلتا الديانتين تدعوا إلى أن تغلب المرء على غضبه بالكنم والصفو ، ويزيل الشر بالخير والكرهية بالحب . بل لقد استخدم البوذيون الماء المقدس والبخور وأضاعوا معابدهم بالشموع ، كما ابتدعوا للرهبانة فارتنى رجالها مسوحاً خاصاً بهم ، وحملوا المسابيح واعتكفوا بالأديرة ، وتقبلوا الاعتراف من المؤمنين ، قبل أن يفعل أتباع عيسى ذلك كله قرون عدة (٣) .

(١) الهند وجيراتها وهى الجزء الثالث من قصة الحضارة لبول ديولايت ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود ص ٥٩ .

(٢) يذكر الأستاذ جومستد لويون أيضاً فى كتابه ص ٢٢٤ نقلاً عن الأساطير الهندية أن البد قد ولد من لم عزاء كذلك .

(٣) الهند وجيراتها ص ١٩٨

وإذا كان مبلغ علم هؤلاء الكتّاب في ذلك لا يحو ما وقفوا عليه في الأساطير الغامضة، فلا يجوز لنا أن نصل بأقوالهم إلى نتائج إيجابية عن مبلغ دينونه إحدى هاتين العقيدتين للأخرى، هو ليس من موضوعنا على كل حال.

ويتفق البد مع مهاتير في إنكار وجود خالق للعالم وأن الموجودات كلها ليست إلا وهم وظواهر باطلة فانية، بأن الحديث عن الكون وهل هو متناه أو لا متناهيا، والروح وامتزاج النفس والبدن أو انفصالها ما هو إلا أسطورة وخرافة من خرافات الفلاسفة . وكذلك أفكر البد القضاء والقدر وقال بأن مصير كل حي منوط بسلوكه الذي قد يقوده إما إلى السعادة أو إلى الشقاء ، فلا آخره ولا جنة ولا سقر بحميم .

على أنه ، أي البد ما يلبث أن يختلف مع سائفة في مسألة تعذيب النفس الذي أدى به حين مارسه إلى الشعور بالغرور فكاد يقصيه عن الطريق لبلوغ المعرفة وسلم بوجود الحياة على أن يكبح الإنسان جماح شهواته الذاتية ماصياً إلى الخير المجرد دون سواء ، إذ أن كل لذة تحمل في طياتها سماً هو الألم الذي يرجحها .

وسفر البد من البراهمة سخرية شديدة هزت من كياناتهم حين أطن بأن الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت مسائل لا تستحق النظر وأن القرابين والأدعية والتمائم إن هي إلا من صناعة للكهنة . كما هاجم نظام الطبقات ضمناً حين صرح بأن الناس ، أشرافهم وأتباعهم وأغبياءهم كلهم سواء .

وقضى على الجينية بقلة الانتشار ما تدعو إليه من تطرف بالغ في التشكف والزهد حرم على أتباعها التملك والزواج والتكثر بالثياب^(١) . فليس لها اليوم بالهند

(١) التملك الحق هو الذي يقهر جميع مشاعره فلا يشعر بالحر أو البارد . والمرء طالما يتذكر أنه عار أو هناك خير أو شر ، حسن أو قبح ، فسمناه أنه لا يزال متعلقاً بالدينيا وما فيها فلا يغزو بالنجاة والشعور بالحياة من المرء يتضمن تصور الإثم . فترك اللباس هو ترك الإثم وقد كان آدم وحواء يعيشان في الجنة عريانين بظهر كمال ، حتى أكلا ، بفعل الشيطان من شجرة العلم والخير والشر فافرجا من جلته .

إلا أتباع ، (دون المليون عداً) يتناقصون بالتدريج . ولا يلبذ الثياب منهم إلا كسد يسوم المتقون والغالب أن ما كان يصمد إليه غاندى زعيم الهاندة الأكبر من التطهير بالصوم الشاق والسير فى خرقه بسيطة ، لا تستر إلا عورته ، لم يكن إلا أثر من آثار هذه العقيدة .

وفى الوقت الذى لم يلبه البراهمة فيه الجينية التى لم تكن بذات خطر جدى بالنسبة لهم ، انصرفوا انصرافاً نشيطاً حازماً إلى العمل على تقويض صرح البوذية المتسامحة التى غدت تتلوى سلطنتهم حتى أحدثت تغييرات غير قابلة فى نظم الهند الاجتماعية والسياسية بما صار لها من أتباع كثيرين ، فما زالوا بها حتى أفلحوا على مر السنين فى تقويض نفوذها بالهند لتلقى قدراً كبيراً من الرواج فى بورما وبلاد الصين واليابان ولتثبت من بعد ذلك .

ذلك أن رؤساء البراهمة صدوا إلى إدخال قدر غير يسير من التطور والتسامح فى شعائرهم ، فى الوقت الذى انصرف فيه سدة البوذية عن مبادئها الأولى المبسطة إلى مستحدثات معتدة فحومها على عقيدتهم ، وراحوا ينشُدون لأنفسهم ، بفرور ، نظير ما للبراهمة من مجد وسلطان ، حتى وسعوا ، بامتيازاتهم التى ادعواها لأنفسهم ، الثقة لما بينهم وبين أتباعهم الذين ما لبثوا أن جذبهم تسلمح البراهمة الطارئ وتبذيرهم المحكم حين أخذوا للبدن نفسه مكثاً بين آلهتهم هو ومهاوير ، وأعلنوا لهم كسبتهم ، فراحوا يعبدونها وكفلوا قد نهو عن ذلك من قبل .

وهكذا ظهرت برهمة جديدة لا تختلف عن البرهمة القديمة فى كثير . ومساعدوا على استرداد أصحابها لسلطنتهم القديم ما وجدوه عند الأمراء الراجبوتيين من مناصرة وتشجيع وتضديد يسر لهم نشر مدارسهم فى كل مكان ، حتى سادت عقيدتهم لهند كلها لا يضيرها وجود تلك القلة الجينية الضئيلة .

ودين الهاندة اليوم السائد هذا ، للأوهية فيه ثلاث صور رئيسية هى :

براهما الخالق سيد الآلهة والمسيطر على العالم كله والذى يحيط بجميع الكائنات فتدوم بعد أن تولد ثم تتحل على ما يشابه مذهب وحدة الوجود ، ووشنو الحافظ إله الحب الذى أحيا الموتى وألبرأ الأكمة والأبرص ثم صعد إلى السماء

ليعود، إلى الناس من جديد قبل النشور ليهديهم إلى الحق ، وشيوا المنمر الموكول به
قيص أرواح الناس وخلصها من أبدانهم . وإلى جانب هؤلاء الآلهة فهناك ملايين
من الهة آخرين ترحم بها بالهند بعضها تقرب إلى الشياطين وبعضها تقرب إلى
الملائكة ومنها ما هو في صورة الطير أو الحيوان والهوم وتجمعها كلها كالشبكة
لا حدود لها تتماخ الأرواح فيها .

والهندوكية المشتركة ، أى البرهمية الجديدة ، والشبوية والوشلوية وجميعها
مستمدة من البرهمية الأولى ، لم يقف الأمر عند تفرعها إلى مذاهب لا حصر لها ،
هى اليوم فى عددها أشبه بلوراق شجرة باسقة كثيفة الأغصان أيام الربيع ، حتى
ذهب أتباع كل مذهب منها يتشددون فى أحكامهم فلا يطاعون غيرهم أو
يجالسونهم^(١).

لغات الهند :

لم يكن عجباً وفى شبه القارة الهندو باكستانية من المذاهب والعقائد ما لا
يدخل تحت حصر أن يروج فيه أكثر من مائتين من اللغات وما يتفرع عنها من
لهجات تربو على الثلاثمائة .

وترد لغات الهند عموماً إلى أصليين اثنين :

الأصل الأرى وإليه ترجع أغلب لغات الشمال وقسم من لغات الوسط والأصل
الدروى وإليه ترد أغلب لغات الجنوب ومناطق متفرقة فى الوسط والشرق.

والمنسكربتية هى أشهر لغات الهند الأرية القديمة وأعرسها ، ونها كتبت
أسفار الهند المقدسة القديمة. ولقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كاد يكون
استعمالها فيه مقصوراً على رجال الدين والعلماء ، ثم كتب لها من بعد ذلك قدر
من الرواج بفضل تشجيع بعض سلاطين المسلمين . حتى إذا جاء « أكبر » ،
أعظم سلاطين الدولة المغولية ، ينادى بأن الهند للهند ، هناك ومسلمين ،
صادقت هذه اللغة بدورها رواجاً كبيراً إذ راح هذا السلطان الثابه يحض الهنداكة

(١) حضارة الهند ص ٦١١ .

على الاستغلال بأدبهم وإحياء تراثهم في نهضته العلمية الكبرى التي لم يعرف العالم لها نظيراً في عصره . وهي اليوم ، أي المستكرتية ، لغة جمهورية الهند الحديثة . ويصنفها بعض اللغويين الأعلام بأنها فضلاً عن اتحادها في أصولها مع أغلب اللغات الأوروبية فليها لكل من لغة اليونان ولوسع من لغة الرومان أي اللاتينية . وأدق من كليهما^(١) .

وتروج في الدكن والجنوب لغة تأمل وتلجو وهما من اللغات الضرورية القديمة .

وأعظم لغات شبه القارة الهند وباكستانية انتشاراً هي الأوردوية وهي لغة آرية وضع قواعدها ونحوها علماء المسلمين . وكلمة أوردو معناها المعسكر . والمقصود هنا معسكر أسرى المغول والترك المسلمين حول دهلي حيث نشأت هذه اللغة فبدلت بالظهور في القرن العاشر الهجري . وألفاظها مزيج من العربية والمسلكتية والفارسية والتركية . وهي في قواعدها آرية خالصة ، وتكتب بالحروف العربية مع الإضافات الفارسية^(٢) .

ولا يزال للفارسية سوق راجحة في الأوساط الإسلامية وما برح المجوس ، الذين يعرفون بالبارسيين ، محتفظين في الغالب بلغتهم البهلوية القديمة . وهم لى غرب البلاد على قلتهم يحنون بين أصحاب الثراء الواسع . هذا إلى جانب بعض اللغات الآسيوية والأوروبية الأخرى التي تسمع هنا وهناك بالهند .

تاريخ الهند القديمة وحضارتها .

كان يشبه القارة الهندوباكستانية حضارات مزدهرة أيام كان المصريون يقيمون أهراماتهم قبل ميلاد المسيح بقرن ثلاثين . فقد كشفت بعثة مارشال في حفرياتها عند « موهنجو دارو » في غرب السند عام ١٩٢٤م عن آثار ، يرجع

(١) Elphinstone, M. the History of India London 1911 p. 161

(٢) هي الباء المثناة أي التي تكتب بنقط ثلاث من تحتها . ثم الجيم المثناة والزاى والكاف الفارسية .

تاريخها إلى عصر الأهرامات ، لمدنية عريقة كانت تصود البلاد إذ ذلك ، وكان أصحابها على صلات اقتصادية وثقافية وسياسية ببلبل في الغالب . وهذه المدن الأربعة أو الخمسة التي كشفت عنها هذه البعثة ، والتي كان يقوم بعضها فوق بعض ، حوت دوراً من طبقات عدة قولها الأجر المتين ، وإلى جوارها الحاصلات والأبار ، وفيها أنية من خزف مصقول ، وأسلحة دقيقة ، وزخارف رقيقة من الخشب والمعدن ، وأدوات للزينة مما لا تروج إلا في أرقى المجتمعات^(١).

على أن قلّة وثائق الهند القديمة التاريخية صوماً ، وصعوبة الاستدلال على ماضيها من نقوشها وأطلالها ، قد أظهر المؤرخين على أن لا معدى لهم من أن يستشفوا من كتب هذه البلاد الدينية القيمة وملاحمها ، وما حوت من أكداش الأساطير ، ما يكشف عن بعض نواحي التاريخ الهندى القديم وأحدثه .

وحمد جمهرة المؤرخين . لمؤرخى المسلمين ورحالتهم جهدهم العلمى البارز الموقف حمداً جعلهم يقررون بأن أظهر أدوار الهند التاريخية^(٢) لم يبدأ إلا بتكوينات هؤلاء الطماء الذين صحبوا الفتوحات الإسلامية فى الهند ، ولعلنى بها تلك الفتوحات التي بدأها محمود الغزنوى وخلفاؤه فأخضعوا أغلب شبه القارة الهندية لحكمهم ، بعد أن كان العرب قدقتصروا أمرهم فى القرن الأول الهجرى على احتلال بعض ولايات متدنية صغيرة . وستحدث عن ذلك كله تفصيلاً فى الصفحات التالية.

وعاون كذلك على استجلاء غوامض تاريخ الهند القديم ما وصلنا من تكوينات بعض الرحالة الذين زاروا الهند فى القديم واطلعوا إطلاعاً واسعاً على أحوالها ، أمثال ميشاستين ، سفير الملوكيين الإغريق لدى دولة الموريا الهندية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم الحاجبين الصينيين البلائيين فاميان وهيون تمسليان اللذان طوفاً بالهند فى القرنين الخامس والسادس الميلادى على التوالى .

(١) Dumbor, pp. 1-3, 583.

(٢) حضارة الهند ص ٢٠٦.

ولا نعرف من تاريخ الهند قبل نفاذ الإسكندر المقدوني إلى هذه البلاد إلا استيلاء الفرس على إقليم السند والقسم الشمالي العربي من هذه البلاد فلقاموا به قربين من الرمن واستخدموا سكانه وقبولهم في جيوشهم فحاربوا بهم اليوسا في القرن الخامس قبل الميلاد .

واكتسح الإسكندر بلاد فارس ثم بعد من أرض كابل إلى السند فدخله عام ٣٢٦ ق.م ، بعد أن عبر الهند كوش ، فطلق يتجول بالبنجاب عاماً بأكمله . حتى إذا ما عزم على المضى في الفتح كلما بعدما هزم يورس ملك الهند ، ليبلغ البحر في ناحية الشرق فيقيم له إمبراطورية هندية ، عارضة رجاله ، الذين لم يصبروا على احتمال حر هذه البلاد مع ما عاودهم من الحنين إلى بلادهم ، فاستدار بهم عائد إلى وطنه ، عبر بلوختان ، فوافاه أجله في الطريق قبل أن يبلغه

وكان من أثر فتح الإسكندر هذا اتصال الهند بثقافة الإغريق وحضارتهم اتصالاً وثيقاً ، أما ما أسسه بعض قادته ، ومن تخلف معهم من رجالهم ، من بعض الإمارات بالسند ، فلم يعمّر إلا عدد سنين .

وظهر بالهند ، أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، إمبراطورية الموريا الهندية التي اتخذت لها الطلوس شعاراً وكانت رقعته تمتد من البنغال إلى الهند كوش وتضم معها مالوه والكجرات وأرض كابل.

هذا وكان جندر لكها (٣٢١ - ٢٩٦ ق.م) مؤسس هذه الدولة قد أقام بدوره زمناً بمعسكر الإسكندر ، إذا كان أبوه من زعماء البنجاب الذين وقعوا في أسر القائد المقدوني ، ثم نكل بالحاميات الإغريقية من بعد ذلك وطلق يوسع من رقعة ملكه متخذاً من بنكه حاضرة له

وذا ع صبت هذا الملك الهندي ، حتى بعث إليه نيكاكور الملوكي ، الذي ملك بعد وفاة الإسكندر سوريه ويابل ، سفيره ميفاستين فاطلع واسعاً على أحوال هذه البلاد وطباع أهلها وعاداتها ، حتى أبعده ما وصل إلينا من مذكراته ، من أهم مصادر الهند التاريخية القديمة (١).

وقد أشاد هذا المبعوث الإغريقي بما كان عليه قصر الملك من الروعة
والعمامة وما مكان يزينه من نقوش وجواهر وعمد طليت بالذهب . كما وصف
الحضارة الهندية التي كانت قائمة إذ ذاك بأنه تساوى لأختها اليونانية مساواة تامة .
وأتى الثناء الكثير على شيوع الفضائل ونصرة الحق بين السكان عموماً ، وانعدام
الرق عندهم برغم قيام نظام الطبقات فيما بينهم^(١) .

وكان من أهداف هذا السفير العمل على تحويل مجرى التجارة الهندية إلى
بلاد الشام ، عبر مملكة السلوقيين ، بدلاً من الطريق البحرى الذى ينتهى بها إلى
مصر فتتربى من ورائه . ودهمت الهند فى أواخر عصر هذا الملك مجاعات شديدة
اعتزل الحكم بسببها ، فترهب مدى اثنتى عشر عاماً قتل نفسه فى آخرها جوعاً على
مذهب مهائير .

ويستمر المؤرخون حفيدة الملك الفيلسوف أروكا (أشول : ٢٧١ - ٢٣١ ق-م)
أول حاكم واضح الشخصية فى تاريخ الهند القديم^(٢) . وبه يبدأ تاريخ المعمارى ؛
ولا تزال بهذه البلاد حتى اليوم كثير من عمده التى أقامها فى أنحاء متفرقة بها
لتنقش عليها مراسيمه ، هذا فضلاً عن قصوره التى وصفها الرحالة فاهيان بأنها
كانت من الأعاجيب .

وتروى الأساطير أنه قتل أخوته المائة الذين ولدوا لأبيه من ست عشرة
زوجة ليأمن بذلك منافستهم له فما عدا أن ندم على فعلته ، فوقف حياته من بعد ذلك
على التعبد والعبادة بأمر الدين حتى صار داعية البوذية الأكبر الذى أحيا شعائرها
من جديد . فقد أمر عماله فى كافة أنحاء بلاده أن ينظروا إلى رعاياهم نظرتهم إلى
أبنائهم فيعاملونهم بالحنى ، كما بنى دوراً للشفاء وملاجئ للعجزة من الإنسان
والحيوان ، ثم بعث بمبشرين هذه العقيدة إلى خارج الهند فبلغوا مصر واليونان
وموريا وبلاد العرب ، كما انتشروا فى أواسط آسيا وجاوا والتبت والصين واليابان .
وفى عهد هذا الملك عرفت الهند للنقود كأداة تعامل لأول مرة فى تاريخها .

(1) Havell, E.B. The History of Arayan Rula in India .pp. 75-83.

(2) Havell, P.89.

وانتهى أمر أسرة الموريا هذه عام ١٨٤ ق.م على ليدى أسرة اندهارا التسمى
حلفتها فى بلادها .

وظهرت قبائل السكا على حدود الهند الشمالية الغربية بعد قليل ، وانتشأت لها
إمارات فى الشمال والوسط ، ولكن أسرة اندهارا ما عثمت أن تصدت لستاريتهم^(١)
فأنزلت بهم هزائم كثيرة .

كذلك عبرت قبائل كوشان السيثة حدود الهند الغربية وتوغلت فى شمال
الهند حتى بنارس . وفى عهد ملكهم كتشكا ضمت دولتهم أرض كابل والبنجاب
والراجبوتانا .

ويعد هذا الملك ثاى حماة البوذية فى الهند بعد أزوكا^(٢) . فقد جمع مجلساً من
كهنة البوذية الكبار عهد إليهم بتكوين سنن البوذية فبلغت ثلاثمائة ألف نص رفعوا
فيها اليد إلى مصاف الآلهة .

وفى عهد هذا الملك الذى كان على اتصال بالرومان ، راجت الحياة العقلية
رواجاً كبيراً وازدهرت العمارة والتحت.

ويغيم تاريخ الهند حتى بداية القرن الرابع الميلادى لتظهر أسرة كيتا الثانية
على مسرح الأحداث فى شبه القارة ، انتطرد ، بفضل بطولة ثاى ملوكها بكر
ماديت ، السيث أصحاب كتشكا من الهند ، وتبعد عن حدودها متتاربة السكا ، ثم
تسبط نفوذها من بعد ذلك فى الشمال والوسط والغرب وتخضع لولايتها الدكس
والبنغال وآسام .

وقد تحدث الرحالة الصينى فاهيان فى مذكراته عن ملوك هذه الأسرة،
ووصف بلاطهم وما كان به من الفلاسفة والشعراء وكتاب للمسرحيات^(٣).

(١) المسترب هو حاكم الإقليم عند الفرس لقماء ، وعظم أخذ البابليين والإغريق .

(2) Morchand, W. Ashok history of India. London 1986 p. 76

(3) Dunbar, India. Pp.70-72.

وخلب لب هذه الحاجاج البيوذى ما رأى بالهند إذ ذلك من مدن كبرىة تصج بالحركة والسكان ، وما صادفه من دور للشفاء مجانية عديدة ورباطات كثيرة ، بل ومدارس وجامعات تزدهم بطلماهم وطلابهم ، ومن بينها جامعة تكسبلاً السنوية ومدرستها الطبية المشهورة . هذا فضلاً عن شيوخ العلل بين الناس ورخاء العيش .

وفى عهد هذه الأسرة نعم البراممة برعاية ردت لهم سلطانهم ونفوذهم القديم الذى كان أشوكا قد حد منه كثيراً ، فلهوا بالتالى بحيون تقاليدهم الأدبية من جديد فكتبوا للمهابهارتا والراماينا فى صورتيهما الحاضرة فى الغالب^(١) .

وظلت هذه الأسرة تحكم الهند حتى أقبل الهون من بلاد ما وراء النهر فى القرن الخامس الميلادى فقتضوا عليها فى الوقت الذى كانت فيه تقاتل أخرى منهم تنوغل ، بقيادة زعيمهم الأكبر أوتلا ، بأوروبا .

وأقام عرشاً ، وكون من سلالة الكوبتين ، إمبراطورية واسعة له فى القرن السابع الميلادى شملت آسام والكجرات مع شمال الهند كله . وكان هذا الملك شديد الرفق برعاياه فحد من سلطان البراممة وأخذ بيد البوذية من جديد . ويرى طبه أنه كان يتنازل لشعبه من كل ثروته مرة فى كل أربع سنوات . وقد استغللت هباته فى إحدى هذه المرات كل أمواله وأملكه حتى ذهب يستجدى أختاً له رداء قديماً ليتكثر به ، فما كاد يتناولها منها حتى سجد للبد حمداً وشكراً^(٢) .

ويذكر الحاجاج الصينى الثانى هيون تسوانغ الكثير عن فضائل هذا الملك العباد الذى انتزع الملك من الهون ، ويشيد بما كانت عليه حاضرتة فوج من الروعة والفخامة . وهذه المدينة التى كانت حاضرة أسرة كيتا من قبل ، ولقى ذكرها بطليموس الجغرافى عام ٤٠ م باسم كتوجيا ، كما أعجب بها محمود الغزنوى فاتح الهندستان إعجاباً شديداً ، كانت تقع إلى الشرق من أكرا الحالية وعلى مسيرة كيلو مترات قليلة من نهر الكنج

(١) الهند وجيرانها ١١١ .

(2) Ischwari Prasad Medieval India P.XXIX.

وافترط ملك هرشا عقب وفاته مباشرة . ذلك أن خلفاءه ، لم يستطيعوا
اضعفهم أن يفتوا في وجه قبائل الهون التي طفتت تنفق من جديد على أرض
الهند، فضريت القوضى أطناها في أنحاء البلاد ، وقام بين أمراتها ما يشبه الحرب
الأهلية التي أخذ البراهمة يذكون نيرانها طلباً لزيادة نفوذهم وإخضاع اليونانية
لسلطاتهم .

واستطاعت إمارة قنوج ، برغم انصلاح الجزء الأكبر من إمبراطورية هرشا
الواسعة عنها ، أن تحتفظ بمركز الصدارة في الشمال الهندي كله . وظلت تقاوم
غزوات أمراء كشمير والبنغال وما حولها حتى نهض بها مهير بهوج في القرن
التاسع الميلادي فاسترد كثيراً من أملاك هرشا السابقة في البنجاب والدواب وعند
كواليار . وبدأت الغزوات الإسلامية تترى على هذه الإمارة منذ أوائل القرن الحادي
عشر الميلادي فلم يشارف على نهايته حتى دخلت في حوزة المسلمين .

كذلك بقي بسال ديوا يسيطر هو وأحفاده على إمارة دهلي ، التي كانت تمتد
فيما بين الهماليا والونداهيا ، حتى لقتحمها الغوريون ، خلفاء الغزنويين ، عليهم
وجعلوا من مدينتهم الكبرى حاضرة لملكهم .

أما مالوه فكان قد نهض بها بدورها راجا كرمنا في القرن التاسع الميلادي
وأشتهر خلفه مونكا ، إلى جانب بطولاته في الحرب ، بتشجيعه ورعايته للفنون
والآداب السنسكريتية. وقد اعتنق آخر حكام مالوه الهنداكة الإسلام على أيدي
الخليجيين في بداية القرن الرابع عشر الميلادي .

هذا وقد اشتهر من بين حكام الكجرات « مولارجا » الذي بنى معبد سومنات
وخليفته راجا بهيما الذي حاول أن يحمي هذا المعبد الشهير بوقوفه في وجه محمود
الغزنوي الذي دمره عن آخره ، وقد ضم الخليجيون إلى أملاكهم أيضاً هذه الولاية
التي تعد أهم مراكز التجارة الهندية .

ويرغم أن هرشا لم يستطع فتح إقليم كشمير فإنه أفلح في حمل أصحابه على
قبول اليونانية في بلادهم .

وأتيح لهذه الإمارة في القرن الثامن الميلادي أن توسع من رقعتها حتى
اشتهر أمرها ، قامت بينها وبين الصين علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية .

على أن وعورتها وحصانة موقعها الطبيعي لم تمنعها على غزاة المسلمين ،
فاجتاحها جيوش محمود الغزنوي الذي يرد إليه الفضل في نشر الإسلام بها .
وسقط نجم بهار والبنغال بعد انفصالهما عن ملك هرشا ، فحكمهم أسرتا
بالاوسنا على التوالي .

وبسّطت الأولى منهما نفوذها على أغلب الشمال الهندي بعض الوقت وكان
الخليجون هم أول غزاة من المسلمين نفذوا إلى هاتين الإمارتين .

أما إقليم السند ، وهو آخر الأقاليم الشمالية التي نتحدث عنها ، فقد خضع
طويلاً لقبائل السكا الآرية حتى انتزعه منهم الملك البرهمي داهر ، وهو الذي وجدته
العرب المسلمون على هذا الإقليم عند غزوه له .

ويشير الرحالة الصيني هيون تسوانغ إلى حكم الأمراء الراجبوتيين في الدكن
. وقد اشتهر من بينهم أسرة الشالوكيين ، إذ استطاع بايكسين الثاني ، أحد ملوكها ،
أن يقف في وجه هرشا سالف الذكر ويفوز الكجرات ومالوه والراجبوتكسا ، كما
أنشأ علاقات ود وصداقة مع ملوك الفرس والسامانيين . وتعد النقوش التي ظهرت
في عهده من أعظم آثار الهند الفنية حتى اليوم .

وخلف الشالوكيين على عرش الدكن أسرة راشتركوتا في القرن الثامن
الميلادي ، وقد قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية⁽¹⁾ . قوية ، وكان
تجارهم حين يقدون إلى بلاد الدكن يقابلون بالحفاوة والترحاب .

وبقيت الدكن تستعصى على غزاة المسلمين حتى اجتاحتها الخليجون الذين
بلغوا بفتحها شبة القارة الهندية جنوباً .

والأمراء الراجبوتيون الذين حكموا في إمارات الشمال والدكن ، والذين
ذاعت شهرتهم وبطولتهم في التاريخ الهندي والأساطير على السواء ، لم يصل

(1) Prasad, India pp.30-03.

الباحثون حتى اليوم إلى حقيقة أصلهم . والرأى الغلاب أنهم من أصلااب الأبطال
الأريين الذين سبوا الهون إلى أرض الهند فحكموا . وقد اأتموا من واه الفزاة
المسلمين آخر الأمر بالمنطقة الصحراوية الوعة بصحراء التار التى عرفت
باسمهم كما تعرف كذلك براجستان أى أرض الملوك . وترد الأساطير الهندية
نشانهم إلى تزواج القمر بالشمس .

على أن بطولة هؤلاء الأمراء هذه لم تمنعهم من الانغماس فى تيار
المنازعات الداخلية ، شأنهم فى ذلك شأن الأمراء الإقطاعيين فى كل زمان ومكان ،
فأثروا فى الغالب الاندفاع وراء أطماعهم على الاتحاد والتآزر لدفع الفزاة
والفاتحين من الهند ووطنهم الأكبر .

وتاريخ جنوب الهند أشد غوضاً من تاريخ شمالها الذى لم يرتبط به إلا
عرضاء ولا تشير كتب الشمال وملاحمه ، بل ونقوشه وآثاره ، إلى الجنوب إلا
إشارات قليلة ، وجدت فى مخلفات عصر آشوكا وبعض مخلفات أخرى ، تؤيد
قولم ممالك بهذا القسم الهندى قبل الميلاد بقرون قليلة . وما وجد من كتابات
التمول والتندجو عن هذا الجنوب لا يسبق القرن الثامن الميلادى فى القسم ، ولا
يجاوز ما به من نقوش وآثار القرن الخامس .

ويرجع ظهور ممالك الجنوب الكبرى ، وهى بنديا وكولا وجيرا ، إلى ما قبل
ميلاد المسح بقليل . وكانت الأولى تقع بأكصى الجنوب ، وكانت على قدر كبير من
الثراء وعلى اتصال اقتصادى وثيق بالمصريين والرومان كما كانت عاصمتها
مأدوراً من أجل مدن الهند إذ ذاك . وإلى الشمال منها والشرق كانت تقوم إمارة
كولا ، فى حين كانت جيرا تقع إلى الشمال من الأولى وإلى الغرب من الثانية .

ويمكن حكام كولا من الاستيلاء على بنديا ويسط سلطانهم على جزيرة
ميلان جنوباً ، فى حين امتد نفوذهم فى الشمال حتى البنغال وأوده وأن لم يعمر
طويلاً هناك .

وبلغت جيرا بدورها شأوا عظيماً فى القرنين الرابع والخامس ، فلم يهل
لثامن الميلادى حتى تجاوز نفوذها نهر تريدا .

ولأخذ وسط الهند وجنوبها يتعرض الغزو الإسلامى ابتداء من أيام الخلاجيين حتى استقل أمراء من المسلمين بسلطنة بهمنى الدكنية فى القرن الرابع عشر الميلادى ليقوم من ورائهم بالجنوب ، على أنقاض إماراته الثلاث سالفه الذكر ، إمارة فيايفانكر الهندوكية أعظم الإمارات التى عرفها الجنوب . ومنع من القضاء عليها ما كان من اقتتال خلفاء سلطنة بهمنى فيما بينهم ، فلبثت وبعض دويلات هندوكية فى الجنوب تنعم بالنفوذ والاستقلال حتى بسط أورنگ زيب المغولى سلطانه على شبه القارة الهندية بأكمله .

هذا وقد كان لقضاء الهنود حضارة عريقة ومننية رفيعة بلغت من الرقى درجة عالية ، فلم تكن أقل شأنًا من نظائرها عند اليونان ومصر فى القديم .

وتشير كتب الهند القديمة إلى قيام النظام الجمهورى ، وتحدث عن الوزراء والمجالس النيابية والتشريع والقانون والإدارة حديثًا ديموقراطيًا ، وتصنف الملك الهندى بأنه فى حقيقته خادم لقومه يحصل على أجره ، وكان السدس السنوى من الحاصلات ، يعمل به على رفاهيتهم^(١) .

هذا ولما كانت مساحة البلاد الواسعة لا تمكن الحكومة المركزية من الاضطلاع بشئون السكان فى كل مكان ، فقد أدى ذلك تلقائيًا إلى قيام مجتمعات صغيرة متماسكة بالقرى ترعى شئون نفسها بنفسها فى وحدة تامة لا يعلوها سوى الدولة .

فكانت القرية منذ القدم ، بنظامها السياسى والاجتماعى هذا ، وطن الهندوكى الذى يقوم على كافة شئونه الدنيوية والدينية . فهو حكومته وقاضيه وكاهنه وطبيبه وشاعره ، ومن حوله أبناء عشيرته الذين يشعرون بأنه واحد منهم ، فهو يشترك معهم فى العمل بأرض القرية التى هى فى الغالب مشاع بينهم ، وله من بعد ذلك نصيب من ثمارها أو دخلها ، عن طريق العمل أو عن طريق الميراث .

(١) Pizned, India PP. XXIII XXXIV.

ولم يتعرض الغزاة وحكوماتهم في الغالب لهذا النظام ، فلم يكن يحويهم إلا دفع الضرائب لهم ، وهو ما كان يهون على الفلاح الهنوكي أمره من بعد ذلك^(١). وكانت حالة الفلاح الهنوكي عموماً تتراوح بين الميسرة والمصرة وفقاً لما يطالب به من ضرائب .

والمرأة الهندية كان لها في مجتمعات بلادها القديمة شأن مهم ، فشاركت في الاشتغال بفنون المعرفة ، حتى لا تزال الهند تحتفظ بذكرى جارجي التي كان لها شرف الاختراع في سلك الفلاسفة القدماء^(٢) وشاركت الهندية كذلك في الدفاع عن بلادها فحاربت غير مرة بجانب صناديد الهند وصعدت فوق الموادق مفضلة الموت حرقاً على الوقوع في أيدي الأعداء .

والمرأة الهندوكية لا تتوانى في الغالب ، ما أتاحت لها الفرصة حتى اليوم ، في أن تحرق نفسها مع جثمان زوجها عن إيمان وشعور بالزهو والشرف بين دعاء القوم وعتاقهم . ولعل مما ساعد على ممارسة عادة المصاة هذه ، ما كان ينتظر الأرملة التي ليس لها ولد ، على الخصوص ، من بؤس وشقاء ، إذ تصوير منبوذة محترقة من الناس جميعاً ؛ فلم يكن لها مناص إذن من سلوك طريق المصاة التي لا تزال تمارس حتى اليوم ما ألفت الناس من الرقابة .

هذا وقد وصل فن العمارة في الهند القديمة إلى ذروة الرقي والجمال الذي تجلّى في معابدها الرائعة وأبنيتها الفخمة فبهر أعين الرحالة والمؤرخين من الإغريق والصينيين والمسلمين الذين زاروا هذه البلاد وأطلعوا على أحوالها .

لما الصناعات الهندية ، من معدنية وخشبية وحجرية وعاجية وجلدية وصوفية وحريرية وقطنية ، لقد بلغت شأواً كبيراً من الأدهار قبل الميلاد بقرون كثيرة . وكان لكل طائفة من أبناء الحرف في الغالب نقابة قوية تنظم شئونهم وتدافع عن حقوقهم .

(١) Le Bon. Pp.637.88

(٢) الهند وجيرانها ص ٢٨ ، ٤٢ .

وحملت قوافل الهند ، ما بين برية وبحرية، منتجات هذه البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد إلى كافة نواحي العالم القديم مباشرة أو بواسطة بلاد الشرق الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، فتيارز المقتلون يسيوف الهند البتسرة ، وتضطرت النساء بعلورها ورفلن في حريها وأزين بلاكها ، ولزحمت الجسوع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلتها في المعركة^(١) .

وكانت الهند إذ ذاك تتناول ما يشبه خطابات الاعتماد والضممان المتعارف عليها في عالم الاقتصاد اليوم ، وتتعامل بالتقود قبل الميلاد بزمان طويل .

ويذكر الرحالة الصيني هيون تسياغ الكثير عن انتشار الجامعات بالهند القديمة ومنها جامعة تاكسيلا التي كانت تشتهر بالبحث العلمي أيام الإسكندر وجامعة يوجين الفلكية وأجلتنا الطبية وبنارس البرهمية وتالاندا البوذية ؛ ويؤوض في حديثه عن الفلسفة الهندية وازدهار العلوم والفنون بهذه البلاد والواقع أن اشتغال الهنود بالعلوم وتقنمهم فيه قديم جداً . فعالمهم آريه بهت ، الذي ترجم العرب كتبه أيام العباسيين ، هو الذي سبق إلى إثبات دوران الأرض حول محورها وأطن عن كرويتها وعال أسباب الكسوف والخسوف^(٢) والاثقلابن والاعتدالين في الفصول الأربعة ؛ كما تحدث عن قومة النسبية التقريبية المستعملة في حساب مساحة الدائرة، ووضع كثيراً من قوانين حساب المثلثات والجبر .

وخلف هذا العالم رياضي آخر يدعى براهما كويتا وطائفة من الفلكيين أسموا العالم إلى اثني عشر شهراً ، وكل شهر إلى ثلاثين يوماً ، وحسبوا بدقة بالغة مواقع النجوم في أفلاكها وبحثوا في قوانين الجاذبية ، كما ابتكروا فكرة السلبية في الجبر، وعالجوا الجنور وقواعد التبادل والتوافق .

وكذلك نبغ الهنود في الكيمياء فصهروا الحديد وبلغوا بالصلب درجة عالية لم يصل إليها غيرهم ، حتى اعتبر الإسكندر هديتهم له منه من أنفس الهدايا فأثرها

(1) Havel; pp. 14 , 75. 130.

(2) Dunder, pp.80-81.

على الذهب والفضة^(١) . ولعل ذلك كان هو مرد شهرة أسلحتهم وسيوفهم . هذا كما تنفذوا في الصباغة والديباغة وصناعة الزجاج والصابون ، وكلسوا وقطروا وحضروا الأملاح على اختلاف أنواعها .

وكما بذ الهند القدماء الإغريق في نواح من الرياضيات كثيرة ، كذلك فاقوهم في العلوم الطبية حتى رأينا ديبوسقورس الطبيب ، الذي عاش بالإسكندرية قبل الميلاد بقرن ، يستخدم كثيراً من المصطلحات الطبية الهندية^(٢) . فقد كانوا على إحاطة تامة بتشريح الجسم وظلوف الأعضاء والمعضلات والنسجة وتركيبها وخواصها ، كما استنبطوا ضروباً من المخدر استعملوا بها على إجراء الجراحات للكثيرة التي كانوا يحتفونها ؛ وضبطوا النسل على طريقة لا يعارضها رجال الدين ، واهتموا إلى لقاح الجدرى قبل الميلاد بخمسة قرون ؛ وتمكنوا من تشخيص المرض بمجرد النظر في بول المريض .

ولا ندعو الحق حين نقول كذلك إن الفلسفة الهندية قد ذاع صيتها قبل أن يشتهر أمر الفلسفة اليونانية بزمان طويل . والمعروف أن فيثاغورث الفيلسوف اليوناني ، الذي عاصر بوذا ، قد شغل بطوم الهند في القرن السادس قبل الميلاد ، أي قبل أن يغزو الإسكندر الهند بأكثر من قرنين . ويروى أن فلاسفة من الهند زاروا أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد وناظروا سقراط فسخروا منه^(٣) .

ومن بين فلاسفة الهند القدامى ، فيما قبل عصر الإسكندر ، الفيلسوف كايلا ، أول من قال بمقدرة العقل الإنساني واستقلاله وحيثه الكاملتين^(٤) .

هذا ولم يكن اشتغال الهند بالأدب السنسكريتية وغيرها من الأدب الهندية الأخرى وسموهم بها ليقل عما فعلوه بالفلسفة . وفي أكناس تراثهم من القصص والملاحم والتمثيلات والشعر ما يشهد بطول باعهم في هذا المضمار .

(١) الهند وجيرانها ص ٢٤٠ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية لبرتراند ، ترجمة المرحوم حمزة طاهر من ٤٠٦ .

(٣) Carratt the legacy of India p.8

(٤) الهند وجيرانها ص ٢٥٢ .

ولقد انفرد أبو الريحان البيروني في العربية بأول وكبير حديث عن قدماء الهنود وحضارتهم ومنذيتهم ، وثبت وجود مبدأ التوحيد عندهم^(١) . وجاء معه ومن قبله ومن بعده إلى هذه البلاد طائفة من مؤرخي المسلمين ورحالتهم ، من أمثال العيني والبيهقي والمسعودي والاصطخري والإدرسي وابن بطوطة وابن حوقل ، فطوفوا بها وأسهبوا في الحديث عنها وعن أحوالها .

على أن توفر مقامات الحضارة والمدينة الكثيرة عند الهنود لم تمنعهم من انقسامهم على أنفسهم وتناحر أمراءهم فيما بينهم على النفوذ والسلطان حتى سقطوا آخر الأمر وبلادهم فريسة غير صعبة للغزاة والفتاحين .

وطبق المسلمون منذ أواخر القرن الأول الهجري ينفذون إلى هذه البلاد فاتحين ، ولم يبدأ الغزو الإسلامي الجدي لشبه القارة الهندية إلا على أيدي الغزنويين في أواخر القرن الرابع الهجري ، فدخل تارخ هذه البلاد في عهد جديد وبدأ في أرضها الصراع بين القديم والحديث .

ولقد وهم كثير من أهل الرأي في الهند ، حين قبل طوبى المسلمين فاتحين ، أن هؤلاء الغزاة سينتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه مصير من سبقهم من اليونان والهنون وغيرهم من الأمم التي ولدت إلى هذه البلاد فاندثرت جميعها في بوتقة شبه القارة .

فما لبث هؤلاء المسلمون أن بلغ نفوذهم بالهند نفس الأثر العميق الذي وصلته في جميع الأقطار التي فتحوها ، وهو ما لم يرق إليه اليونان أو الرومان من قبل أو يبلغوه . فتم لهم بهذه البلاد نظير ما تم لهم بوادي النيل حيث حاولوا شعباً ، كانت له أكم الحضارات ، عن دينه ولغته وفنونه وثقافته إلى دينهم ولغتهم وثقافتهم وفنونهم . وآية ذلك أنه شبه القارة الهندية اليوم ما يزيد على المائة مليون من المسلمين هندوكي الأصل في الغالب . هذا كما نجد كثرة بالغة من السكان جميعاً تتحدث الأوروبية التي هي من مشتقات لغات المسلمين .

(١) انظر كتابه : « ذكر ما لهند من مقولة مقبولة المقل أو مرذولة » ، وقد تناولته طبعات كثيرة في الشرق والغرب ، ص ١٣ من طبعة زلخار بلندن ١٨٨٧ « واعتقاد الهند في الله سبحانه أنه الولد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء .. » .

وكان مما ساعد على إقبال هذه الكثرة الغالبة من الهنداكة على الدخول فسي دين الإسلام ما وجوده فيه من عقيدة فطرة لا طبقات عندها ولا تفاضل بين أفرادها إلا بالتقوى^(١) .

والفتح الإسلامي للهند ، باعتراف جمهور المؤرخين العنول ومن بينهم علماء الهنداكة ، كان فيه الكثير من الخير . هذا كما نرد صفوة تقاليد المجتمع الحديث بشبه القارة الهندية كلها إلى هؤلاء الفاتحين^(٢) الذين دفعوا بعجلة الحضارة والمدنية الهندية إلى السير من جديد ، ونقلوا إليها كثيراً من فنون المعرفة عند المسلمين ، وأقاموا من أنفسهم رعاة على ذلك كله^(٣) .

وبلغت للشخصية الهندية الإسلامية أوجها أيام الدولة المغولية التي حكمت الهند قرابة ثلثة قرون ابتداء من القرن السادس الهجري الموافق السادس عشر الميلادي . وفي عهدها وحتت شبه القارة كلها تحت لراية الإسلامية .

ولقد خضع أهل الهند أروناً طويلة للحكم الإسلامي فلم يجدوا عنده حنة ولا رهاً ، كما لم يصادفوا في الغالب تقيداً لحرمتهم الدينية فمأشوا ، هنداكة ومسلمين ، متحابين في كثير من الأحيان ، في ظل سلاطين المسلمين .

والحكام المسلمون هم الذين قادوا الثورة التي نشبت بالهند في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي لطرد المستعمرين البريطانيين من شبه القارة .

ويطلق البريطانيون اسم قنة الغدر والعصيان على هذه الثورة التي تزعمها بهادر خان آخر أمراء البيت المغولي ، بتمضييد ومعارضة الأفغان ، للقضاء على شرور شركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت تهيست يدها على أجزاء كبيرة من هذه البلاد ومعنى لوضع ، كان الإنجليز يحكمون هنالك باسمها . وقد ألحق البريطانيون ، بمعلونة فريق من الهنداكة السك ، في القضاء على الثوار

(1) Havell. P.257.

(2) Pnasari. Pp. XXXVI, XXXVII.

(3) Le Bon, pp. 420 et seq.

الوطنين الذين كانوا قد أنزلوا بهؤلاء المستعمرين ضربات شديدة حتى خاضعوا من أيديهم أقاليم كثيرة لا سيما في البنجاب وبهار .

ومن ثم نفى البريطانيون الأمير المغولي من البلاد بعد أن قتلوا كثيرين من أبناء أسرته وذويه ، وفيهم أطفال دون السادسة . وأعطوا من فورهم ضم شبه القارة الهندية لتاج ملكهم فكتوريا .

ولم يكن البريطانيون هم أول من جاء الهند من جماعات الأوربيين ، فقد سبقهم البرتغاليون إليها ثم جاء من بعدهم الهولنديون . ولحق الفرنسيون بالبريطانيين من بعد ذلك ، لكن الآخرين استطاعوا بنسائهم ، في أوروبا على الخصوص ، أن يحملوا لويس الخامس عشر ملك فرنسا على إخلاء أملاكه الهندية الواسعة .

وظف الإنجليز ، حين أخلى لهم الجو من منافسة الأوربيين بالهند ، ينفخون في نار الخلاف بين أمرائها ويثيرون النزاع بينهم بالنم والوقيعة ، حتى انتهت قواهم فسقطوا فريسة سهلة .

وتم للبريطانيين السيطرة التامة على شبه القارة الهندية بمعاونة جنود من الهنود أنفسهم جذبهم أموال المستعمرين الذين كانوا قد ابتزوها بدورهم من أمراء البلاد حين كانوا ينشدون عونهم على منافسيهم . وهكذا فتح الإنجليز الهند بأموالها ورجالها ، وامتصوا خيراتها ويراكاتها قرابة القرنين من الزمان . ويدعوى المحافظة على مواصلاتهم بالهند ، دخل هؤلاء المستعمرون مصر ثم احتلوا وادي النيل كله واغتصبوا فلسطين التي تركوها أخيراً لليهود ، كما اكتسبوا مزايا سياسية بالعراق ومشارف كثيرة بالشواطئ العربية . ودلوموا ، إبان ذلك كله ، على إشغال تيران فتن متلاحقة بإيران بأمل أن يكون لهم الشرق كله فيما بين البحر الأبيض المتوسط والهند ، على اختلاف دروبه ومسالكه .

واستقرت الهند وغيرها من أمم الشرق التي بليت بالبريطانيين ، وظف الرعي القومي فيها ينمو ويقوى ، وأخذ أهلها يشعرون بما في السكوت على وجود المستعمر بلادهم من خزي وعار . وخلق البريطانيون شبه القارة الهندية آخر الأمر عام ١٩٤٦م وقد اتفق سكانها فيما بينهم على تقسيمها إلى جمهوريتين كبيرتين هما جمهورية باكستان الإسلامية وجمهورية الهند الهنوكية .

الفتوحات الإسلامية
في شبه القارة الهندية

فتوح العرب بالهند

كان العرب وحدهم . فيما قبل الإسلام ، واسطة مقايضات التجارة الهندية ما ورد منها برأ عن طريق بلاد فارس ، قتولا المناذرة والفساسلة ليبلغوا به مواسم الشام ، اويحراً ، عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر فحملة اليمانيون من أبناء مسباء القديمة ، فمنه ما كان من نصيب القرشيين في رحلة الشتاء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ليسيروا بدورهم بأكثر في رحلة الصيف إلى بلاد الشام ، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقاوضوا عليه تجار الرومان والإغريق بموانئهم على ربح طائل وفير .

هكذا كان العرب في القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد في غربها فاختلطوا بأهلها ولقوا في الغالب حفاوة وعناية عند حكامها ، ليعودوا إلى بلادهم في كل مرة فيقدمشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات ويبهروا أعظامهم بما يرضونه عليهم من لآلى الهند ونفيس معادنها ومنسوجاتها وعطورها وثمارها ثم سيوفها التي اشتهرت بها .

كذلك وقف العرب القداماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها وما بها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية في أرض الفراتين ، مهد الحضارات القديمة ومجمعها ، التي كانت على اتصال وثيق بالهند ترد إليها بضائعها ويغد إليها طماؤها . وقد تخرج على أيدي الهنود بمدرسة جند يسابور الساسانية فريق من العرب ، منهم الحارث بن كلدة الثقفي ، طبيب العرب قبل الإسلام الذي قام على علاج الناس بفارس ، وطبيب بعض أمرائها فأعطاه ما لا وجاهية هي سمية أم زياد بن أبيه^(١) .

(١) مضمي الإسلام لأحمد أمين ، القاهرة ١٩٣٨م أول مارس ص ٣٦٦ .

وافتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، وتخطت جيوشهم شمال إفريقية إلى بلاد الأندلس ، كما توغلوا في بلاد فارس المترامية الأطراف وطرقوا أبواب بلاد ما وراء النهر ، فعظم شأن الدولة الإسلامية بهذه الفتوحات الكثيرة المهمة وقويت دعائم الخلافة الأموية بها .

وعهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، بأمر القسم الشرقي من بلاده إلى الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان محباً للفتح ميالاً إلى التوسع ، فوجه جند المسلمين إلى بلاد ما وراء النهر فدخلت بخارى وسمرقند وخجند وفرغانة حتى وصلت إلى كاشغر على حدود الصين .

وكان من الطبيعي ألا يهمل الحجاج أمر إقليم السند ، باب الهند ذات الثراء الطائل ، الذي أصبح يجاور آخر حدوده الشرقية .

هذا وكان العرب ، أيام صر ، قد خرجوا قبل فتحهم لفارس ، في حملات خليفة من البحرين وعمان إلى بعض سواحل الهند على مقربة من ميناء كراچی الحالية وميناء ، ولكن تكاثرت الخلفاء الراشدين نهى عامله بالبحرين ، الحكم ابن أبي العاص ، عن المضي في هذا الأمر ، إذ كان يخاف البحر على جند المسلمين شديد الحذر من « حمل النود على العود » على حد قوله .

على أن الحكم شجعه ما غنمه في غزواته على الإغضاء عن أوامر خليفة طلباً للمزيد من الأسلاب والتمكن من الإطلاع على أحوال تلك النواحي ، فبعث بأخيه المغيرة هذه المرة إلى ديبل عند مصب السند في حين قصد هو بروج .

فلما فتح المسلمون العراق وفارس ، طلب عثمان بن عفان إلى عامله على العراق عبد الله بن عمر ، أن يوجه إلى ثغور الهند من يطمه عنها ، فوجه إليها حكيم بن جبلة الهذلي الذي بعث مخاوف الخليفة بحديثه عنها فصرف المسلمين عن غزوها^(١).

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٣٣ ، ٤٣٨ .

ولم تكنه خلافة عثمان على كل حال حتى كان المسلمون قد فتحوا كابل وانتشروا على حدود السند يستطلعون أخباره ولحواله جنوباً حتى البحر .

وغزا المسلمون من بعد ذلك إقليم قيقان السندی ليجئ المهلب ابن أبي صفرة من بعدهم أيام معاوية فيغزو به والأهوار (لاهور) بين الملتان وكانه . وعدل الذين خلفوا المهلب هناك عن الاهتمام بالمناطق الشمالية لوعورتها ؛ فعادوا إلى حصر جهودهم في المنطقة الممتدة بين كابل ومكران عند الشاطئ .

ويستلحق الحاج ، حين ولي العراق ، بسعيد بن أسلم إلى مكران ، فخرج إليه معاوية ومحمد بن الحارث العلافى فقتلاه ، إذا كانا من الخارجين على سلطان الأمويين في هذه الجهات . وكانا قد لقيا عند داهر ، ملك السند البرهمى ، كل ترحيب لجا إليه برجالها الخمسمائة ، وما لبثا حين نصراه في بعض حروبه أن صاراً من أصحاب الخطوة طنة .

وبلغ الحاج الخبر نسال الوليد الإذن بتسيير حملة إلى السند التي غدت ملجأ للخارجين على الدولة ، لكن الخليفة لم يجبه إلى طلبه . حتى إذا ما تعرض قراصنة من ميد الديبل لسفن كانت قادمة من جزيرة الباقوت (سيلان) وبفها بنات وأرامل لتجار من المسلمين وإقام الأجل هناك ومعهم هدية من ملك هذه الجزيرة للخليفة ، فاعتذر داهر ملك السند للحجاج ، حين ألح عليه في تخليص نساء المسلمين من الأمر ، بعد قدرته على لصوص البحر هؤلاء ، سير الحاكم الثقفى من فورهِ إلى ديبل ، عبد الله بن نيهان في قوة انتهى أمرها إلى الهزيمة والقتل . ولقى بديل بن طهفة البجلي نفس المصير حين خرج من صمان بأمر الحاج للغرض ذاته .

هناك تبدى للحجاج مدى الإمانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر ، فما زال بالخليفة حتى أنن له بتسيير الجند لفتح السند في الوقت الذي كانت فيه جيوش المسلمين تتوغل بالأندلس وجهتها بلاد الفرنجة .

واختار الحاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى أميراً للحملة السندية وطلق
فائد هذه الحملة . وكان يقيم إذ ذاك بشيراز ، يحلها الحدة طوال شهر سنة وعسى
الحجاج بالإشراف بنفسه على تزويد الجند بكل ما قد يحتاجون إليه من الذخائر
والمؤن حتى أمدهم بالخيوط والمسال بل وكذلك بالخل^(١) .

ولقب محمد بن القاسم ، وهو دون العشرين من عمره ، يغزو بلاداً مترامية
الأطراف متمعة الأرجاء ، تشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أهواء وأصحاب
حضارة ومندية عريضة ، وهو لى قلة من الجند إلى جانب كثافة جندهم ، وضائلة
من الموارد بالقياس إلى ما كان يرويه الناس عن مبلغ ثرائهم .

وسار المسلمون من مكران وجهتهم ديبيل فى لثى عشر ألفاً من جند الشام
والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم . أما عتدهم الحرى ، وكان قد قام على
تجهيزه لهم محمد بن هارون حاكم مكران ، فقد اتخذ طريقه بحراً ، فالتقى الجيش
بسفنه فى ظاهر المدينة فى ربيع الأول عام ٨٩٩م - ٧٠٧م .

وانضم إلى جيش المسلمين عند ديبيل جموع كثيرة من رجال الميد والجات
(الزط) ، وهما قبيلتان سديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لقرط ما
كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، إذ كانوا فى حداد المنبوذين الذين
يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غلى الثياب ، ولم يكن يباح لهم من المهن
والحرف إلا أنزوما .

وأفاد الغزاة المسلمون من رجال الميد والزط . إلى جانب شجاعتهم فى
الحرب وشدة جندهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم
فى الزل .

(١) كان الخل يباع بان يتنق فيه القطن المطوج فى الظل حتى يتشربه ويجف ، فإذا أريد
استخراج ما به من الخل تآنية تقع فى الماء من جديد ليبتل فيه .

ورابط الغزاة بخنادقهم بظاهر ديبيل خلف أسوارها ، فأخذوا يقتلون الأكراد والمند عن سكانها الذين لبثوا على مقاومتهم . حتى إذا ما نصب محمد ابن القاسم منجنيقه الكبير « العروس » ، وحوله خمسمائة من الرجال الأكفاء يقومون عليه ، فحق بقدافته معد الهادكة الأكبر بالمدينة فهدمه ، استولى الرعب والفرزع على السكان وشاعت الفوضى بينهم ليقترح المسلمون المدينة عليهم من بعد ذلك . واستمر القتال بين الفريقين المتحاربين في عصف بالغ انتهى إلى فرار أمير السند داهر وقوله من الميدان .

وبنى القائد التقى بالمدينة مسجداً ، وعمر المسلمون أحد أحيائها ، وتركه بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ، ثم واصل زحفه إلى مدينة نيرون^(١) على الضفة الغربية للسند . فما عثم أهلها ، وكانوا بوذيين يدينون بعدم العنف والبعد عن إراقة الدماء ، أن أبرزوا له عهداً بالأمان كانوا قد حصلوا عليه من الحجاج ، يوم أن سار بعض عماله من قبل إلى غزو السند ، فأكده لهم بدوره .

ولما كان الغزاة على أهبة التقدّم بجموعهم صوب الشمال ، ورد على قائدهم كتاب من الحجاج يلح عليه فيه بتعديل اتجاهه إلى شاطئ السند الشرقي حيث يربط صوة في جموعه .

هناك رجع ابن القاسم عن موقع سيوى ، الذى كان قد بلغه عند الشمال من نيرون ، ليفاجئ عدوه بعبور النهر إليه أولاً ، فلم يملك داهر إلا أن يرتد مرة أخرى إلى حصن راور فيمتنع فيه إلى حين .

واشتبك الخصمان في قتال عنيف ، انتصر فيه المسلمون ، برغم مواجهتهم فجأة للحرب لأول مرة ، وقتل داهر ، وكان يمتطي فيلاً تشد به العطش فثار على

(١) تقع هذه المدينة على مسافة ٧٥ ميلاً من مكران وتعرف أيضاً باسم نيركوت وموقعها حيدر آباد السند الحالية . ويخط بعض الكتّاب فيكتبون نون لكلمة الأولى باماً وينسبون إليها على ذلك العلامة البيروني ، وهو خطأ شنيع ، لمدينة بيرون مسقط رأس هذا العلامة هي — إقليم خوارزم .

فعله وألحق إلى النهر ، فترجل الملك وأخذ يبارز على قدميه حتى أصابت سيوف العرب منه مقتلاً^(١).

وبلغ الخير رائى باى ، وكانت أختاً لداهر بنى بها ، فجمعت بالقلعة خمسة عشر ألفاً من الجند ، أخذوا يقتفون العرب بوابل من سهامهم ومن النفط المشتعل وقطع الصخر ، فلم يخدم ذلك كله نفعاً . وذلك دعت أرملة الملك نساء الحصن ليوقلين بأنفسهن فى النيران فلا يقن بأيدي الغزاة^(٢).

وامتولى محمد بن القاسم فى رلور على الكثير من أموال داهر وكوزه ، ووقع فى أسره خلق كثير كان من بينه نفر من الأميرات بحث بهم جميعاً إلى عاصمة الخلافة .

وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرفين حتى باغوا المدينة برمنباد وكان قد فر إليها ابن داهر ، يدعى جابى سنه ، بعد سقوط رلور فاحكم من تحصينها وسد منافذها . وأتحم الغزاة المدينة على أهلها بقتة وعذوة فلم يملك ابن داهر إلا الفرار شمالاً مستجيراً بملكه كشمير ، فى حين سقط فى الأسر زوجة أخرى لداهر تدعى لادى وبعض بناته ، إذ أخذتهم المفاجأة عن سلوكه السبيل الذى ملكته رائى باى وصوبحتها فى رلور من قبل .

وقام القائد العربى بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها . ومما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهندكة من رجال الدين هناك وأطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين وينفقوا ما يفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر^(٣) .

(١) تاريخ الهموى طبع ليدن عام ١٨٨٢ - كان من ٣٤٦ .

(2) *Prind. Mod. India* 42,43.

(3) *Muslim rule in India* 1638 pp. 29,30.

وبلغ الجيش العربي الرور^(١) ، عاصمة داهر ، وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد وراح ، في سبيل حث قومه على المقاومة ، يلقى في روعهم أن ملكهم إنما قد اختفى ليعود إليهم في القريب بجند وسلاح كثير . واستمات الهنالكه فعلاً في مقاومة الغزاة ودفعهم دفعاً شديداً . حتى إذا ما فطن محمد ابن القاسم لخدعة خصمه بعث بلادي لرملة داهر ، وكان قد بنى بها ، فنادت في قومها بلادي الأسوار تؤكد لهم موت ملكهم . فتهافت قوامهم على أثر ذلك بعد ما علوا طويلاً من انقطاع الماء عنهم وطول الحصار من حولهم .

وعبر الغزاة من بعد ذلك بياس ، رائد السند ، إلى مدينة الملتان ، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصوية ، فاستنعت عليهم شهراً ستة نفلت فيها مؤنهم فطعموا الحر . حتى أتاهم رجل مستلثم دلمهم على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان ، فقطعوه عليهم ، ففزلوا إلى قتالهم في معركة شديدة استمرت ليلاً سبعة اقسام المسلمون الأسوار من بعدها واستولوا على المدينة كلها .

وفي الملتان آخر حصون السند الكبرى ، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار ، وأصحاب الحرف في عدد كبير من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والجات الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة ، والذين كان قد بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربي وكرمه وكفه لأيدى رجاله عن السلب والنهب ، فأعطوا جميعاً ولاهم على أنفسهم وأموالهم .

ودل لحد البراهمة محمد بن القاسم ، تقريباً منه ، على مكان خفي بأحد المعابد القريبة كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم ، فوجد به من المال الكثير ما مكنه من أن يرد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية ، وكان الحجاج قد تعهد بذلك للخليفة بدائ الأمر ، فحمل إلى دمشق عشرون ومائة ألف درهم دون أن يضار الأهليون في أموالهم أو يفرض عليهم من الفسرم مالا يطيقونه^(٢) .

(١) تعرف هذه المدينة باسم الرولى .

(٢) تاريخ الكلال لابن الأثير الجزرى طبع بولاق ١٣١ هـ مجلد ٤ ص ٢٠٩ .

وهكذا كان لحفيد مسلك ابن القاسم من الأهلين ، فى حسن معاملته لهم وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ، وإطلاق حرية العبادة لهم ، أبعد الأثر فى نفوس القوم مما ساعد كثيراً على توطيد مركز المسلمين هناك^(١) .

وكتب الفاتح العربى من بعد ذلك إلى الحجاج يستأذنه فى فتح مملكة قنوج أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى البنغال ، فإجابة إلى طلبه وشجعه على المضى فى خطته .

هناك بدأ محمد بن القاسم ، أولاً ، بإيجاد بعثة من رجاله إلى صاحب قنوج تدعوه إلى الإسلام أو الجزية . حتى إذا ماورد الملك الوفد رداً غير كريم أخذ الفاتح العربى يد السدة لغزو عدوه ، فجهز لذلك جيشاً فيه عشرة آلاف من الفرسان وعليه قائده أبو الحكم .

على أنه لم يكد يفرغ من إعداد حملته هذه حتى ولفته الرسل تنبيهه بوفاة الحجاج ثم وفاة الوليد بن عبد الملك من بعده وانتقال الخلافة إلى سليمان الذى أرسل يستدعى فاتح السند للقنوم إليه .

وكان سليمان بن عبد الملك يكره الحجاج ويقيم عليه لتأييده الوليد حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدل أخيه هذا . ولم يمنع موت الوليد ، قبل أن يتم هذا الأمر ، سليمان من إزال نفسه ، فى عطف ، بكل من كان يتصل بالحجاج خاصة بسبب .

وقد كان بوسع محمد بن القاسم أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة ، بل ويرفض المسير إليه ، مستقلاً بما فتح من بلدان وما استولى عليه من أراض ، وهو الذى أمكن له أن يخضع السند لولاية الخلافة فى مدة لا تتجاوز سنوات ثلاثاً ، صلب من بعدها يتمتع بمحبة الأهلىن وولائهم له هناك ، ولكنه أتر ألا يشق عصا الطاعة على خليفة المسلمين برغم توجهه الشر منه .

فحمل متقيداً بالأغلال حتى بلغ باسط فلقى بها من العذاب النكر ، على أيدي أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل المهلب ، حتى لقي حتفه ، فبعثوا رأسه إلى دمشق .

وترد بعض الروايات غضب للخليفة الأموي على محمد بن القاسم إلى عبثه بسبب الهذلي إلى دار الخلافة ، وكان فيه لينتان لداهر هما بارمل ديوا وسوراج ديوا . فما إن اخفنا سليمان حتى صرحنا له باعداء القلتح العربي عليهما قبل مسيرهما إلى دمشق ، فهاج للخبر وأمر بقتل ابن القاسم وأن يحمل إليه في جلد ثور محشو بالثمن . وتقول الرواية من بعد ذلك إن الأميرتين حين عرض عليهما رأس القائد القتي ، عثتا عن قولهما السابق واعتذرتا عنه بما يحملانه من ضغينة وحقد لقاتل أبيهما ، فسبقتا إلى حتفهما باقتراثهما وغدرهما .

وليس لهذه القصة سند عند ثقات المؤرخين على كل حال .

وقرر اهتمام الخلافة من بعد ذلك بأمر القتوح في شبه القارة الهندية ، إذ كانت بؤسر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر في الدولة الأموية . في حين حرصت الدولة العباسية من بعدها على عدم التوسع الكثير في القتح بعد أن عظمست رقعة الدولة الإسلامية وترامت أطرافها كما شغل الولاة . يضاف إلى ذلك أن الولايات السندية ، فضلاً عن جذبها للنسبي وضعف خراجها ، كانت لا تزال محوطة في الشمال والشرق بإمارة قوية يحكمها الهنادكة ، كما كان سكان البلاد أنفسهم قد طفقوا بدورهم يتورون في وجه ولاتهم من العرب الذين حادوا في الغالب عما أسسته محمد بن القاسم من الرفق بالرعية وإشاعة العدل والتسامح بينهم .

وهكذا شغل أكثر الولاة المسلمين في السند بإقرار الأمن والسلام بداخل البلاد وعلى حدودها ، فانصرفوا عن التفكير الجدي في المضي فيما بدأه محمد بن القاسم من القتح . ولأخذت الاضطرابات تنتشر في السند حتى قامت بين القبائل العربية نفسها هناك من النزارية واليمينية الذين لم يتركوا أي بقعة حلوا بها في أراضي الدولة الإسلامية الواسعة ، سواء في أرض الشام أو بلاد الأندلس أو السند ، إلا

واعترفوا فيما بينهم بها . وزار من تلقم الأحوال بالسند نفلا الخوارج والشيعه والقرامله إليه ؛ فانكشئت أملاك المسلمين هناك من جراء ذلك فلم يبق لهم إلا المنصورة والملتان .

وتفصيل ذلك كله انه قد خلف محمد بن القاسم على ولاية السند يزيد ابن كبشه السمسكى من قبل سليمان بن عبد الملك ؛ ولكنه ما لبث أن قضى عليه أثر وصوله بأيام قليلة . وادى اضطراب الأحوال على إثر هذا الحادث إلى أن انتهز جاي سنك ابن داهر المقتول هذه الفرصة فالتقض على مدينة برهمناباد فاستخلصها لنفسه فلم يستطع حبيب بن الملهب حين ولي السند أن يسترد ما منه حتى إذا ما بعث الخليفة عمر بن العزيز بعامله عمرو بن مسلم الباهلي أخى قتيبة إلى هذه البلاد فأوصاه بالرفق بأهلها والعمل على ترغيبهم فى الدخول فى الإسلام دون إكراه أو قسر ، صادقه التوفيق والتجاح فيما تدب له حتى أقبل ولد داهر نفسه على اعتناق الإسلام فآخره على إمارته .

وحاول فريق من آل الملهب عقب وفاة عمر بن عبد العزيز الذى كان قد ألقى بهم فى السجن لطغيانهم وتبذيرهم لأموال المسلمين ؛ أن يشيعوا الفتن فى الجزء الشرقى من الدولة الإسلامية حتى بلغوا بها السند التى لانوا بها ؛ لكنهم باعوا آخر أمرهم بالفشل وقضى عليهم .

وصار أمر السند فى عهد هشام بن عبد الملك إلى جنيد بن عبد الرحمن المرى . وكان حاكما حازما استرد إمارة برهما باد من أيدي جاي سنك بعد أن قتله ؛ كما سير جنده فى غزوات ناجحة بلغت يوجين ومالوه والسكجرات عند شوقى السند وجنوبه الشرقى . حتى إذا ما خلفه تميم بن زيد العقبى أضاع بترده وضعفه كل ما بذله سلفه من جهود .

وجاء السند من بعد ذلك للحكم بن عوانه وفى صحبته عمرو بن محمد أبى نون القاسم الذى اتفرد بالحكم من بعده . وفى عهدهما بنيت مدينتا المحفوظة والمنصورة على شاطئ السند ؛ غير بعد من برهما باد . وصارت الأخيرة حاضرة المسلمين

فيما بعد ؛ وموقعها اليوم مشارف حيدر آباد السند . هذا وقد نهج عمرو خلاصة نهج أبيه محمد بن القاسم في الحزم والعدل ولحيا سيرته في التسامح الديني وإطلاق حرية العبادة للهندكة .

واقترح السند على يزيد بن غرار ؛ خليفة عمرو هناك ؛ تأثير من الخارجين على سلطان الخلافة الأموية يدعى منصور بن جمهور الكلبى فاعتصب هذه الإمارة عام ١٣٠هـ لنفسه .

وقضى العباسيون على الخلافة الأموية فعهد السفاح أول خلفائهم بأمر الأقاليم الإسلامية إلى نصيره أبي مسلم الخراساني الذي بحث بدوره إلى السند بعبد الرحمن بن أبي مسلم العبدى ؛ ليقفل في طرد جمهور بن منصور الكلبى منها ويلاقي حتفه على يديه . حتى وفد موسى بن كعب التميمي فما زال بالثأثر الكلبى يطارد إلى أن هلك في الصحراء عطشاً في حين لقي أخوه نزار مقتله على يده . وطلق موسى من بعد ذلك يستميل قلوب الناس إلى دعوة بني العباس ويعمل على التناغم حوله فجدد بناء المنصورة وأقام بها مسجداً جديداً . وبلغ بجده بعض غزوات موقعة .

وخلف المنصور السفاح فبحث إلى السند بعمر بن حفص وكان هذا الوالى الجديد ، الذى عرف بحسن تكبيره وحزمه ، على تشيع وثيق الطويين دون الجهر ، حتى رحب في بلاده بأحد زعمائهم حين جاء إليها هرباً من وجه العباسيين . فكان عهده هذا هو بداية انتشار التشيع بالسند . ذلك أن عبد الله بن محمد الأستر الحسنى الطوى كان قد ورد السند مستتراً في هيئة للتجار^(١) ، فما إن عرف بميل أموره إلى أهل البيت حتى كشف له عن أمره فقال عنده كل حظوة ورعية . ولكن كان أن خاف صر بطش الخليفة فأقرض الطوى مع أتباعه عند أمير هندوكى في أحد البلاد المجاورة ، موليا رعايتهم والعناية بأمرهم في الخفاء . ومضت سنوات عشر

(١) تاريخ الطبرى طبع القاهرة ١٣٢٢هـ المجلد التاسع حوادث سنة ١٥١ من ٢٧٩ -

على هذا الحال حتى علم الخليفة بالأمر ، فكتب إلى عامله السندى يأمره بغزو بلاد الأمير الهندوكى ومطردة الشريف الطوى . وما إن أحس الخليفة بماطلة عمر فى تنفيذ ما أمره به حتى نقله إلى شمال إفريقيا ، بعد أن كاد يقتله به ، وبعث مكانه بهشام بن عمرو اللطوى .

كذلك قصد السند أيام ابن حفص داعية من الخوارج يدعى حسان بن مجاهد الهمداني، لكنه لم يجد لدعوته سوقاً رائجة ، فقد لاحظ شدة ميل الأهالي إلى التشيع فرجع من حيث أتى .

على أى ، فإن الدعوة الشيعية بالسند لم يظهر أثرها قوياً إلا بعد مضي زمن طويل على هذا الحادث ، قامت لهم دولة إسماعيلية حكمت هناك سنين عدة حتى قضى عليها محمود القرنوى حين فتح هذه البلاد .

وحرص الخليفة العباسى عامله الجديد على القضاء على الشيعة وأنصارها بالسند ، ولم يكن يسرى ميل هشام بدوره خفية إليهم . ولكن حدث لسوء حظ الطويين أن خرج السفوح نحو هشام إلى الحدود فصلاص عبد الله ورهطه ، فقتل العلوى وفريقاً من أتباعه ، وبعث برأسه إلى الخليفة ، فاستطاع فى يد هشام ولم يسهه بدوره إلا التظاهر بتكبير هذا الأمر اتقاء لنقمة مولاة وعقابه .

هذا وقد سكنت المصادر التاريخية كلها عن ذكر اسم الأمير الهندوكى ، الذى كان الطوى قد لجأ إليه ، أو اسم إمارته .

واتجهت همة هشام إلى توسيع رقعة إمارته ، فزاد إقليم الكجرات واستولى على بروج ميناء بحر العرب ، وكان بها جالية إسلامية كبيرة ، كما أخضع الملتان كله ، وبلغت جنده كابل وكشمير . وكلف هذا الأمير بالأدب حتى قصده فريق من الشعراء منهم مطيع بن إلياس .

وتولى المهدي الخلافة ببغداد فعنى بنشر الإسلام بالسند عقاية كبيرة صادقته التوفيق فيها ، إلا أن اشتداد النزاع بين القبائل العربية لتي كانت قد هاجرت إلى

هناك منذ بداية الفتح العربي ، أخذ يضعف من سلطان الحكومة السندية ويحد من قوتها ونفوذها . فكان من جراء انشغال الولاة بالقضاء على قنن هذه القبائل فى الداخل أن طفق الأمراء الهنادكة بظاهرها يقتسمون كل ما يلوح لهم من الفرص لاقتطاع أراض من أملاك المسلمين السندية وضمها إلى إمارتهم حتى جاء السند . بعد وفاة المهدي العباسي ، الليث بن ظريف فسلك طريق الشدة معهم والعنف فأمكن له أن يؤمن أحوال البلاد ويقضى على ثورات هذه القبائل العربية ولكن إلى حين . ذلك أن داود بن يزيد بن حاتم المهلبى حين آلت إليه إمارة السند عام ١٨٤هـ مال إلى التحالف ببغداد فأوفد أخاه المغيرة نائباً له هناك - وهى سنة ابتدعها كبار الحكام وراجت على الخصوص إيان ضعف الدولة ، أعنى بقاء الأمراء ببغداد تريبصاً بالحظوة والنفوذ وزيادة فى الترف وإرمال نواب عنهم إلى ما يقتلدونه من الإمارات - فإذا بهذه القبائل تطالبه بتقسيم البلاد إلى ولايات ثلاث ، تقسم لقريش وثان لربيعة وثالث لقيس . فلم يتمكن المغيرة من كبح جماح هذه القبائل إلا بعد أن استعان عليهم بمساكر الخليفة الذين قدموا من بغداد فحاصروا المنصورة عاصمة السند ، عشرين يوماً استسلم لهم الثائرون من بعدها .

ولبت داود بن يزيد بحكم السند عشرين عاماً مرض فى أثناها الرشيد ، فأوفد لعلاج بعض أطباء الهند . وكان شفاء للخليفة العباسى على أيديهم من أسباب مضاعفة العناية بعلوم الهند وطبها . وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ثبت لأسماء الأطباء والصيادلة الهند الذين نزحوا إلى بغداد فأفاد الناس منهم .

وخلف بشر أباه داود فسار سيرته فى الحزم . حتى إذا ولى السند موسى ابن يحيى بن خالد البرمكى عمد إلى محاسنه زعماء العرب هناك ومحولة فاض ما بينهم من المنازعات بالمودة، ثم صرف همه من بعد ذلك إلى تعمير البلاد فشق كثيراً من الطرق وأقام دور الشفاء وخلفه ابنه عمران فبنى مدينة البيضاء ب إقليم قنقان ، بعد أن انتزعه من الرظ ، كما قضى على ثورات الميد وقتل بضعة آلاف منهم . وانتهاز الزناريون فرصة انشغال عمران بإطفاء قنن الميد والرظ ، فثاروا

عليه وانهوه بتحيزه اليمينيين وتفضيله لهم عليهم . وانتهت منازلهم معه إلى مقتله على أيدي زعيمهم عمر بن عبد العزيز الهباري^(١).

وهكذا استولى زعيم القرشيين على المنصورة ليكتب منها عام ٢٤٠هـ إلى المتوكل العباسي معلنا ولاء له وإخلاصه لوثيقته بذلك على إمارة السند .

والمحوظ أن ولاء أغلب حكام الولايات الإسلامية للخليفة ، لا سيما ما كان منها على مبعدة من بغداد ، غدا قليل منتصف القرن الثالث الهجري ، مجرد مسألة شكلية اسمية .

ويبلغ من إهمال الخلافة لشأن السند أن رأينا الخليفة الضعيف المعتمد العباسي يقطعها للصناريين هي وبلغ وطخارستان وسبستان وكerman طه بذلك يخفف من شدة ضغطهم على العراق .

وولى أمر السند أمراء ضعفاء من أبناء عمر بن عبد العزيز الهباري لم يحالفهم التوفيق في تأمين الأحوال ببلادهم . وما عتقوا أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من فريش ، حتى لتقتصر سلطاتهم على ولاية المنصورة التي كانت أرضها تتحصر بين الرور وشاطئ البحر . في حين حكم إقليم الملتان أسرة قرشية أخرى من بني منبه^(٢) ، بقيت فيه حتى انتزعه الأسماعيليون الشيعة منها .

ذلك أنه كان قد قدم السند في بداية القرن الرابع الهجري دعاء للفاطميين وعلى رأسهم من يدعى الهيثم رسول عبد الله المهدي . ثم توالى دعاء الإسماعيلية على هذه البلاد حتى جاء ما قاتل خير من قوادهم وداعية من خير دعايتهم يدعى جلم بن شيبان . فما غدا حين قدم الملتان ، فالتفت حوله القرامطة ، الذين كانوا قد نفذوا

(١) كان جد هذا الأمير قد قدم السند مع الحكم بن عوف الكلابي . البلاذري ص ٤٤٦ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب طبع القاهرة ١٢٤٦هـ أول ص ٥٩ « أدرك المسعودي عام ٣٠٢ بالمنصورة عمر بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الهباري أبو المنذر القرشي ، وأدرك بالملتان أبا القلاب المنبه بن الأسد القرشي وهو من ولد أسامة بن ثؤيب بن غلب » .

إليها قادمين من البحرين وبلاد فارس - أن استغل ما كان فيها من اضطرابات حتى تمكن آخر الأمر من الاستيلاء على مقاليد الحكم فيها . فكانت حكومته هذه أول إسماعيلية عرفتها شبه القارة الهندية كلها .

وسلك جلم سبيل العنف مع سكان البلاد ، مسلمين وهنالك على السواء ، فاعلق المسجد الجامع الذي كان قد أقامه محمد بن القاسم كما هدم المعبد الهندوسي بها وكان المسلمون ييقنون عليه ضمناً لتجنب مهاجمة الهنادكة المدينة .

وتولى حكومة الإسماعيلية ، من بعد جلم ، الشيخ حميد وهو الذي وجدته سيكتكين الغزنوى بالملتان فهزمه ليخلفه أبو الفتح داود القرمطي حفيده . وما زال محمود الغزنوى يطارد داود وقومه حتى قضى على حكومته .

وقد انتهى أمر بلاد السند كلها إلى استيلاء الغزنويين عليها حين أقبلوا على الهندستان فاتحين أولآخر القرن الرابع الهجرى ، فكانت فتوحاتهم بداية حقبة جديدة في تاريخ شبه القارة الهندية كلها ، أصحابها من المجاهدين للمسلمين ولكن ليسوا من العرب .

نتائج الفتح العربى للسند :

تقد واد على السند أخذاً من القبائل العربية ، التي كان قوام جيش الفتوح في الغالب منهم ، فاستوطنوا هذه البلاد ثم أسهبوا إلى أهلها بعد قليل على ما فعل أخذاً أخرى لهم بأغلب البلاد التي فتحوها . كذلك كانت لهم مشاركة ناجحة في نشر تعاليم الدعوة الإسلامية ، والعربية ، لغة وكتابة ، بين السنديين بفضل من صاحب حكمهم وأمرتهم من علماء المسلمين أمثال الربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تكويناً للحديث . فلم يمض بضع عشرات من السنين على فتح السند حتى طلقت أرواح من أهله تثرى تشارك في بناء الثقافة الإسلامية العربية وتبرز في ميادينها ، فكان منهم علماء في الحديث واللغة والأدب مثل أبي معشر نجيب السندى المحدث صاحب المغازى وروان الأعرابي اللغوى ، أستاذ ثعلب وابن

السكيت ، وأبى عطاء السندى المخضرم الشاعر^(١) ثم أبو على السندى وأبو السيزيد طينور ابن عيسى البسطامي المتصوف .

وعنى عن البيان أن العرب كانوا فى أول عهدهم بالفتوح يكون إلى أبناء البلاد المفتوحة أعمال الدواوين ، لقلة درايستهم بها إذ ذلك ، تحت إشرافهم ، وينفردون وحدهم فى الغالب بالقضاء وشنون الجزية والخراج على مقتضيات الكتاب والسنة .

ولئن قيل إن الفتح العربى للسند كان من الناحية السياسية حدثاً لا أهمية له فى التاريخ الإسلامى إلى أنه صير هذه البلاد جزءاً من الدولة الإسلامية تخضع لنظامها وتجرى عليه أحكامها ، لئن قيل ذلك إن العرب لم يكن لهم من آثار بارزة هناك إلا نشر تعاليم دينهم بهذه البلاد وتسرب إلسانهم إليها ، فقد كان لهم الفضل ، أكبر الفضل ، فى إعادة الاتصال الثقافى بين شبه لقارة الهندية وبلاد الشرقين الأوسط والأعلى .

وقد جنى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسباً عظيماً للقافة الإسلامية . ذلك أنهم حين قسموا هذه البلاد واختلطوا بأهلها ، وجدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة ما بهرهم ، فالفلسفة الهندية ، وفروعها من الفلك والطب والرياضيات ، كلت قد بلغت من الرقى والتقدم شأواً بعدواً وحدث تزخر لنظرياتها وقوانينها ومبادئها ، وكذلك الفنون على اختلاف ضروبها ، والدراسات الدينية لا سيما ما كان منها خاصاً بعلم الكلام والتصوف ويقول Havell « إن المسلمين مدينون الهناكة أولاً^(٢) » ، لا اليونان ، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة فى فجر حياتهم سواء فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو الفلك أو الطب ، وقد طلبوها من بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم واشتد شغفهم بها « ويؤيد رأيه هذا أن أول كتب فى الفلك والرياضيات حملت إلى

(١) ضحى الإسلام من ٢٥٢-٤٤٢

(2) Havell, pp. 254 - 53.

بلاط الخلافة ، وكان ذلك أيام المنصور العباسي ، هي كتاب إبراهيم سد هانتا لمؤلفه العالم برهمكيت ، وتذكره الكتب العربية باسم كتاب المسند هند ، وهو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٤٢٥ ق.م ، وكتاب كهند كهانديكا المعروف باسم أركند ، ثم كتاب آريه بهت المعروف باسم أرجبهذا اعظم الفلكيين والرياضيين الهنود . ومن أول هذه الكتب يظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسابية والنظام العشري . وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة آشوكا قبل أن يستخدمها المسلمون بألف عام^(١) .

وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية إلى العربية ببغداد في منتصف القرن الثاني الهجري بمشاركة علماء من المسلمين وإشرافهم من أمثال إبراهيم ابن حبيب الفزارى وأبى الحسن الأهوازي ويعقوب بن طارق .

عرف العرب هذا كله عند الهنالكه قبل أن تصل أيديهم إلى كتاب المجسطي، لبطليموس ، وإلى علوم الرياضة البحتة التي يز فلى أغلبها اليونان الهنالكه وغيرهم^(٢) .

ثم جاء البرامكة ، وكان آباؤهم سننة بوذيين في الغالب^(٣) فعلموا بأمر الهند في دولة العرب ، وأحضروا علماء طبها وحكامها على حد قول صاحب القهرست . فجلبوا منكة الطبيب الهندي الذي نجح في علاج الرشيد فمال الخطوة عنده وبقي يشرف على نقل الكتب من السنسكريتية إلى العربية بدار الخلافة هو وابن دهن الذي عهد بإدارة دار الشفاء ، ثم ابن بهلة الذي تولى علاج إبراهيم بن صالح عم الرشيد فشفى بعد أن كان ابن بختيشوع ، طبيب الخليفة ، قد جزم باستحالة برئه .

(١) الهند وجيرانها ص ٢٣٦ ، ٢٧ .

(٢) تاريخ الفلاسفة الإسلامية لدى بور ترجمة الدكتور أبو ريدة القاهرة ١٩٢٨ ص ١٢، ١٤ .

(٣) بدء العلاقات الطبية بين العرب والهند - الدكتور السيد محمد يوسف الهندي ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة م ١٢ ح سنة ١٩٥٠ ص ١٠٤ وما بعدها .

هذا إلى جانب عنايتهم وتشجيعهم لدراسة علوم الهند الأخرى وعقلانها وأحوالها ، تلك الدراسة التي وصلت إلى أكمل صورها فيما بعد عند أبي الريحان البيروني فيما تركه من كتب ورسائل عن هذه البلاد .

ويشيد الجاحظ ، علامة العرب ، بذكر الهند في بولته فيقول : « إنما الأمم المذكورة من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم » .

الغزنويون وخلفاؤهم

لم يكن فتح العرب للسند ، أواخر القرن الأول الهجرى ، إلا احتلالاً أولياً لـ واحدة فى أقصى الغرب ، لا هى بالواسعة الرقعة ولا بذات الموارد الغنية والأرض الخصبة.

وبدا للغزو الإسلامى لهذه البلاد فى أوسع مداه حين شرع الغزنويون الأتراك ، أواخر القرن الرابع الهجرى ، بطرقون أبواب شبه القارة الهندية ويتوغلون فيها ، بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت غزنة وسيستان ولمغان وخراسان وأغلب بلاد ما وراء النهر .

ولقد وقعت فى الفترة ما بين الفتحين العربى والتركى للهند أحداث خطيرة متوالية فى العالم الإسلامى . فقد زالت الدولة الأموية التى عرفت بتعصبها للعنصر العربى ، وكان مما عجل بسقوطها اشتداد النزاع القبلى بين العرب أنفسهم من جهة ، واستعلاء هؤلاء العرب على غيرهم من المسلمين من جهة أخرى ، الأمر الذى نتج عنه ظهور الشعوبية واشتداد ساعدتها . وخلفهم العباسيون فنقلوا العاصمة من دمشق إلى الكوفة ثم بغداد ، وأخذوا ينفضون أيديهم من العناصر العربية فى وظائف الدولة ومناصبها ويستعوضون عنهم بالعناصر الفارسية فى المناصب المعنية على الأخص ، والأتراك فى الجيش والحرس الخاص .

وهكذا أخذ المغوليون يستردون سالف سلطانهم بالتدريج ، بل ويفرضونه على القائلين ، حتى دب الاحتلال فى أوصال الدولة نفسها وطلق فريق من القواد يستقلون بأجزاء منها مع ولايتهم الأسمى لخليفة بغداد ، فظهرت للدولة الطاهرية ثم الصفارية والسامانية وغيرها .

واشتد نفوذ العنصر التركى بالباطل العباسى ، فما غدا أن طغى على ما كان للعناصر الفارسية من سلطان . فصار الخليفة العباسى آلة فى أيدي رجال بلاطة من الترك ، يرضون عن أمير فيولونه الخلافة ثم يغضبون عليه ويتقمصون فيسملون عويله ويعزلونه . ولم يقصروا نفوذهم بطبيعة الحال على دار الخلافة فحسب ، فقد صار كثير منهم حكاماً فى ولايات الخلافة فيما بين مصر وبلاد وما وراء النهر .

وعظم شأن الأكراد في شرقى الإمبراطورية الإسلامية فورث الغزنويون والقره خانيون^(١) دولة بنى سامان الفارسية . ودفع بالآولين طموحهم إلى التطلع للفتح والغزو فولوا وجوههم قبل شبه القارة الهندية .

وتعد فتوح الغزنويين الهندية بداية غزو المسلمين الحقيقي لشبه القارة الهندية، ذلك الغزو الذى سرعان ما انتهى بالفتاحين إلى تخلفهم من هذه البلاد مقاماً دائماً لهم .

ومؤسس الدولة الغزنوية التى انتمت أصحابها الهند هو سبكتكين ، وكان غلاماً لأبنتكين صاحب غزنة ، جلب من تركستان إلى بخارى فينيسابور^(٢) ، ثم خلف سيده عليها عام ٣٦٧هـ/٩٦٦م .

واتصف سبكتكين هذا بالطموح وقوة العزيمة، فأنشأ فى توحيد صفوف الأكراد والأفغان فى إمارته وسيرهم لفتح لمغان وميستان وخراسان ثم استدار بهم من بعد ذلك وتدفع عبر مسالك الهند كوش للوعرة يبغي الجهاد بغزو بلاد الهندكة.

هذا وقد كان سبكتكين من الناحية العملية مستقلاً عن السامانيين الذين كان مولاه البتكن حاجباً لهم وهم الذين عيروه على غزوه ، ومع أن نفوذه كان يطنى

(١) وهم الأيلخانيون قوم بغرا بخرامستان قشغر الذى دخل وقومه الإسلام فى القرن الرابع الهجرى وتسمى باسم هرزن بن سليمان . مقال للاستاذ حمزة طاهر عن السلاجقة مجلة الثقافة عدد ١٩٤٧/٩٦٩ .

Barthold. W. Histoire des Turcs d'Asie Centrale. Paris 1943.p.80.

(٢) يذكر بعض المؤرخين أن سبكتكين هو من أحفاد يزد كرد شهريلر آخر ملوك فارس قبل الإسلام ، وأن أسرته كانت بالتركستان فى عهد عثمان بن عفان لاجئة للاختلاط بأهلها ، فلم يمتزجوا حتى تتركمت . وهو قول مرفوض ، ذلك أن أغلب الموالى الذين بلغوا رتبة الأمارة قد ادعوا بطورهم لأنفسهم مثل هذا الإدعاء طلباً لمراقبة النسب وفى تاريخ البيهقى - نقله إلى العربية بحسب الخشاب وصادق تشلت - من ٧١٦ - ٧١٨ بيان شامل عن أصله .

على نفوذ السامانيين هؤلاء فإنه لم ينتكر لهم بل اعترف لهم بالسلطان وناصرهم في حروبهم .

وحين التفت جنده بجيش جيبال ، راجا بها تكده ، الذي كان يحكم مملكة واسعة تمتد من سر هند إلى لمغان ، أى من الكنج إلى الأفغان ، ومن كشمير إلى الملتان ، روع الهنادكة ، فأرسل أميرهم من فوره ، بظاهر لمغان ، بعرض الصلح على جزية كبيرة مع اعترافه بسيادة أمير الأمراء الغزنوى . لكن الأمير محمود ما زال بأبيه حتى صرفه عن قبول عرض الهندوكى فلا يشتري به مثوبة الجهاد فى سبيل الحق .

ولم يياس جيبال حين بلغه هذا النبأ ، فكتب إلى سبكتكين من جديد يهتده بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذا ما ألتمت بهم نازلة ، فهم سيقاؤون أعوان أوالهم ويلتقون بأطفالهم فى النار ويخربون بيوتهم بأيديهم ثم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم فيزهدون أولوحهم بأيديهم ، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا خرابث ورمما .

هنالك قبل صاحب غزنة الهندة على جزية مقدار ألف ألف درهم ، وخمسون فيلاً من فيول الحرب ، وقدر من الحصون والبلدان .

ونكت الأمير الهندوكى عهده ، حين زج فى السجن بفريق من رجال غزنة الذين كانوا يصحبونه لمراقبة تنفيذ ما صالح عليه سيدهم ، فجعلهم عذبة عوضاً عن رهائته لدى سبكتكين . واكتارت أخبار الخيانة والغدر ثائرة الأمير الغزنوى فانطلق من فوره إلى أرض عدوه .

وبرغم التفاف أصحاب آجمير ودملى وكلنجر وقنوج حول جيبال ، وما نهياً لهم جميعاً من جند كثيف نيف على مائة ألف من المعاقلة ، فقد أنزل سبكتكين بعصبة الأمراء الراجبوتيين هذه هزيمة حاسمة ، اضطروا من بعدها إلى طلب الصلح على أموال كثيرة مطلقة عدا ملاتكين من الفيول وعشرة آلاف من رموس الخيل سبقت كلها إلى بشاور^(١).

(١) تاريخ المتنبى على ملش لفتح لوهى للقاهرة ١٢٨٦هـ من ٨١ - ٨٦.

هذا وقد أدار صاحب غزوة دفة القتال في مهارة فائقة . ذلك إذ عبأ جنده القليل في وحدات قوم كل منها خمسمائة من المقاتلين طفقوا يتبادلون مراكزهم في الجبهة حتى أرمقوا عدوهم فأجهزوا عليه .

وكان من أثر انتصارات سيكتكين الباهرة هذه أن رجعت قبائل الأفغان والخليج عن صيبتها ولزمت طاعته والولاء له .

ولئن لم تكن حروب سيكتكين الهندية هذه إلا مجرد غزوات ، فهي التي مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين فيما بعد على كل حال .

محمود الغزنوي :

ومات سيكتكين في شعبان من عام ٢٨٧هـ / ٩٩٧م بعد أن حكم بلاده عشيرين عاماً ، تاركاً من رواقه مملكة واسعة مرهوبة الجانب .

ولأمر ما ، كان الأمير الغزنوي قد عهد قبل وفاته إلى ابنه الضعيف إسماعيل برغم ما عرف عنه من اعتكاده بابنه الأكبر ، بموئ الدولة محمود ، اعتكاداً شديداً حتى كان يروي للناس أنه تمثل له في الرؤيا قبل مولده شجرة نبئت فجأة في بستان داره فلأخت أغصانها تمتد في كل اتجاه حتى أظلت العالم أجمع .

على أن محمود استطاع بعد أشهر قليلة من وفاة أبيه أن يلزع الملك من أخيه على كل حال ويفرد بالأمر .

وما لبث محمود أن ورث ملكه السامانيين كله في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، كما قضى على سلطان البويهيين في الري ، وهزم السلاجقة والقره خانيين ، وتوغل في بلاد فارس ، وملك إقليم قزوين . هذا كما فتح بلاد الغور في الهند كوش ، فيما بين غزنة وهرات ، ونشر الإسلام بين أهلها على نطاق واسع لأول مرة .

وانتد راح محمود يعن ، من بادئ الأمر ، أنه قد أخذ على عاتقه الجهاد بسيفه في سبيل نشر تعاليم الإسلام الصحيحة والقضاء على الطرق المضللة من

رافضة وقرامطة وغيرهم . وكان يكتب في أثر كل نصر يحرزه إلى الخليفة العباسي ببغداد يزف إليه الفبا فوصل إليه منه التشجيع والتعزيد والدعاء .

وهكذا امتد سلطان محمود إلى أفلاق بعيدة ، وذاع صيته في أنحاء بلاد المسلمين . وما لبث هذا الأمير المحارب أن ولى وجهة شطر الهندستان ، التي رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر ، ففزاها سبع عشرة مرة في مدى سبعة وعشرين عاما ، فيما بين عامي ٣٩١هـ / ١٠٠٠م / ٤١٧هـ / ١٠٢٦م ، حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس إلى غزنة ومن الهملايا إلى الدكن .

هذا ومن المعروف أن الهند لم تكن غريبة على محمود فقد سبق له أن شاركه أباه في غزواته لها من قبل مما يسر له الإطلاع على أحوالها والوقوف على قدر غير قليل من أساليب القتال عند أهلها .

ولم تعد وأولى غزوات محمود الهندية تملكه بعض الحصون عند الحدود فولأها بعض رجاله . ثم رجع إلى الهند من جديد في شوال من العام التالي ٣٩١هـ / ١٠٠٠م على رأس عشرة آلاف مقاتل لاقى بهم جيش عدو أبيه السابق ، جيبيل راجا بها تنده ، عند بشاور ، وكان الأخير في اثني عشر ألفا من الفرسان وثلاثين ألفا من المشاة معها ثلاثمائة من الفيل .

واستمر القتال بين الفريقين في المحرم من العام التالي حتى أيد من الهانكا خمسة عشر ألفا وسقط أميرهم نفسه وفريق من حلفائه في أسر السلطان الغزنوي .

ورضى محمود آخر الأمر أن يفك إيسار خصومه على أموال طائلة وعدد كبير من قبيلة الحرب ، ورهائن كان من بينها ابن لجيبيل صاحب لاهور وولحد من حلفائه .

ولم يقو الأمير الهندي على احتمال ما لحقه من عار الانحمار ، فما لبث حين آب إلى دياره أن عرض نفسه على النار ، وفق رسوم قومه ، تكفيرا له عما ناله من هزائم متكررة على أيدي غزاة بلاده .

واتجه السلطان الغزنوي في غزواته الثالثة عام ٣٩٥هـ / ١٠٠٤-١٠٠٥م إلى بهيرة ، على جهام أحد روافد السند ، فضمها إلى ملكه ، ثم تركها إلى اللتان

مقام أبى الفتح الترمطى الذى ما لبث على أثر علمه بهزيمة حليفه أمير لا هور أن سعى إلى محمود يمرض عليه توبته مع طاعته ، على جزية سنوية مقدارها عشرون ألف درهم من الذهب .

ويبلغ محمودا وهو بالهند أخبار مهاجمة أمير قشغر لأملكه ، فأسرع بالعودة إلى بلاده بعد أن عهد بأملكه هناك إلى حفيد لجييال كان قد انضم إليه وأسلم على يديه . وهو الذى تعرفه الكتب العربية باسم نواسه شاه حفيد السنسكرىتى .

على أن صاحب غزنة لم يكد يستقر فى عاصمته بعض الوقت ، بعد أن أمن حدوده ، حتى بلغه خروج نائبه بالهند على سلطانه فأسرع إليه من قوره ، فلم يرجع عنه حتى اقتدى نفسه بأربعمائة ألف درهم .

وتحالف نواد صاحب المقتان مع أتنجبالا صاحب لا هور وابن جييال سالف الذكر على خلع طاعة محمود من جديد ، واستنهض الأخير لشد أثره هم الأمراء الراجبوتيين ، شجع من عرفتهم الهند ، وأرهب راجاوات أوجين وكواليار وكلنجر وقوج ودهلى وأجمير . ولم يكن أمراء الهندكة هؤلاء ليتقاصوا بطبيعة الحال عن نجدة واحد منهم . وقد تكشف لهم مدى ما يتهددهم من أخطار على أيدي السلطان الغزنوى .

ورحلت جيوش الهند مجتمعة للقاء جند المسلمين بأرض البنجاب ، ومن ورائها الشعب الهندوكى يتقانى أفرادا فى مداها بالزاد والعتاد فى حملات بالغ دفع النساء إلى تقديم طيهن فى سبيل الدفاع عن الوطن . ويرغم كثرة من ملك من جند المسلمين ، فقد واصل محمود القتال برجاله الستة الآلاف فى عنف بالغ وجد زائد . حتى إذا ما لوى أتنجبالا زمام فيه طلبا للهرب ، أفرغ الرعب صفوف الهندكة الكثيفة فراحلت الجند بدورها تلتصق الفرار . وهكذا قضى صاحب غزنة آخر الأمور القضاة القائم على جيوش الهند المتحدة واستولى على ما كان معها من عتاد طلائع وكوز ، ليتطلىق من بعد ذلك قائداه عبد الله وأرسلان بطاردان قول العدو المنهزم يومين كاملين .

واتدفع محمود إثر هذا الانتصار الكبير إلى حصن نكركت ، الذى يصرف أيضا باسم بهيمنكر ، وكان يقوم على تل فى منطقة السهول الغنية بسفوح الهملايا ، وبه كانت تكمن الأموال الكثيرة مما كان يقرب به الهنادكة إلى آلهم . وما لبث حراس هذا الحصن ، وكانوا كهنة مسالمين ينكرون الحروب وإزالة الدماء ، أن استسلموا للغزاة دون قتال . وقد وصف العتي مؤرخ السلطان محمود ، ما كانت عليه كنوز هذا الحصن من الكثرة البالغة فقال : « نقل منها (أى محمود) ما ألفتته ظهور رحالة واستحمل سائرها أعيان رجاله (١) » .

هذا والواقع أن الهند كانت ومازالت إلى قرون قليلة تزخر دور أعيانها وحصون أمراتها بثروات وكنوز طائلة مما لا تكاد الآن تصدقه . وقد رجع محمود من إحدى غزواته ذات مرة ومعه أربعة آلاف بغير تكاد تنوء بأحمالها من الأموال والغنائم . بل لقد كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم ألوانى الفضة لتلقاها بمل كانوا يصلون من ذهب كثير وجواهر . ومن المعروف المشهور أن أدوات المعابد الهندية وأكثرها الأنية التى كان يزخر بها دور الأغنياء ، لم تكن فى الغالب إلا من الذهب الخالص ، وكذلك السكة المتداولة بين الناس .

ولئن كانت فكرة الجهاد التى تسلطت على محمود ورجاله وأشریت بها نفوسهم ، هى التى دفعت بهم إلى توالى غزوهم للهند ، هذا بالإضافة إلى ما كان لكنوز هذه البلاد وثرائها الطائل من إغراء ، فقد كان من العوامل البارزة التى ساعدت على فتصارهم كذلك ما كان يغلب على الأمراء الهنادكة من تحلل اجتماعى جعلهم أبدا يقيمون مصالحهم الخاصة ومآربهم الشخصية على كل شئ فلا يبيغون عنها حولا ، ولو عني بقدر ضئيل ، فى سبيل الهند أهمهم الكبرى . وهكذا كانت الثقة والتعاسك والتعاون لا وجود لها بينهم ، فلم تكن بذلك كثرتهم البالغة عنهم شيئا أمام الغزاة الذين كانوا على قلة عددهم مجتمعين على إخلاص تام لهندهم فى تعاون ونظام وثيق محكم .

وضائق محمود آخر الأمر ذرعا بمؤامرات داود القرمطى ، صاحب الملتان ، فخرج إليه من جديد عام ٤٠١هـ / ١٠١٠م بعد أن قضى على قنن بلاد الغور ، فما زال به حتى أوقعه فى أسره فحسبه فى حصن جوراك ، فلم يرجع عن الهند حتى قضى على دولته قضاء تاما وخرّب المنصورة قاعدته.

هذا كما طارد جند غزنة راجا بهيمبال ، حفيد جيپال ، حتى كشمير وإلى محمود يرد الفضل فى نشر الإسلام بهذا الإقليم الجبلى الواسع .

كذلك تمكن السلطان الغزنوى من انتزاع حصن ثيسر من جموع الهنادكة الحربية التى استماتت فى الدفاع عنه ، فحطم ما كان به من أصنام واستولى على ما وجده به من أموال ونفائس كثيرة .

وهكذا دأب الغزاة لإقليم البنجاب كله وما حوله ، فأصبح الطريق إلى سهول الهند نفسها مهدا أمامهم وما هم أولاء يتضاعف عددهم يوما بعد يوم بفضل ما كان يقد إليهم من محاربي خراسان والتركستان وبلاد ما وراء النهر الذين استهووهم انتصارات محمود الكثيرة وغنائمه التى لا تتخل تحت حصر فصار بهم وجهته قنوج ، ذرة ولايات الهند الشمالية وأندما . فما أن عبرت جند المسلمين جمنه حتى برز إليهم هاردانا ، راجا باران التى تعرف اليوم ببلند شهر ، ومعه عشرة آلاف من رجاله مطلقوا ، على حد قول ابن الأثير ، ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص.

وما لبث حصن مهاون على جمنه أن سقط بدوره فى أيدي الغزاة بعد أن هلك من حماه خمسون ألفا ابتلعهم النهر . ولم يطق صاحبه الأمير الهندوكى كلجند وقع الهزيمة على نفسه فقتل زوجه ونفسه حزنا على ما أصابه .

كذلك لم تقن قليلا مقاومة أصحاب مترا فستطت مدينة الهنادكة المقدسة هذه وما بها من أموال فى أيدي محمود .

واشرف محمود آخر الأمر على قنوج عام ٤١٠هـ / ١٠١٩م وكلفت أخبار انتصاراته قد سبقته إليها ، فاستسلم له صاحبها راجا بيلله من فسورة دون أدنى مقاومة وفتح خزان كوزره .

على أن الأمراء الرجيو تبين الذين ملكهم التخيظ فاحتقوا على زعيمهم لاستسلامه لجند المسلمين ، ما ليثوا ، غداة رحيل محمود عنهم ، أن ندبوا هينوا هار بن جند له راجا كلنجر يعلونه راجا كواليار ، فما زال راجا بياله حتى أوقعاه في الأسر فقتل صبراً .

وأثار الخبر ثائرة السلطان الغزنوى فارتد من فورهِ إلى الهند ليماقلب هؤلاء الأمراء على قلعته . ولقد هم محمود حين رأى حشود الهنداكة الكثيفة أن يرجع عن قتلها لولا أن مجرد ظهوره في الميدان ألقى الرعب في قلوب أعدائه فانقرط عقدم لساعته وتطلقوا هارين لا يلوون على شيء .

وعاد محمود إلى الهند من جديد ففى عام ١٤١٢هـ / ١٠٢١ / ١٠٢٢م فاضزع كواليار لسلطانه . كما صالح راجا جندله على أموال طائلة مع طاعته .

ولئن كان غزو قوج يعد من بين وقائع محمود الحربية الباهرة ، فإن فتح الكجرات وسومات هو دون شك أعظم انتصاراته الهندية جميعاً ، فقد فلق ما لاقاه محمود من مصاعب ومتاعب في هذه الغزوة ، ما علاه كل الذين سبقوه إلى دخول هذه البلاد وفهم الإسكندر المقدوني نفسه .

وقد انتهت هذه الواقعة ، التي تعد آخر غزوات محمود الهندية الكبرى ، إلى إزال أكبر ضربة بالأمراء الرجيو تبين ، فضاغ من بعدها كل أمل لهم لى استرداد سابق هيبتهم بالهند : وما لبث خلفاء محمود آخر الأمر أن اضطروهم إلى الهجرة إلى المنطقة الصحراوية الوعرة التي تعرف اليوم باسمهم حيث ألحق فريق منهم الاحتفاظ باستقلاله هناك إلى حين .

ولقد اتحم محمود في طريقه إلى الكجرات عام ٤١٦-٤١٧هـ / ١٠٢٥-١٠٢٦م ، مفازة جرداء قاحلة مترامية الأطراف وسعة المسالك هي صحراء الثار أكبر صحراوات الهند ، فكانت قوة جلده واحتمال رجاله وشدة بأسهم مثال الدهشة والعجب .

واستولى محمود ، وهو فى طريقه إلى هدفه ، على أجير ونهرواله ، ثم ظهر آخر الأمر أمام سومات فوجد الأمراء الراجيو تيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهانداكة الأكبر بها ، وعليهم بهيم ديو صاحب الكجرات ومعه راجا نهرواله وأمراء بهاتى . والتحم الفريقان فى قتال عنيف انتهى إلى مذبحه دامية سقط فيها خمسون ألفا من الهانداكة مر الغزاة على أشلائهم إلى داخل الحصون .

هذا ومعبد سومات قداسة عظمى عند الهانداكة ، حتى إنهم ياندروا من فورهم إلى تجديده غداة قيام جمهورية الهند الجديدة ، أى بعد مضى أكثر من تسعة قرون على تكدير محمود له .

ويصف المؤرخون مصلى الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبا ذا ست وخمسين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر ، وذا ألوف من التماثيل للمصنوعة من الذهب والفضة والمحيطلة بهيكله ، وذا صنم ضخم فى وسطه وقد رصع بالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة .

ويعتقد الهانداكة أن الأرواح تتناسخ فى الأبدان عتده ، فهو ينشئها فى الأبدان كيف يشاء ، وأن المد والجزر إن هما إلا صلاة البحر يؤديها لصنمهم الأكبر هناك . هذا وقد كان الناس يحجون إليه فى جموع زلخرة لا سيما عند خسوف القمر^(١) .

وكان فيه من السدنة ألفان من البراهمه ، ومن الرقصات المنشدات خمسمائة وكان هؤلاء جميعا أن يقوموا عند الحجى ، على جلجلة سلسلة غليظة من الذهب فيقضوا مناسكهم لمعبودهم الأكبر .

ومن البديهي أن محمودا لم يكن ليخطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء التار هذه لمجرد تحطيم صنم أو الاستيلاء على ما بمعبد هندوكى من أموال . فواقع الأمر أن هذا المعبد كان أخطر مراكز المقاومة والعدو لاد الهندوكى طرا ، كما كان يتخذ فى الوقت نفسه مثابة للأموال التى كان ينفق على الأصنام الحربية .

(١) ابن الأثير تسع ص ١٤٢ ، ١٤٣ حولت سنة ٤١٦ هـ ٢٨٨٠

ولم يضر محمود أراجا نهروا له وأمرأه بهاتى معلوتهم أراجاكو الويسار فى
الدفاع عن سومنات فهاجم بلادهم وهو فى طريقه إلى عاصمته علقنا من سومنات
واستولى عليها .

وكان آخر غزوات صاحب غزنة الهندية حملة نهريه لتأديب قبائل اللزط عند
الحاجز الملحي بالبنجاب ، وكانت هذه القبائل قد اشتد نشاطها بعد انفراط عقد إمارة
لاهور الهندية فلأخذت تعيث فى الأرض فسادا حتى هاجمت أطراف جيوش غزنة
مرات متكررة إبان زحفها بأرض الهند .

هذا ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية صوما هسى مجرد جمع
الأموال لنصب ، كما يقول بذلك بعض المؤرخين ، إذن لقبل ما عرضه عليه
الهنداكة من اقتداء صدم سومنات بالأموال الطائلة ، ولما رد عليهم بقوله المشهور
بأنه يؤثر أن ينسحق الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع الأوثان .

وفى هذا يتحدث عنه المؤرخ الهندوكى براساد فيقول^(١) « إن محمودا أبعد
فى نظر المسلمين حتى اليوم غازيا ومجاهدا كبيرا أخذنا على نفسه مهمة القضاء
على الشرك فى مهد الوثنية . وهو فى نفس الوقت عند الهنداكة طاغية مغرب
حطم مقدساتهم ودمر معابدهم وأذى شعورهم الدينى فى كثير . ولكن المؤرخ
المنصف حين لا يسقط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه ، وسماته
واعتباراته ، لا يسعه إلا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من خيرى القادة
والزعماء وحاكما حازما عبقريا من الطراز الأول ، انصف بالعدالة ورعاية الفنون
والعلوم فهو جنير بأن يعد من بين أعظم الملوك طرا^(٢) » .

والحق أن محمود الغزنوى كان من أعظم سلاطين المسلمين ، وقد وسع ملكه
الأول إلى سلطنة مترامية الأطراف امتدت من بهار فى شرق الهند إلى فارس .

(١) Prasad, Medieval India 71.77.

(٢) كذلك يشيد المؤرخ لين بول بمحمود فيقول : « إن ذلك السلطان الذى أنشأ تلك المنشآت
الفخمة بتزينة وأقام دور العلم ورحى العلماء حتى كان وجود عليهم بما لا يقل ، عما يعادل
مابنى لنا من الجنيهات كل عام ، فضلا عما كان يجرى على طلبه العلم من الأرزاق ،
لا يمكن أن يملك فى زمرة الحكماء البرابرة » . Med. India pp. 81.2.

وكان ممن ساعد على انطلاق صغريته الحرية الممتلئة إلى تلمين مؤخرته حين أقبل على الهند غازيا ، فضلا عن شيوع الخلاف بين أمراء الهنادكة أنفسهم . وقد تيسر لمحمود ، إلى جانب ذلك كله ، عون رجال أكفاء تمكنت عقيدة الجهاد من أنفسهم فتغلبوا في خدمته ، وإن خلوا ، مع الأسف من الخبرة للكتابة في الإدارة والحكومة .

وقد شغف محمود بالهندستان شغفا زائدا وأعجبه جو الكجرات خاصة فمال إلى الإقامة الدائمة هناك ، على أن ينيب ابنه عنه بغزنة . لكن رجاله عاودهم الحنين إلى منازل قبائلهم ومرعى بلادهم الخضراء وبساتينها ، كما ضايقهم حر الهند وعجزوا عن احتماله .

هذا وقد عرف محمود ، إلى جانب شهرته الحرية ، برعايته للعلوم والآداب وعظيم بذله لأربابها والمشتغلين بها ، حتى قصودوا بلاطه من مختلف الأقاليم الإسلامية . وكان من بين علماء محمود ، البيروني العلامة الرياضي والفيلسوف الفلكي العالم بلغات الهند وثقافتها وحضارتها ، والذي تعد كتبه أعظم ما عرف المسلمون عن حياة الهنادكة الاجتماعية والسياسية والعقالية على السواء ، ثم العتيبي الوزير صاحب تاريخ اليميني والبيهقي صاحب تاريخ آل سبكتكين ، والفارابي الموسيقي الفيلسوف^(١) .

لما الشعراء فكان على رأسهم النعماني الفارسي الذي بايعه الزعامة أربعمئة منهم بيلاط محمود ، ثم الفرخي والسجدي . كما نزل في بلاطه ، وعاش في كنفه فترة من الزمن ، الفردوسي صاحب الشاهنامة وأبعد شعراء الفرس ميثا وأخلداهم ذكرا . وإن كان محمود قد خيب رجاء الشاعر فيه فحين ، من أثر الوثابة بما كان يأمله عنده^(٢) .

(١) تاريخ فرشته لمل محمد قاسم هندوشاه طبع لكر ١٣٢٢ هـ جلد أول ص ٢٩ .

(٢) قيل إن مصودا كان قد ندم على ضنه بمكافأة الفردوسي حين قدم له الشاهنامة ، فأمر بإرسال عناوين إليه . فدخلت المير بأصلها من باب رودبار في طهران حيث كان يقام الشاعر في الوقت الذي كتبت جنارة الفردوس تخرج فيه من باب رزان بنس المدينة . (جهار مقالته لتنظامي السمر قادي ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب - القاهرة ١٩٤٩ ص ٥٩) .

ومن أسف أن للبناء العظيم الذى أكمه محمود سرعان ما أخذ ينهار بين أيدي خلقائه الذين أبطروهم ما تركه سلطانهم بخزائن ملكه من ثروات طائلة . فأنصرفوا ورجالهم فى الغالب عن إتمام ما بدأه عاهلهم العظيم ، أو المحافظة عليه ، إلى الجدل وحياة الترف.

خلفاء محمود :

توفى السلطان محمود الغزنوى عام ٤٧١هـ/١٠٣١م بعد أن أوصى بملكه لابنه محمد جلال الدولة دون ولده الأكبر مسعود .

وإذ بلغ مسعود الخبر كتب من فورهِ إلى أخيه السلطان الجديد يطلب إليه أن يقره على البلاد التى كان قد تولى أمر فتحها ، وهى طبرستان وأصبهان وما حولها ، على أن يقدمه على نفسه فى الخطبة . فلم يكن من محمد إلا أن أغلظ فى الرد على أخيه وقد عزم على الخروج لتكليه برغم نصيح خلصائه له بالجنوح إلى المهادنة والعلم^(١) .

وما لبث جند غزنة أن غدرت بأمرها الجديد فى الطريق فألقت به فى الحبس وهو فى سكره وسملت عينه ، ثم كتب قوادهم إلى مسعود يستكفونه إليهم ، وكان يؤثرونه على أخيه لشجاعته وطموحه .

هذا والواقع أن السلطان محمود كان قد عهد لابنه الأكبر أول الأمر عام ٤٠٦هـ/١٠١٦م ، ثم واه هراه ويحث به لمحاربة الغوريين . ويرغم حسن بلاء مسعود ، فإن أباه ما لبث بفعل الوشاة أن غضب عليه وعزله من ولاية العهد ، ثم طابت نفسه من جديد فعفا عن ولده وردّه إلى هراة دون ولاية العهد .

وكانت صفات مسعود العالية كقيلة بأن تسير به فى طريق المجد الذى ملكه أبوه من قبل لولا ما كان من سرعة استجابته ، فى الغالب ، لاعتناق النسطورية بلطه وإعراضه مرات كثيرة عن الاستماع لنصح وزيريهِ المجريين ، خواجه أبى

(١) تاريخ اليبقى . القاهرة ١٩٥٦ من ٨١ وما بعدها .

القاسم بن الحسن الميمنى وخواجة أحمد عبد الصمد، فأدى ذلك كله آخر الأمر إلى التعجيل بنهاية الدولة الغزنوية ، المترامية الأطراف ، وتقويض أركانها .

فلقد بعث السلطان بقائده أحمد بن ينالتكين نائباً له على أملاكه الهندية فكان من جراء استيلاء هذا القائد على بنارس وما غنمه فيها من كنوز وأموال كثيرة أن دب الحقد والحسد في نفس عبد الله قاضى شيراز الذى كان يشاركه الحكومة الهندية، فطلق يبعث برسائله تترى إلى بلاط غزنة طافحة بالثبم لقائد مسعود بالهند، حتى أفلح منافسوا ابن ينالتكين هناك فى أن يلقوا فى روع السلطان ، آخر الأمر ، أن نائبه بهم بالاستئثار بالأمر كله بالهند واستخلاصها لنفسه^(١) .

والحق أن مسعوداً قد اصطنع التريث طويلاً هذه المرة قبل أن يقطع برأى فى شأن قائده بالهند . حتى إذا خرج من غزنة للقضاء على القوائل التى نشبت فى ختلان وخراسان ويخارى فبلغ العراق من بعد ذلك ، ولفته الأخبار بشغبك قوات ابن ينالتكين مع جند قاضى شيراز عند لاهور ، وكان الأخير قد ألقح فى تآليب سكان البهجاب على من نفسه . فخشى السلطان استفحال شأن نائبه بالهندستان فسير إليه هندوكيا من رجاله ، يدعى تلك كان على قدر كبير من الشجاعة وعلو الهمة^(٢) .

وما إن ظهر مبعوث السلطان بقواته عند لاهور حتى انتشر الفرع بين صفوف عدوه ، فافتقش أغلب الجند من حول بن ينالتكين الذى ظل يحارب فى شجاعة خارقة ، مع قلة ثبكت ، معه حتى نالته حيلة سهام فريق من الزط وسيوفهم طمعاً فى مكافأة مالية كان قد جعلها تلك لمن ياتيه برأس غريمه^(٣) .

ولما ما كان الحال . فلو أن مسعوداً لم يسهى الظن بقائده ومملكه معه سبيل المودة واللين ، دون الاستجابة آخر الأمر لطلبات قاضى شيراز وعصبيته ، لَمَا

(١) كان الوزير الميمنى يكن القاضى كراهية شديدة منذ أن رشح للوزارة بدله ليام محمود .
البيهقى ص ٢٩٤ .

(٢) تاريخ البيهقى ص ٤٢٠ .

(٣) تاريخ البيهقى ص ٤٦٠ ، ٦١ .

احتاج إلى تسييره لجيوش لقتال ذلك القائد الحازم الذين كان كفولا بتدعيم سلطان الغزنويين في الهند والوقوف في وجه السلاجقة الذين كانوا قد طلقوا يهددون بلاد السلطان .

واستبد بمسعود الفرح بالتصارات تلك فعقد للعزم على الخروج إلى الهند غير ملتفت إلى تحذيرات وزيره الشيخ له من حرج الحالة عند حدوده الغربية بسبب الخطر السلجوقي^(١) .

وهكذا بارح السلطان الغزنوي عاصمته مستهل عام ٤٢٩ / ١٠٣٧م لتحقيق حلمه القديم بالاستيلاء على حصن هانسي الهندوكي الكبير فلم يبلغه إلا أواخر ربيع الأول . ذلك أن الداء ألقه أسبوعين بأكملهما عند جهلم أحد روافد السند حتى نثر إن رزق الشفاء أن يقلع عن تناول الشراب ويحرمه على رجاله وأهل بلاطه . وقد بر فعلا بعده .

وما إن فرغ مسعود من أمر هذا الحصن ، بعد قتال عنيف ، حتى واصل زحفه إلى سببات عند الشمال القريب من دهلي ، فإذا بأهلها تنطلق منها إلى الغابات القريبة فراراً من وجه الغزاة الذين أصابوا فيها مقام كثيرة .

وانتهز السلاجقة فرصة غياب صاحب غزنة بالهند ، فهاجم بهم زعيمهم طغرل بك بلاد السلطان حتى استولوا على نيمابور ووسطوا سلطانهم على خراسان ضاربين عرض الحائط بما كان بينهم وبين مسعود من موافق التزاموا بها بعد هزيمة جلده لهم عام ٤٢٤ هـ / ١٠٣٢م^(٢) .

(١) تاريخ اليبهقي ص ٥٧٥ وما بعدها .

(٢) كان السلاجقة أول أمرهم جند مرتزقة عاروا بالجرأة والكبرياء ، والاستهانة بمن سواهم ، حتى اضطر محمود إلى سلوك ميليل العنف معهم . حتى إذا ما استعان بهم بمسعود لتقوية جيشه فسلك معهم سياسة غير رشيدة ، تقام خطرهم ليتهم أمرهم بالاستيلاء على ملك الغزنويين - اليبهقي (المقدمة) ص ٢٦ ، ٣٥ .

وحين خرج مسعود لملاقاة هؤلاء الغزاة في رجب من عام ٤٣٢هـ -
١٠٤٠م فالتحم بهم عند دندانقان بالقرب من مرو ، ومنى بهزيمة حاسمة تقرر على
أثرها مصير الدولة الغزنوية في خارج الهند وداخلها .

ذلك أن مسعود أصر بعد هذه الواقعة على الهجرة إلى الهند برغم إلحاح
وزيره أحمد عبد الصمد عليه بالبقاء في غزنة فخرج في ركب كبير شمل أهل بيته
وخلصائه مع كنوزه وأمواله ، وفي خاطره أن يتهاى له بالهند جمع جيش قوى كبير
يبحر به السلاجقة ، فلم يكد يبحر السند فبلغ قلعة هاريكله بين أتوك وروالبندري ،
حتى وثب عليه غلمانه من الأتراك والهنود ملما في خزائنه ، فخلعوه وزجوا به
في القلعة ، ثم نادوا مكلته بأخيه محمد ، وكان ناظرا قد سلا كما ذكرنا من قبل .
وحبس مسعود في حصن كبرى حتى قتله الأمير أحمد ابن أخيه في عام ٤٣٣هـ :

وبموت مسعود طويت صفحة حاكم معلم نابِه رعى العلم والعلماء والتفت
التفات كبرا إلى الإنشاء والتصميم حتى خصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد
والرباطات التي أنشأها .

ولقد استطاع هذا السلطان الكبير أن يحتفظ مدة غير قصيرة بركة ملكه التي
امتدت وقت ما من العراق حتى حدود الهند الشرقية . لكن القدر ، على حد قول
مؤرخه البيهقي ، دفعه إلى ارتكاب الخطأ الأكبر الذي قرر مصير دولته ، وذلك
حين أصم لذنبه عن الاستماع إلى مشورة رجاله فقرر الرحيل إلى الهند بعد واقعة
دندانقان بدلا من التحصن في غزنة ومحاولة دفع خطر السلاجقة عن حدوده (١) .
ذلك أن الحوادث قد برهنت على قيام مخاوفه على غير أساس ، إذ كان هم السلاجة
الأكبر في التوسع منصرفا في الواقع صوب فارس ، دون التفات جدى كبير نحو
غزنة والشرق عموما . امرأعي خراسان كانت أحب إليهم وأثر من تلك الأفغان
وما وراءها ، وناهيك ببلاد فارس الغنية التي كانوا استولوا عليها ثم طفقوا
يوسعون في فتوحاتهم حتى بلغوا شواطئ بحر الروم .

(١) البيهقي (المقدمة) ص ٣٧ ، ٣٨ .

ولم يطل الأمر بمحمد على عرش غزنة ، فقد برز إليه من خراسان ، مودود بن مسعود يطالب بدم أبيه . فالتقى به عند الدينور ، على طريق كابل وبشاور ، فهزمه . ودخل غزنة حيث انتقم لمقتل أبيه من عمه وأولاده ، وجميع من خانوا عهد مسعود .

وقوى انتصار مودود من عزيمة الأهلين في الأقاليم الغزنوية التي كان السلاجقة قد دخلوها ، فثاروا في وجه المحتلين وأجلوهم عن أغلبها .

وما لبث السلطان الجديد أن بوغث بعصيان أخيه مجدود ، وكان أبوه قد ولاه البنجاب فأعلن استقلاله به ثم سار على رأس قواته نحو غزنة ولكن الأجل والمآل بلا هور بعد قليل .

وكان من جراء ثورة مجدود هذه أن ركن بعض أمراء الهانكة بدورهم إلى الثورة حتى بلغوا لاهور نفسها وحاصروها . لكن جند الغزنويين ردتهم آخر الأمر عنها وثبتت ما تزعم من نفوذ المسلمين وهيتهم في شمال شبه القارة الهندية كله .

ووالى مودود أجله عام ٤٤١هـ / ١٠٤٩ ، وهو يعد المدة لحرب السلاجقة الذين كانوا قد غدوا يرهبون جانبه ، بعد أن أتبع له الوقوف في وجههم واسترداد جزء كبير مما بأيديهم من أملاك الغزنويين .

وخلف مودود طائفة من الأمراء الضعاف ، استطاع السلاجقة في عهدهم اقتطاع أجزاء كثيرة من أراضي الدولة . حتى رقى العرش إبراهيم بن مسعود فأفلق بحزمه في تنظيم شئون الدولة ، كما ألزم قبائل الترك والأفغان طاعته وهادن السلاجقة ، وأقر الأمور في الهندستان .

وعن لخليفته علاء الدين مسعود أن يكفى نفسه شر السلاجقة فأصهر إلى سلاطنتهم منجر ، ففتح بصنيعه هذا الباب على مصراعيه لتدخل السلاجقة في شئون الدولة حتى قضوا على استقلالها .

ذلك أن السلطان السلجوقي سرعان ما ظهر بجلده في غزنة على أثر وفاة علاء الدين فأنزله عن عرشها الأمير أرسلان ثالثة لدعوة أخته أرملة السلطان

الغزنوى وكانت على شقاق مع هذا الأمير الجديد الذى اضطر من بعد ذلك إلى النزوح إلى الهند حيث ولقاءه هناك عام ٥١١هـ - ١١١٧م .

وارتقى الأمير بهرام عرش غزنة فى ظل السلاجقة ، فعمل على أن يفيد من تحولهم صوب فارس بالتهنئة بدولته من جديد ، جهد فى إقرار الأمور فى الهندستان ، خصوصا ، تقضى على فتن التيجاب والملائان ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور ، وكانت الآمال قد بعثت فى أنفسهم من جديد لطردهم الغزاة من بلادهم .

وهكذا كاد بهرام أن يستعيد الغزنويين ما ضاع منهم من أراض ونفوذ ، وقد اتجلى عنهم خطر السلاجقة وثبتت أقدامهم بالهند من جديد ، أولا ما كان من قيام النزاع بينه وبين ملوك الغور الذين كانوا ينزلون فيما بين غزاة وهراء .

وكان هؤلاء الغزاة المحاربون من خيرة جند محمود الذين تصروه فى أعظم حروبه وغزواته ، ولكنهم حين بدا لهم الضعف فى حلقته لم يترددوا فى الجهر بالخروج عليهم .

وبلغ التوتر بين الفريقين غايته حين سبق إلى القتل ، بأمر من بهرام زعيم غورى يدعى الأمير سورى . هنالك وإلى الغوريون هجومهم على غزنة حتى ألحق زعيمهم علاء الدين حسين فى دخولها ، ليستردوا بهرام منهم ثغاية بفضل قواته الهندية .

ومات بهرام عام ٥٤٧هـ - ١١٥٢م فخلفه ابنه خسرو الذى ما لبث أن فر إلى الهند على إثر انتحار قبائل التركمان لعاصمته بعد هزيمتهم للسلطان سنجر السلجوقي . وانتهاز الغوريون فرصة الفوضى التى عصت البلاد أثر للغزو التركمانى فانتفضوا على غزنة فأصلوا فيها للتخريب والنهب والتكمير حتى نبشوا قبور السلاطين الغزنويين جميعا إلا مثنى السلطان محمود .

هذا وقد قصد خسرو عاصمته من جديد ولكنه ما أن أحبط بمقتل السلطان سنجر على أيدي التركمان وضياح ملكه حتى أرتد ثانية إلى الهند حيث قضى بلاهور عام ٥٥٥هـ - ١١٦٢م .

وتفانم خطر الغوريين واشتد ساعدهم فحارب زعيمهم ، غياث الدين ابن سام ، الغز التركمان ، وبسط سلطانه على غزنة التى عهد بها وإقليم كابل إلى أخيه معز الدين بن سام الذى تذكره كتب التاريخ باسم محمد الغورى .

وما زال الغوريون يخسرو وابنه بهرام شاه الثانى آخر سلاطين الغزنويين يطاردونهما بالهندستان حتى قتلوهما . وبذلك انتهت سيرة دولة صمرت قرنين من الزمان ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند .

وإئن كان ظهور الدولة الغزنوية يمثل أول انتصار كبير للطغمر التركى فى صراعه مع العنصر الفارسى على سيادة العالم الإسلامى الشرقى على الخصوص إذ ذاك ، فإن هذه الدولة لم تستطع ، على كل حال ، إلا أن تترسم فى الحكم نظم ما سبقها من الدويلات الفارسية كالصفارية والسمانية . بل إن أصحابها بذلوا جهدا مشكورا فى تشجيع الثقافة الفارسية ففروا إليهم كل من استطاعوا دعوته إليهم من شعراء الفرس وعلماهم إلى جانب غيرهم من أعلام البلاد الإسلامية الأخرى .

على أن اعتماد السلاطين الغزنويين على قوة السيف وحده فى المحافظة على ملكهم ، دون النظر ، فى الغالب إلى إقامة الحكومة والإدارة على أساس صالح ونظام سليم ، قد أدى إلى تكادى بناء الدولة كله حين تراخت الأيدي التى كانت تقبض على هذا السوف .

هذا إلى جانب تهاكك أغلب الحكام ورجال الدولة أنفسهم على حياة البذخ والترف بسبب ما أصابوه من ثروات الهند وكثورها الطائلة ، حتى تمكن منهم السلاجقة ثم التركمان وأخيرا الغوريون الذين ورثوهم .

الغوريون

ما إن انتهزت الدولة الغزنوية على أيدي السلاجقة والغز ، فأخذت الاضطرابات والفتن تحتاج غزنة وكابل وكافة أملاك المسلمين في الهندستان، حتى ظهر أمراء الغور والأفغان وعلى رأسهم زعيمهم معز الدين ابن مسام المعروف باسم محمد الغوري ، وكافوا رجال حرب مبرزين ، فسيطروا على غزنة وما حولها ثم فطلقوا بجندهم إلى أرض الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين هناك من الضياع .

ذلك أن أمراء الهند الراجبوي تبين كانوا ، منذ أن لمسوا ضعف الدولة الغزنوية ، قد طفقوا ، هم وبقايا القرامطة الإسماعيلية يتخطفون أملاكها ويثيرون الفتن والاضطرابات بين سكانها .

ولقد جاب السلطان الغوري الهندستان غازياً من البنجاب إلى البنغال في فتوحات متواصلة خلال ثلاثين عاماً بدأها باستخلاص الملتان من أيدي القرامطة عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م ثم استولى على بشاور وأخضع السند جميعه لسلطانه حتى البحر برغم ما تعرضت له جيوشه من خسائر فادحة على أيدي بهيم ديو راجا نهرواله .

واستعصى حصن لاهور ، أول الأمر ، على صاحب غزنة الجديد فهادن صاحبه الأمير خسرو ملك الغزنوي ثم قتل راجعاً إلى عاصمته .

وزينت قبائل الكهكر الهندية ، على أثر ذلك لخسرو أن يزحف على حصن سيالكوت ويستولى عليه . فما أن علم بذلك السلطان الغوري حتى خرج إليه من فورهِ ، فلم يزل في زحفه حتى استولى على لاهور نفسها وأوقع في أسره الأمير الغزنوي الذي سيق إلى قلعة فيروز بيلاد الغور حيث أورد الردي عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م .

وقد لاقى ابنه بهرام شاء الثاني نفس المصير من بعد ذلك بتأجيل . وبموت هذين الأميرين قضى على كل سلطان لال سيكتكين ، وانتقلت أملاكهم ، سواء في داخل الهند أو في خارجها إلى أيدي الغوريين .

ولئن كان صاحب غزنة الجديد قد أصبح وله السلطان المطلق على البنجاب والسند ، فقد كان عليه أن يقطع شوطا بعيدا حتى يسترد كافة الأراضي الهندية الغزنوية التي سقطت على كثير منها الأمراء الراجبوتيون ، وكانوا قد عقدوا فيما بينهم حلفا حرييا لمدافعة من يقدم عليهم من غزاة المسلمين .

على أن هؤلاء الأمراء ، على شدة مراسهم في الحروب وكثافة جندهم ، كانت طباعهم الإنقطاعية ومصالحهم الفردية غالبا ما تطغى ، حتى في أوقات المحن ، على مصلحة الوطن الهندي العليا . هذا كما كان نظام الطبقات الهندوكى وجوده الصارمة من أخطر العوامل التي كانت تحطم معنويات عامة المحاربين فستزعزع كيان النظام الحربى كله بالتالى . ذلك أن المحارب الهندوكى العادى ، مهما أوتى من الجرأة والبسالة فى القتال ، لم يكن له أن يتطلع إلى مناصب القيادة التى كانت وقفا على أبناء الطبقات العليا بغض النظر عن كثافتهم الحربية . على تقويض الأمر فى جيوش المسلمين حيث الباب مفتوح أما كل جندى للوصول إلى أعلى مراتب القيادة ما أظهر من شجاعة وتمرس بالقتال وكفاءة فى الحرب .

وإلى هذه النقائص مجتمعة يرد أغلب السبب فى نقائص جحافل الهنادكة أمام جند المسلمين الذين كانت عقيدة الجهاد تتمكن من نفوسهم تمكنا ثابتا يعيد الغور .

هذا وكان أشهر الأمراء الراجبوتيين هم أصحاب كتوج ودھلى ، وإليهم فى المكانة أمراء آجمير وبهار والبنغال والكجرات وبند لخاند . وجميع هذه الإمارات تقع فى شمال شبه القارة الهندية ، وهو القسم الذى لصطلح المؤرخون على تسميته بالهندستان ، وفيه تقع أعظم أنهار هذه البلاد وأخصب أراضيها ، وأكثر مناطقها السكانية بالتالى :

وخرج السلطان الغورى إلى الهند عام ٥٩١هـ / ١١٩٤ فى قوات كثيرة . فما إن بلغ سر هند ، عند حدود البنجاب الشرقية ، حتى علم بحشود الهندوس التى بلغت مائتى ألفا من المحاربين وثلاثة آلاف من التيول .

والتقى الجمعان عند ترين ، على مقربة من ثيسر ، فلم يستطع جند المسلمين الثبات أمام عنف حملات الهنادكة وتدفق قواتهم ، ودق مركز السلطان نفسه حتى

أصيب بجراح شديدة وهو يُقتل بنفسه ، وكاد يضيع في الميدان من فرط ما بذل من جهود خارقة ، لولا أن بصر به أحد الجند الخليجين فأطلق به حتى أبلغه مأمنه. ولم يستطع جند غزنة أن يلم شمله من جديد إلا بعد ارتداد طويل بلغ الأربعين من الأمال ، فتبثوا في مراكزهم ، ودفعوا عنهم كل هجوم شُن عليهم .

ولم يكن محمد الغوري ليُسكت عن هذه الصدمة العنيفة التي لم يتلقى المسلمون مثيلاً لها بأرض الهند من قبل ، فعاد إلى أعدائه في العام التالي على رأس مائة وعشرين ألفاً من المقاتلين الأشداء ، من أتراك وأفغان وغيرهم ، كان عليهم أن يَنَازِلُوا ثلاثمائة ألف من فرسان الهنادكة ، مع ثلاثة آلاف من قيلة الحرب ، استعدوا للقائهم يقودهم بريتي راجا صاحب دهلِي وتكوج .

ولم يفت تفوق الهنادكة الساحق في عضد صاحب غزنة ، فرسم خطته على أن ينطلق من بين صفوفه أربع فرق ، قوام كل واحدة منها عشرة آلاف رجل ، فتوالى مهاجمة العدو من كل جانب ثم يرتد أفرادها متفرقين على أثر كل هجوم بهيئة من يَلر من الميدان .

وإذا أدى نجاح هذه الخطة إلى إرهاب قوى العدو إرهاباً شديداً وتشبثت جموعه ، برز السلطان بنفسه على رأس اثني عشر ألفاً من فرسانه راحوا يشيعون الموت والدمار في صفوف أعدائهم حتى هلك من الهنادكة ألوف كثيرة وفيهم جملة من الأمراء . أما زعيمهم بريتي راجا فقد اتخذ سبيله إلى عاصمته هرباً . ولكنه لم يكد يبلغ مرسوئِي بِاقلِيم سنهل حتى لحق به مطارده فقتلوه فقتلوا عليه .

هذا وتعد هذه الواقعة البداية الحقيقية لانتهيار سلطان الأمراء الراجبوتيين التام ونهايته الحاسمة في شمال الهند . وقد استولى المسلمون على أترها على مرسوئِي وسنه وكهرلم وهنسي ثم أجمير التي أمر السلطان بتعطيم ما بمعبدها من أوثان ، ثم هدم هذه المعابد نفسها واستخدم أصدتها وأحجارها في إقامة مساجد ومدارس المسلمين .

وعهد محمد الغوري ، قبل أويته إلى عاصمته ، بإدارة أملاكه إلى قائده قطب الدين أيبك الذي وصل في فترة قصيرة بفتوح سيده إلى دهلِي فاتخذها قاعدة لحكومته .

هذا وكان يقع بقلب الدوتاب ، فيما وراء دهلي حتى حدود بنارس ، إمارة قنوج أعظم إمارات الهند التي ذاع صيتها في أساطير هذه البلاد وفي تاريخها على السواء .

وبدا لصاحبها جايا چندار أن يجمع حوله شمل الأمراء الراجبوتيين من جديد، بعد هلاك بريتي راجا دهلي ، في أمل أن يصير بهم سيد الهندستان كلها بعد طرد المسلمين منها .

على أن السلطان الغوري ما لبث أن فطن لتدبير عدوه فأيقن أن حكومته الهندية لن يكتب لها الاستقرار إلا بالقضاء على سلطان هؤلاء الأمراء ، فخرج إليهم في جيش كثيف التقى بهم عام ٥٩١هـ / ١١٩٤ في السهل المنبسط بين چندوار وأتاوله .

وفضلا عن هزيمة الهندكة الساحقة ومقتل زعيمهم راجا قنوج ، فقد كان الخطر أثار لهذه المعركة هو انسحاب كبار الأمراء الراجبوتيين جميعا من وجه المسلمين والهجرة إلى صحراء الراجو تانا التي حملت اسمهم فيما بعد .

وواصل السلطان الغوري الظاهر زحفه بعد فتح قنوج حتى بنارس فأقام بها مسجدا كبيرا ثم أبى إلى حاضركه .

ولم يتردد قطب الدين أبيك نائب الغوريين بالهند في استغلال ما أنشأته انتصارات المسلمين القوية هذه من رهبة وفزع في نفوس محاربي الهند فغزا آجمير من جديد كما فتح نهرواله واستولى على بيانه وكواليار وما حولها ، في الوقت الذي انطلق فيه محمد بن بختيار الخلجي ثانياً قواد الغوريين بالهند صوب الشرق ففتح بهار ونفذ إلى البنغال . ومن عجب أن تجمع الروايات على أن جند الأمير للخلجي لم تكن تحو في هذه الفتوح بضع مئات .

هذا وكان إقليم بهار (فهار) ، الذي استولى عليه محمد بن بختيار ، هو الإقليم الهندي الوحيد الذي صانفت البوذية فيه ازدهارا كبيرا بفضل الرعاية العظيمة التي كان يحبوها بها ملوك أسرة بالا الهندوكية . وظلت هذه العقيدة راتجة

فى هذه الإمارة حتى اقتحما القلعة الخلقى فحرب معايدما واستولى على ما كان بها من أموال وكثوز .

وتابع هذا القائد زحفه من بعد فتح هذه الإمارة فى ثمانية عشر رجلا من رجاله ، ليس غير ، بلغ بهم نادية عاصمة البنغال عام ١١٩٩/٥٩٥ ، وكان عليها ملك شيخ من أسرة سنا^(١) يدعى لكشمن سنا عسرف برعليته العظيمة للفنون والآداب .

وقتح الحراس بولية المدينة للوقنين وقد خيل إليهم أنهم من تجار الخيول فلم تخالجهم أدنى ريبة فى أمرهم . هنالك اتجهت العصبة الغازية من فورها إلى قصر الراجا ، فما إن بلغ أدنى لكشمن العجوز صريخ الضحايا من رجاله بخارج أبوابه ، وكان يقتول غذاءه ، حتى هب لوقته فاتخذ سبيله هربا .

ولم يغادر محمد بن بختيار المدينة إلا بعد أن خربها تخريبا تاما ، ومن ثم تركها إلى كهناوتى فاتخذها قاعدة له ، وصلى فيها بالناس ودعى فى الخطبة للسلطان الغورى ، وضرب السكة باسمه .

كذلك خرج قلمب الدين أويك عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م لحرب برموى ، أمير بُد لخد ، فانتزع منه حصن كلنجر ، أمنع قلاع الهند إذ ذاك واشدها بأسا ، ثم أُرْدف ذلك بالاستيلاء على بدلون وكالبي .

وبهذا خضع شمال الهندستان كله ومعه إقليم كوالوار لسلطان الغوريين خضوعاً تاماً^(٢) .

واطمأن محمد الغورى إلى ترك أملاكه بالهند فى أيدى قواده الأمناء الأكوياء ، فأخذ يتطلع إلى بلاد ما وراء النهر ومدن إيران الزاهرة ، فاندفع يغزو خوارزم عام ٦٠١هـ / ١٢٠٤م ، ولكنه أصيب هناك بهزيمة شديدة أخذ على

(١) prasad India pp 118 - 20

(٢) تاريخ فرشته أول ص ٥٦ ، ٥٧ .

أثرها كثير من الولايات والقبائل الخاضعة لنفوذه الخروج عليه ، حتى انقلبت غزنة نفسها أبوابها في وجهه .

ولم يقف الأمر عند استيلاء تاج الدين يلدز ، أحد قواده الذين خرجوا عليه ، على غزنة والاستقلال بها ، بل سار أحد القواد الغزنويين بدورة ببراءة مزيفة ، إلى الملتان حاكما عليها ، كما انقلبت قبائل الكهكر بالبنجاب تعيث في الأرض فسادا .

على أن محمد الغوري ما لبث بمضاء عزمته أن استرد غزنة والملتان بعد قليل ، كما أفلح قواده بالهندستان في إخضاع الخارجين عليه من جديد .

ورأدت السلطان الغوري ، كرة ثانية ، أحلامه بالتوسع غربا برغم ما أصابه من خسائر فادحة كانت تقضى القضاء التام على سلطانه . وفيما كان يمسد لهذا الأمر ويعد له عدته ، أغتاله أحد الهنادكة ، عند نهر جهلم وهو في طريقه من لاهور إلى غزنة ، فقتل في شعبان ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م (١) .

ولئن كان محمود الغزنوي قد مهد بغزواته الهندية الطريق أمام خلفائه من السلاطين وجعل لجند المسلمين المهابة والرهبة أينما زحفوا وحيثما حلوا ، فإن محمدا الغوري هو الذي ثبت أقدام المسلمين كذلك في شمال الهند بأكمله ، وأقام الحكم الإسلامي هناك . بفضل رجاله ، على أساس راسخ وطيد ، وهو أمر لم يتح لمحمود من قبله ، إذا كان الغزنويون عموما ، فضلا عن خلو رجالهم من كفاءة الإدارة والتمرس بالحكم ، عجلين على إثر كل فتح بالعودة إلى منازلهم ومعهم كنوز الهند ما بهرهم وسحر ألبابهم .

وعلى أيدي رجال الغوري بدأ الحكم الحقيقي للمسلمين بالهند . فقد تحول الغزاة إلى الاستقرار والإقامة الدائمة بالبلاد التي فتحوها ، وبهذا احتفظت الهند بأموالها وثرواتها في نطاق شبه القارة نفسها ، فلم يعد الأمر انتقال أجزاء منها من أيدي الهنادكة إلى أيدي المسلمين الذين صار لهم هناك دولة مرهوبة الجانب وسريعة الرقعة عظمية السلطان .

(١) طبقت نامصري لمنامج المراج أبي عمرو عثمان (الترجمة الإنجليزية لرافرتي) ص ٤٨٤ ، ٨٥ .

دولة المماليك

لم يترك السلطان معز الدين محمد بن سام الغوري وريثا للعرش من بعده إذ يذكر عنه المؤرخ منهاج المراج أبو عمر وعثمان ، صاحب طبقات ناصري أنه كان يقول ، بأن الله قد عوضه عن الأبناء بمواليه المخلصين من الأتراك يحافظون على ملكه ويجرون الخطبة بذكره في كافة أنحاء سلطته .

ونصب قطب الدين أيبك نفسه سلطانا على الهندستان في عام ٦٠٢ / ١٢٠٦م عقب وفاة مولاة محمد الغوري^(١) .

وكان أيبك هذا في طفولته مملوكا لقاضي نيسابور الذي ضمه في الحرس إلي أولاده ، فقرأ معهم علوم الكتاب والسنة ، كما نبغ في الفروسية وركوب الخيل ، واشتهر بالشجاعة والمروءة .

وحين مات القاضي بيع المملوك إلي أحد التجار الذي عرضه بدوره علي السلطان محمد الغوري . وكفلت لأيبك خصاله الحميدة أن ينال الخطوة عند سيده الجديد بلغ حتى مرتبة القيادة . وزاد من قدره عند السلطان عظم وفائه و إخلاصه حين يادر من فوره لنجدة علي أثر الكارثة التي نزلت بجيوش الغوريين عند أبواب خوارزم وما نتج عنها من انتفاض أمراء وقبائل كثيرة علي صاحب غزنة . وعرف له سيده فضله هذا كله فكلفه عليه بتشيته نائباً له علي أملاكه الهندية التي كان له اليد الطولى في توسيع رقعتها حتى صارت تمتد من البنغال شرقاً إلي آخر حدود البنجاب غرباً . ويادر سلطان الهندستان الجديد من فوره ، إلي إقامة علاقات طيبة مع زملائه من الأمراء والقواد المماليك، فبنى ، في سبيل تحقيق ذلك ، بلخت تاج الدين يلدز ، وكان أيبك قد استرد غزنة منه ثم عاد فردما إليه كرماً منه . كما زف ابنته إلي التمش وأصبهر كذلك إلي قياجه ، وكان كلامهما من زعاء المماليك الغوريين .

واشتهر قطب الدين في حكمه بإقرار الأمن في كافة نواحي بلاده ، وحرصه علي قيام العدل بين الناس مع حسن معاملته للهنداكة خاصة .

(١) تاريخ قرشته أول ص ٦٣

وقد بنى بالهند مسجدين كبيرين أحدهما بدلهى والآخر بأجمير .

وسقط به جواده سقطه قاتلة عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م فخلقه شمس الدين التمش أحد قواده ، وكان من مماليكه وأصهاره كما ذكرنا من قبل ، فى حين استقل قائداه قباجة بالملتان والسند ، كما تولى الخليجون الأمر فى بهار والبنغال ، وكنالوا هم أيضا بدورهم من رجال السلطان محمد التورى .

على أن أمراء آخرين من رجال التورى ، ومعهم طائفة من أتباع السلطان الراحل قطب الدين أيبك ، لم يتقبلوا هذا الوضع الجديد بقبول حسن ، فلم يرضوا بأن ينصب عليهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك .

وإلى جانب هؤلاء التلقمين ، كما هناك جملة من أشراف الهنداكة ، الذين أغتصب المسلمون أراضيهم ، ملأوا يرون فى سيادة المسلمين بلادهم مجرد محنة عابرة ، عليهم ألا يغفلوا أبدا عن قتلهم أى فرصة تلوح لهم للخلاص منها .

لكن التمش بدوره عرف كيف يولجهم جميع ما صادفه من مشاكل وصعاب فى حزم وقوة . فما إن فكر الأمور فى سلطنة دلهى وتوابعها بيدوان وأوده وبنارس ومسالك ، حتى خرج إلى البنجال الذى أغار عليه يلدز ، فهزمه وناصر الدين قباجة حاكم السند واستولى على الإقليم كله .

ذلك أن يلدز هذا كان قد خرج من غزوة التى ثبت ملكه بها ، فى غزوات ناجحة فيما وراء الهند كوش حتى بلاد خوارزم التى استعصت عليه، ومن ثم استدلى إلى الهند . على أن التمش ما زال يطارده حتى أسره ثم قتله، كما رد قباجة إلى إمارته المسلوية بعد أن تعهد بالولاء له .

كذلك ألح التمش فى القضاء على جميع الفتن التى آثارها بعض أمراء الهنداكة على إثر وفاة لسلطان أيبك سالف الذكر .

ولم يكن جميع ما تعرض له التمش من متاعب يلوح شيئا منكورا بالقياس إلى الخطر الداهم الذى أقبل على الهند فى ركاب المغول حين ظهوروا عند حدودها عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م يقودهم الخان الأعظم جنكيز . وكان هؤلاء قد خرجوا من

ديارهم بصحراء جوبى فالتكسحوا فيما لكتسحوا بلانما وراء النهر وخرسوا أغلب
منه الزاهرة وقتلوا كثيرا من أهله .

ولقد اجتاحوا ، فيما اجتاحوا ببلاد ما وراء النهر ؛ مملكة خوارزم التي كانت
تمتد إذ ذاك من خيوة إلى سمرقند وبخارى ويدخل فى دائرة نفوذها هراة
وأصفهان . هذا وكان خصام أميرها مع المغول من أسباب تعجيل الأخيرين
بزحفهم على البلاد الإسلامية .

ولجأ جلال الدين ، آخر سلاطين خوارزم ؛ إلى الهندستان هربا من وجهه
هؤلاء الغزاة ، فمعتبوه وساروا فى أثره حتى أنزلوا به هزيمة حاسمة على ضفاف
السند^(١) .

هذا وكان جلال الدين ، حال وصوله السند ، قد بلغ بالكتابة إلى التمش
يسأله الالتجاء عنده بدهلى بعض الوقت . لكن الأخير خاف مغبة ما قد يؤدى إليه
نزول شاه خوارزم عنده من التفاف الجند الأتراك حوله ، وكانوا فى دهلى كثيرين،
فبعث يعتذر إليه متطلعا بما قد يجلبه له حر الهند من متاعب صحيحة لا قبل له
وباحتمالها .

هنالك لم يجد جلال الدين بدا من منازلة المغول . وحالفه التوفيق أول الأمر
فأشاع الاضطراب فى صفوف عدوه . لكن جموعهم المتنفقة سرعان ما علوت
حملاتها العنيفة فلم تكتب النجاة إلا لسبعة آلاف من الجند الخوارزمى من بين
الثلاثين ألفا الذين كانوا يحاربون تحت لوائه .

واستطاع السلطان ، فى فريق من رجاله ، أن يعبر السند تحت وابل من
سهام العدو فى شجاعة وجراءة ، فانقض من قوره على قباجه ، والى السند من قبل
دهلى ، فأسر وحبسه فى حصن الملتان ثم أخذ ورجاله يعملون السلب والنهب فى
الإقليم كله .

(١) تاريخ المغول لمبلى إقبال . طهران ١٩٣٢ . جلد أول ص ٦٣ .

على أن الأجل لم يمتد من بعد ذلك بجلال الدين ، فقد أنبىء باستعداد جند العراق لنشد أزره وعونه ، فسار على هدى أمله الجديد ، إلى إيران ليقع فى الطريق بأيدي بعض الناقمين فيقتلوه .

وكان من حسن طالع الهند أن جيوش المغول لم تطبق حرها فاستدارت صوب الغرب من جديد لتتجو هذه البلاد من جحافلهم وشرورهم .

هناك تنفس التمش الصباحاء ، فراح يعمل على إخضاع الخارجين على حكمه . ذلك أن الأمير غياث الدين الخلجى ، وكان من أحسن الأمراء المسلمين سريرة بالهندستان ، كان قد بسط نفوذه على جاينكر وكمر وب و تروهاوت وجور إلى الشرق من دهلى وأعلن استقلاله بها . وقبل هذا الأمير مهادنة التمش أول الأمر على جزية كبيرة دفعها له ، كما أعاد قراءة الخطبة باسمه . لكن جند دهلى ما كادت ترجع عنه حتى انتقض على إقليم بهار فاستولى عليه . وسرعان ما سار إليه ناصر الدين محمد شاه ، حاكم أوده من قبل دهلى ، فهزمه وقتله ، كما أوقع فى أسر جميع أعوانه من الخليجين ، وأخضع كافة الأراضي الممتدة حتى لكهناتوى ورنتيبهور ومندوار .

هذا وكان قباجه بدوره قد استطاع ، بعد زوال الخطر المغولى ، أن يسترد الملتان لنفسه من جديد . وما لبثت قواته أن تضاعفت على أثر هزيمته لجند الخوارزميين والخليجين الذين كانوا يطعمون فى أراضيه وطردهم منها . حتى أوجس صاحب دهلى خيفة منه ، فلوغز إلى نائبه فى لامور بالزحف على الملتان ، فى حين خرج هو بنفسه على رأس جيش قوى إلى أوكا مقام خصمه . هناك لجأ قباجه ، بجنده وأمواله ، إلى قلعة بهكر فتحصن بها . وما لبث أن قضى غرقا فى السند بعد قليل وهو يحاول عبوره هربا من وجه عدوه .

وكان قد أعلن الخليفة العباسى المستنصر بالله عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م تشرئبه لالتمش على عرش الهند ولقبه بناصر أمير المؤمنين ، فكان من أثر هذا الإعلان أن قوى مركز صاحب دهلى بين مسلمى الهند قوة عظيمة ومكن من نفوذه بينهم .

وقد قابل التمش صليح الخليفة هذا بتقديمه في الخطبة عليه وضرب السكة باسمه .

واغتم التمش فرصة تأييد الخليفة له فخرج يبغى القضاء على خصومه وتوسيع رقعة ملكه . فهزم الخليجيين في المناطق الشرقية مرة أخرى ، وكانوا قد سارعوا باسترداد نفوذهم القديم عقب وفاة ناصر الدين محمد شاه في البنغال . هذا كما خرج إلى كواليار فلسترداها من الأمير الهندوكى منجال دوبا وأرغعه على الفرار منها .

كذلك استولى التمش على مالوه ، فدخل حصن بهيلسا ثم رحل منه إلى أوبسان عاصمة فكر مدينتا القديمة فحطم ما كان بمعابدها من أصنام مشهورة ثم أب إلى عاصمته .

وكان من أثر هذه الحروب ، التي ظل هذا السلطان يمارسها مدى ربع قرن من الزمان ، أن انهكت صحته . فقضى بدهلى في شعبان من عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م بعد أن لرسخ نفوذه في كافة الأقاليم التي فتحها سلفه وسيده قطب الدين أيبك .

هذا والمعروف أن حروب التمش على كثرتها لم تمنعه من أن يمد رعايته إلى المشتغلين بالعلوم والفنون . وقد لاقى في عهده فن العمارة بالهند ازدهارا كبيرا . ومن آثاره الباهرة منارة القطب بدهلى التي يبلغ ارتفاعها ٢٤٢ قدما ولتقى تعد من أروع المعاصر الإسلامية بالهند قاطبة . وينسبها بعض المؤرخين خطأ إلى قطب الدين أيبك ، وحقيقة الأمر أن التمش قد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى ولى بغدادى ، يدعى قطب الدين ، تبركا .

وقد أقاض صاحب طبقات ناصرى في ذكر فضائل هذا السلطان ، وكان معاصرا له ، وذكر الكثير عن شدة تقواه وعمله ويره برعاياه . وأوصى التمش قبل موته بالملك لابنته رضيه دون أبنائه من الذكور الذين لم ير من بينهم من هو جدير بحكم الهند . لكن رجال البلاط ما لبثوا أن عهدوا بالملك إلى الأمير ركن الدين فيروز شاه أحد أبنائه ، فتنهز شاه تركان فرصة التصرف ابنها السلطان

الجديد إلى الاستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها فتستأجر بتصرف شئون البلاد في استبداد أدى إلى إثارة ثائرة الأمراء في أوده وبنس وبيكان والميتان ولاهور . وجرى في خاطر أم السلطان المستبدة أن تكون الأميرة رضية من وراء هؤلاء الأمراء في خروجهم عليها ، فحاولت ، في وسط هذه الاضطرابات ، أن توقع بها ، لكن تأمرها بقاء بالفشل فقتل على ابنها .

هنالك التفت الأمراء حول السلطنة رضية من جديد وأجلسوها على عرش أبيها ، فاستطاعت بما أوتيت من حسن السياسة والحزم أن ترفع على طاعتها جميع الأمراء ببلادها ، ومن غرائب المفارقات أن صادف حكمها بالهند تولى شجرة الدر ، قاهرة الصليبيين ، الأمر بدورها في مصر .

على أن هذه السيدة التي قادت بنفسها حملات عديدة ناجحة للقضاء على عصيان الأمراء من مسلمين وهنالك ، والتي كانت تجوب الأسواق في ملابس الرجال وتجلس إلى الناس تستمع إلى شكاواهم ، ظلمتها ثورتها آخر الأمر فتعلق قلبها بأمير الخيل بلاطها ، وكان عبدا حبشيا يدعى جمال الدين ياقوت^(١) ، فثاربت بذلك عليها حفظة الأمراء جميعا ، فقتلوا ياقوت ثم اتقبلوا يحاربونها بزعامة أخيها بهرام شاه .

ويرغم توصيلها بدهانتها إلى كسب بعض القواد إلى صفها ، إلا أنها أصيبت آخر الأمر بالهزيمة . وفيما كانت تهيم على وجهها فرارا وقمت في أيدي عصبة من الهنالكه قضاها عليها .

على أن بهرام شاه ما لبث بدوره أن سلك سبيل الشدة في حكمه حتى إذا ما أقبل المغول ٦٣٩هـ / ١٢٤١م على البنجاب استطاعوا أن يخربوا لاهور ، دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وذلك بسبب نفور القواد المسلمين بالهند من سلطانهم واستبداده وطمعائه حتى اجتمعوا عليه آخر الأمر قتلوه .

وولى الأمر من بعده علاء الدين مسعود شاه خفيد التمش . وفي عهده دخل المغول الهند من جديد ، عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م ، بقيادة ماكو وتوغلوا في السند

(1) Lane - Poole India, p. 75.

حتى تصدى لهم بلبن قائده ، فردهم عن سلطنه دهلى بعد أن أنزل بهم خسائر فادحة ، وإلى هذا القائد يرد أيضا الفضل على ثورات الحكام المسلمين فى كواليار وجندرى ومالوة ونروا .

ويرغم أعمال هذا القائد الباهرة فقد أفلحت الوشايات فى إقصائه عن بلاط دهلى بضع سنين .

وخلف ناصر الدين محمود شاه أصغر أبناء التمش أخاه علاء الدين بعد عزله . فانصرف إلى مصاحبة الطماء والدراویش تركا عباء الحكم كله على أكتاف وزيره القائد بلبن الذى اضطلع به فى قدرة وكفاءة تامة ، وحين والى السلطان أجله عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م رقى الوزير العرش مكانه .

ويُنسب غياث الدين بلبن هذا إلى قبيلة إليارى للتركية التى كان من أبنائها التمش نفسه ، وكان أبوه من بين زعمائها وشيوخها المقدمين .

ولكن حدث أن سقط بلبن بأيدي المغول فى إحدى غزواتهم ، وكان إذ ذاك فى صدر شبابه ، فبيع بالبصرة إلى من يدعى خولجه جمال الدين ، فأحسن مثواه ثم صحبه معه إلى دهلى حيث باعه بدوره إلى شمس الدين التمش سلطانها إذ ذاك ، فلم يزل يرقى بجدته واجتهاده حتى غدا من خاصة حرسه المقربين .

وبلغ بلبن مرتبة أمير الصيد عند الملكة رضية . حتى إذا ما ثار أمراء الدولة فى وجهها لما شاع من أمر كلفها بأمير خيلها ياقوت الحبشى : بادر من فورهِ بالانضمام إليهم وبذل الجهد لنصرتهم .

واعترف له السلطان بهرام ، حين خلف أخته رضية ، بصداق عونه وإخلاصه فولاه روارى وضم إليها بعد قليل ولاية هنسى ، فانصرف إلى إدارة هاتين الإمارتين إدارة حكيمة استقام معها حال الأهلىين وتقدمت للزراعة عندهم وراجت أحوالهم الاقتصادية .

وأقبل المغول بقيادة مائكو على الهند عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م فغزوا السند وحاصروا حصن لوكا ، فكان بلبن ، دون سائر الأمراء الآخرين ، هو الذى لجأ إلى

لهم وحده حتى أوقع بهم هزيمة قاصمة ، ارتكوا على أثرها عن الهلد سراحا تاركين وراءهم ما كان بأيديهم من أسرى كثيرين ما بين مسلمين وهنادكة .

وقد هذا القائد القدير الوزارة فى عهد السلطان ناصر الدين محمود ، الذى عرف بانصرافه إلى أهل التصوف والأدب ، فطلق ينظم شئون الدولة فى حزم بالغ. حتى إذا ما تم له ذلك ، انطلق يبقى تأمين سلطان دهلى ويثبت من هيبتها ، فعبر على رأس قواته نهر راوى ، أحد روافد السند ، إلى منازل الكهكر وغيرها من القبائل الثائرة فاقطعها عليهم . كما خرج كذلك مرات عديدة إلى الدواب فقمع الفتن التى كان يثيرها أمراء الهنادكة بها ، واستولى على حصن تلمسند فى قنوج ، وأخضع رانا ملكى مع كافة الأراضى الواقعة بين كالنجر وكره .

هذا كما استخلص كذلك موات ورنكبهور من أيدي هنادكة الراجبوتلدا فى حين أوقع قائده شيرشاخ فى أسره عز الدين زعيم الثوار عند أوكا . فلم ترجع جيوش دهلى إلى قواعدها فى ربيع الأول من عام ١٢٥٠هـ / ١٢٥٢م حتى كانت كوليار وجندرى ومالوه ونارور قد دانت جميعها للسلطان وناله منها أسلاب وأموال طائلة .

ونفس فريق من الأمراء والقواد على بلبن أعماله الباهرة هذه فانتهزوا فرصة خروج السلطان إلى الملتان وأوكادون قائده الأكبر فاقبلوا ، بزعامة القائد عماد الدين ريجان ليصبون شباك الدس له عند سيدهم حتى بلغوا غايتهم فأبعد بلبن إلى القطاعة عند سواك وهنسى ، واستبدل به الوزير محمد جليدى ، فى حين رقى القائد ريجان إلى منصب الحجابة .

ولم يكن أمراء الترك وقائدهم ببلاط دهلى ليقبلوا ، فى بساطة ، الخضوع لهنديكى قريب العهد بالإسلام مثل القائد ريجان . فسرى التآمر بينهم إلى كافة أرجاء البلاد ، وانهالت رسائل الحكام والأمراء على مقام السلطان بطلب إقصاء هذا القائد عن شئون الدولة

وتتاقم الحال بالتفاف أنراء كره ومانيكيور وأوده وترهوت وبدلون ومسامنه وكوهرام وسونام وتيار هذاه وإقليم سواك حول الوزير المعزول . وما عثم أن

انضم إليهم من الأمراء الكبار ألق خان وجلال الدين مسعود شاه فزحفوا جميعاً على رأس قواتهم إلى العاصمة .

ولقد كان حرباً بالقائد ربحان أن يلازم من فوره بالقتلى عن منصبه حقناً للدماء ، لكنه ركب رأسه وحمل السلطان على الخروج بجيشه حيث دارت الدائرة عليه عند تبار هنداه فأرغم على إبعاد حاجبه إلى بداون .

ورد الوزير القديم إلى منصبه ، فاستقبلته العاصمة ، في ذي الحجة من عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، استقبال الغزاة والقاتلين بعد غياب استغرق عامين من الزمان .

وشمر بلبن عن مساعد جده المعهود فقتضى على قنن الدواب المتكررة وأقر الأمور في أوده والسند حيث كان قتلغ خان زوج أم السلطان ومعه للقائد عز الدين بلبن قتلغ خان وغريق من أمراء الهندكة قد جنحوا هناك إلى نبذ طاعة السلطان وإعلان العصيان .

وأقبل المغول على السند من جديد ، عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م يقودهم توبيسين سارى ، فما إن لحيطوا بتبديل الوزير للقائد أنزالهم حتى ارتكوا على أعقابهم من حيث أتوا .

وكان آخر وقعة كبيرة ذات خطر خاضها الوزير بلبن هي التي خرج فيها عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م للقضاء على ثوار الهندكة الذين رلحوا بزعامة أميرهم ملكسا يصلون للسلب والنهب في قرى موالك ويثاق وهربا إلى جانب قتلهمهم لأمسلاك المسلمين في موقت ، أفردهم عن غيهم ما نزل بهم من ضربات شديدة قبل ذلك بسنوات ثلاثة على أيدي ألق بك أحد قواد دهلئ . وأفلح الوزير في تطهير المنطقة كلها ثم عاد إلى العاصمة ليقيم إلى جانب سلطانه في استقبال مبعوث من لدن هولاكوخان المغولى حفيد جنكيز خان .

وهكذا أظهر بلبن في القترتين اللتين ولى فيهما الوزارة جدارة فائقة في تصريف أمور الدولة وإقرار النظام فيها والأمن والقضاء على ما كان يتهدها من أخطار مسواه في الدخل ، حيث قضى على عصيان الأمراء في الدواب والسند ،

وفى الخارج حيث دفع عنها حدوان المغول وحسن حدودها الشمالية الغربية فى
١٤٤٤ م .

ورقى غياث الدين بلبن عرش الهند على أثر وفاة السلطان ناصر الدين كما
ذكرنا من قبل ، فعمل على أن يسترجع لمنصب السلطنة سابق هيئته ونفوذه الذى
زعزعه ضعف السلاطين من أبناء التمش من جهة وازدياد سطوة المماليك من
أتباع التمش من جهة أخرى ؛ هذا إلى جانب للخطر المغولى الذى ما بصرح يطل
على السند من آن لآخر .

وفى سبيل تحقيق هذه الأغراض جميعها أعاد بلبن تنظيم قواته وتدعيمها
حتى تمكن بها من إقرار الأمن حول عاصمته وفى الدواب والبنجاب: ومن ثم وجهاً
لدفع خطر الموتيين ، وكلفت عصاباتهم قد تقاوم أمرها بدرجة مخيفة حتى طغقت
تهدد دهلئ نفسها ، فلم يزل جنده تطاردهم وتتعبهم فى الأدغال والغابات حتى
طهرتها منهم تماماً . كذلك عمل بلبن على تأمين الطرق والممالك فى أنحاء بلاده
من عبث اللصوص وقطاع الطرق وكانوا من الكثرة بدرجة مخيفة لاسمياً فى
الدواب ، حتى كان يستحيل فى أغلب الأحيان نقل المون والبضائع من موضع إلى
آخر بأمان .

ودعم السلطان عملياته الكثيرة هذه بإقامة كثير من المعاقل والحصون فى
مختلف أنحاء البلاد وتعميرها بالجند والسلاح ، كما أمر بشق كثير من الطرق عبر
الأدغال والأحراش .

هذا وقد استعان بلبن على ضبط الأمور ، فى مملكته المترامية الأطراف بشبكة
محكمة من العيون كانت توافيه بكل ما كان يجرى فى البلاد من حوادث وما كان
يلزع إليه عمله من تصرفات فى دقة وسرعة وتفصيل تام .

ويلغ من حرص صاحب دهلئ على إلزام عماله جادة الصواب والعدل أنه لم
يتردد فى الإقتصاص من أكثر من واحد منهم فى عنف وشدة حين بلغه قتلهم بعض
السكان ظلماً .

على أن بلين ، برغم ما كان له من جند كثيف عالى التدريب . فقد لبث فسى هم مقبم خوف قنوم المغول . قلزم عاصمته موجهاً كل جهوده إلى تأمين حدوده بآزاء غزوات جحافل هؤلاء البدو الآسيويين غلاظ الأكباد الذين أنزلوا الخراب والدمار بأغلب بلاد المسلمين . فهاهم أولاً . قد اقتحم بهم خاتهم هولأكسو ، حفيد جنكيز ، بغداد مدينة الخلافة فنكروها على أهلها وقتلوا المستعصم أمير المؤمنين بها شر قتلة ، وهاهم بالهند قد احتلوا إقليم لاهور ثم راحو فى غاراتهم تترى يكتسحون أرض السند والبَنجاب .

وبلغ من فرط تحوط سلطان دهلى وشدة حذره أن أبعد عن بلاطه كل من كان يخالجه لئنى شك فى إخلاصه له ، حتى عزل فى سبيل ذلك جميع الهنادكة عن مناصبهم وأصبحت موارد الدولة كلها وجهودها وفقاً على تحصين البلاد ووقايتُها من خطر المغول .

وكان من ذلك أيضاً أن عهد إلى ابنه ، محمد وبفرخان ، بالمرابطة فى الملتان وسمنه أقرب مراكز الحدود الشمالية تعرضا للخطر ولأمدهما بجيوش قوية حصنة التدريب .

وجر على بلين لزومه عاصمته ، دون الخروج منها للغزو والجهاد على سنة أسلافه ، كثيراً من المتاعب فى مختلف ولايات الدولة لاسيما ما كان منها على مبعدة من مقره . بل أن هيئته بدأت تقل فى أعين سكان دهلى نفسها الذين لم تعد تهل أسماعهم أنباء الانتصارات السلطانية أو يشاهدوا عساكر المسلمين خارجة للغزو والجهاد .

وأرغمت اضطرابات الهمغال بلين آخر الأمر على الخروج من عاصمته . ذلك أن أميرها طغرل كان قد جهر باستقلاله بعد أن أوقع بصلات دهلى إليه موافق متكررة^(١).

هذا والواقع أن نفوذ دهلى فى الهمغال كان قد طفق يتضاؤل عموماً منذ حكم الخلجيين هناك . وساعد أمراء هذا الإقليم على تبذ طاعة دهلى بعد بلادهم للشاسع

(١) رياض السلاطين أو تاريخ بنكالة لفلام حسين سليم ، كلكته ، ١٨٩١م من ٧٧ - ٨٥

عنها مع سوء المواصلات معها ورداءة الطرق إليها ، فضلاً عن انتشار الملايكا بها انتشاراً وبائياً شديداً .

ولقد أتيح لأكتمش من قبل أن يقر الأمور في هذا الإقليم وقتاً حتى نصب عليه ابنه ، لكن الأحوال ما لبثت بعد موته أن عادت هناك إلى سيرتها الأولى نتيجة للاضطراب والتفكك الذي دب إلى الحكومة المركزية دهلئ بما فصلناه من قبل .

وزين لطغزل خان نائب بلين على هذا الإقليم ، مستشاروه خلع طاعة دهلئ، وقد خول إليهم أن السلطان قد شارف على الهلاك لشيخوخته ، في حين شغل والده بقتال المغول فلا قبل إذن لأحد المصير إليهم .

ودفعت بهذا الأمير أطماعه إلى مهاجمة جاجنكر ، فانتهبها واستولى فيها على أسلاب ثمينه طائلة . ومن ثم راح يجهر باستقلاله فاتخذ لنفسه لقب السلطان مغيث الدين وأمر بضرب السكة وقراءة الخطبة باسمه ، ثم راح يفيض على رجاله مما استحوذ عليه من الغنائم جلياً لولائهم ورضائهم .

وبعث بلين ، أول الأمر ، بقائده أبتيكين المعروف بأمير خان إلى البنغال فأصيب بهزيمة شديدة ففرط على أثرها عقد الجند ، فمنهم من بادر بالانضمام إلى صفوف المنتصر ومنهم من ركب طريق الفرار . وبلغ من شدة الفعل بلين وفراط غضبه ، حين بلغه خبر هذه الهزيمة ، أن أمر بقائده أمير خان فشنق على أسوار أوده ، مركز اقتطاعه ، فجاءت قسوة هذا الإجراء مذهلة لرجال الدولة مثيرة لقلقهـمـ.

وسير بلين حملة ثالثة إلى البنغال لم يكن نصيبها بأفضل من نصيب سابقتها. ذلك أن طغزل كان على أثر انفصاره قد زحف خارج حدود بلاده حتى بلغ لكهناتئ فانتقض على جيش دهلئ فأباده .

هناك بلغ لرتياع السلطان أشده ، قرر لوقته الخروج بنفسه إلى البنغال فعهد بشئون الدولة إلى ملك فخر الدين ثم قصد إلى سمانه وسمام فطلب إلى ابنه بفراخان أن يصحبه فيما اعتزل عليه من حرب ، في حين أوصى ابنه الآخر محمداً بمزيد الالتفات إلى ما بيده من أقاليم ، وأن يرقب الحدود بعين ساهرة حذر المغول .

ويرغم عنف موسم الأمطار وكثافة الوحل وكثرة المستنقعات فقد جذب السلطان السير ، حتى إذا بلغ حاضرة البنغال وجد أن طغرل قد غادرها فرارا إلى جاجنجر وقد صاحب معه كنوزه وصفوة من رجاله الأشداء هذا كما اختفى من لكهناوتى كذلك أغلب أعيانها خوف بطش السلطان ونقمته عليهم لتقاعسهم فى الحد من نفوذ الأمير البنغالى .

وأقسم السلطان ألا يبرح البنغال إلى دهلى قبل أن يوقع بطغرل ، ولو اقتضاه ذلك ركوب البحر وراعه . واستطاع رجال المخابرات السلطانية آخر الأمر الابتداء إلى معسكر الأمير التائر فى مخبأ يتوسط الغابات ، فسقطوا عليه فى غفلة من الحرس . وأصاب أحد الجند طغرل بسهامه وهو يحاول عبور أحد المجارى المائية ، فقطع رأسه وأسرع بها إلى مقام السلطان .

ولم يرجع بلين إلى حضرته إلا أن أنزل بسكان لكهناوتى مذبة قاسية لم تعرف الهند لها نظيراً فى تاريخها إلا القليل . وأوصى ابنه بغراخان ، بعد أن ولاء البنغال ، بسلوك طريق العنف والحزم معهم .

وظل هذا الأمير وخلفاؤه من بعده يحكمون البنغال ما ينوف على نصف قرن، فى حين لم تستطع أسرة بلين نفسها أن تحتفظ بعرش دهلى بعد وفاة عميدها أكثر من سنوات ثلاث .

ولم يكتب السلطان بما أراق من دماء غزيرة فى الأقاليم الشرقية ، فبادر حال وصوله حضرته إلى القصاص من كل من ثبت عليه أدنى اتصال بالتائر طغرل ورجاله .

هذا وكان بلين قد وكل بابنه الأكبر محمد أمر الجبهة الغربية كما قلنا من قبل، وكان بها حاميتان قويتان إحداها بالملتان والأخرى بسامانة أقرب للمراكز إلى للمناطق التى كان يحتلها المغول .

وخرج هذا الأمير عام ١٦٨٤هـ/ ١٢٨٥ لرفع خطر المغول عن لاهورود بيبور فدائته راماهم . وقد حزن أبوه عليه حزناً شديداً عجل فى نهايته بعد قليل .

ويذكر عن هذا الأمير ميله للشديد إلى مجالسه العلماء والأدباء . وكانت
ندواتهم عدده تدور على دراسة كتب الشعر والتاريخ والفلسفة كالشاهنامة وديوان
سنائي والخاقاني وخمسة نظمي . وكان من بين كبار رواد هذا الأمير شاعر الهند
الكبير خسرو الدهلوي تلميذ نظام الدين أوليا .

وبعث بلبن على أثر هذه الكارثة إلى ابنه الآخر بغراخان بدعوة إليه ليولييه
عهده ، لكنه أثر البقاء بالبنغال بعيداً عن مشاكل الملك بالعاصمة . ومن ثم أوصى
السلطان بالملك من بعده لحفيده كوخسر وابن الأمير الشهيد محمد .

ولقد ولي محمد بلبن عرش الهند أربعين عاماً حكم فيها البلاد بحزم ومقدرة
عظيمة ، فدفع جحافل المغول عن حدودها كما قضى على كل ما أشاع فسى
ملكه من فتن واضطرابات كثيرة .

وأضفى هذا السلطان على بلاطه تقاليد راقية رفيعة فالزعم حاشيته ورجال
دولته بمراسم معينة في لباسهم وفي سلوكهم ومناصبهم على السواء . كما ألزم نفسه
ورجاله بالتمسك الشديد بأداب الإسلام وفضائله ، ونشأ أولاده عليها ، ودفع بنى
قومه على التحلى بها ، حتى ليرد المؤرخون صفوة عادات المجتمع الهندى اليوم
وتقاليد الرفيعة إلى ما أسسته منها هذا الأمير وخلفاؤه من بعدهم^(١) . وشهر بلبسن ،
إلى جانب ذلك كله ، برعايته للعلماء والأدباء مع برة الشديد بالناس جميعاً لا فرق
عنده بين مسلم وهندوكى ، وإن كانت ظروف البلاد فى حربها مع المغول قد دفعت
اعتباراتها إلى إبعاد الأخيرين عن مناصب الدولة .

وضرب رجال البلاط فى دهلى صلحاً عن مشيئة سلطانهم الراحل ووصيته
لهم ، فاجلسوا على العرش الأمير كيقباز بن بغراخان ، فكان اختياراً غير موفق
حمل فى ثلثياه نهاية هذه الأسرة .

ذلك أن السلطان الجديد لم يكن له من الجدارة ما يليق بسد الفراغ الكبير الذى
تركه جده العظيم بعد موته .

(1) Prasad, Mod. Indiap. 171, 2-1.

ولئن كان هذا الأمير قد نشأ في الواقع تنشئة طيبة منذ حداثةه ، وجهد القائمون على تربيته في تثقيفه ثقافياً عالياً وبث الفضائل وحميد الخصال في نفسه ، إلا أن توليه العرش في سن المراهقة إذ لم يكن يعدو السابعة عشرة ، دون وجود نصحاء مخلصين من حوله ، قد أسهل قيادته لزمرة من أصحاب الأهواء أخذوا يزينون له الاستمتاع بمباهج الحياة وعيشتها ، حتى استجاب لهم واتصرف عن شئون الملك بسكنته إليهم .

واستطاع رجل من أصحاب الطموح والأطماع بالبلاط يدعى نظام الدين ، أن يستأثر بتصرف الأمور بتضيق خنته فخر الدين أمير الجند بالعاصمة ، فراح ينتهز من حقوق الأمراء ويقصى عن مركز الحكم لكفاءهم ، وفيهم أولئك الذين كانوا يخشون الدولة بوفاء وجد وإخلاص منذ أمد طويل .

وما لبث نظام الدين أن تطلع إلى العرش نفسه . فهاهم أولاد الأمراء والقادة قد أزمهم طاعته والخضوع لمشيتته ، وهاهو ذا بغراخان ، أقوى أبناء بلبن ، يقم بالبنغال التي تبعد عن العاصمة مئات الأميال فلا سبيل يسيرة له إليه . فرتب خطته على أن يبدأ أولاً بالتخلص من الأمير كيخسروا ، وهو الذي كان بلبن قد عهد إليه أصلاً بالعرش قبل موته فما زال بالسلطان حتى زين له اغتياله وحمله عليه ، فقتل عند رهتان وهو قادم في طريقة من الملتان إلى دهلي تلبية لدعوة السلطان .

وحين أثار مقتل هذا الأمير سخط رجال الدولة ، برز نظام الدين يلقى بالتبعية على خواجه خاطر وزير السلطان ، فسئل به شر تمثيل وطبوف به المدينة على حمار ثم قتل . ولقي في هذه الفتنة كذلك جملة من رجال بلبن المخلصين نفس المصير بتكبير ، هذا الأمير الذي عرف كيف يجعل من السلطان أداة طيعة لتفويض مآربه وتحقيق أغراضه وأهوائه .

ونظر نظام الدين ومعه خنته فخر الدين فرأيا معارضيهما والساخطين طويها يلوذون بالأمراء الخلجين ويتطلعون إليهم في هذه المحنة الجارفة . فحزما أمرهما

على الإيقاع بهؤلاء الأمراء الذين ، فضلا عن توليهم لمناصب هامة في الدولة ، كانوا وآباؤهم هم الذين أرسخوا فتوحات المسلمين في البنغال والأقاليم الشرقية .

ولقد حاول بغراخان صاحب البنغال أن يرد السلطان إلى صوابه فالتقى به في جيش كبير عند أوده ، لكنه ما لبث أن ارتدأ بعد قليل إلى طريقة التدمير حتى انتهى به انتقامه في العبث والمجون إلى الإصابة بالفلج.

وأدى اضطراب الأحوال وتتلصص الأمراء فيما بينهم إلى أن ذهب فريق منهم إلى حريم القصر فأتوا بغلام من أبناء السلطان المريض ورفعوه على العرش.

هذا وكان الأمراء الخليجون بدورهم قد أحسوا بما كان ينبر لهم في الخفاء فخرج بهم زعيمهم جلال الدين فيروز مع أتباعه وجندهم إلى ظاهر العاصمة.

هنالك حسبها الأمراء الأتراك بدورهم فرصة سانحة لخلاص الأمر لهم لكن أبناء الأمير فيروز الخليجي سرعان ما أحبطوا خططهم باختطاف السلطان الصبي والفرار به إلى معسكرهم .

وإن هي إلا أيام قليلة حتى اجتاحت المدينة بجندهم قاصد فريق منهم قصر المرايا حيث كان كيقباز طريق الفراش ، فقتله رجل منهم انتقاما منه لأبيه . وأقيمت جثته بنهر جملة في التاسع عشر من المحرم عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م.

ويمقتل كيقباز انتهى أمر سلاطين المماليك وانتقل الملك إلى أيدي الخليجين .

الخليجيون

يرجح محمد قاسم هندو شاه ، صاحب تاريخ فرشته ، نسب الخليجيين إلى الترك ، ويحتج على ذلك بترداد ذكرهم في تاريخ ملوك غزنة خصوصاً أيام حكم سكتكين وابنه محمود^(١) . في حين ينسبهم نظام الدين أحمد ، صاحب طبقات أكبرى ، إلى قايخ خان أحد أصهار جنكيزخان^(٢) ، حيث تقول الرواية بأنه نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم ثم حرف اسمه بعد ذلك إلى خليج الذى ينسب إليه الخليجيون . ويقول بهذا رأى كذلك ضياء الدين بارانى صاحب تاريخ فيروز شاه محتجاً بكراهية الخليجيين للترك .

ومهما يكن الأمر فإن الخليجيين قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها، فصاروا يعدون أنفسهم أفغانيين أكثر من أى شئ آخر .

وبدا نجم هؤلاء الأمراء فى الظهور بالهندستان أيام محمد الغورى وقطب الدين أيك وشمس الدين التمش ، فكانوا حكاماً على البنغال والأقاليم الشرقية كما ولوا كذلك من المناصب الرفيعة الأخرى فى الدولة . ولتلك الأمراء الأفغان حولهم ببلاط بلبن وخلفائه فى جبهة تتاهض نفوذ الترك الآخرين وغيرهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن ارتقى زعيمهم جلال الدين فيروز شاه عرش دهلى ٦٨٩م/١٢٩٠م ، وكان فى السبعين من عمره .

ولم يتقبل أهل العاصمة حكم الخليجيين أول الأمر بقبول حسن لفرط ما ارتكبته قواتهم معهم من ضروب القسوة من جهة ، ولإشاعة مقتلهم لسلطانهم المغلوج من جهة أخرى ولكن السلطان الشيخ ما لبث بحسن سياسته وعذله ومودته أن تألف القلوب حوله من جديد . فقد أثر عنه أنه ، لفرط بغضه لإراقة الدماء ، كان يكتفى بنفى قطاع الطرق إلى البنغال دون قتلهم . كما بلغ من تسامحه كذلك أن

(١) تاريخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) لا تزال بعض قبائل الهزار بمنطقة بلاد الأفغان الجبلية محافظة على المقومات الجنسية واللغوية المغولية غالباً حتى اليوم ، وقد نشر الأستاذ جابيلز بحثاً شيقاً فى هذا الموضوع

عفا عن ملكه ججو ، ابن أخى بلين وحاكم إقليم كره، حين وقع أسيرا فى يده ، وكان قد زحف إلى العاصمة فى جيش كبير بدعوى أحقيته فى العرش ، فاكتمى فيروز شاه بخلعه عن إمارته وتنصيب ابن أخيه جلال الدين الخلجى مكانه .

ولم يكن تسامح جلال الدين وقفا على المسلمين دون غيرهم . فقد خرج من عاصمته إلى جهات ومالوه بعد ما بلغه من انتهاب رجا رنتبهور لهما ، فما إن رأى هذا الأمير الهندوكى يحتمى بإحدى حصونه خوف بطشه حتى رجع عنه حقا لئلا يرداء الرعية .

على أن بغض السلطان الخلجى الشيخ لإزالة الدماء لم يكن ليقعده بطبيعة الحال عن اللذبة عن بلاده إذا ما اكتنفها الأخطار أو تهددها الغزو . فما إن عاد المغول إلى الهندستان من جديد بهاجمونها بحفاظهم حتى تصدى لهم جلال الدين وأفلز بهم هزيمة منكرة أسر فيها بضعة ألوف منهم أنزلهم بضولى دهلئ ، وهم الذين عرفوا هناك بالمسلمين الجدد ، وقد صارت محتبهم مثابة للتأمر والاضطرابات التى جرت على دهلئ كثيرا من المتاعب فيما بعد .

وأن جلال الدين لابن أخيه علاء الدين عام ٦٩٤هـ / ١٢٥٤م بالخروج إلى الذكن غازيا ، وكان هذا الأمير واسع الأطماع طموحا فبيت فى نفسه أن يبتعد عن دهلئ ويقوم لنفسه هناك ملكا .

وبرغم ما كان معه من جند قليل لا يجاوزون ثمانية آلاف فارس ، فقد استطاع أن يقزو بهم إمارة ديوكر الهندوكية الواسعة ويهزم صاحبها رام جندرا وسنكره ديوا ثم عاد إلى مقره بكره محملا بغنائم طائلة كانت تضم أكادسا من الجواهر الثمينة وأربعين من الثيلة وبضعة آلاف من رموس الخيل .

وطار السلطان فرحا بما حازه ابن أخيه من انتصارات ، وكان إذ ذاك فى نواحى كواليار ، فعزم على الخروج بنفسه للقاءه .

وكاد جلال الدين يستجيب لتحذيرات بعض خلصائه وأرتياهم فى نوليا لابن أخيه . حتى إذ ما أقبل عليه الماس به لكغخان برسالة من علاء الدين يلوح له فيها بقتل نفسه أو أن يضرب وكثوزه فى الأرض على غير هدى إذا ما عدل السلطان

عن تشريفه بالتدوم إليه ، - أصم لُذنيه عن مقالته رجلاه برغم مزيد إلحاحهم عليه
وتبصيرهم إياه بمسوء نواياه ، فعزم على الخروج إليه من فورده .

وهكذا عبر جلال الدين للكنج في فئة قليلة من رجاله ، فما إن بلغ مقام علاء
الدين فأقبل يحييه ، حتى اتھالت ضربات السيوف عليه وعلى رجلاه ثم نودى فسى
الناس من بعد ذلك بالأمير الغادر سلطانا عليهم .

وروع الخير دھلى فبادر الأمراء ورجال البلاط بالالتفاف حول ملكه جھان
زوجة جلال الدين وقد بلغ بهم الغضب والحزن مبلغه لاغتياال السلطان الشيخ
الرحيم بهذه الأساليب الوحشية للوضیعة .

وبادرت هذه السيدة بحسن تدبيرها ، فغمزت الزعماء بالھبات والعطايا كما
نثرت الفضة والذهب على عامة الشعب بالمجانين حتى اجتمعوا جميعاً على
تنصيب ابنھاركن الدين إبراھیم على عرش دھلى .

على أن علمى الدين سرعان ما لقتحم المدينة على أهلها ولرغم سلطانها
الشباب على الفرار إلى الملتان . وهكذا جلس هذا الأمير المغامر الطموح على
عرش الهند عام ٦٩٥ھ/ ١٢٩٥م فأجريت الخطبة له وضريت السكة باسمه .

وغزا المغول أرض الهند من جديد فالتبرى لهم علاء الدين فى حروب طويلة
استمرت إلى عام ٧٠٥ھ/ ١٣٠٤م حتى رد غائلتهم عن البلاد . وكان أكبر عون
له فى حروبه هذه قائدہ الكبير غازى تغلق ومعه ظفر خان وألغ خان . وكان
علاء الدين قد نهج كذلك نهج سلفه العظيم بلبن بإقامة حصون قوية مستقيمة عند
الحدود الغربية وترويدها بالجند المدرب القوى والعتاد الحربى .

ولقد بدأت هذه الحروب فى السنة الثانية من حكم هذا السلطان حين خرج
الأمير دلود المغولى من بلاد ما وراء النھر فى عشرة آلاف مقاتل يبغي الاستيلاء
على الملتان والسند والبئجاب ، فتصدى له ألغ خان قائد دھلى وأقزل به هزيمة
شديدة .

على أن هؤلاء الغزاة لم يثنيهم عن عزمهم ما أصيبوا به من خسائر فاحشة ، فعادوا إلى الهند بعد قليل ، فالتقى بهم القائد الخلجي ظفر خان في معركة كبيرة أسر فيها منهم ألفين ومعهم قائدهم أسبقوا جميعاً إلى دهلي مصقدين في الأغلال وكان أخطر هجوم مغولي تعرض له علاء الدين هو الذي وقع عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م ، حين زحف قتلخ خواجه على رأس قوات كثيفة صوب دهلي . لكن السلطان ومعه ألف خان وظفر خان ثبتوا لهم حتى تم لهم النصر بعد قتال عنيف تضاعفت فيه خسائر الفريقين وسقط في موداه القائد الخلجي المحنك ظفر خان.

وظهر في الميدان على أثر هذه الواقعة جيش جديد من المغول بقيادة زعيمهم تارجي ، لكن الأمير نظام الدين تصدى له وشنت شمله .

ولئن كان حدة الخطر المغولي قد انكسرت على أثر هذه الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم ، إلا أن غزواتهم طغقت مع ذلك تتوالى على مناطق الهند الغربية حتى تمكن غازي ملك تغلق ، بفضل حنكته الحربية وشدة مراسه وما أنزله بهم من ضربات شديدة ، من أن يبعد خطرهم عن سلطانه دهلي تماماً .

وإذ ساد الاستقرار والأمن سلطنة دهلي من جديد ، انصرف تفكير علاء الدين إلى الغزو والفتوح . فأخذ يمهّد لذلك بالعناية البالغة بأمر الجيش وتقويته مع تهيئة ما يحتاج إليه من مصانع للسلاح وعمال لها ، إلى جانب إنشاء الحصون لاسيما بمناطق الحدود ضد سماته وديالبور بالبنجاب . وكان يعاونه في ذلك كله نخبة من قواده الممتازين الذين كانت فتوحاتهم تشمل شبه القارة الهندية بأكملها .

ولقد بحث فتوحات هؤلاء القادة وما جلبوه من كنوز طائلة ، نشوة مشوبة بقدر من الغرور في نفس علاء الدين حتى ثراهى له أن يسير بهم إلى فتح الدنيا بأسرها على غرار ما فعل الإسكندرية المقدوني من قبل . بل لقد ذهب به الحال إلى أبعد من ذلك ، فقد اصرح بأن قائده منه بمنزلة الخلفاء الراشدين من النبي الأكرم ، فهو قادر بهم على تنظيم الدعوة لدين جديد يخرجون للتبشير به في أركان المعمورة وسيوفهم مشهورة .

وهنا يقول المؤرخ ضيabarائي صاحب تاريخ فيروزشاهي ، وكان معاصراً له ، إن القاضي علاء الملك عم السلطان بادر باعتراضه على علاء الدين في قوة وحزم حين مثاله النصيحة في هذا الأمر . فقال له بأن الدين إما هو وحى من عند الله وليس بأمر وضعي من صنع البشر ، وأن النبوة لم يختص بها الملوك أبداً لو كانت من نصيبهم صوماً وإن كان بعض الرسل قد أوتى من الملك نصيباً . وهذا خان المغول جنكيز ، برغم ما أهرق من دماء في بلاد المسلمين ، لم يمكنه حمل المقهورين على الدخول في ملته ، بل إن ما حدث هو العكس ، فقد أقبل المغول القاتحون أنفسهم يدخلون في دين الله أقولجاً .

أما عن مسألة فتح العالم فقد إبان القاضي للسلطان بأن العصر يغير تمام المقايير زمان الإسكندر فلا يقاس عليه ، هذا فضلاً عن أنه كان للمقدوني وزير ناضح حكيم هو أرسطو وهو ما لا نظير له عند علاء الدين .

وختم القاضي نصيحته للسلطان بأن أوصاه بقصر جهوده وتركيزها في إخضاع الهندستان كلها لحكمه وإقرار الأمور فيها بالقضاء على الثورات والفتن وتأمين الحدود في وجه المغول .

ولقي كلام القاضي أننا مصغية من علاء الدين فبعث بقائده ألغ خان ونصرت خان عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م للاستيلاء على حصن رنتبهور فنفاذا إليه في قوات كبيرة عبر صحراء الراجبوتكا بعد أن استولوا في طريقهما على حصن جهالين .

وفيما كان يحاصران هذه القلعة ، أصابت إحدى كذائف المدافع الحربية نصرت خان إصابة قاتلة جرته إلى حتفه في مدى يومين . وما لبث رانا همير صاحب الحصن أن خرج إلى المسلمين في مائتي ألف من الجند اجتمعوا له ، فأرغم بهم ألغ بك على الارتداد إلى قلعة جهالين بعد خسائر كثيرة .

هناك بادر السلطان بالخروج بنفسه إلى هذا الحصن ، ولكنه فوجئ في الطريق بتأمر ابن أخيه سليمان شاه فكخان على حياته ، ومعه أتباعه من المسلمين للجدد، قصد انتزاع العرش منه على غرار ما قطعه هو نفسه بعمه جلال الدين من

قيل . على أن علاء الدين ، يرغم ما أصابه من جروح شديدة ، أفلح أخيراً الأمر بالقضاء على المتآمرين جميعاً .

وتابع الأمير الخلجي سيره إلى غايته فالتقى في طريقه مالهو ودهار . حتى إذا ما وصل حصن رنتبهور قابله أصحابه بمقاومة عنيفة أطال من أمدها جنوح بعض رجال الدولة بدلهى إلى التآمر على السلطان في غيبته وإشاعتهم الفوضى في المدينة .

وأصر السلطان على ألا ينصرف عن الحصن قبل الاستيلاء عليه فيبحث بقاتله ألغ خان إلى دهلى فأقر الأمور فيها بعد عناء شديد .

واستمرت الهذات في الدفاع عن قلعته في شجاعة خارقة وثبات عظيم فلم تسقط في أيدي علاء الدين إلا بعد عام من المقاومة المجيدة ومن ثم أبى السلطان إلى عاصمته في نهاية عام ١٣٠١هـ / ١٣٠١م بعد أن أمر بالحصن فسهم وسويت أسواره بالأرض . وصارت الإمارة كلها لألغخان .

وأغرى هذا الانتصار الكبير علاء الدين على التطلع إلى اقتحام موار أمتع إمارات الراجبونا وأعظمها . ولم يفت في عضده ما حصنت به الطبيعة هذا الإقليم من جبال شامخة ودروب وعرة وغابات كثيفة موحشة ، إلى جانب حصونه الكثيرة وفيها حصن جيتور الذى قد بنى من الصخر على قمة جبل وعز كفلت له مناعته رد كل فاتح أو غاز عنه ، فلم يفكر أحد من قواد المسلمين بالهند من قبل في محاولة للنفاذ إليه .

على أن علاء الدين ما عزم يدبر لرائنا بهيم صاحب جيتور ما يدبر حتى أفلح في استنراجه إلى خارج حصونه ثم أوقعه في أسر . وهما تقول الرواية أن السلطان عرض على أسيرة أن يردّه إلى مقامة إن سير إليه ابنته بدمنى . وكانت هذه الأميرة الهندوكية على جمال رائع وقتلة ذاع أمرها في كافة أرجاء الهند .

ولجمع رجال الحصن ، حين بلغهم الخبر ، على أن يبعثوا إلى سيدهم سراً بقدر من السم يضع به حدا لعذابه في الأسر وينقذ معه بذلك شرف قومه ، فلذا بالأميرة الجميلة ، وكانت ذات عقل راجح وتكبير سيد ، تكبرى لهم معارضة فتعلن

إليهم عزمها على المسير إلى مقام السلطان على خطة محكمة ، أسرتها إليهم ، فيها الخلاص والسلامة لأبيها ولها معا .

وبلغ ركب الأميرة معسكر السلطان ومعها أحمالها فسى اليهودج . فما إن توسطت القافلة مضارب علاء الدين حتى انشقت هواجها عن سبعمائة من فدائى الهنادكة الأشداء الذين أفلحوا بعد قتال مرير فى إتقاذ أميرهم وردوا بنته إلى حصنه بسلام .

ولم يكن علاء الدين لمسكت عن هذا الحادث ، فافتحم الحصن بنفسه فى الغداة وأعمل ورجاله السيف فى حاميته فى عنف بالغ ، وإن لم يستطع على كل حال أن يظفر بالأمير الهندوكى ولبنته أحياء ، إذا أورا مع جملة من الأعيان إلى بعض الكهوف حيث أهلكوا أنفسهم (١) .

وتبع سقوط هذا الحصن استيلاء قوات السلطان على ما لوه ثم ماندو ويوجين . ودهرا لجرى وجندرى . وهكذا لم ينصرم عام ٧٠٦هـ / ١٣٠٥م حتى كانت مملكة علاء الدين للخلجى تمتد من البنجاب إلى البنغال ومن جبال السهلايا إلى تلال الونداهيا ، وهى الرقعة التى اصطلاح المؤرخون على إطلاق اسم الهندستان عليها . واتجهت أنظار صاحب دهلئ من بعد ذلك إلى الدكن . وكان هذا الإقليم إلى جانب بعده عن العاصمة ، يقوم على حراسته عصابة من أمراء الهند الأقوياء .

وخرج جيش المسلمين من حاضرتهم وعليه القائد كافور . وكان مملوكا حبشيا كثيراً جلبه القائد نصرت خان إلى سيده من منطقة خليج كمباى .

ولخترق الجند ماله ثم للكجرات أعظم أقاليم الهند للتجارية وأغناها وأطيبها مناخاً ، ثم هاجموا راى كران الذى ما عثم أن فر مع ابنته إلى صاحب ديوكر .

وهناك انضم أنخان ورجاله إلى قوات كافور فصاروا جميعاً إلى ملجئ غريمها ، فما لبثا أن ظفرا به وبمجيره بعد قتال عنيف . على أن السلطان ، بفد

(١) تاريخ فرشته ص ١١٥ - هذا وتكرر بعض المصادر الهندوكية على أن الأميرة كانت زوجة لاصحاب الحصن لا لبنة له .

أن زف ابنة راي كران إلى خضر خان ولي عهده ، ما لبث أن رد صاحب ديوكر وابنه إلى بلادهما مكرمين ، فضمن بصنيعة هذا دوام ولاء هذا الأمير الهندي ووفائه له .

وعلى أى ، فقد بعثت انتصارات كافور للعرب فى قلوب أمراء الدكن وما يليها جنوبا ، فما عثمت تلنجانا قاعدة إقليم أورانكل أن فتحت أبوابها للغزاة المسلمين عام ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م ، ولقتدى أميرها بيراتب رودرا ديوا كما كاتيا ، قومه وعشيرته بكنوز طائلة حملها إلى دهلى ألف بعير كانت تنوء بها ، عدا مئات من الفيلة وأوف من رموس الخيل .

وشجع ما وصل دهلى من أسلاب وغنائم حكومتها على المضى فى الفتح طلبا للمزيد من الأرض والكنوز . فغادر كافور بجنده العاصمة من جديد فى جمادى الآخر من عام ٧١٠هـ / ١٣١٠م فبلغ إقليم مير ، فى الجنوب الشرقى من الدكن ، ليخرج له صاحبه ، فير بلال ، من أكناس الجواهر والأموال ما لم يزل من ضخامتها ما وهبة السلطان منها لرجالها وجنوده فى سخاء بالغ .

ولم يرجع المحارب الجسور عن الدكن حتى تم له إخضاع الجنوب . الهندى كله فلم يهل عام ٧١٢هـ / ١٣١٢م حتى كان سلطان الخليجيين يظل شبه القارة الهندية بأكملها .

واتجه علاء الدين من بعد ذلك إلى تنظيم شئون ملكه الواسع وتدعيم سلطانه بعد أن تحققت آماله فى الفتح ، وقد صار له جيش قوى غدت به البلاد فى مأمن تام من الغزو المغولى ، من جهة أخرى .

ولقد قامت سياسة هذا الأمير الخلقى الداخلية على قدر غير قليل من الشدة والعنف إذ وضع يده على جميع الملكيات الزراعية وأقتل كامل الهنادكة خصوصا بالضرائب . كما نهج نهج سلفه بلبن فى إقامة شبكة قوية من الجواسيس لتنتقل إليه أخبار الناس خاصتهم وعامتهم على السواء .

وتعرض هذا السلطان لنقد رجال الدين الشديد حين راح يستأثر لنفسه ، دون بيت المال ، بأموال الدولة وما حمله جنوده إليه من كنوز الهند الوفيرة ، إلى جانب

مخالته في فرض الضرائب بما يتلقى مع قواعد الشرع الشريف. وقد اعتذر لشيوخه هؤلاء بضرورة ما ذهب إليه طلبا لاستتباب الأمن في بلاده الواسعة ولل قضاء على ما ينشب فيها من فتن واضطرابات .

وبهذا كان علاء الدين أول سلطان مسلم بالهند جعل من إرادته المطلقة وحدها دستور الحكم ، قللده فيها كثيرون ممن جاءوا بعده .

وتشدد هذا الأمير في تحريم الشراب ببلاده ، وجعل من نفسه القدوة لقومه فحطم كل ما كان ببلائه من أدواته . على أنه اشتط في معاملة الهنادكة فمنعهم من اتخاذ المراكب أو التزين بشمين الثياب أو السلاح .

وصادفت النظم الإدارية والمالية التي وضعها علاء الدين قدرا كبيرا من التوفيق والنجاح . وأنت رقابته على الأسواق والأسعار مع تشدده في معاقبة مدلسي التجار إلى أن عم اليسر والرخاء البلاد⁽¹⁾ . هنا نقول الرواية بأنه كان يأمر بالمططف فيستكمل الميزان بقطعة نقد من لحمه حيا ، عظة لغيره وعبرة .

كذلك لم يهمل علاء الدين تعمير بلاده فأقام بها كثيرا من المنشآت النفيسة ، كما عني بنشر الثقافة وأسبغ رعايته على طماء زمانه وشعرائهم ممن أمثال الشيخ نظام الدين أوليا والعالم الفقيه ركن الدين والشاعر خسرو الدهلوي .

ومن البديهي أن أمراء المسلمين والهندكة على السواء ، الذين سلبهم السلطان كل ما كان لهم من نفوذ وامتيازات ، ومعهم التجار الذين غدت أرباحهم لا تعدو القدر الضئيل الذي تحدده الدولة لهم وتراقب تنفيذه في صرامة بالغة حرصا منها على رخاء الشعب ؛ هؤلاء جميعا كانت نفوسهم تكتزن القضب وتلويض بالسخط ، فلم يكن يمنعهم من الجهر به إلا ما يعلمونه ، علم اليقين ، من عظم بطش الأمير للخلقى وشدة بأسه .

(1) Prasad, India p. 210.

الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية

على أن علاء الدين حين تقدمت به الأمن ذهب في كثير من شؤونه ينقاد إلى آراء قلادة كافور الحبشى وعصبته من حثالة القوم الذين كان قد أتى بهم ليقيموا على خدمته مكان الأمراء الذين أبعدهم عن بلاطه ، فما عثموا أن بلغوا أعلى المناصب . وبلغ من تأثيرهم عليه أن أهمل تعليم أبنائه بتحريض من قلادته هذا .

وما إن مات علاء الدين في عام ٧١٥هـ / ١٣١٦م حتى ولى الأمر كافور وصيا على العرش بعد أن اجلس عليه حدثا صغيرا من أولاد سيده ، يدعى شهاب الدين عمر خان ، كان قد حمل السلطان قبل وفاته على البيعة له .

وعلى أى ، فإن علاء الدين الخلجي يعد بحق من أعظم ملوك المسلمين فى عصره . فقد توفرت له صفات الجندي الطموح الجسور والإدارى الحازم الموفق ، فقد جتده حتى دانت له شبه القارة الهندية كلها ، كما دفع عن حدوده الخطر المغولى الرهيب ، وفكر الأمن فى كافة ربوع بلاده ، ونظم الجهاز الحكومى تنظيمًا شاملا مكينا كان من أبرز مظاهره توفير الأكوات لسكان الهند جميعا بأسعار فى متناول أدنى طبقاتها ، وهو صنيع انفرد به علاء الدين دون حكام عصره جميعا .

وساق كافور البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية ، إذ طفق يعمل على إزاحة الأمراء الكبار من طريقه ، إما بالقتل أو بسمل الأعين ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فلم يسلم من بطشه أحد حتى ملكه جهان^(١) ، زوجة علاء الدين نفسه ، إذ جردها من إملاكها وأموالها وألقى بها فى الحبس . وكثبت النجاة من هذه المحنة للأمير مبارك خان ، الذى ولى العرش من بعد ، إذ اكتفى كافور بزرجه فى السجن .

كذلك أقصى المنتصب كل من بقى من رجال علاء الدين القدامى بالبلاط وعهد بوظائفهم إلى رجال من أتباعه ويطاقته ، حتى وفق فريق من مماليك علاء الدين آخر الأمر ، بمعاونة أمير دعى ملك شير ، فى التفتك بكافور وتخلص البلاد من شروره وعصبته فعهدوا بالملك إلى الأمير الخلجي مبارك خان^(٢) .

(١) تعرف بهذه التسمية الزوجة الأولى لكل سلطان ومعناها « ملكة الدنيا » .

(٢) يختص الأمراء عادة بقلب خان فى حين يلقب السلطان بلشاه .

وارتقى قطب الدين مبارك شاه عرش الهند ٧١٦هـ / ١٣١٦م فبدأ حكمه بداية طيبة ، فأطلق سراح المعتقلين ورد الأراضي والأمالك المكتسبة إلى أصحابها ورفع كثيرا من الضرائب عن كامل التجار .

ثم وجه قائدة خسرو إلى الكجرات والدكن للقضاء على الثورات التي نشبت هناك ، فهزم راجا هريال ديوا في ديوكر ثم سار إلى تلنجانا فباغت في ثلاثمائة من رجاله أوراكل ، وكان يحميها عشرة آلاف من الفرسان مع عدد كبير من المشاة ، فلنزل بهم مذبحه قاسية غنم من وراثتها كثيرا من الأموال والكفوز . وما لبث أميرها أن خرج على أثر ذلك من حصنه فأعلن استسلامه له على جزية سنوية طائلة وأموال كثيرة .

على أن السلطان الجديد ما عزم بعد قليل أن انقلب ينغمس في الشهوات والمبازل إلى درجة بشعة حتى اتخذ لباس النساء وخرج به في الطرقات قاصدا دور الأمراء ليواصل مجونة بها . بل لقد كان كثيرا ما يحرض من في صحبته من بنات الهوى على معاينة كبار الأمراء الذين كانوا يرغمون على مجالسته بالبلاط .

ووثب عليه آخر الأمر قائده خسرو فقتله وجعله من الأمراء الخجيين ويموت هذا السلطان انتهى حكم الخجيين بدلهى .

وجلس خسرو من بعده على عرش الهند ، عام ٧٢٠هـ / ١٣٢١م وتلقب بناصر الدين ، وكان من أصل هندوكى وضيع بالكجرات . فما لبث أن أطلق ليدى أتباعه في البلاد يعيشون فيها فسادا ، فتهبوا الناس وانتهكوا الحرمات وأشاعوا الظلم . ولم يترك هو نفسه أى أميرة من زوجات علاء الدين وقطب الدين وبناتهما إلا وقد استباحها ثم خلعها على بعض أصحابه . هذا كما اغتصب أموال الدولة وراح يبدل منها لبعض كبارها بغية شراء تعضيدهم له وتأييدهم .

وهدف خسرو إلى إحياء الهندوكية من جديد واسترجاع مجد الهنادكة القديم وسلطانهم بالتالى ، فجمع حوله عصابة من موطنيه عاهدوه على المضى معه فى هذا الأمر ، فراحوا يحطون من قيم الإسلام فى استهتار وجراءة

بالغة حتى اتحموا المساجد^(١) فلقاموا أصنامهم وأوثانهم بها وجعلوا من المصاحف قاعدة لها . ولو لم يشغل الأمراء الهنادكة في هذه المحنة الجامحة بتحقيق أطماعهم وتأريبهم للخاصة عن الاستجابة التامة لدعوة خسرو هذه ، لنزل بالحكم الإسلامى وأصحابه بالهند ضربات قاصمة دون شك .

وأثار ملوك خسرو وقومه ثائرة الأمراء العلانيين وأتباعهم فبعثوا من فورهم بأمير منهم يدعى فخر الدين جونيه إلى أبيه غازى ملك تغلق مستجدين بهذا القائد الحازم صاحب الفضل الأكبر فى دفع المغول عن سلطنة دهلئ .

وخرج تغلق من ديالبور فسارع جميع الأمراء بالانضمام بجنودهم إليه فى زحفه صوب العاصمة .

ودفعت الكبرياء بمغولكن أمير الملتان إلى التقاعص عن نصرة المسلمين إذ كان يرى فى نفسه ندا تغلق فلا ينطوى تحت إمرته ، فبادر القائد بيرم خان بالقضاء عليه وضم قواته إلى الجيش الزاحف .

ولم يخن خسرو ما بذله من أموال كثيرة لشراء الجند والقادة إلى صفوفه ، فأصيب بهزيمة حاسمة انطلق على أثرها هاتما على وجهه ليختفى فى مقبرة وهو فى طريقه إلى جلبت ، ولكن مطاردة ما لبثوا أن قبضوا عليه وعلى أخيه فأوردا مورد الردى فى آخر رجب من عام ٧٢١هـ / ١٢٢١م .

وهكذا أنقذ غازى ملك تغلق مرة أخرى ملك المسلمين بالهند من محنة قاسية قاصمة ، كما أنقذه من هول المغول من قبل .

واستبليت المدينة منقذها استقبالا منقطع النظير ثم راحت تعرض عليه عرضها ، فلم يقبله إلا بعد أن تكبد لديه عدم وجود وريث شرعى له من صلب السلطان علاء الدين الخلجى ولى نعتة .

(١) تاريخ فرشته لول ص ١٢٨ .

آل تغلق

ارتقى غازى ملك تغلق عرش دهلئ فى شعبان من عام ٧٢٠هـ / ١٣٢١م باسم السلطان غياث الدين تغلق . وهو تركى الألب من قوم جغتائ زطى الأم من البنجاب ، بدأ حياته جندياً (١) بسيطاً فظل يرتقى بجدته واجتهاده حتى بلغ مرتبة القيادة . وما لبث أن لمع إبان حكم السلطان علاء الدين الخلجى حين ساهم بجهود بارزة فى دفع المغول عن الحدود الغربية ، ثم طلق يئزل بهم من بعد ذلك مزبدا من الهزائم حتى إجاب خطرهم عن البلاد .

وجهد تغلق فى تدعيم ملكه واستعادة سلطنة دهلئ سابق هيبتها ونفوذها فهدأ بإحياء تعاليم الإسلام فى حكومته ، ورد للأمرء والأعيان ما اغتصب من إملاكم وامتيازاتهم ، كما أحاط بالإكرام والعناية كل من بالبلاد من الأمرء الخلجيين .

كذلك نجح غياث الدين فى استرداد الأقاليم الدكنية والشرقية التى كانت قد ضاعت من حوزت دهلئ . فبعث بابنه ألغ خان إلى الجنوب فانتزع تلتانجا من أيدى براتاب ديو التالى راجا أورنكل وضمها إلى ملكها . ذلك أن هذا الأمير الهندوكى كان قد انتهز فرصة ضعف الدولة أيام مبارك شاه الخلجى فنفض عنه طاعة السلطان ورفض إرسال الجزية إليه . وبأسره ختم دور هام لعبته هذه الإمارة فى تاريخ جنوب الهند . وسار هو بنفسه إلى الأقاليم الشرقية حتى بلغ البنغال فأقر له بالطاعة أميرها ناصر الدين حفيد بخراخان ابن بلين .

ونهج هذا السلطان نهج علاء الدين الخلجى فى الاحتفاظ بجيش نظامى قبوى تقوم الدولة بالإتفاق عليه كما نظم الأداة الحكومية وطهرها مما لحق بها من فساد أيام مبارك شاه الخلجى وقائده خسرو ، وحرص على إشاعة العدل بين الناس جميعاً .

كذلك أنشأ غياث الدين نظاماً محكماً للبريد لم تعرف الهند له ضربياً من قبل فى نكته وسرعته ، حتى بلغت العاصمة أخبار الرحالة العربى ابن بطوطة بعد

(١) تاريخ فرشته أول ص ١٣٠ .

وصوله مصب السند بأيام خمسة قطع فيها البريديون ما يزيد على ثسمائة ميل ،
هى المسافة بين للمكاليين ، فى طريق آمن معبد . وقد أشاد هذا الرحالة بما كانت
عليه الهند من تقدم ومدنية فى عهد هذا السلطان وخلفائه . وسنشير إلى ذلك كله فى
موضعه بقدر من التفصيل .

وشجع تطلق الناس على تعمير الأرض وفلاحتها فلصالح من طرأق السرى ،
وشق كثيرا من الترع والقنوات وخفض من خراج الأرض .

ولقى هذا السلطان حتفه فى ربيع الأول من عام ٨٧٢٥هـ / ١٣٢٥م على أثر
انهيار أحد قصوره به . وينسب بعض المؤرخين تدمير هذا الأمر لابنه وولى عهده
فخر الدين جونه ألغ خان مع الشيخ نظم الدين أوليا الذى كان على خلاف كبير
معه ، فى حين يقول آخرون بالقضاء صاعقة على البناء فهيمته .

وخلف الأمير فخر الدين أباه وتسمى بمحمد تطلق ، فاستهل حكمه ببذل المال
ولمطايا لرجاله ورعاياه فى سخاء بالغ ، حتى قيل إنه حين وفد للعاصمة قاندا من
تطلق أبدا كان ركباه جملة من الثيلة المحملة بالذهب والفضة راح فيالوها ينسثرون
أحمالها على الناس . وترامت أخبار هبات السلطان وكرمه إلى خارج حدود الهند
فوفد إلى بلاطه جموع من أهل العراق وخراسان وقارس وبسلاد ما وراء النهر
طمعا فى نواله وعطاياه .

وكان من بين الوالدين عليه كذلك طائفة من المشتغلين بالعلوم والفنون
والآداب . ذلك أن محمد تطلق لم يكن من رعاة العلوم والفنون فحسب بل كان هو
نفسه من بين طليعة المشتغلين بها والضايعين فيها فى عصره . فمنشوراته
ومنتظوماته الفارسية والعربية على السواء ، تشهد له بالثوق الأدبى الرفيع مع حسن
النسبك وجمال الصورة . هذا إلى جانب عنايته الفائقة بتجويد فن الخط والنقش ،
وتمككه المكين فى علوم الفلسفة والحكمة والمنطق حتى نبغ فى تشخيص الأمراض
وقام على علاج الناس بنفسه . ولعل تعمقه فى دراساته وأبحاثه الطبية إنما كان
استجابة ومسا لإكسابه الرقيقة التى دفعت إلى إقامة الكثير من دور الشفاء
وملاجى العجزة وموالاة الإشراف عليها بنفسه .

وقد تحدث ابن بطوطة حديثاً طويلاً عن هذا السلطان فذكر له كثيراً من الفضل والعام ، ولم ينكر ما عرف عنده من غرائب الأطوار الطباع التي كانت تدفعه في بعض الأحيان إلى أن يأتي بأى شحاذ يصادفه على بابهِ فيرفعه بمسحاته المذهل إلى مصاف الأثرياء المعدودين ، أو يسقط على أحد سرات قومه فيزيقه ألوان الفاقة والحرمان .

وقد عاش الرحالة العربي بالهند سنوات ثمانية ، فولى قضاء دهلَى كما سافر لها بالصين ، وغادرها عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م بعد أن سجل في مذكراته الكثير عن عادات المسلمين والهندكة هناك في دقة يؤيدها مؤرخوا الهند أنفسهم عن ذلك العصر^(١) .

وعلى أى ، فقد كان هذا السلطان صاحب مثل في تفكيره وخطه . ولو أن الظروف كانت قد وافته في تحقيق مشروعاته العمرانية والاجتماعية التي رسمها لأفادت الهند منها خيراً كثيراً .

وتعرض محمد تغلق بدوره لخطر الغزو المغولي ولما تستقر بعد أمور الدولة عقب وفاة أبيه ، ذلك أن ترمشيرين خان بن داود خان زعيم قبائل الأولوس الجفتائيين ، كان ذا شهرة ذائعة بين المغول لعدله وشجاعته ، اقتحم حدود الهندستان عام ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م على رأس جيش كبير بنوة فتح هذه البلاد ، فاستولى على لمغان والمُلتان عند الحدود الشمالية الغربية ثم اتخذ طريقه إلى دهلَى نفسها .

وبدا لمحمد تغلق أن يتجنب الالتحام بهذا العدو القوي ، فاحتال لذلك بأن بعث من فورهِ بوفد من رجاله حملوا معهم قدراً كبيراً من الأموال والهدايا إلى الزعيم المغولي ، وطقوا يخطبون وده ويبالغون في تملقه حتى ارتضى آخر الأمر الرجوع عن بلادهم ، فانسحب منها عبر السند والكجرات بعد أن انتهبها وأسر كثيراً من أهلها .

(١) رحلة ابن بطوطة طبع باريس ثلاث من ٢١١ - ٢١٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

وحين اتجهت هذه المحنة، راح السلطان يدبر الأموال اللازمة لتحقيق مشروعاته الإصلاحية، فتعالى في فرض الضرائب بإقليم الدواب، أخصب مناطق الهند وأغناها، حتى هجر الأرض أصحابها إلى الغابات فراراً مما ألزموا به من أموال عجزوا عن أدائها، فعم الإقليم الخراب ولجأت حته المجاعة. ويرد فريق من المؤرخين مملك محمد تغلق هذا إلى ما عرف من ميل أعيان هذا الإقليم إلى الجنوح للثورات وإشاعة الاضطرابات على الدوام، حتى نهج علاء الدين الخلجي معهم مثل ذلك من قبل، وإن كان احتباس الأمطار الموسمية عنهم في بعض السنوات قد زاد من خطورة الحال هناك.

وأعجب السلطان بموقع مدينة ديوكر الطبيعي الحصين، وكان قد سار إلى جوارها للقضاء على ثورة ابن أخيه بهاء الدين كشتاسب بالدكن، فمزم على أن يتخذ منها حاضرة له، أطلق عليها اسم دولت آباد فيما بعد، ليعتمد بذلك عن مواطن الخطر المغولي من جهة، ويتوسط، من جهة أخرى، دولته الواسعة التي كانت تمتد من الهمليا إلى جنوب الدكن ومن البنغال إلى أرض كابل.

ولو كانت خطة السلطان هذه قد اقتضت على البهه بنقل دواب الحكومة إلى العاصمة الجديدة ثم إجراء هجرة السكان إليها بالتدريج لكان الأمر وأمكن تحقيقه في شيء من اليسر. لكنه شرع من فوره يشق الطرق من الشمال إلى الجنوب، ثم زود سكان دهلي بالمون وأعد لهم وسائل النقل، وأمرهم جملة بالرحيل إلى العاصمة الجديدة مع متاعهم. ولقد كان من الطبيعي أن يعم السخط أولئك الذي أرغموا على ترك عاصمتهم، فلقى عاشوا فيها أجيالا، إلى بلد آخر لا يدرون من أمره شيئا، هذا فضلا عما تعرضوا له من مناعب لا قبل لهم بها في طريق يبلغ طوله سبعة ميل، فزلت بهم الأمراض وفنكت بهم الأوبئة فتكا ذريعا حتى هلك منهم خلق كثير. وأما الذين كتبت لهم النجاة فبلغوا العاصمة الجديدة سالمين، فقد انتباهم شعور من أرسل بهم إلى المنفى^(١).

(١) ابن بطوطة ثلاث من ٩٥ - ٩٧.

وببالغ بعض المؤرخين فى وصف ما ارتكبه محمد تغلق من ضروب القهر لحمل الناس على الهجرة إلى حاضرتة الجديدة ، فيرون أنه لم يتركذ فى إعدام رجل مكشوف وآخر كسبح تخلفا بدلى عن الركب . ولئن كان هذا السلطان قد حرص حرصاً بالغاً على تنفيذ مشاريعه الإصلاحية حتى استقدم إليه فى سبيل ذلك جملة من الخبراء وأجزل لهم المعطاء فى كرم زائد آثار ثقرة من حوله ، هذا كما كان يقسو مع كل من كان يحاول معارضة خططه أو عرقلة تنفيذها . إلا أنه حين استبان له مدى الكارثة التى حلت بالناس فى هجرتهم هذه ، أباح لهم من فوره العودة إلى دهلئ من جديد لمن يرغب فيها . ولم يكف بذلك فحسب بل شرع يقوم لهم على مقربة منها مدينة جديدة هيا لهم فيها كثيراً من أسباب الراحة والاستقرار . ذلك أن العاصمة القديمة التى كانت تضارع لوقتها القاهرة وبغداد كان الخراب قد دهمها بدورها على أثر هجرة أهلها منها .

واستبان لمحمد تغلق حاجته للشديدة لجيش كبير يستطيع به إقرار الأمن فى ربوع ملكه الواسع ، فتتق ذهنه ، بمسبل تكبير الأموال لهذه القوات ، عن خطة انتهى فشلها إلى تصدع كيان البلاد الاقتصادى تصدعاً شديداً . فقد أضر بضرب صلة نحاسية تقوم فى التعامل بين الناس مقام الذهب والقضة بضمنان بيت المال ، فتج عن ذلك أن انقلبت أغلب الدور الخاصة إلى مسابك لضرب هذه العملة الجديدة طلباً للثراء . وإن هى إلا فترة قصيرة حتى أخذ التجار المحليون يرفضون التعامل بها إلا على أساس قيمة محدنها ، فى حين طلق غرياء التجار لا يبيعون وارداتهم إلا بالذهب بويشترتون صادراتهم بالنحاس .

وحين أدركت للحكومة مدى ما هم البلاد من الخراب من جراء ذلك فأعلنت رفع هذه العملة من الأسواق ورد قيمتها إلى أصحابها ذهباً وقضة ، أقبل الناس على بيت المال ومعهم ما كانوا قد زيفوه من الأكفلس الطائلة النحاسية ، فاستزفوا الكثير من أموال الدولة .

ولم يكن محمد تغلق على كل حال هو أول من لجأ إلى استعمال العملة المعدنية بضمنان الذهب ، فقد كانت هذه الطريقة معروفة بفارس وكذلك بالصين

التي كانت تتداول العملة الورقية أيضا قبل أن يعرفها العالم بزمان طويل ، بضمـان خاتم الإمبراطور . فما أعوز هذا السلطان إنما كان تمام الضبط والحيطة .

واستجاب محمد تغلق لتحريض المماليك المصريين له على غزو خراسان والعراقيين . وشجعه على هذا الأمر ما كان من تحقيق أحد أحلامه الكبرى بالحصول على تأييد الخليفة العباسي بمصر له وخلمه عليه ، فأعد لهذا الغرض جيشا قوامه ثلاثمائة وسبعين ألفا من الجنـد ، ولكنه ما غدا أن سرهم بعد أن ظل يؤدي لهم نفقاتهم من بيت المال عاما كاملا ، وذلك حين عدل المصريون عن ذلك إلى محالفة أبي سعيد ميرزا صاحب بلاد ما وراء النهر وإطلاقهم ليده في بلاد الفرس والتركمان .

هذا كما بعث محمد تغلق كذلك بحملة قوية إلى ولايات الهملايا العليا فدمتها التلوج قضت على أكثر أفرادها . وقد ادعى بعض المؤرخين بأن سلطان دهلـي إنما سير هذه الحملة لغزو الصين طمعا في كلوزها ، في حين أنه لم يرم من ورائها في الغالب إلا إلى نشر الإسلام في هذه المناطق وتأمين الدروب إلى خراسان .

وانتهى ماجره قتل السلطان في مشروعاته ، وماتتج عن ذلك من محن قاسية إلى أن اجتاحت البلاد موجة قوية من الاضطرابات والثورات التي زاد من حنتها جنوح حكومة دهلـي إلى مصادرة الكثير من أموال الأعيان والتجار حين ألحت عليها الحاجة إليها .

وكان أول من رفع لواء العصيان في وجه محمد تغلق هو الأمير جلال الدين إحسان الذي أطن استقلاله بمير في الدكن فضرب السكة باسمه عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م . ويرغم ما كانت تعانيه دهلـي من مجاعة قاسية فقد خرج السلطان نفسه لقمع هذه الفتنة ، لكنه لم يبلغ تلجائنا حتى أخذ وباء اليربـضة (الكوليرا) يفتك بجنته فرجع عن خصمه .

وعصت الاضطرابات البنغال بدورها على نطاق واسع . فذلك أن قائدنا هناك يدعى فخر الدين سقط عام ٧٣٧هـ على أميره قنـرخان صاحب

لكنهلوتى فقتله وجلس مكانه ، ثم ما لبث أن جهر مطمئناً باستقلاله ، إذ كان على علم تام بما يعايناه سلطان دهلوى من متاعب لا يستطيع معها أن يزحف إليه . وارتنك الذكن إلى الثورة من جديد ، فطلب السلطان من قائد عيّن الملك صاحب أوده وظفر آباد ن يتوجه بقواته إلى دولت آباد ويشرف منها على إقرار الأمور هناك .

على أن هذا القائد الذى كان له وأخوته جهود كبيرة فى معاونة السلطان على تخفيف وطأة المجاعات والمحن التى اجتاحت البلاد ، ترمى إلى خاطره أن السلطان إنما يرى من وراء ندبه لهذا الأمر ، إلى الاستيلاء على أملاكه وأراضيه فاعتصم وجده بإقطاعه حتى أقبل عليه محمد تغلق بنفسه فباغته فى مضاربه واسره ثم ألقى به فى الحبس ، وإن عفا عنه بعد قليل لمسابق خدماته وإخلاصه .

ويبلغ السلطان من بعد ذلك خبر انقضاى بعض زعماء الزط على لاهور وقتلهم لتاتار خان نائبه هناك ، فسير إليهم من قوره قلته خواجه جهان فأسر كثيراً منهم وساقهم إلى العاصمة حيث أعلنوا إسلامهم بها .

واتفت محمد تغلق إلى الذكن من جديد بعد أن أقر الأمور فى الشمال ذلك أن استقلال الأمير جلال الدين إحسان شاه بإمارة مير قد أغرى بعض الأمراء الآخرين على أن يحنوا حنوه . وكان من بين هؤلاء الأمير الهنوكى هارى هار الذى أسس هو وأخوه إمارة فيا يانكر فيما بعد . وما لبث هندوكوا الجنوب بزعامة كرشانا ياك أن شدوا من أزور هذه الإمارة التى اتسعت رقعتها وقزذلت قوتها حتى قامت على حماية الجنوب كله من أى غزو إسلامى يذ إليه من الشمال .

وسرت الاضطرابات بدورها إلى الكجرات وديوكر التى ضخت تعرف بدولت آباد ، فلم يكد السلطان يقادرها ، بعد أن خيل إليه استتباب الأمور فيها ، حتى نهض عام ٧٤٨م-١٣٤٧م أمير أفغانى شاب يدعى حسن كانكوى فوضع يده على الإقليم كله . ويعرف هذا الأمير فى التاريخ باسم علاء الدين أبى المظفر صاحب سلطنة بهمنى الذكنية التى لعبت دوراً هاماً فى تروخ المسلمين بشبه القارة الهندية .

ووافى محمد تغلق لأجله عام ١٣٥١هـ/١٣٥١م إبان إحدى حملاته في
السند وقد انفرط عقد سلطته ذات الولايات الثلاث والعشرين إلى عدد
من الإمارات القوية المستقلة ، فلم يبق تابعاً لأدهلى من الولايات الكبيرة إلا
الكجرات .

هذا وينسب بعض المؤرخين ما صلافاً هذا السطلان من الفضل في مشاريعه
الكثيرة إلى سوء طالعاه وما كان حوله من مستشارين تنقصهم الخبرة والإخلاص .
ويذكر ابن بطوطة لهذا الملك كثيراً من الفضائل ، كما يشي المؤرخ ضياء الدين
بارانى ، معاصره على تمسكه بأهذاب السنة وحرصه على إقامة العدل بين الناس .
ويشير أغلب مؤرخي الهنداكة المحدثين إلى تسامحه حتى قرب إليه كثيراً من
الهنداكة وولاهم عدة مناصب في الدولة ، وينفون عنه ما أشيع من ميله لسفاه
الدماء وتعطشه لارتكاب العنف والقسوة ، ويقولون بأن تشييع بعض المؤرخين
عليه بهذه التهم لم يكن إلا لقتله بعض الدراويش والفقهاء . ولعل قياس هذه
الحوادث جميعاً على ضوء مجتمع القرون الوسطى وتقاليد قديماً بهذا السلطان
عن أن يحشر في زمرة جلادى عصره^(١) .

ولم يكن لمحمد تغلق ولد فعهد بالملك من بعده إلى ابن عمه فيروز تغلق ،
وكانت أمه السلطانة كديانوا هندوكية الأصل ، فأبواها هورنا محل بهاتى . وقد
قيلت هذه الأميرة الجميلة أن تتزوج من والد فيروز أخى غازى تغلق دفعاً للضرر
عن أسرتها^(٢) .

وعرف السلطان الجديد بميله إلى المسالمة ويحده عن لواقاة الدماء مع شغفه
الشديد بمخالطة رجال الدين وأهل التصوف . بل لقد قيل إنه أهدى كثيراً من المتردد

(١) Prasad, India, 227,8.

(٢) كان آل تغلق قد وفدوا إلى الهند كالمسلمين من خراسان أيام علاء الدين الخلجى حيث ولي
غازى تغلق إمارة ديالىو . هذا ويورد ابن بول فى كتابه عن الهند فى العصر الوسيط - Lane
poolo, Medieval India pp.298. أسباب ضعف المسلمين إلى مصاهرتهم للهنداكة مع أن كثيراً
من سلاطين المسلمين المعظم بالهند كفت أمهاتهم من الهندوكيات .

فى قبول الحكم ، إذ كان يؤثر عليه الخروج إلى الأراضى المقدسة طلباً للحج والاعتكاف بها متجداً إلى آخر عمره .

وأيا ما كان القول . فقد أدى قبول هذا الأمير لمنصبه إلى القضاء على النزاع الذى قام بين قادة الجيش حول ولاية العرش . هذا وكان خواجه جهان أحد الأمراء الكبار ، قد باهر بتصيب طفل دهلئى نسله إلى محمد تغلق ، لكنه ما إن علم بقدم فيروز تغلق إلى العاصمة حتى سعى إليه معتكراً يطلب الصنف .

وهكذا جلس على عرش دهلئى فى رجب من عام ١٣٥٢/٧٥٢م سلطان جديد اكتسب فى عهد سلفه دراية كبيرة بشئون الحكم وتمرس بأساليبه .

ونتج عن الاضطرابات التى شغلت بها الدولة عقب وفاة محمد تغلق أن انتهز حاجى إياص هذه الفرصة فأعلن استقلاله بالبنغال ولقب نفسه بالسلطان شمس الدين ، ثم ما برح ينشر قواته فى إقليم بهار حتى بلغت بنارس .

هنالك عزم فيروز على الخروج لرد هذا المعتصب عما استولى عليه من أراضين ، فسبق حملته بمنشور ، أذاعه فى أهل البنغال وما حولها ، أعلن فيه أنه إنما يتولى السلطنة بتفويض من الخليفة العباسى أمير المؤمنين ، فمن خرج عليه فقد خرج بالتالى على إجماع أهل السنة . كذلك دعا الأهلين إلى الانضمام إلى صفوفه والخروج على عدوه واحداً ليأهم بإعفاتهم ، مسلمين وهنالك ، من دفع الضرائب عاماً بأكمله مع بذل الأمان لهم .

وأفلح سلطان دهلئى الجديد آخر الأمر فى أن يستدرج خصمه من حصن إكداله الذى كان يعتمد فيه إلى ضفاف الكنج حيث نشب بين الفريقين قتال عنيف دارت فيه الدائرة على الثورل فارتدا ثانية إلى حصونهم .

ووجدت ضراعة النساء فى حصون العدو طريقها إلى قلب السلطان ، فاعرض عن نصيح رجاله بالتوغل فى البنغال محتجاً ببده الأمطار الموسمية ، وأب إلى عاصمته قائماً بالصلح مع خصمه .

ويستل الأمل فى النفوس من جديد لاسترداد البنغال حين استجد الأمر ظفرخان بالسلطان من صف ختته شمس الدين فخرج فيروز شاه عام

٧٦٠هـ ١٣٥٩م كرة أخرى إلى هذه الإمارة ليجد أميرها الجديد إسكندر شاه يحذو حذو أبيه في الاعتصام بملكه ثم يبعث إليه بالهدايا الكثيرة مشفوعة بتوسلاته التماس رقي لها قلب السلطان المعالم مرة أخرى . فرجع عن البنغال للمرة الثانية مكتفيا باصطحاب الأمير ظفر خان معه ، وقد كان في مقدوره ضمها إلى ملكه في غير عناء كبير .

ونزل فيروز شاه عند أويته من البنغال بمدينة جونيور التي كان قد أمر بتشييدها تذكرا لابن عمه فخر الدين جونه^(١) ، ومن ثم أتجه إلى إقليم ججنكر (أوريسه الحالية) الذي يشتهر بخصبة ووفرة الأرزاق فيه من الحبوب والفاكهة والماشية ، فانطلق جنده يتهربونه ويحطمون معايبه حتى أقبل أميره الهندوكي راجا أديساران آخر الأمر بطن ولاءه للسلطان على جزية كبيرة . وما لبث أن حذا حذوه جملة من الأمراء الهندكة المتأخمين لحدوده .

كذلك وفق سلطان دهل في العام التالي في إخضاع حصن نكركت ، وكان صاحبه قد جنح أولخر أيام محمد تغلق إلى خلق نيرنلهي عن كاهله . وصار هذا الحصن يعرف فيما بعد باسم محمد آباد تخليدا لذكرى السلطان الراحل .

ولعل أكبر حملة خرج فيها السلطان فيروز هي تلك التي قصد بها إلى إخضاع الهندكة من الزط وغيرهم ، وكانوا قد جنحوا بدورهم صديقتنا بمصب السند إلى العصيان أولخر عهد محمد تغلق . ونجم عن سد الأمطار الغزيرة للطرق وإتلافها ، شجح الأقوات بين القوات حتى اضطر فيروز إلى الارتداد بجنده إلى الكجرات . على أن قائده ووزيره خان جهان مقبول ، وكان من مسلمي الهندكة ، ما لبث ، مع إمدادات وفتت إليه من الدواب ويهبار ، أن خاض مع الثوار معركة حاسمة انتهت بأسر زعيمهم جام بابينيا ، ليخفو السلطان آخر الأمر عنه ويجرى عليه معاشا مجزيا بدهل ، ويقوم أخاه مكاهه .

(١) وهو السلطان محمد تغلق سلف النكر .

وأدى إهمال السلطان لشأن الدكن أن أمكن لإمارتى بهمنى وغيايانكر أن يرسخا إقدامهما ويوسعا من رقعتيهما هناك على حساب سلطنة دهلى التى اقتصرت حدودها الجنوبية إلى الشمال من تلال الونداليا .

ولئن أدى ميل فيروز تطلق للسلم وتجنب الحروب إلى ضياع مساحات واسعة من أراضيه ، إلا أنه هبى له على كل حال الفرصة للتصريف إلى شئون الدولة الداخلية والتفرغ لرسم خطط الإصلاح والتنظيم التى فتحت للأهلين كدرا من الحياة الطيبة المستقرة . وقد طفق كبار سلاطين الهند المصلحين يترسمون مناهج هذا السلطان الإنشائية ونظمه من بعده قرونا عدة ، وكان من بين هؤلاء السلطان أكبر المغولى أعظم حكام العالم فى عصره على الإطلاق .

ذلك أن هذا الحاكم المصلح قسم أراضى الدولة إلى إمارات عهد بإدارتها إلى جملة من الرجال الأكفاء كما عني بأمر الزراعة فعمل على استصلاح مساحات واسعة من الأراضى البور ، وأحكم نظام الري ، وجد فى حفر الأنهار والقنوات حتى توافرت الأرزاق وعم الرخاء كاد الناس معها أن يتسوا تسوة المجاعات الجارفة التى ألمت بهم من قبل .

كذلك التفت فيروز تطلق إلى الضرائب فأحكم نظامها ، ورفع الكثير منها عن كامل الأهلى ، وأمر ألا تعدو جبايتها حدود الشرع ، وراقب ذلك كله بنفسه فى حزم وشدة .

أما غنائم الحرب فقد خص بيت المال بنصيبه الشرعى منها وأطلق الباقي لرجالها وقراء شعبه .

وأدى تمسكه السلطان بقواعد الشرع إلى توفير العدالة لرعاياه وإبطال الكثير من العقوبات والمعادات غير الإنسانية التى كان يمارسها الهنادكة على الخصوص ومنها عادة الساتى حيث تقبل الأيم التى ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان زوجها .

ولم تنف جهود فيروز تطلق عند هذا الحد حيث شاع اليسر والرخاء والعدل بين أوساط الناس وعامتهم خاصة ، حتى ذهب فى سبيل إصلاحه الاجتماعى ،

يأمر بإحصاء العاطلين في بلاده وحصرهم ، فمن كان منهم يجيد القراءة والكتابة الحقه بخدمة الديوان ، ومن كان منهم على دراية بحرفة أو صنعة هيا له ما يناسبه منها سواء بمنشآت الدولة أو بغيرها من المنشآت الأهلية ، ومن بقى منهم من بعد ذلك ألحقه بخدمة الأمراء ورجال الدولة .

وإلى جانب ذلك كله أنشأ السلطان ديوانا يعرف بديوان الخيران ليعين بماله على تزويج الفتيات الفقيرات ، ويرعى المرضى والضعفاء والمشيوخ بما يجريه عليهم من أموال وما يقيمه لهم من دور للشفاء ورباطات .

وبلغت دور الشفاء عند فيروز تغلق المائة ، وكان الدواء والغذاء يقدمان فيها للناس بالمجان . وإلى جانبها أقيم دور للعلم عديدة كان من بينها ثلاثون مدرسة جامعة لدراسة العلوم الشرعية والتقليدية على السواء .

وأدى شغف هذا السلطان بالعلم إلى قدوم طائفة من طماء المسلمين ببلاده ليضطلعوا بالكتريش في مدارسه . وقد دون هذا السلطان سيرته بنفسه في كتابه المعروف « فتوحات فيروز شاهي » .

وعمل فيروز كذلك على إحياء للدراسات الهندية القديمة ، وحض البراهمة على حل نقوش أعمدة آزوكا القديمة ، وكان قد استخدم جملة منها في منشأته . كما أمر بترجمة جملة من أمهات الكتب السنسكريتية ، التي وقعت بأيديه في حصن نكركت ، إلى الفارسية^(١) .

ومنشآت هذا السلطان التي بلغت التسعمائة ما بين مدارس ومساجد ودور للشفاء ورباطات وقصور وحمامات ، وإلى جانبها مدن ثلاث كبيرة بالقرب من دهلي ، وهي فيروز آباد وقنح آباد وجونپور ، هذا الحدائق الكثيرة التي بلغت الألف عدا ، استازمت هذه كلها استخدام عدد كبير من الأيدي العاملة مما ساعد على تخفيف أزمة البطالة بين العمال^(٢) .

(1) Prasad, India pp.266,67,91,2.

(٢) تاريخ فرشته من ١٥٠ .

وركبت العال السلطان الشيخ على كر السنين وتوالى الحدثنان ، فما عدا أن أطلق يد وزيره خان جهان ظفر خان فى تصرف شئون الدولة .

وتراءى لهذا الوزير ، فى سبيل تثبيت سلطانه المطلق ، أن يزيح من طريقه ولى الحد الأمير محمد فلتهمه عند أبيه بتآمره على العرش هو وجملته من الأمراء الذين عرفوا بكرهية فيروز تغلق لهم .

على أن الأمير حين وقف على ما كان يبيت له طلق يصطنع الحيلة حتى لقي أباه ، فمالأ به حتى لقتله بخبث طوية وزيره فعزله وولاه مكانه .

وحين أطمأن محمد إلى إمساكه بزمام الدولة كلها حتى دعى له فى الخطبة مع أبيه ، انصرف إلى مآربه الخاصة ومتعه لا يلقى إلا إلى مشورة رجال البلاط وكبار الأمراء الذين حدا بهم حرصهم على سلامة الدولة إلى الالتفاف حول ابنى أخى السلطان الأمير بن بهاء الدين وكمال .

وأدى هذا الانقسام آخر الأمر إلى الصدام الحرى بين الفريقين ، فشهدت شوارع دهمى للتحامات بشعة سقط فيها الكثير من رجال الفريقين . ولم يوقف سير هذه المجازر العنيفة إلا ظهور السلطان الشيخ على محفته فى الميدان ، فإذا الجند تبادر إلى الالتفاف حوله والانضمام إلى صفوفه مكبرة مهللة ، فى حين بانر الأمير محمد إلى الهرب فتحصن فى تلال سرور .

وعهد فيروز بالملك على أثر هذه الفتنة إلى حفيده غياث الدين ابن فتح خان . وإن هو إلا زمن يسير حتى قضى السلطان الشيخ فى رمضان من عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م وكان قد جاوز التسعين من عمره .

وبعث السلطان الشاب فور ارتقائه العرش برجاله يطاردون الأمير محمد الذى استطاع آخر الأمر التحصن فى قلعة تكركت التى امتنعت على المهاجمين .

وما عدا غياث الدين تغلق الثانى هذا أن غلبته فتنة الشباب على أمره فانصرف عن شئون الدولة إلى متعه الخاصة وملاهيته . حتى إذا

ماركب الشطط فى معاملة ذوى قرباه من الأمراء ورجال الدولة فسلك معهم سبيل العنف ، اجتمع عليه ابن عمه أبو بكر ونفر من أفراد أسرته فأطبقوا عليه فى قصره .

ولئن أفلح الأمير فى الخروج من باب جمته ووزيره سالمين ، إلا أن الثوار سرعان ما لحقوا بهما عند النهر فقتلوهما لوقتئها ، ولم يكن قد مضى على السلطان الجديد فى الحكم إلا شهور خمسة ويضعة أيام .

ولم ترض عصابة الأمير محمد بن فيروز عن جلوس الأمير أبى بكر على العرش فترسوا لوزير شاه خورشيد عند سمائه وهو فى طريقه لقتال زعيمهم فقتلوه وبعثوا يرأسه إلى أميرهم فى حصنه وحرصوه على اللتوم إليهم والدفاع عن حقوقه الشرعية فى الحكم .

ويرغم ما جمعه الأمير محمد من قوات للدواب فقد توالى هزائمه أمام ابن عمه بظاهر دهل . حتى إذا ما ضايق الناس فى العاصمة نزعاً بشدة وطأة أبى بكر عليهم وعنفه معهم - بعثوا يحرضون ابن عمه على اللزق إليهم من جديد ، فلم يملك أميرهم إلا الهرب وقتة من أنصاره إلى بهادر نهر صاحب موات لاجئين .

وما إن جلس السلطان الجديد ناصر الدين محمد تغلق الثانى على عرش دهل فى رمضان من عام ٧٩٣هـ / ١٣٩١م حتى عهد بالوزارة إلى إسلام خان ، ثم أمره وولى عهده همايون بالخروج فى طلب أبى بكر ، فمازالا به حتى لوقعاه ومضيفه فى الأسر ، ليعفو السلطان من بعد ذلك عن صاحب موات ويلقى بابن عمه فى الحبس فيقتضى بعد قليل .

كذلك أُنْفِذَ ناصر الدين إلى الكجرات قائده ظفرخان ، وهو الذى استقل بها فى أوائل القرن التاسع الهجرى وأسس بها أسرة مالكة . وحذا حذوه فيما بعد أمراء مالوه وخاندش فلم تسترد دهل نفوذها هناك إلا أيام الدولة المغولية .

وأفلح إسلام خان فى القضاء على ثورات بعض الأمراء الراجبوتيين فى الدواب ، فى حين سار السلطان بنفسه إلى إتاوة فهدم حصونها . وكان الثوار يتعرضون منها لقوافل الحجاج والمسافرين .

وفيما كان محمد تغلق الثالث في طريقه إلى العاصمة بلغه تأمر إسلام خان للاستحواذ على لاهور والملتان لنفسه حتى راح ، في سبيل تحقيق مآربه هذا ، يهين لقيام الاضطرابات بها ، فصاحه حال وصوله إلى حقه .

وخرج السلطان عام ٧٩٥هـ/١٣٩٣م بنفسه إلى موات ، برغم مرضه للحد من طغيان صاحبها بهادر نهير الذي غره غفو صاحب دهلبي عنه فأكدم على انتهاب ما حول العاصمة من أمكن ، فهزمه وأرغمه على الفرار .

وما إن بلغ السلطان حصن محمد آباد بظاهر دهلبي حتى أدت به العلة ولم يجلس ابنه همايون الملقب بسكندر إلا أياما قليلة على عرش دهلبي حتى فارق الدنيا بدوره .

ورقى العرش من بعده أخوه ناصر الدين محمود فخلع على وزيره خواجه جهان لقب وكيل السلطنة في حين ولي سارنك خان إقليم ديبالپور .

وأدى تنافس أمراء ورجال الدولة فيما بينهم على مظاهر النفوذ والتقسامهم شيئا وأحزابا ، مع ضعف السلطان ، إلى أن جنح كثيرون من حكام الولايات وأمراء الهنداكة إلى نبذ سيادة دهلبي والاستقلال بما بأيديهم من إمارات وحصون بل إن الوزير خواجه جهان نفسه أطن استقلاله بجنوب و أسس فيها أسرة حاكمة هي التي تعرف في التاريخ باسم أسرة ملوك الشرق (شاه شرقى) . وقد امتد نفوذها في أوقات كثيرة إلى البنغال جارتها الشرقية . هذا في حين لم يكتف سارنك خان باستقلاله بديبالپور حتى سقط على الملتان فهزم الكهكر و دخل لاهور .

ولم يقف الحال بالدولة عند هذا القدر من التفكك . لقد خرج السلطان عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م إلى بيلاه وكواليار وفي صحبته جملة من الأمراء وفيهم سادات خان ، فما إن أحس هذا الأخير بتأمر بعض زملائه عليه حتى سقط على بعض منهم قتلهم ، ثم قتل راجعا إلى العاصمة ليجد قرب خان نائب السلطان قد سبقته إليها لقتل أبوابها في وجهه .

هناك بحث هذا الأمير التتار يستدعى أحد أحفاد فيروز شاه ، فنادى به بمدينة فيروز آباد سلطانا على الهند باسم نصرت شاه . ولئن كان سادات خان قد لاقى حتفه بعد قليل على أيدي أعدائه إلا أن صنيعه هذا قد أدى إلى قيام شبيعة قوية ، التفت حول السلطان الجديد ، تناهض حزب صاحب دهلې وصارهم كل فريق منهم القضاء على غريمه دون أدنى التفات إلى مصالح البلاد أو إشفاق عليها حذر الهلوية التي كانت تتردى فيها . فما قد أقبل تتار خان ابن ظفر خان صاحب الكجرات ومعه قتلغ خان بجنودهما لشد أزر نصرت خان ، في حين قدم راجاموات ومعه ملو إقبال خان أخى سارنك خان صاحب ديالپور والملتان فنزلا بقواتهما بظاهر المدينة متربصين بالفريقين اللذين ظلا يقتتلان طوال أعوام ثلاثة هلك فيها خلق كثير حتى كان يجاوز عدد القتلى بضعة آلاف في اليوم الواحد .

وجاءت الأنباء في هذه الأثناء بعبور بير محمد جهانكير ، حفيد تيمور السند في مستهل عام ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م واستيلائه على حصن لوكا وتوغله في الملتان ؛ والأحزاب المتقاتلة سائرة في غيها .

فهذا إقبال خان يبادر بالانضمام إلى نصرت خان الذى ما يلبث بعد قليل أن يقف على ما يدبر له من كيد فيتركه إلى بائى يت ؛ في حين ما يزال السلطان محمود يتحصن مع مقرب خان وبهادر نهر بدهلې القديمة .

وتمكن إقبال خان آخر الأمر من أن يقضى على مقرب خان ، وبهذا حدا السلطان محمود في قبضته بوجهه كيف يشاء .

ولئن كانت الفتنة قد تكسرت حدثها وطلق إقبال خان يبدل الجهود لتنظيم شئون الدولة وأمورها من جديد ، فإن الأوان كان قد فاتته على كل حال . ذلك أن تيمور كان قد أقبل بنفسه على الهندستان فما برح يسوى حصونها بالأرض ويحرق منبها ويهلك الجموع الغفيرة من أهلها حتى بلغ دهلې التي استعصت من قبل على المغول وغيرهم من الغزاة قرونا أربعة^(١) .

(١) Lane. Poole India , p. 159.

الغزو التيمورى وآثاره :

تروى « ملقوظات تيمور »^(١) أن هذا المحارب الجبار حين حنثه نفسه بالخروج للغزو والجهاد استشار رجاله إلى أى البلدين يخرج ، الصين أو الهند . فبينوا له أن من يقصد الهند عليه أن يواجه عقبات أربعة كبيرة إن اجتازها وتغلب عليها دانت له هذه البلاد بكنوزها وثرواتها التى يخطوها الحصر ولا يحصيها العد . أما أولى هذه العقبات فنهر السند بفروعه الخمسة التى لا يتمنى اجتيازها إلا بالسفن والجسور ، والثانية أجمل الهند وغلاتها كثيفة الأشجار متشابكة الأغصان وعرة المسالك ، والثالثة أمراء هذه البلاد من مسلمين وهنادكة وكلهم على دراية تامة بدروب السير فى هذه الأجام والعيش فيها ، والرابعة فيول الحرب المدرية التى يستخدمها أهل هذه البلاد فى مهارة فائقة ، حتى لتنتشر بسرعة خفيفة فى حومة الوعى فتطوى الفارس وفرسه بخرطومها ثم ترفعها فى الهواء وما تلبث تضرب بهما الأرض حتى يقضيا تحيما . وهذا هو السلطان محمود الغزنوى ، وكان فى قلة من الجند لا تصل إلى ما فى ركاب تيمور ، قد تغلب على ذلك كله من قبل وأب من هناك بأكداس طائلة من الذهب والفضة والجواهر .

والتبرى من بين الحاضرين شاه رخ ، أحد أبناء تيمور ، يحرض أباه بدوره على فتح هذه البلاد حتى يصير سيد الأقاليم السبعة بلا منازع ، قال له : « إذا كان صاحب الروم يكتفى بالتعصر وسلطان التتر بالخاقان وإمبراطور الصين بالفغفور ، وملك إيران وطوران بالشاهنشاه ، أى ملك الملوك ، وذلك لخضوع أمراء الهند وراجواتها له ، وقد صرت ، والمئة لله شاهنشاه على إيران وطوران فمن المؤسف ألا تمد سلطانك إلى الهندستان » .

هذا وقد نبه تيمور رجاله بأن عليه عند فتح هذه البلاد ألا يطيل وجده الإقامة بها . ذلك أن البيئة الهندية من شأنها أن تبعث الخور والضعف فى النفوس ،

(١) وتعرف أيضا باسم تورك تيمورى ، وهى سيرته التى أُملاها بنفسه (وهى بالجمجمة) انظر

من ٢٩٤ - ٩٦ من لترجمة الإنجليزية لها فى Elliot and Dowson, History of India. London 1871. Vol.3

فتفتت مهم الجند علي ممر الزمن ويفقدوا بالتدريج صفات الشجاعة ومستلزمات البطولة .

وفيما كان تيمور يعد للعدة لغزو الهندستان واقام بريد خفيده بير محمد جهبا نكير يبننه فيه بأنه ، بعد أن دافعت له بلاد كابل وغزنة وما حولها استطاع أحوال الهندستان فوجدها بعد وفاة فيروز شاه قد استبد بالأمير فيها اثنتان من أمراءها أخوان ، فالقام لكبرهم ، ويدعى ملو إقبال خان ، يدهلى إلى جانب سلطاتها محمود ، في حين استقر الثاني ، وهو سارنگ خان ، بالملتان^(١) .

وتقدمت طلائع تيمور وعليها خفيده هذا فعبرت السند في مستهل عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م واستولت على حصن أوكا ثم اتجهت إلى الملتان كما ذكرنا من قبل .

وحاول سارنگ خان أن ينقذ هذه المدينة ، لكن القائد التركي^(٢) فاجأ قوات هذا الأمير الكثيرة وهي تعبر السند فضاع أغلبها . وكان من غرق من رجالها أكثر ممن سقط تحت ضربات السيوف .

وسقطت المدينة نفسها بأيدي جهاتكير بعد حصار دام ستة أشهر استطاع سارنگ خان إياها أن ينجو بنفسه منه .

وأكمل تيمور ذلك بنفسه على الهندستان فعبر السند بقواته في المحرم من عام ٨٠١هـ/١٣٩٧م فالتقى بقوات شهاب الدين مبارك ، أمير بهيت وكان قد خضع أول الأمر لبيير محمد ثم انقض عليه . وقضى تيمور على أول قواته استرضت سبيله ليعبر جيناب ، رافد السند الكبير ، من بعد ذلك إلى حصن تولميه عند ملتقى هذا الرافد بأخيه روى حيث انتشر جلده ينتهبون ما حوله من أراضين طلبا للموت ،

(١) يوحى هذا الحديث كله بأن تيمور لم يكن يتجلى على غزو بلد ما قبل الوقوف على أحواله .

(٢) تيمور وأولاده هم من عريق الترك لا المغول ومستبين ذلك تفصيلا في القسم الثاني من هذا الكتاب في حديثنا عن الدولة المغولية إن شاء الله .

ويجمعون الأموال التي لم ينف من أدائها إلا الطعام والشيوخ : ولم يبرح الغزاة المكان إلا بعد أن أصلوا سيوفهم في حماة هذا الحصن وكثروا يزيدون على الألفين من الكهكر .

ويبلغ تيمور من بعد ذلك دياليور ، وكان أهلها قد فتكوا بمظفر كابلی نائب جهانكير عليها ، فوجد أكثرهم قد نزعوا عنها فرقا فاعتصموا بحصن بهتير القوى المنيع . على أن دفاع راي دل جند ورجاله الأشداء عن هذه القلعة لم يفلح فقتلوا أمام بأس الغزاة الذين اقتحموها عليهم فاصلوا سيوفهم بمن كان فيها من هنادكة ومسلمين ثم سورا البناء بالأرض . وأعجب تيمور ببمسالة الأمير الهندوكي وشدة مراسه في القتال فعفا عنه وخلع عليه .

وانطلق الغزاة من بعد ذلك إلى سرسوتی فلم يمنهم استسلام أهلها لهم بعد مقاومة قصيرة - وكان أغلبهم من الهنادكة - من أن يعملوا سيوفهم فيهم ، فلم ينج منهم من القتل إلا من نطق بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص .

ونزل تيمور من بعد ذلك بمدينة فتح آباد لينفذ منها فريقا من جنده ليعقب - في مناطق التلال والغابات القريبة - قبائل الزط التي دأبت على قطع الطريق على المسافرين والتجار والحجاج والحق الأذى بهم .

ووالى الغازي التركي عند كهنل ، على مقربة من سماته ، جيوشه التي كانت تنتشر في الملتان ولاهور فانضمت إلى قواته فأخذ يعد العدة بها جميعا لاحتحام دهلې .

وسارت جموع الغزاة إلى حاضرة الهند فلذا بالبلدان والقرى على طول الطريق قد هجرها أغلب أهلها هربا من وجه الغزاة ، فلم يتركوا بها من الأرزاق والمتاع ما قد يجد العدو فيه نفعا له أو مددا .

ويبلغ تيمور باتي بت فنزل في جهاتمه ، إحدى منشآت فيروز تغلق الفخمة ، لينتقل منها بعد قليل ، عبر جمته ، إلى النواب فيستقر بقلعة لونسى بعد أن أنسى حاميتها على بكرة أبيها . وقد توفر له في مقامه الجديد هذا تموين قوته بما تحتاجه من مؤن ولرزاق .

وندب تيمور من فوره ، قلنديه سليمان خان وجهان خان لاستكشاف الأرض عند مشارف دهلي الجنوبية والجنوبية الشرقية ، في حين عبر هو النهر في نفس اليوم في سبعمائة فارس ليدرس موقع المدينة عامة .

هنالك أراد سلطان دهلي ومعه وزيره ملو إقبال أن يباغتوا عدوهما وهو نسي قلة من جنده فسيروا إليه خمسة آلاف من الفرسان ومعهم سبعة وعشرون من القيلة لكنهم باعوا بالفشل وقتل قائداهم محمود سيف .

وآب تيمور إلى معسكره ليأمر قواته بالتحرك في الصباح التالي صوب الشرق من مواقمهم . حتى إذا ما أنهى إليه بعض رجاله بشيوع الفرح والمرور بين الأسرى في معسكره حين علموا بمباغثة قوات دهلي له في حملته الاستكشافية - خشي أن يركتوا ، والمعركة دائرة ، إلى تهديد مؤخرته وتخريب معسكره ، فأمر من فوره بقتل كل من كان منهم فوق الخامسة عشرة ، وتوعد كل من قد يتوانى من رجاله في تنفيذ ذلك بضرب عنقه ؛ فكان من بين مراقبيه من الطعام من اضطر إلى ارتكاب إثم القتل لأول مرة في حياته لبقاء على نفسه . ولف عدد من سقط من الأسرى في هذا اليوم على المائة ألف^(١) .

وعبرت القوات الفازية النهر في مستهل جمادى الأولى من عام ٨٠١هـ ، وكان تيمور على قلب الجيش ، في حين قاد الجناح الأيمن بير محمد جهانكير ويانكر برلاس ، وقاد الجناح الأيسر سلطان حسين والأمير خليل وجهان شاه .

وبرز محمود تغلق سلطان دهلي ومعه وزيره إقبال خان على رأس عشرة آلاف من الفرسان وأربعين ألفا من المشاة ومعهم مائة وخمسة وعشرون من فيول الحرب المدرية . على أن بعض قوات تيمور سرعان ما أفلحت في للتسرب خلف مقدمة عدوهم مباغته ، فقتلت منهم ستمائة في هجمة واحدة ، في حين نجح بير محمد في تشتيت شمال جناح جيش دهلي المواجه له حتى اضطر رجاله إلى الفرار من الميدان .

(١) ملفوظات تيمور ص ٤٣٦ .

وبرغم ما نزل بجند دهلى من ضربات شديدة ، فقد استمات السلطان ووزيره
فى القتال بشجاعة واستبسال فاتفعا بهاجمان بقواتهما قلب الجيش الغازى فى بلس
شديد . حتى إذا ما تصدعت الصفوف أمام شدة وطأة الحو ، انسحب منها الميدان
عجلين فزلاً بحصن جهانباه ، ثم ما لبثا أن غادراه فى اليوم التالى إلى منطقة
للجبال ، فلم تصل إليهما أيدي المطاردين . واستقر للمقام آخر الأمر بالوزير فى
بيرون فى حين سار السلطان إلى الكجرات .

وفى الثامن من جمادى الآخر كانت بنود تيمور ترفرف بأعلى أسوار دهلى
وقد وقف الطعام والأعيان تحتها فى انتظار قدوم الخالقان القاتح ليقدموا له فروش
الولاء ويسألوه العفو والأمان .

ودخل تيمور المدينة بعد أن تم له انتهاب مضارب أعدائه فأجريت الخطبة له
ودعى له على المنابر (١) .

ولم يكن ما أنزله تيمور بأعدائه من خسائر فادحة فى ساحة الوغى ليقاس بها
ارتكبه رجاله فى دهلى - ولما يمض عليهم أيام قلائل بها - من مذابح رهبة
ونهب وسلب لند ووقع مثله فى التاريخ .

ومجمل الأمر كما يذكره تيمور نفسه فى سيرته ، هو أن فريقاً من جند
الأكراك كان قد نزل المدينة قصد الترفيه ، فما عدا أن استهوت رجاله معروضات
التجار فراحوا ينتهبونها . وما لبث الجند الذين بحث بهم تيمور لكف أيدي هؤلاء
الناهبين أن انضموا بدورهم إليهم ، هذا فى الوقت الذى انطلق فيه جند آخرون من
الغزاة يجمعون ما فرض على أهل المدينة من غرم مالى ، فى حين كانت هناك
فرقة رابعة تجمع التتوئين للجيش من زيت وحب وسكر ودقيق . وفيما كانت
المدينة تنقص بهؤلاء جميعاً ، بلغ تيمور تحصن التجار والأعيان فى دورهم
وامتناعهم عن دفع ما فرض عليهم من غرم ، كما بلغه أيضاً نزول جمع كبير من
الهنادكة المدينة ومعهم أسراتهم وبناتهم وأحسابهم قادمين من المناطق المجاورة ،
فأنفذ قوة أخرى من الجند لتأكيه بهم جميعاً من فورهم .

(١) ظفر نسبه لشرف الدين يزدى طبع كلكتا ١٨٨٥ - ١٨٨٧ مجلد ٢ ص ١١٥ وما بعدها .

هكذا غدت العاصمة تفص بما لا يقل عن خمسة عشر ألف جندي كان أغلبهم من المشايخين باعتراف تيمور نفسه ، فاتخذوا من مقاومة الأهلين لهم ذريعة للفتك بهم ونهب أموالهم ومنازلهم .

وإذا رأى الهنادكة أموالهم تنتهب ونساءهم تسيى ، ياندروا بإغلاق أبواب المدينة ونهبوا نساءهم وأطفالهم بليديهم ، ثم برزوا مع الأهلين لقتال جندتيمور الذين توالى عليهم الإمدادات بدورهم « فجرت فى المدينة مذبحة شنيعة مدمرة بلغ من هولها أن سدت جثث القتلى لكثرتها المسالك والطرق . ولم يمنع استسلام أهلين الغزاة من متابعة القتل فى قسوة بالغة . حتى إذا ماكنت سيوفهم ، سلكوا فى أسرهم من كتبت لهم الحياة من السكان ، فكان من الجلد من ضمت قيوده الخمسين منهم ، ولم يكن فيهم من قل أسراه عن العشرين فضلاً عما حملوه معهم من الذهب والفضة وكل ثمين وغال من المتاع . ويقتل المؤرخون عدد ضحاياهم من القتلسى بهذه المدينة وحدها بما يزيد على المائة ألف .

ويحاول تيمور فى سيرته أن يبرئ نفسه من إثم هذه المجاوز البشعة فيستدبر الأمر كله إلى المقدور وفق المشيئة الإلهية . وإذا كان هو حقاً جاداً فى أسفه على فعله جنده هذه ، فما باله إذن لم يأمر بإطلاق سراح الأسرى على الأكل وردهم إلى دورهم تكثيراً له ضعيفاً عما ارتكبه رجاله من إثم وأى إثم ذلك أنه حين دخل المدينة من بعد ذلك فأتى له بكنوزها وغنائمها ، أمر بأصحاب المهن والحرف من بين الأسرى فخص بهم صاله وأمرائه ، بعد أن احتجز لنفسه منهم البناتين ورجال المعمار وفيهم أولئك الذين أقاموا القيروز تغلق مسجده الذى سجل سيرته على جدراته . وهؤلاء أنفسهم هم الذين بنوا من بعد ذلك للخالفان التركى مسجده الكبير بمسح قد على نمط مسجد قيروز ، كما صوروا مشاهد وقائع الهنديه كذلك على جدران قصوره ، إلى جانب منشآت أخرى كثيرة أقاموها له (١) .

(١) يبرنانه نشر السيدة بريدج ، لندن ١٩٠٥ . ورقة ٤٤ .

وأزمع تيمور انكه الإياب إلى بلاده ، فغادر دهلې غاية جمادى الآخرة بعد أن قضى بها خمسة عشر يوماً ، فما إن بلغ فيروز آباد حتى أقبل عليه بهادر شير صاحب موات ومعه خضر خان مستسلمين .

ومار تيمور من بعد ذلك إلى ياتى بت فيعت منها بعشرة آلاف من رجاله إلى حصن ميرات (ميروت) لكن حسن دفاع أصحابه عنه ، وكان فيسهم الياس أفغان وابنه مولانا أحمد تيمسرى ، منعه عليهم ، حتى خرج إليه الخاقان بنفسه فالتحمه على حماته وانهب أموالهم ، ثم أمر بالبناء كعادته فسوى بالأرض ومن ثم صعد المنتصرون فى تلال سواك بالبتجاب حتى بلغوا حصن جامو فاستولوا عليه ، لينطلق فريق منهم من بعد ذلك فى أثر شيخا ككهر ، وهو أمير هندوكى كان قد استسلم لتيمور عند تدومه الهندستان فقربه إليه ثم ما لبث أن انتهر فرصة ابتعاد قوات الغزاة عنه فطرد رجالهم من لاهور والملتان واستقل بهما . وما لبث رجال تيمور أن استردوا لاهور بعد حصار قصير وجاؤا بالثائر الهندوكى نفسه إلى سديهم عند جامو فأمر به فأعدم . وفى جامو عهد تيمور لتاتبه خضرخان بالملتان ولاهور وديبالبور ثم تابع سيره إلى سمر قد عاصمته عبر طريق كابل^(١) .

وكان من أثر الغزو للتيمورى ، وما أشاعه فى البلاد من خراب ودمار أن اجتاحت الفوضى والاضطراب كافة الأقاليم التى دخلها الغزاة . وبدأ أخطر مظهر لهذا كله فى العاصمة التى عانت من هذه المحنة ما لا يبلغ وصفه بنان أوبيان فقد هلك أغلب أهلها ونهبت دورها ومتاجرها ونقشت فيها المجاعات الطاحنة والأوبئة الفتاكة . وظل زمام الأمور فيها منفلتا حتى أطبق عليها الأمير نصرت شاه قائما من مخبئه من ميروت بالدواب فى ألقين من الفرسان .

على أن إقبال خان ، وكان ينزل فى بيرن غير بعيد من دهلې ، ما لبث أن استخلص العاصمة لنفسه وأرغم هذا الأمير على الارتداد إلى مخبئه من جديد وما إن انصرم عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م حتى كان هذا القائد قد بسط نفوذه على منطقة الدواب فيما بين كهناتوى وبيلقه .

(١) ظفر نامه ص ١٤٨ .

واستندم إليه من بعد ذلك السلطان محمود تغلق ، وكان قد غادره ، بدوره ملجأ بالكجرات إلى مالوه على أثر ما لاحظته من قنور صاحبها ظفرخان نحوه ، فأجرى عليه رزقاً حسناً قنع به عن التطلع إلى الحكم .

وبلغ إقبال خان خبر وفاة مبارك شاه شرقي صاحب جوبور ، فبرز بقواته إلى قنوج وفي مباحته محمود تغلق ، وكان إبراهيم شاه شرقي أخى سلطان جوبور الراحل قد شخّص إليها بدوره .

وانقلت السلطان محمود إلى معسكر خصمه وقد أمل أن يستعين به على استرداد نفوذه ، لكنه رده عنه خائباً حزيناً . وتغاضى إقبال خان عن فعلته هذه ، وقد نصبه آخر الأمر على قنوج ثم عاد إلى دهلي .

وغزا صاحب دهلي من بعد ذلك كواليار وأتلوه ، وكفنا في حوزة عصبه من الأمراء الهندكة فالزهم بدفع جزية سنوية له . ثم تطلع لاسترداد الملتان فزحف إليه مع أمراء سمائه وما حولها ، لكن خضر خان نائب تيمور هناك ألحق بهم جميعاً هزيمة حاسمة في جمادى الأولى عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م ، سقط فيها إقبال خان نفسه صريعاً ، فما إن بلغ الخبر دولت خان لودهي حاكم دهلي حتى بادر من فورهِ باستدعاء السلطان محمود تغلق وأجلسه على العرش .

ولم يلبث محمود تغلق إلى الخطر الجديد الذي بدأ على أثر قضاء خضر خان على قوات إقبال خان وحلفائه ، فبعث بقائده دولت خان لودهي لإخضاع بيروم خان في سمائه في حين سار هو إلى قنوج فالتحم مع إبراهيم شاه شرقي الذي رده عنها .

وأدى سوء معاملة السلطان لجنده أن انصرف أغلبهم عنه ، حتى كاد إبراهيم شاه شرقي أن يدخل دهلي نفسها فلم يمنحها عنه إلا ما بلغه من استيلاء مظفر خان صاحب الكجرات على مالوه ومتابعته الزحف إلى جوبور .

وأقبل خضر خان نائب تيمور بدوره آخر الأمر على العاصمة فضرب عليها الحصار في عامين متتاليين فلم يكن يرد عنها في كل مرة إلا نفاذ مؤنه .

ووافى السلطان محمود تغلق أجله بعد ذلك بتأجيل فى ذى القعدة عام ٨١٤هـ/١٤١٢م فخلقه دولت خان لودهى .

ولئن كان هذا الزعيم الأفغانى قد أفلح فى ضم بعض أمراء البلاد المجاورة للعاصمة إلى صفه فإنه آخر الأمر لم يقو على الوقوف فى وجه خضر خان الذى أقبل هذه المرة فى ستين ألف فارس دخل بهم دهلئ فى ذى الحجة من عام ٨١٦هـ/١٤١٤م بعد حصار دام أشهر أربعة .

ملوك الطوائف

لئن كان الضعف قد بدأ يتسرب إلى كيان الدولة الإسلامية بالهندستان منذ أواخر عهد محمد تغلق ويدياية حكم خلفه فيروز^(١) ، إلا أن الغزو التيمورى كان هو بلا مراء العامل الأكبر الذى أدى إلى تفكك هذه الدولة . ذلك أن أغلب ولاياتها الكبرى الهندية كمالوة والكجرات وجونبور والبنغال والدكن ، ما لبثت على أثر هذا الغزو أن انفصلت عنها انفصالاً تاماً وأعلن أصحابها استقلالهم بها ، فلم يفلح سلاطين دهلئى فى بسط نفوذهم على هذه الولايات عموماً من جديد ، إلا فى عصر الدولة المغولية التى أقامها أحفاد تيمور لئلك نفسه بالهندستان فى القرن العاشر الهجرى فعمرت قرون ثلاثة شهدت فيها شبه القارة الهندية على أيديهم حضارة رائعة قوية ومدينة مزدهرة بزت ، بإجماع الثقافات من المؤرخين ، نظائرها عند لرقى الدول لذيالك الوقت .

على أن أغلب سلاطين هذه الولايات المستقلة التى ستتحدث عنها فيما يلى ، وهم فى غمرة كفاحهم لتوسيع رقعة ملكهم أو دفع من صباه بطعم فى أراضيهم ، قد حرصوا كثيراً على العمل على رقى بلادهم والنهضة بها :

الكجرات : تعد هذه الإمارة ثلثى إمارات الهند الإسلامية بعد دهلئى ذلك لئله فضلاً عن خصب تربتها وما تحويه من ثروات طبيعة هى لولا وقبل كل شئ ، باب التجارة الهندية الغربى منذ القدم ومنمغذاها إلى إفريقيا وآسيا . فمن شاطئها عند سورات وخليجها كمباى كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار وعطور وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة إلى بلاد العرب والبحر الأحمر فتتقل من بعد ذلك برا إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط لتحملها لئلك لئخرى من هناك إلى ثغور أوروبا لهذا كان الإقليم محط أنظار أغلب غزاة الهند حتى قبل عصر الإسكندر .

(١) الواقع أن فيروز تغلق بإصلاحاته ومشروعاته السمرانية المغنية وميلة إلى ما فيه خير رعيليه قد أفلح فى حمل الناس على التمسك به والركون إلى الهدوء ، ولكنه لم يصل بذلك إلى تدعيم هيئة الملك إذ غلبت طبيئته ومسالئته على حزمه .

وكان أول من اتخذ الكجرات من أمراء المسلمين محمود الغزنوى ليحطم معبد سومنات أحد مقدمات الهنداكة العظمى . على أن سلطان المسلمين لم يرسخ فيها إلا على أيدي علاء الدين الخجلى عام ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م . وقد أعلن مظفر خان ، حاكم هذا الإقليم من قبل سلطنة هلى ، استقلاله به عام ٨٠٤هـ / ١٤٠١م وذلك على أثر الغزو التيمورى للهندستان .

وخلف هذا الأمير حفيد أحمد شاه الذى قضى أغلب حكمه فى حروب متواصلة أتاحت له توسيع رقعة ملكه . وعنى هذا الأمير بتنظيم شئون الحكومة ، كما أقام كثيراً من المنشآت وبنى مدينة أحمد آباد وحض التجار والصناع على النزوح إليها والإقامة بها . هذا كما بذل نشاطاً كبيراً فى نشر الدين الإسلامى بين السكان والقضاء على الشرك وعبادة الأوثان وقد هدم فى سبيل دعوته هذه كثيراً من معابد الهندوكيين هناك .

ويعد السلطان محمود بيكر ، حفيد أحمد شاه ، أعظم حكام الكجرات طراً . وكان مما ساعد على ذبوع سيته وانتشار شهرته ما عقده من عزم فى أواخر حكمه على طرد البرتغاليين من سواحل الهند الغربية وإبعاد خطرهم عنها . وكان هؤلاء المستعمرون قد نزلوا على مقربة من بمباى وأخذوا يقطعون الطريق على سفن التجارة والحجيج .

وعاون المماليك المصريون والسلطان العثمانيون محمود بيكر وخلفاءه على محاربة هؤلاء النخلاء^(١) . ويرغم حسن بلاه أساطيل المسلمين فقد انتهى الأمر

(١) لقد خطر البرتغاليين إلى مدخل البحر الأحمر فبلغ مياه الأرضى المقدسة حتى سارع المصريون إلى تحصين موانئ الحجاز . كذلك لم يبق قصوة الغزى سلطان مصر دعوة سلطان الكجرات فبحث بسفنه لمحاربة البرتغاليين الذين أضروا بتجارة البحر الأحمر وكانت من مصادر ثروة المماليك ، كما قتلت سفن سليمان لقواتى سلطان المشايين بدورها لمساعدة الكجراتيين . وتبادل الفريقان الاتصالات مرات عدة حتى كتبت الخلية لآخر الأمر فيما بعد البرتغاليين . حقائق الأخبار لإسماعيل سرهنگ أول ص ٥٤٨ وثان ص ١٨٨ .

Cambridge Hist. Of india vol 3 pp. 21216. 536, 7.

بالبرتغاليين إلى تثبيت أقدامهم في بضع مواطن بالشاطئ الغربي للهند ، من بينهما مقاطعة جوا البحرية التي أرغموا أخيراً على الجلاء عنها .

وقضى هذا السلطان بعد أن حكم لثنتين وخمسين عاماً بلغ فيها صيته محافل أوروبا لما كان عليه بلاطه من أبهة بالغة وتقاليده رفيعة ، إلى جانب ما أثر عنه نفسه من ميل إلى العدل واتصاف بالحرص والشجاعة .

ولم يأل بهادر خان ، آخر حكام الكجرات الكبار ، جهداً في توسيع رقعة ملكه فاستولى على أغلب مالوه واقتحم قلعة جتور بالراجبوتانا . ويرغم هزيمته أمام همليون ثلثي سلاطين الدولة المغولية بالهند ، فقد أفلح من بعد ذلك في استرداد جزء كبير من أراضيه ، وذلك حين أخرج شيرشاه ، همليون من الهند . وقد بذل هذا السلطان جهوداً صادقة لطرد البرتغاليين من جزيرة ديو التي كانوا يتحصنون بها ، وكانت جهوده تكال بال نجاح لو لا أن دبر أعداؤه أمر مقتله غرقاً وهو في طريقه للمفاوضة معهم .

وصار أمر الكجرات إلى أن ضمها لكبر ، ثالث سلاطين المغول وأعظمهم ، إلى ملكه عام ١٥٧٢م/١٩٨٠هـ .

مالوه : وإلى الشرق من إقليم الكجرات تقع إمارة مالوه . وكان علاء الدين الخلجي هو كذلك أول سلطان مسلم ضمها إلى ملكه .

وانتهز أميرها دلاور خان الغوري ، وكان من رجال فيروز تغلق ، فرصة الفوضى التي عمت الغزو التيموري فأعلن عام ٨٠٣هـ/١٤٩١م استقلاله بها ، واتخذ من مدينة دهر حاضرة له . وخلفه ابنه ألب خان الملقب بهوشنك شاه عام ٨٠٧هـ فنقل حكمته إلى مائتو التي زخرت بجملة من المنشآت الفخمة في عصره .

وجر خصب أراضي هذا الإقليم عليه لطامع حكام دهل وجونپور والكجرات وكانت جميعاً تجاوره . حتى إذا ما ملئ هو شنك شاه بهزيمة شديدة في حروبه مع الكجرات خلفه على العرش ابنه غازي خان الذي غلبه محمود الخلجي على أمره فقتله واتخذ مكانه .

وأعلى السلطان الجديد من شأن مالهو بما أحرزه من انتصارات كثيرة فى حروبه العديدة مع أمراء الراجبوتانا ومملكة بهمنى الذكية حتى امتدت حدوده شمالا إلى موار وجنوبا إلى ساتبورا وشرقا إلى بند اخند وغريا إلى الكجرات ولم تقعد به همتة حتى كاد يدخل دهلى نفسها لولا صمود بهلول لودهى قائد سلطاتها محمد شاه إذ ذاك فى وجهه^(١) .

وقد عرف هذا السلطان إلى جانب حروبه الكثيرة باشتغاله بالعلوم والفنون والآداب مع حرصه البالغ على إشاعة العدل بين رعاياه جموعا هنادكة ومسلمين على السواء .

وهان شأن خلفاء محمود الخلقى من بعده بانصرافهم عن الاهتمام بشئون الدولة من جهة ، واستوزارهم للهنادكة الراجبوتيين من جهة أخرى ، حتى انتزع البلاد منهم آخر الأمر بهادرخان صاحب الكجرات عام ٩٣٧هـ / ١٥٣١م ليستخلصها همايون ، ثلثى سلاطين المغول ، لنفسه منه بعد ذلك بسنوات أربع .

خاتمش : كذلك كانت هذه الإمارة واحدة من بين الإمارات الهامة التى اتسلخت عن دهلى ، وموقعها إلى الجنوب من مالهو فيما بين تلال الونداهيا والكن ، ويحدها ، إقليم برار فى الشرق ثم الكجرات فى الغرب . وقد شجع ثراء الإقليم وخصب أراضيه حاكمه ملك راجا فاررقى على الاستقلال به اقتداء بدلاور خان الغورى أمير مالهو . ودخل هذا الأمير ، على سنة عصره ، فى حروب كثيرة مع جيرانه لا سيما مع مظفر شاه صاحب الكجرات فكسر فيها ، ليركن إلى المسلم من بعدها وينصرف إلى العناية بشئون بلاده . وأفلح ابنه ناصر شاه فى انتزاع بعض الحصون من أيدي جيرانه الهنادكة كان أهمها حصن أسيركاه ، لكن خلفاء من بعده غالبهم الضعف فصاروا فى الغالب خاضعين لنفوذ سلاطين الكجرات لا سيما فى عهد السلطان محمود بيكر الكجراتى ، حتى ضم السلطان أكبر المغولى هذه الإمارة إلى ملكة عام ١٠١٠هـ / ١٦٠١م .

(١) تاريخ مرشته ص ٢٣٦ .

جونپور : هو إقليم واسع كبير يقع إلى الجنوب الشرقي من دهلي ويجري في أراضيها جمنه وكوكرا لكبر رولند الكنج . وعاصمته ، التي يعرف باسمها الإقليم كله ، تقع عند شاطئ جمنه على مقربة من طفر آباد . وقد أنشأها فيروز تغلق عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م عند عودته من حملته الثانية بالبنغال . ذلك أن هذا السلطان رأى ، في سبيل ضمان إقرار الأمن في هذه الولاية البعيدة ، أن ينشئ على مقربة من حدودها مركزا حريبيا تقوم فيه قوات كبيرة كافية تبادر من فورها إلى القضاء على كل ما قد يقوم من اضطرابات في هذه النواحي ، وبهذا يتفادى ما تتعرض له جيوشه في سيرها من دهلي من مصاعب طريقها الطويل لا سيما إبان فصل الأمطار الموسمية ، فوقع لختياره على هذا المكان الذي أطلق عليه هذا الاسم تمجيدا لذكرى ابن عمه الأمير فخر الدين محمد جوته ، ثم لم يأل جهدا من بعد ذلك في تعمير هذه المدينة وتجميلها بالمنشآت الفخمة الكثيرة .

وأراد محمود تغلق أن يكافئ وزيره وقائده خواجه جهان سرور على ما بذل له من حمة في القضاء على فتن الخارجين على سلطانه فأنعم عليه عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م بلقب شاه شرقي (ملك الشرق) وعهد إليه بحكومة كافة الأراضي الواقعة فيما بين القنوج وبهار .

وما لبث هذا الحاكم أن بسط نفوذه على الدواب واتخذ لنفسه مقاما في جونپور . ولم يمض إلا القليل حتى أعلن أصحاب لكتهاوتي وجانكر خضوعهم له بدورهم ، فصاروا يبعثون إليه بالجزية التي جروا على إرسالها إلى دهلي من قبل .

وانتهز هذا الأمير فرصة تعرض الهندستان للغزو التموري فاعطن استقلاله بما في يده من أرضين . حتى إذا ما انقلب الفاتح المخرب عائدا إلى بلاده همار إقبال خان في قوات كبيرة إلى جونپور ، دفعه أميرها عنها ولم يمكنه منها .

كذلك لجأ محمود تغلق بدوره إلى إبراهيم شاه شرقي خليفة مبارك شاه ، على أمل أن يعينه على استرداده لعرشه من أيدي إقبال خان . لكن صاحب جونپور كان أحذر من أن يزج نفسه في متاعب هو في غنى عنها .

وأفلىح إبراهيم شاه شرقى فى استرداد إقليم قنوج على أثر هزيمة إقبال خان ومقتله فى الملتان ، ثم تابع سيره إلى دهلئ ، حتى إذا علم بزحف مظفر خان صاحب الكجرات بدوره إليه ، بادر بالتراجع إلى مواطنه .

وركن سلطان جونپور إلى السلم من بعد ذلك خمسة عشر علما انصرف فيها إلى تنظيم حكومة بلاده والاشتغال بمختلف فنون المعرفة حتى غدت جونپور من أعظم مراكزها الإسلامية فى زمنه . وساعد على قيام هذه النهضة طائفة كبيرة من العلماء كانوا قد لجئوا إلى البلاد هربا من وجه الغزو التيمورى فلقوا بها كل ترحيب وإكرام^(١) .

هذا ولا تزال بهذه الإمارة حتى اليوم جملة من العمارات والمنشآت الفخمة التى أقامها هذا السلطان هناك .

وظل ملوك الشرق هؤلاء يحكمون فى جونپور فترة طويلة تعرضوا فيها لغزوات اللودهيين الأفغان أصحاب دهلئ حتى التزعوها منهم .

البنگال : ذكرنا من قبل أن فيروز تغلق قد أضاع بترده وضعفه هذا الإقليم الذى يعد لأخصب مناطق الهندستان الشرقية وأغناها ، وإن لبث أمراء هذا الإقليم يبعثون من حين لآخر بهديايم إلى سلاطين دهلئ .

وقد صار هذا الإقليم فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر من أقوى الإمارات الهندية وأعزها جانباً^(٢) .

ويشتهر من بين حكام البنغال حسين شاه أول من استقل به . ويزاع عنه ابتكاره لدين جديد يجمع بين عقائد الهنداكة ومذاهب المسلمين ، وهو نفس الأمر الذى نسب إلى أكبر أعظم سلاطين الدولة المغولية من بعد . كذلك عنى نصرت شاه بن هذا الأمير بتوسيع رقعة ملكه وإقامة جملة من العمارات الفخمة ببلاده ، إلى

(١) Lane Peole, Medieval India p.199.

(٢) تحدث ابن بطوطة حديثا طويلا عما شاهده بهذا الإقليم من رواج وتقدم فى رحلته رابع من

جانب حرصه الشديد على رواج الحياة الثقافية في عهده. وهذا الحاكم الذي ظل ممسكا بزمام أمور البنغال من عام ١٦٢١هـ إلى عام ١٦٣٩م قد وصفه ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية في سيرته بأنه أحد الأمراء الخمسة الكبار في الهندستان .

وخلف الأمراء الأفغان هذه الأسرة الحسينية بهذه الإمارة حتى انتزعها السلطان أكبر من أيديهم لواخر القرن العاشر الهجري .

الدكن : لم يتيسر لأحد من سلاطين دهلئ منذ وفاة محمد تغلق أن ييسط نفوذه في الواقع إلى ما وراء تلال الوندهايا جنوبا ، فقد راح أمير يدعى علاء الدين كانكوى (جنجو) ظفر خان يتّرع حركة اضطرابات واسعة في الدكن ، فأعلن خروجه على سلطان دهلئ عام ٧٤٣هـ ثم راح ييسط نفوذه على كافة الأقاليم الدكنية التي كان كل من علاء الدين الخلجي ومحمد تغلق قد انتزعها من الأمراء الهنادكة في الهضبة الهندية الوسطى والسهل الجنوبي . وصارت بلاده تعرف بسلطنة بهمنى نسبة إلى جد له كان يدعيه هو بهمن ابن اسفنديار أحد ملوك الفرس الاكمنين . وموقعها اليوم هو إقليم بمباي وولاية حيدر آباد الدكنية(١) .

وحارب سلاطين هذه الأسرة راجا تلنجانا وضموا إلى ملكهم إقليم غولكونده وأورانكل وأجزاء من أوريسه في شرق بلادهم . وبلغت بلادهم أوج قوتها بفضل وزيرهم محمود جولان الذي كان أول من أزل هزيمة ساحقة براجا إمارة فياياتكر الهندية ، واستولى على أجزاء من بلاده التي ظلت مدى قرنين من الزمان مصدر متاعب لما كان يجاورها من الإمارات الإسلامية . ويجهد هذا الوزير ازدهرت كذلك الحركة العلمية هناك ، فظهرت مؤلفات قيمة في الرياضيات والطب والأدب . واشتهرت مكتبة هذا الوزير بمدرسته في مدينة بدر بما كانت تحويه من نفائس المخطوطات الكثيرة(٢) .

(١) تاريخ فرشته من ٢٧٨ .

(٢) Prasad. Medieval India p.373.

ولقد أجمع جمهرة من المؤرخين على الإشادة بحسن تدبير هذا الوزير وشجاعته وحذبه على تدعيم أركان السلطنة وتوسيع رقعتها . هذا مع حرصه البالغ على قيام العدل بين الأهلين ، وشدة ورعه وزهده إذ كان لا ينال إلا على حشيه بسيطة خشنة ، ولا يتناول طعامه إلا في أتفه رخيصة من الفخار ، مع براه الشديد بالتقراء حتى كان يخرج أغلب دخله لهم . على أن عنفه للبالغ في معاملته لمنافسيه وأعدائه من أمراء الهنداكة والمسلمين على السواء ، قد دفعهم آخر الأمر إلى التآمر عليه بهتاناً عند السلطان محمد الثالث الذي أوردته حقيقته بأيدي جلاده الحبشى جوهر (١) ، فجاء مقتله لينالنا بانتهيار هذه الدولة للكنية الكبرى .

وبلغ عدد سلاطين بهمنى أربعة عشر حاكماً ، كانوا في الغالب على غلظة شديدة وميل بالغ إلى سفك الدماء ، وإن لم يمنعهم ذلك من العناية بشئون بلادهم ، فأمنوا الطريق وشقوا الطرق والقنوات ، واهتموا بالزراعة والصناعة والتجارة ، ورعوا العلوم والفنون . كما أقاموا كثيراً من المنشآت والمدارس والمساجد ، وإن لم تبلغ العناية عندهم من الروعة ما بلغت عندهم من الأمراء المسلمين بالهند : ولقد مال جوايوها هذه البلاد ما رأوه عندهم وعد رجالهم من الثراء الفاحش والبذخ البالغ ، إلى جانب البؤس الذى كان يقيم فيه أغلب العامة ، وهى سنة من أسوء سنن المصور الوسطى التى كانت شائعة في كل بلد على كل حال .

ولم يمض عامان على مقتل الوزير محمود جولن حتى طفق عقد سلطنة بهمنى ونفط بالتكريع . حتى إذا ما أهل عام ١٥٢٥هـ / ١٩٣٣م أسدل الستار نهائياً على هذه الدولة التى عمرت قرابة قرنين من الزمان ، قسمت أراضيها إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة متحاربة على الدوام هى برار وبيجاپور وأحمد نكر وغولكونده ويدر .

وكانت برار هى أول إمارة انفصلت عن أسرة بهمنى ، ليستقل بها عام ١٨٩٠هـ / ١٤٨٤م فتح الله عماد شاه ، وكان فى أصله هندوكيا اعتنق الإسلام .

(١) تاريخ فرشته ص ٢٥٧ .

وابتث أسرة صناد شاه هذه تحكم تلك الإمارة حتى عام ١٩٨٢هـ/١٥٧٤م ليضمها أمراء نظام شاهی أصحاب إمارة أحمد نكر من بعد ذلك إلى ملكهم .

أما سلطنة بيجابور فيقال إن يوسف عادل شاه ، أول سلاطينها ، كان في الواقع من أبناء السلطان العثماني مراد الثاني ، وكانت أمه قد فرت به من وجه أخيه محمد الفاتح حين بلغها ما انتواء من قتل جميع أخواته الذكور صونا لعرشه ، فاحتالت على تقديم واد آخر بدل ابنها الذي عهدت به إلى تاجر فارسي . ولم يطل المقام بالأمير العثماني بإيران ، فقصده إلى الدكن مع قوافل الفرس والأكراد الذين كان يجتنبهم صيت بلاط بهمني للذائع ، فالتحق بخدمة الوزير محمود جوان الذي أنزله في نفسه منزلة ولده .

وحين بدأ الضعف يذب في سلطنة بهمني عمد يوسف هذا عام ١٨٩٥هـ/١٤٨٩م إلى إعلان استقلاله بهذه الإمارة .

وتعرض هذا السلطان لهجوم هندي فباينكر مع فريق من جيوشه بتحرير من قاسم بريد وزير سلطنة بدر ، فأدى ما أنزله بهم من هزائم ، مع استيلائه على معسكراتهم ، إلى توطيد أقدامه وذئوع صيته .

وخان هذا السلطان التوفيق بعد قليل حين أعلن اعتناقه لمذهب الشيعة وراح يحمل قومه على الدخول فيه قسرا ، حتى تألب جميع جيوشه عليه ، واضطروه إلى الخروج من بلاده . وحين لجأ إلى عماد الملك صاحب برار ، نصحه بإعلان رجوعه إلى مذهب أهل السنة والإقامة بخائنش حتى تهدأ الأحوال .

وآب يوسف عادل إلى بلاده من جديد ، فاتجه عام ١٩١٧هـ/١٥١٠م على رأس قوة من الجند استرد بهم جوا من أيدي البرتغاليين .

ولم يمض أشهر قلل على موت هذا السلطان حتى استعاد المستعمرون هذا المرفأ الهام فبقى بأيديهم حتى استردته الهند منهم بعد التقسيم بسنوات طويلة .

ويشئ المؤرخون على هذا السلطان الذي عرف عنه تمسكه بالفضائل ومولاه إلى العلماء والأدباء ، حتى دعي إليه جملة منهم من التركستان

وفارس والدولة العثمانية ، كما لم يتكبد طريق الحسنى فى معاملته
لرعاياه من الهنادكة أو ييخل بمناصب الدولة على الأكفاء منهم^(١) .

وحافظ أبناء هذا السلطان على تراثهم سنين طويلة ، حتى إذا ولى للملك
على عادل شاه فى منتصف القرن العاشر الهجرى يادر بدوره إلى إعلان تشييعه
وأردف ذلك بتحالفه على جيرانه مع هنادكة فياياتكر الذين اجتاحتوا إمارة أحمد نكر
فأنزلوا بأهلها منبحة شنيعة نهبت السلطان إلى مدى الخطر الذى يتهدد المسلمين
على أيدي هؤلاء الهنادكة فنقض يده منهم .

وقد انتظم أمراء الدكن المسلمون من بعد ذلك فى جبهة واحدة متماسكة
استطاعت أن تنزل بهذه الإمارة الهندوكية ضربات متلاحقة كان أشدها موقعه
تاليكوتا عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥ م .

وأخر سلاطين بيجابور هو إبراهيم عادل شاه الثانى الذى قضى على إمارة
أحمد نكر وضمها إلى ملكة . وقد ذاع صيت زوجته جند بيبي لنفاهاها الباسل عن
هذه الإمارة فى وجه قوات الدولة المغولية عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤ م .

أما ولاية أحمد نكر فرأس أسرة نظام شامى التى استقلت بها هو نظام
الملك بحرى الذى وزر لسلطين بهمنى عقب مقتل الوزير محمود جوان ، وكان
له فيه مشاركة . وقضى على هذا الوزير أطماعه بعد قليل ، فما لبث ابنه
أحمد أن أعلن استقلاله بما فى أيديه من أراضى جونيير عام ٩٠٤هـ/١٤٩٨ م ،
ثم انتقل من بعد ذلك إلى مدينة أحمد نكر الجديدة فجعلها قسبة لملكة . وجهد
هذا الأمير من بعد ذلك فى الاستيلاء على دولت آبادو توابعها فبلغ غايته فى العام
التالى .

ودخل خلفاء هذا السلطان فى حروب متصلة مع جيرانهم حتى انتهى أمر
هذه الولاية إلى الدخول فى حوزة الدولة المغولية عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠ م .

(1) Prasad, India P.382.

هذا وكان قطب الملك ، مؤسس أسرة قطب شاهي بغولكونده ، فى أول أمره من رجال السلطان محمود بهمنى المقربين . وأعطن هذا الأمير استقلاله بهذه الإمارة عام ٩٢٧هـ/١٥١٨م ، وظل يحكمها حتى اغتاله ابنه جمشيد عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م وكان قد بلغ التسعين من عمره .

وليس لسلطين هذه الإمارة ما يذكر إلا مشاركتهم جيرانهم فى محاربة إمارة فياينكر الهندوكية ، حتى صارت بلادهم لوائل القرن الحادى عشر للهجرى من أملاك السلطان المغولى أورنكزيب .

كذلك استبد بالأمر كله فى إمارة بدر الوزير قاسم برید ، وذلك فى عهد السلطان الضعيف محمود شاه بهمنى ، ثم خلقه فى الوزارة ابنه الأمير برید فظل يتمتع بنفوذه الواسع هناك . حتى إذا ما فر كلیم الله آخر سلاطين بهمنى إلى بیجاپور ، أعلن هذا الوزير عام ٩٣٥هـ/١٥٢٦م استقلاله بهذه الإمارة . وظل أمراء برید شاهي يحكمون فى بدر حتى عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م ليضمها أمراء عادل شاهي أصحاب بیجاپور من بعد ذلك إلى ملكهم .

ومنع أمراء الدكن الإسلامية الأربعة سالفة الذكر هذه من التوسع فى جنوب الهند ما كان من اقتتالها مما سهل على هذه الأراضى الهندوكية الواسعة المحافظة على استقلالها .

ولقد ذكرنا من قبل أن قوات علاء الدين الخلجى كانت قد اجتاحت الجنوب الهندى كله على أيدي قائنده كالفور . لكن اضطراب الأمور فى سلطنه دهلى ، أواخر أيام محمد تغلق ، أضعف من سلطان المسلمين فى الدكن وما وراثها مما مهد لتقيام إمارة فياينكر القوية التى شملت رقعة واسعة من الأرض بآنى سلطنه بهمنى .

ولمراء فياينكر هؤلاء هم خلفاء الكوليين الذين ورد ذكرهم فى مراسيم آشوكا والذين ورثوا ملك بنديا فى الجنوب ، تلك المملكة التى ذاع صيتها فى القرون الأول الميلاى والتى كانت عاصمتها ما دورا تعد من أجمل بلدان الهند .

ومؤسسا هذه الإمارة هما هاري هارا وأخوه بوكا اللذان يتحدران من صلب
أمراء بادافا أصحاب دولكر .

وزر هذان الأخوان أول أمرهما لرجا لنا غوندى بالمليار ، ووقعاً معه فى
أمر سلطان دهلى محمد تغلق الذى لرتأى أن يبعث بهما نائبين عنه بهذه الإمارة
فيعاون وجودهما بها على الحد من ثورات الهنداكة هناك .

لكن الوزيرين الهلنوكيين ما لبثا أن صلاً بنصيحته حكيم هندى يدعى
فيديلرانيا فلزعا إلى الاستقلال بما فى أيديهما من أقاليم ، وبادرا من فورهم إلى
إقامة مدينة فياياتكر الحصينة على شاطئ تنجبهاردا لتكسون لهم من غزوات
المسلمين ردماً ، فأطلق اسمها من بعد ذلك على الإمارة كلها .

وانفرد هاري هارا بالملك بعد قليل فعمل على توسيع رقعه إمارته ، فلم
ينصرم عام ١٣٤٠م حتى كان سلطانه يظل وادى تونجبهاردا إلى الجنوب من
بيجاور مع أجزاء من كونكان وساحل للمليار .

واشتبك هذا الأمير وخالاه فى حروب طويلة مع جيرانهم ، وفيهم سلاطين
بهمى الأقوياء ، مما عرض إمارتهم الناشئة إلى خسائر فادحة .

وكان أعظم حكام فياياتكر هو كرشناديو الذى حكم فى أوائل القرن السادس
عشر الميلادى . وفى عهده ازدهرت عبادة وشنا ولقيت الآداب السنسكريتية
والتلجو رعاية كبيرة وراجت العمارة والنحت (١) .

ووسع هذا الأمير رقعة ملكه على أثر انتصاراته المتكررة على حكام الدكن ،
فضم أو ريسه إلى بلاده مع منطقة مدراس وميسورى الحالية .

وسعى إليه البرتغاليون يخطبون وده فأقاموا معه علاقات اقتصادية وسياسية
هدفوا من ورائها كسبه لصفوفهم فى حروبهم مع الإمارات الإسلامية عند ساحل
الهند الغربى . وحين بلغ هذا الأمير سقوط جوا بأيدى هؤلاء المستعمرين لم يكتف

(1) Prasad Medieval India d 408.

بإيفاد رسله يحملون إليهم التهنة فحصب ، بل سمح لهم كذلك بإقامة حصون لهم عند بها تكال بشواطئ بلاده الغربية .

على أن خلفاء هذا الأمير القدير لم يستطيعوا الوقوف في وجه جبهة أمراء الدكن المسلمين الذين اقتحموا عليهم بلادهم فأعملوا فيها التخريب والتدمير . ولم تنته انتصارات تليكوئا عام ١٥٦٥م إلى إضعاف سلطان الهاندي في الجنوب فحسب ، بل أنت كذلك إلى القضاء على نفوذ البرتغال الاقتصادي هناك .

وأضاع من ثمار هذه الانتصارات الإسلامية ما كان من قيام النزاع والخلاف بين الفاتحين على الأسلاب . حتى بدت قوات الدولة المغولية ، منذ أيام السلطان أكبر ، تتوغل في الدكن ، فلم ينته عهد أورنكزيب حتى كانت رأيهم تظل القارة الهندية كلها ، إلى أن ظهر المراهتها فغازعوا المسلمين الجنوب من جديد .

أسرة السادات بدلهي :

تلك كانت هي حال الهند - على ما قدمناه من انقراط عقد الدولة الإسلامية بها - حين استخلص خضر خان نائب التيموريين لنفسه عرش دلهي من أيدي قلول التغلقين عام ٨١٧هـ/١٤١٤م ، فأسس أسرة حاكمة عرفت في التاريخ باسم أسرة السادات ، إذ كان يقول بامتداد نسبه إلى النبي الأكرم (١) .

ولم يكن خضر خان في الواقع غريبا عن الهندستان لو في أصله رجلا من رجالات تيمور ، فقد نشأ عند ناصر الملك مردان دولت أمير الملتان ، ثم ما لبث فيروز تغلق أن أقامه عليها بعد موت سيده .

وحين شاع الاضطراب في الدولة عقب موت فيروز تغلق ، سقطت الملتان وأميرها في أيدي سارنك خان أخى ملاو إقبال خان . لكن خضر خان احتال على الهرب من أسريه ثم اتصل من بعد ذلك بتيمورلنك حين غزا هذه البلاد ، فرضى عنه ونصبه عند رحيله نائباً له هناك .

(١) تاريخ فرشته ص ١٦١ .

ولئن كان خضر خان قد غدا صاحب دهلئ دون منازع ، فإن سلطنته الجديدة لم تكن إلا كخلفه فى بحر لجئ تحيط به الأمواج العاتية من كل جانب. فالدواب ما فتئ منذ أيام بلبن مقيم على الاضطرابات ، وهذه هى أفتوه وقتوج ويدلون وكاتبهر قد ضل شأن دهلئ فى أعين أصحابها ، من مسلمين وهنادكة ، فكفوا أيديهم عن مدها بالخراج ، وهؤلاء أمراء الكجرات ومالوه وجونبور ، الذين استقلوا ببلادهم ، لم يمنعهم اقتتالهم من مهاجمة سلطنة دهلئ والتطلع إلى الاستيلاء عليها ما سحت لهم الفرصة واستطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وإلى جانب هؤلاء جميعاً كانت قبائل الككر لا تنفك تثير الاضطرابات العنيفة عند الملتان ولاهور .

وبقى صاحب دهلئ الجديد على ولائه الإسمى لتيمور وأولاده من بعده ، فكان يجرئ الخطبة باسمهم ثم باسمه ، وكذلك فعل بالملكة . كما لم يفته كذلك أن يبعث بين الفينة والفينة بقدر من المال والهدايا إلى أصحاب سمرقند .

وبادر هذا الأمير من فوره إلى إعادة تنظيم شئون حكومته مستعيناً فى ذلك بطائفة من الرجال الأكفاء ، حتى أتيح له أن يخفف كثيراً من آلام الفقراء والمعوزين الذين كانت تموج بهم العاصمة من أثر الاضطرابات والأحداث السياسية الطويلة التى اجتاحت الدولة .

ثم اتجهت همته من بعد ذلك إلى العمل على استعادة هيبة الدولة السابقة ومحاولة استرداد ما ضاع منها من أرضين ، فبعث بقواته ، وعلى رأسها وزيره تاج الملك تحفة ، إلى الدواب وكواليار وجندوان وأفتوه وبارن وجاليسر وكهور وتنبل ، فمازالوا بأصحابها حتى ردهم إلى طاعة دهلئ ومسالمتها . وكذلك صار حال الملتان والسند .

وحين مات خضر خان عام ٨٢٦هـ / ١٤٢٢م بكاه الناس فى العاصمة إذ كان بهم باراً ورفيقاً^(١) .

(١) تاريخ فرشته ص ١٦٢ .

ونهج ابنه السلطان مير الدين أبو الفتح مبارك شاه في تثبيت الأمراء على إقطاعاتهم وولاياتهم عساه يضمن بذلك ولائهم ومؤازرتهم له في القضاء على الفتن والاضطرابات التي فتكت تحتاح البلاد . فهذا هو جسرت كهكر ومعه طغاي تسرك مازالا يعيثان في المناطق الشمالية الغربية لبلادنا ، حتى سوات لأول أطماعه بالزحف على دهلئ نفسها فعبّر رافد ستلج السندى واستولى على حصن سر هند ، فلم يمنعه عن التقدم إلى العاصمة إلا خروج السلطان إليه بنفسه فاسترد منه أغلب الأراضي التي كانت في حوزته ولقر الأمور في لاهور وما حولها . على أنه لم يكد يعود إلى حضرته حتى اتحد هذا الثائر إلى لاهور من جديد ، فلم يفتح حاكمها في دره عنها إلا بعد أن وصلته إمدادات السلطان لتتزل بالعدو هزائم قوية أرغمته على الاعتصام بالمناطق الجبلية هناك .

ولتفت السلطان من بعد ذلك إلى الاضطرابات التي نشبت في السواب وكتيهر وأوده وكواليار وبيانه وجندول وكالئ قضئ عليها جميعاً ، كما هزم قوات إبراهيم شاه شرقئ أمير جونپور ليتحول كره أخرى إلى المناطق الشمالية الغربية حيث انضم أصحاب كابل هذه المرة إلى الكهكر فاجتاحوا البنجاب كله والمثلان ونهبوا أراضيها .

ولئن كان السلطان قد خرج من هذه المعارك جميعاً ظاهراً منصوراً إلا أنه لم يقلت آخر الأمر من سيوف فريق من رجاله الذين كانوا ينقصون على وزيره كمال الملك نفوذه البالغ .

وعادت حلة الثورات ، على سنة العصر ، إلى الدوران من جديد ، إذ كف إبراهيم شاه شرقئ ورأئ كواليار ومعهم طائفة من أمراء الهنداكة عن دفع ما لدهلئ عندهم من خراج ولتاوت . وشجع هذا الإجراء محمود الخلجئ صاحب مالوه ، فخرج بجند زحفاً إلى دهلئ ، فلم يرجع عنها إلا حين برز أحمد شاه صاحب الكجرات يهدد عاصمته لاندو . وقد تعبه في ارتداد بهلول خان لودهى ، حاكم لاهور وسرهند ، الذي كان قد أسرع لتجدة السلطان ، فانتهب مؤنه وأسلمته.

وكان مما دفع هؤلاء الأمراء إلى الخروج على سلطان دهلي من جديد، هو عودة الوزير كمال الملك إلى منصبه كره أخرى . ذلك أن مرور الملك الذي كان قد خلفه في الوزارة راح ، عقب تولي السلطان الجديد محمد شاه حفيد خضر خان الملك ، ينعم على أولئك الذين تأمروا على حياة السلطان السابق وفيهم سيدهو بال الهنوكي ويجزل العطاء لهم مما أثار عليه ثائرة كمال الملك وعصبته فبادروا بالقضاء عليهم جميعاً .

واستمع بهلول لودهي ، على أثر ما أحرزته من نصر ، إلى تحريض الكهكر الذين زينوا له وبعض الأمراء الأقبان الزحف على دهلي والتزاعها من أصحابها^(١) .

ولم يكن صد دهلي للقائد اللودهي على كل حال إلا إلى حين . فما إن ولى العرش عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م علاء الدين علم شاه ، وكان أميراً ضعيفاً، حتى انتقل ببلاطه إلى بيانه ليدفعه قصر نظره بعد قليل إلى محاولة التتكل بوزيره حميد خان الذي سارع من فورهِ إلى الاستجداء بهلول لودهي ، وكان هذا الأخير قد بسط نفوذه على للتجانب الشمالية كلها من لاهور وديلبور وسرهند إلى هاتس وحصل وياتي بت .

وهكذا ولت الأمير اللودهي الفرصة المرتقبة سريعة ميسرة للجلوس على عرش دهلي ، فلم يلق من آخر سلاطين السادات أدنى مقاومة ، اللهم إلا رجاء بتأمين إقامته ورزقه في داون . فبقى بها إلى آخر أيام حياته حتى قضى عام ٨٥٣هـ/١٤٤٨م .

(١) نظام الدين أحمد بخشي : طبقات أكبرى كلكتا ١٩٢٣ ، ص ١٤٨ .

اللودهيون الأفغان

لقد أمل الحكام السادات حين صار لهم عرش دهلي أن يستعيدوا لسلطان المسلمين بالهندستان سابق وحدته ويستردوا للحكومة المركزية ما ضاع منها من نفوذ وأرضين ، فيذلوا في ذلك جهودا مضنية ذهبت كلها أدراج الرياح ، فانتكس الحال في أواخر أيامهم إلى أسوأ مما كان عليه أول عهدهم بالحكم . فالدكن والكجرات ومالوه وجونبور والبنغال ما برحت في أيدي أمراءها الذين كانوا قد استقلوا بها ، وأغلب البنجاب قد صار بأيدي القائد الأفغانى الثائر بهلول لودهى ، كما غدت مهروالى وما حولها حتى سراى لادو القريبة من دهلي فى حوزة أحمد خان مواتى . أما سنبهل حتى ضواحي العاصمة فكان يسيطر عليها دريا خان لودهى ، فى حين كان يقسم النفوذ فى الدواب جملة الأمراء الآخرين منهم قطب خان وعيسى خان تركه . هذا كما كانت بيانه من نصيب دلود خان لودهى يشاركه فيها أمير هندوكى ، فى الوقت الذى كان فيه راجا برافلت مسلغ ييسط نفوذه على باتيالى ويكيله وما وراءهما .

وهؤلاء الأمراء اللودهيون ، الذين تراءم مع فريق من الأمراء الهندكة قد انتشروا حكاما فى شمال الهند على أراض غير بعيدة عن العاصمة ، ينتمون إلى إحدى القبائل الأفغانية التى كانت تضطلع بالمتاجرة ونقل السلع بين فارس وأواسط آسيا والهندستان .

وفى أيام فيروز تغلق التحق جد هؤلاء الأمراء الأكبر ، ويدعى بيرم لودهى وكان من الأكرياء ، بخدمة مردان دولت الذى سرعان ما عهد إليه بحكم الملتان .

وحين صار أمر هذا الإقليم إلى خضر خان ، عهد بقيادة جده الأفغان إلى ملك سلطان بن بيرم لودهى . حتى إذا ما تمكن هذا القائد من القضاء على حاكم دهلي إقبال خان كافأة سيده بتقليده ولاية سر هند ونعم عليه بلقب إسلام خان . وعهد هذا الأمير اللودهى ، حين شرع بنو أجله ، بقواته وأملاكه إلى ابن أخيه وخخته الفتى الواقع بهلول لودهى وكان أثيرا عنده لشجاعته وحزمه برغم صغره سنه.

ولئن كان الأمراء اللودهيون قد انقسموا على أثر وفاة إسلام خان إلى شيع ثلاثية متعادلة ، إلا أن بهلول لودهى ألقح آخر الأمر ، بحسن تدبيره ، فى لم شملهم فى جبهة موحدة تبثت مراكزهم ودفعت عنهم أخطار الكهكر فى البنجاب وأخطار دهلى معاً .

وكان أن استنجد محمد شاه سلطان دهلى بالأمير اللودهى لدفع خطر السلطان محمد الخلجى صاحب مالوه عن عاصمته ، فأمدّه بعشرين ألفاً من الفرسان الذين أشاعوا الفوضى فى صفوف العدو ونهبوا معسكراته . ولطلق بهلول لودهى ، بعد هذا النصر الذى أحرزه ، يطوى تحت نفوذه أراضى واسعة كثيرة بالبنجاب ثم استدار من بعد ذلك يهاجم دهلى نفسها حتى سقطت فى يده على ما فصلناه فى موضعه (١) .

ولم يكن بهلول لودهى ، وهو المحارب الطموح ، يرى فى استيلائه على العاصمة إلا وسيلة إلى غايته الكبرى فى تحقيق حلمه وحطم كل سلطان سبقه باستعادة مجد دهلى على الصورة التى كانت لها أيام الغزنويين والخلجيين من قبل .

ولم يتردد زعيم اللودهيين فى سبيل تثبيت أقدامه وتدعيم سلطانه عن سلوك كل سبيل إلى غايته ، فتأمر ورجاله على التخلص من الوزير القنوى حميدخان ، وهو الذى كان قد مكّنه بتدبيره من دخول دهلى وتسلمه لمقاليد الأمور بها .

وتفصيل ذلك أن بهلولاً عمد ، أول الأمر ، إلى توفير ضروب التهجيل والتوفير لهذا الوزير حتى إذا ما قصد هذا الأخير إلى مقر الأمير الجديد فى إحدى زيارته له أوعز بهلول إلى بعض رجاله أن يصنروا عنهم من الإشارات ما يوحى إلى من يراهم بتزجيج بلائتهم وسذاجتهم ، مما أشاع السرور والبهجة فى نفس زائره . وخرج الأمير اللودهى يرد الزيارة بدوره للوزير وفى صحبته فريق كبير من هؤلاء الرجال . حتى إذا ما بلغت أسماع حميد خان ما أثاروه من ضوضاء وضجيج عند أسوار داره ، أمر حراسه من فورهم بفتح الأبواب لهم مبتهجاً ، فما

(١) تاريخ فرشته ص ١٧٣ - ١٧٥ .

كانوا يستون بمجلسه حتى رفعوا سيوفهم في وجهه ، وقد قام زعيمهم يعتز غليه
عن قسوة هذا الإجراء بضرورات السياسة وترك له حرية اختصار المكان الذي
يرغب في لزومه بعيدا عن العاصمة ، قد أعفى من القتل اعترافا بمسابق إيلديه
على بهلول .

وقصد المتآمرون من بعد ذلك إلى السلطان علاء الدين بمقامه في بيته
يعنون ولاءهم له ، ولكنه كان فيه من الزاهدين .

وظلق بهلول لودهى يندق بدوره على الجند وقادتهم الهبات والعطايا ، لكن
طائفة كبيرة من الأمراء الذين لم يرضوا عن سلوك هذا الزعيم الأفغاني
وعصبته ، ما غدوا أن انتهزوا فرصة خروجه إلى الولايات الشمالية الغربية
فاتصلوا بالسلطان محمود شاه شرقى صاحب جوبور وتعجلوا زحفه إلى العاصمة .

وما إن أحيط بهلول بالخبر حتى بعث برسله ترحب بالسلطان الزاحف الذي
كان على معرفة تامة بأساليب هذا الأمير الأفغاني وحيله الماكرة ، فلم يلق بالآلا
إلى سفرائه وضرب الحصار على دهلى في مائة وسبعين ألفا من الجند ومعهم
أربعمائة من الفيلة .

على أن السحاب الأمراء الأفغان المفاجئ مع قواتهم من جيش الشرق ،
أرغم السلطان محمود على التكوص سجلا إلى جوبور مع من بقى معه من قوات
قليلة . ونتج عن هذا الفوز الباهر الذي أحرزه الأمير اللودهى ، أن اشتكت هيئته
بين أصدقائه وأصدقائه على السواء ، فخفت أصوات معارضيه في بلاده في حين
سارع كثير من أمراء الأقاليم المجاورة يعنون ولاءهم له ودخلهم في طاعته .

ولئن كان الأمر قد استتب كذلك للسلطان اللودهى في إقليم الدواب فإن
أصحاب جوبور من ملوك الشرق ، فيما وراء هذا الإقليم ، لبثوا يرون في بهلول،
برغم ما قام بينه وبينهم من موثيق وعهود ، مختصيا لعرش دهل غير جدير به
على كل حال . فتوالت المعارك بينهم وبينه حتى كاد السلطان القدير حسين شاه
شرقى أن يوقع بالزعيم الأفغاني ، أولا ما صد إليه هذا الأخير من الحيلة المشوية

بالغدر على أثر إحدى مرات التصالح والهدنة، إذ سقط على مقام ملكه جهان ،
زوجة ملك الشرق ، فأخذها في أسره ، ولين ردها من بعد ذلك مكرمة إلى بلادها .

ويبلغ بهلول بغيته آخر الأمر على كل حال بالاستيلاء على إقليم جوبنور فأعلم
ابنه باريك عليه ، كما بسط سلطانه كذلك على كالبى ودهليور وبارى وموار
وموات .

وفيما كان السلطان اللوهمى فى طريقه إلى عاصمته ، بعد استيلائه على
كواليار ، دهمته الحمى فلقى حتفه عام ٨٩٣هـ / ٤٨٨م .

ولئن لم تتسرك الحروب المتواصلة التى خاضها بهلول لودهى وقتاً كافياً له
للاتفات إلى تنظيم شئون حكومته ، فقد أدت انتصاراته إلى استرداد الكثير من هبة
الحكم الإسلامى الضائعة بالهندستان . وقد عرف هذا الجندى الموهوب بإجراء
العدل فى بلاده مع الكرم والعطف الكثير على الفقراء وتقدير العلماء ، وفرط الزهد
والتقوى حتى قيل بأنه أمر برفع اليواقيت والأحجار الكريمة عن العرش .

واختلف الأمراء فيما بينهم حول من يجلسونه على عرش بهلول ، فمنهم من
رشح له همايون حفيد السلطان الراحل ، ومنهم من انتصر لباريك خان أكبر
أولاده . حتى أفلحت السلطنة زينة آخر الأمر ، بحسن تدبيرها ومعونه خان جهان
لوحائى وخان خاتنه فرمل ، - فى تغليب رأى القاتل بإلقاء مقاليد الحكم إلى
الأمير نظام خان ، وهو الذى رقى العرش باسم سكندر شاه (١) .

وسار السلطان الجديد سيرة أبيه فى تدعيم ملكه ، فبرز من فوروه للقضاء
على أولئك الذين أعلنوا الخروج عليه من جديد - وهى ظاهرة إقطاعية كانت تلازم
كل سلطان جديد يلى الحكم ، فإن أنس الأمراء فى أميرهم الجديد القوة والحزم
بلدروا بإعلان ولائهم له وبخولهم فى طاعته ، وإلا فهم يتمنون فى طغيانهم ،
ويحاكيهم فى ذلك غيرهم من جيرانهم إلى حد أنهم قد لا يتربدون فى تهديد
العاصمة نفسها بقواتهم .

(١) طبقات أكبر ص ١٥٩ .

وافترع سكندر شاه قلعة ريرى ومعها حصن جندولور من أخيه الثائر علم خان ، وما زال يطارده من بعد ذلك حتى استسلم له عند أتووه ، كما استسلم له بدوره ابن عمه عيسى خان عند باتيالى .

وسار السلطان اللودهى من بعد ذلك إلى جونپور ، وكان بها أخوة باريكه الذى رفض الإقرار له بالولاء . وقد أدى إلى انهيار مقاومة هذا الأمير الثائر انضمام قائده محمد خان فرملى المعروف بكالا بهار إلى صفوف صاحب دهللى . على أن سكندر شاه ما لبث أن رد أخاه إلى إمارته ، وسير معه فريق من القادة الأفغان لتدعيم تلك الجبهة الشرقية التى كان يكمن فيما وراءها ببهار السلطان حسين شاه شرقى فى انتظار الفرصة المواتية لاسترداد أراضيه .

ولم يرجع سكندر شاه إلى عاصمته فى عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م حتى كانت كالبى وكواليار ويبلان قد دخلت جميعها فى طاعته بدورها (١) .

ونزع أصحاب الأراضى فى جونپور إلى الثورة من جديد بتحريض من أميرهم السابق ، حتى اضطر باريكه خان للفرار إلى محمد خان فرملى فى كالبى . وأدى تفاقم أمر العصاة الهندكة هناك إلى خروج السلطان بنفسه إليهم ، حتى بلغ جنار فأنزله بهم هزيمة شديدة . لكن خسائره الكثيرة فى هذه المعارك وانتشار الأمراض والمجاعة فى صفوف جيشه ما لبثت أن أيقظت الآمال مرة أخرى فى صفوف الثوار ، فبعثوا يحرضون السلطان حسين شرقى على القدوم إليهم . وقد أفلح خاتنه خان فرملى أن ينزل بقوات هذا السلطان الشرقى الكبيرة ، ومعها قوات جيرانه من الهندكة ، هزيمة حاسمة على كل حال عند بنارس ، فر حسين شاه على أثرها إلى بهار ، فما برحت قوات دهللى تطارده هناك حتى لجأ آخر الأمر إلى كلجام من أصل الكهنلوتى قضى بقية عمره فى ضيافة صاحب البنغال .

وشجع سقوط بهار فى أيدي قوات دهللى عام ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م السلطان سكندر على الزحف إلى البنغال ، فبلغ حدودها بعد أن دخل تروته وأخذ اللوام من أميرها الهندوكى . وبرغم مسير دقليل خان فى قوات كبيرة لمداومة الغزاة بأمر

(١) مخزن أثنائه وتاريخ جهان لودى لست الله ترجمة برنهارد ص ٥٦ .

من أبيه علاء الدين أمير البنغال ، فقد تحاشى الطرفان آخر الأمر النزاع الجدى على تعهد من علاء الدين بعدم إيواء الخارجين على سلطان دهلئ ببلاده .

ورجع السلطان اللودهى عن هذه الأقاليم الشرقية بعد أن عهد إلى درياخان لودهى بإقليم بهار على أن تكون شئون الخراج فى تروث وما حولها لأعظم همايون بن خان جهان فرملى .

وضاق سكندر شاه ذرعا بمضايقات أمراءه الأفغان الإقطاعيين ، بعد أن كشف عن تأمرهم على قتله ، فلم يكف بما أفضله بهم من عقوبات صارمة حتى استقر رأيه آخر الأمر ، فى سبيل إحكام رقبته عليهم ، إلى اتخاذ مقام حصين يتيسر له منه تضيق الخناق عليهم فى أتاه وبينه وكول وكواليار ود هابور ، فأنشأ مدينة أكرأ الحالية على نهر جمهه إلى الجنوب من دهلئ عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م . ومن أسف أن هذه المدينة التى زخرت بكثير من المنشآت الجميلة فى وقت قصير ، ما لبث أن اجتاحتها فى العام التالى زلزال مدمر خرب أغلبها .

وقضى سكندر شاه بنية أيامه ، حتى لقي ربه عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، فى مواجهة عصيان أمراءه الأفغان بأغلب نواحى بلاده ، ذلك العصيان الذى دفع بالأمراء الهنادكة فيما بعد إلى الجنوح للثورة بنورهم واقتطاع كثير من أراضى الدولة لأنفسهم .

وبموت هذا السلطان فقدت دهلئ أكثر حاكم عرقته من بين اللودهيين وأعلنهم . فقد راقب سلوكه صاله نحو رعاياء فى حزم ويقظة أعانه فيها شبكة قوية من الميون كانت منتشرة فى أنحاء سلطنته^(١) . وبلغ من بره وحذله كذلك أنه كان يجلس للاستماع إلى شكاوى الأهلىن بنفسه ، كما عمل على توفير الأكواف لهم ، وضبط أسعارها ضبطا محكما . هذا كما كان يأمر من حين لآخر بإحصاء الفقراء والمعوزين ومنح كل واحد منهم من اللون ما يكفيه لأشهر ستة .

(١) طبقات لكبرى ١٧ .

وكان من أثر شدة شغف هذا السلطان بالمعرفة أن نقلت في عهده إلى اللغة الفارسية - لسان العصر العلمي بالهندستان إذا ذلك - جملة من المؤلفات المستكرية المهمة خصوصا في الطب .

هذا كما قضى كذلك على عصابات اللصوص وأمن للدروب والطرق. وعنى غاية فائقة برواج للتجارة ، وشجع الحرف والصناعات ، وانتفتحت التفتات كبيرا إلى اشتغال الجند وروساتهم بها في أوقات السلم والفراغ .

ولئن أدى اهتمام هذا السلطان البالغ بنشر الإسلام في ربوع بلاده ، إلى هدمه لبعض المعابد الهندوكية وإقامة مساجد للمسلمين مكانها ، أو قتله بعض من رفض اعتناق الإسلام من الهنادكة فإن مثل هذا الصنيع ، وإن كنا لا نقره اليوم ، لم يكن إلا ظاهرة ظواهر العصر العامة التي كانت تنشر في أوروبا بدورها كذلك⁽¹⁾ .

وخلف سكندر ابنه إبراهيم على عرش الهند ، ولكنه لم يكن له من حزم أبيه وشدة بأسه نصيب . فإتطلق الأمراء الأفغان من عقابهم يجهرن بالصبيان حتى أخذ بناء السلطة يتصدع ينتهي به الأمر إلى الانهيار التام على يد الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر حين دخل الهند غاتيا .

ولقد حاول هذا السلطان اللودهي الجديد أن يخطب ود الأمراء الأفغانين أول الأمر بالرفق والصلوات وحسن المودة ولستهم ، وقد كانوا يعتقدون أن إقطاعاتهم وإماراتهم لم تصر إليهم إلا بقوة سيوفهم ، ما كانوا ليركثوا إلى السلم إلا إذا استشعروا فوق رقابهم يدا قوية مثل يد سكندر شاه .

وإلى جانب هؤلاء الأمراء الأفغان ، كان الأمراء الهنادكة بالراجبوتانا تفيض نفوسهم بالكراهية لبيت اللودهيين ، تلك الكراهية التي زاد من رسوخها عندهم سياسة سكندر لودهي الدينية التي أشرنا إليها من قبل .

(1) Prasad Medieval India p. 482.

وما لبث فريق من هؤلاء الأتقيان المتأمرين ، أن أجمعوا أمرهم على المساعدة بجلال الدين بن سكندر شاه سلطاناً على جوتبور ، على أن يقتصر سلطان إبراهيم على دهلي وما حولها .

ولئن أفلح خان جهان لوحاني ، أحد كبار رجال السلطان سكندر ، في حصول طائفة من المتأمرين على الرجوع إلى صفوف سلطان دهلي ، إلا أن ذلك لم يثن جلال الدين وطائفة أخرى معه عن المضي فيما كانوا قد اعتزموه من الأمر .

هناك لم ير إبراهيم اللودهي مناصباً من الخروج لقتال أخيه ، فحبس أخوته الآخرين بحصن هاتسي فوقاً به إلى آخر حياتهم ، ثم ما زال بجلال الدين حتى انقض عنه فريق كبير من جنده وقادته وفيهم أعظم همايون شيرواني ، واضطر هو نفسه للفرار إلى كواليار .

ولم يطل بالأمير الثائر المقام في هذا الإقليم ، إذ سبر إليه أخوه قائد أعظم همايون لودهي ، فقصده إلى ماله التي غادرها بدورها بعد قليل لما لحظه من فتور سلطانها محمود الخلجي نحوه . وفيما كان في طريقه إلى راجا كركته وقع في أيدي صال غوند فيسيروه في الأغلال إلى أخيه ، ليلاكي مصرعه وهو في طريقه إلى حصن هاتسي^(١) .

وضاق السلطان ذرعاً بأمراته آخر الأمر فانقلب يشط في معاملتهم ويمعن في إنزال ألوان التحذيب والهيوان بمن تصل يده إليه منهم .

وجاء زجه في الحبس بقائده أعظم همايون شيرواني وابنه قلغخان بعد استدعائهما من كواليار ، بمثابة الزيت على النار . فما لبث فريق من القواد التابعين على مسلكه الغاشم ، أن التفتوا حول أعظم همايون لودهي وإسلام خان بن أعظم همايون شيرواني ، فالتحموا بقواتهم التي كانت تتوف على أربعين ألفاً من الفرسان وخمسائة من الفيلة ، مع جند إبراهيم اللودهي في قتال عنيف عند لوده ، كاد يكتب لهم الظفر فيه لولا سقوط إسلام خان وأسر قائده كبير آخر هو سيد خان .

(١) تاريخ فرشته أول ص ١٩٠ .

وضاعف هذا النصر من قسوة هذا السلطان الذى ذهب يطيح برعوس أعدائه
فى تهور بالغ فكان من بين قتلاه أعظم همايون شيروانى وحسين خان فرملى ثم
ميان يهوره وزير والده سكندر .

وسار إبراهيم من بعد ذلك بقواته إلى ميوات فانزل بجموع الأمير الهندوكى
راتا سنكا ، أعظم أمراء الراجبوتانا ، ضربات قوية برغم استبسالها الشديد ، فلم
يكتب للراتا نفسه ، وقد أثخنه جراحه ، الهرب من الميدان إلا بمشقة بالغة .

وكثر عدد الخارجين على هذا السلطان السفاه نتيجة لعنفه هذا ، حتى نادى
بها درخان لو حانى بنفسه سلطانا على بهار باسم محمد شاه ؛ وانضم إليه كثير من
الأمراء فى الأقاليم المجاورة له فاستقام له قوة عسكرية كبيرة بلغت مائة ألف من
الفرسان ، زحف بهم حتى سنبهل حيث أوقع بجيش دهلى هزائم متكررة .

ولم يدر السلطان اللودهى حين أرسل يستدعى إليه دولت خان لودهى أمير
البنجاب - وكان قائدا قديرا قوى الشكيلة مرهوب الجانب - أن لفنته هذه سكتتهى
إلى القضاء الشامل على ملك اللودهييين كله بالهندستان .

ذلك أن هذا الأمير حين استدعى إلى أكرا ، مقر اللودهييين الجديد لزم داره
قطنا ، حنرا ، وبعت بابنه دولار خان إلى هناك بدلا منه ، معتبرا باشتغاله بجمع
الخراج . وعاد الولد إلى أبيه ليروى له ما أطلعه عليه السلطان إبراهيم بنفسه من
كبار الضحايا العديدين الذين ما زالت جثثهم معلقة على الأسوار جزاء العصيان .

هناك رحل دولار خان من عند أبيه كرة أخرى ، ولكن كانت وجهته
هذه المرة كابل ليحرض صاحبها السلطان ظهير الدين محمد باربر باسم أبيه
على غزو سلطنة اللودهييين . وكذلك فعل علاء الدين طلم خان عم صاحب
دهلى^(١).

(١) تاريخ فرشته ١٩١ .

ولم يكن الأميران اللودهيان يرميان من وراء دعوتهما هذه إلا القضاء على إبراهيم اللودهي وخلص الأمر لهما من بعد ذلك بالهندستان . لكن أمير كابل مضى يفتح الهند حتى جلس هو نفسه وأولاده من بعده على عرشها ، وذلك بعد أن قضى على السلطان اللودهي في موقعة ياتى بت الشهيرة عام ١٥٢٦/٩٣٢ م . وبهذا انتقل حكم الهندستان من أدى الأفغان اللودهيين إلى أيدي الأتراك الجغتائيين .

الدولة الإسلامية

في دورها الأول بشبه القارة الهندية

كان الفتح الإسلامي للهند بداية عهد جديد مزدهر تجلت آثاره الأولى أيام الحكم العربي في السند بإعادة الاتصال الثقافي بين هذه البلاد ومهاد الحضارة في أرض القارتين .

وكان الغزاة الأول لهذه البلاد من العرب أشد تمسكا في الغالب بمبادئ الإسلام الرحيمة من الأتراك والأفغان الذين وفدوا على الهند من بعدهم ومعهم كثرة من الفرس ، فبسطوا نفوذهم على شبه القارة الهندية ودفعوا بعجلة الحضارة الهندية إلى السير من جديد .

ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا كذلك قد أصبحوا معهم جملة من علماء المسلمين وحملوا الثقافة الإسلامية التي كانت قد بلغت بدورها خارج الهند إذ ذلك درجة كبيرة من الكمال ، فكان لهم لواء وفتار بارزة لا تنكر في رقي الهند وتقدمها ولزدهار المدينة والحضارة بها .

هذا وكانت الهند بدورها ، على الرغم من تلكتها السياسي ، ما تزال للحياة العقلية بها سوق راقية ، حتى دهش المسلمون لما وجدوه بها من صنوف المعرفة وضروب المدنية والحضارة . وفيما كتبه أبو الريحان البيروني ثبت قيم لما رآه بها وشاهده في أغلب هذه النواحي^(١) .

وبرغم اختلاط هذه الثقافات المختلفة واستزاجها وتأثر المسلمين والهنداكسة ، كل بلصوب من عادات الآخر وتقاليد ، مما يرد عادة إلى إيمان الجوار في البيئة للوحدة المشتركة ، فقد ظل كل فريق منهم على كل حال محتفظا بصفات جوهرية ، تميزه عن الفريق الآخر تميزا ملحوظا ، متشوها اختلاف العقائد وأسسها الاجتماعية من جهة ، وتباين أصول الثقافات المنبثقة عليها من جهة أخرى .

(١) وأشهرها كتبه « ذكر ما للهند من مقولة السبل أو منقولة » وقد نال إلى لغات لوربية عدة .

ولم يكن سيف الفتوح هو الذى ساعد فى الغالب على انتشار الإسلام بالهند ،
أو مول بعض القوم إلى تقليد حكامهم والتقرب منهم ، أو حتى طموح فريق من أهل
البلاد إلى تقلد بعض المناصب الكبرى التى كانت وقفا على المسلمين فى الدولة ،
إنما كان العامل الأول فى دخول كثرة من الهنداكة فى الدين الإسلامى هو ما لمسوه
من قيام المساواة التامة بين أصحابه وانعدام نظام الطبقات عندهم ، ثم الهروب من
استبداد البارهمة والتخلص مما كان يلزم به غير المسلمين عادة من الجزية

ولقد قامت الدولة الإسلامية فى الهند على أيدى رجال الحرب فى الغالب
ومن ورائهم رجال الدين يتكون فيهم روح الجهاد لنشر الإسلام فى هذه البلاد دون
إكراه فيه ، فمن دخله صار له ما لأهله من الحقوق ، ومن أعرض عنه فرض
عليه ما يفرض عادة على غير المسلمين من جزية دون عنت أو إهراق .

وشهد المسلمون بما سبق عدول من مؤرخى الهنداكة أنفسهم^(١) ومعهم طائفة
من المؤرخين الأوربيين ، فذكروا أن أهل البلاد كانوا يعيشون فى أمان بكف
المسلمين ، فلم يكن ما تعرضوا له من مضايقات فى بعض العهود إلا حالات فردية
عارضة لا تمت إلى تعاليم الإسلام نفسه بسبب^(٢) .

ولئن كان بعض السلاطين من أمثال سكندرلدهى قد جدوا من حرية الهنداكة
الدينية فحرموا عليهم إقامة معابد جديدة أو حتى ترميم القديم منها ، فهناك كثيرون
غيرهم من أمثال محمد تغلق ضربوا صفحا عن احتجاج فريق من رجال الدين
المسلمين ، فأظهروا تسامحا مطلقا نحو هؤلاء الذين لم ينعموا بحرية العبادة كاملة
فى أيامهم فحسب ، بل وشاركوا مشاركة فعالة كذلك فى أداة الحكم ومناصب
الدولة^(٣) .

(1) Prasad Medieval India 509.10, Havell p. 257.

(2) Arnold, The Preaching of Islam p.420.

(٣) يقول إين بول أن الإسلام واتم ، بيساطته ، العقاية الهندية أكثر من المسيحية ، وأن الحكومة
الإسلامية ، مهما يكن من عيوبها ، كانت أفضل حكومة عرفها الهنود ، ويجعل ذلك من
الأسباب التى أدت بالأهلين فى الغالب إلى الدخول فى هذا الدين وطاعة أصحابه .
Indiap 4.

هذا وكان سلاطين الهند المسلمين عموما مستقلين تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية ، فلم يكن ما سوى إليه فريق منهم ، مثل التمش وآل تغلق ، من خطب ود الخليفة إلا من باب التشريف الدينى طلبا لمزيد النفوذ بين بنى قومهم ، فقد ضربوا السكة باسمه وأجروا الخطبة بالدعاء لهم وحدهم فى الغالب .

ولقد بهرت كلوز الهند الطلائع أنظار غزاتها الأولين فشغلوا بها وبالفتح عن الالتفات الجدى لتنظيم شئون الحكم وإرساء قواعده ، حتى جاء السلطان بلبن فطفق يعمل على إقرار الأمن فى البلاد وبذل غاية الجهد فى القضاء على قطاع الطرق وعصابات المصوص فى رقعة بلاده الواسعة ، فانتشبت بذلك تجاره الهند وزراعتها .

وواصل الذين جاؤا من بعده عنايتهم بالحالة الاقتصادية ، فوضع صلاء الدين الخلجى نظاما ثابتا للضرائب وعنى بالزراعة عناية فائقة حتى توفرت الأكوات فى البلاد وعم الهمس والرخاء . وكان هذا السلطان هو كذلك أول من أحكم ضبط الأسعار فى بلاده للواسعة . وقد شاهد ابن بطوطة بنفسه أهراء الحبوب التى كانت علاء الدين قد قامها بدلهى .

وما برحت هذه المخازن السلطانية أمدا طويلا تمد السكان بالأرزاق والحبوب إبان المجاعات الطيفة التى كانت تجتاح الهند عادة حين تحبس الأمطار الموسمية عنها . هذا كما كانت الخائقات والمطابخ السلطانية ، المنتشرة فى أنحاء البلاد ، تقوم يوميا بإطعام حشود الأهلى فى هذه الأزمان المخيفة .

وبعرض علينا الرحالة العربى ابن بطوطة صورا مفصلة لألوان الحياة فى الهند التى زارها فى القرن الثامن الهجرى ، ويشيد بقيام العدل وشيوعه وانتشار الأمن والطمأنينة بالبلاد .

كذلك يتحدث ابن بطوطة عن انتشار الرقيق فى الهند ، وقد كانوا على كل حال يعمون فى ظل سادتهم بالكثير من الرعاية حتى رأينا الكثيرين منهم

خون مراتب القيادة والوزارة ، بل لقد حكمت الهند يوماً ما أسرة كلها من مالايك^(١) .

هذا ويذكر الرحالة العربي أيضاً أن الخواثق والحمامات البيمارستانات (دور الشفاء) كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها ، كان يقدم في الأخيرة منها الغذاء والدواء للفقراء بالمجان .

ولعل من أهم ما يلفت النظر فيما ذكره ابن بطوطة عن الهند أنه وجد حديقة هناور ثلاث عشرة مدرسة للبنات وثلاث وعشرين مدرسة للصبيات ، مما يؤيد دليلاً على رعاية الدولة بتثنية أبنائها تثنية صلاحية ، وعدم إهمالها لشأن امرأة بصفة خاصة^(٢) .

كما يشير كذلك إلى منع الحكام المسلمين ممارسة الهناكة لعادة المسلمين بشعة ، فلم يبيحوها لهم إلا في أحوال قليلة نادرة ويأذن من السلطان اسمه^(٣) .

كذلك تحدث ابن بطوطة عن رواج الحركة التجارية بالهند ، وقد أتى بنفسه التجار الأجانب يزحمون موانئها الغربية ، لا سيما بروج وكالكوت ، شراء منتجات هذه البلاد الوفيرة ، أو بيع ما كانوا يأتون به من منتجات ارمس وخراسان والعراق ومصر^(٤) .

وكان إقليم الكجرات ، أهم مراكز الهند التجارية منذ القدم ، ينعم أهله صفة خاصة بقدر وفر من الثراء ، وكانت أرضه تنبت أجود الكزوم والقطن .

(١) ابن بطوطة ثلاث من ١٢٧ - ١٢٣ - ٢٣٦ .

(٢) ابن بطوطة رابع من ٦٧ .

(٣) عادة الماتى هي إقبال المرأة الهندية على حرق نفسها حية مع جثة زوجها ما لم يكن لها ولد في الخائب .

(٤) ابن بطوطة ثلاث من ٤٠٥ و رابع من ٨٦ .

ومن ممتلكاته كمياى كانت تصدر البهارات والليلة فيتلبيضها التجار بالذهب والفضة والاحاس .

هذا كما كانت الصناعات تقوم فى أنحاء متفرقة به ، ومنها النسيج مختلف أنواعه . واشتهرت الكجرات كذلك بضرب من المصنوعات الجلدية عليها نقوش الطير والحيوان ومكفته بأسلاك الذهب والفضة^(١) .

على أن اقتصاديات البلاد ما عتمدت على أثر الغزو التيمورى أن أخذت فى الاتهار . ذلك أن هذا الغزو ، فضلا عن استنزافه لثروات البلاد وتخريبه لكثير من المدن الهندية ، قد أدى إلى انقراط عقد الدولة الإسلامية فى الهند وتلككها إلى ولايات صغيرة كثيرة حتى اقتصر سلطان دهل على ولاية صغيرة كانت أقل الولايات الهندية جميعا دخلا وثروة .

وقد نعمت الولايات التى لم تتعرض لهذا الغزو وآثاره ، فى نفس الوقت بكثير ، من الرخاء إذ أوقفت بدورها دخلها ومواردها على نفسها . وكانت البنغال أوفر الأقاليم الهندية جميعا حظا فى هذه النواحي .

ويلغ فن العمارة والنقش فى عهد الحكم الإسلامى بالهند درجة رفيعة من الروعة والرقى يدل عليها مسجد أجمير ومسجد القطب بدهل ومبارته ، التى ترتفع إلى ٢٤٢ قدم ويتوجها الممر فى لجزائها العليا ، وكثير من المدارس والبيمارستانات التى نجت من تخريب الحروب .

وهذا ابن بطوطة لا يفوته فى كتاب رحلته أن يشيد بما كان عليه قصر محمد تغلق ، ذو الأكف عمود بدهل من الروعة والبهاء^(٢) .

وكان من الطبيعى أن يستخدم الحكام المسلمون رجال المعمار من أبناء الهند فى إقامة منشآتهم هناك ، قد كان العمارة فى الهند القديمة سوق رائجة تدل عليها آثارها القديمة الخالدة ، فجاغت الأنماط هندية فى نواتها ، وللبقاع تأثير فى الطابع

(1) Marco Polo Vol 2 pp.328,33

(٢) ابن بطوطة ثلاث ٢١٧ - ٢٢٠.

كما يقول المتنسي الجغرافي . على أن هؤلاء الفنانين حرصوا على تصميماتهم ،
بتوجيه من حكامهم ، على أن توائم النهج الإسلامي وتساير التطور الفني في البلاد
الإسلامية ، دون أن يطفى شيء من ذلك كله على طابعها الأصلي ، فأضيفت
النقوش والزخارف العربية والفارسية إليها ، كما اقتبست بعض الطرز بدورها
منها^(١) .

ولقد رأينا كيف بهرت العمارة الهندية السلطان محمود الغزنوي ثم الفخاري
تيمورلنك من بعده حتى سحب معه إلى بلاده مئات من رجال المعمار الهند
الذين عهد إليهم بإقامة منشآت كثيرة بعاصمته سمرقند ، من بينها مسجدها الجامع
« مزار شاه » الذي بناه حول مقام الصحابي قيم بن العباس ففتح المدينة ، كما
سجلوا له كذلك فتوحاته وحروبه الهندية بنقوشهم على جدران قلعته هناك^(٢) .

وحين استقر بالهند سلاطين المسلمين ، من بعد الغزنويين ، طفقوا
يستخدمون في الغالب أطلال المعابد الهندوكية ومخلفاتها في إقامة منشآتهم هناك .

وصاغت العمارة الإسلامية بالهندستان روجا كبيرا على أيدي السلطان علاء
الدين الخلجي ، الذي أنشأ كثيرا من القصور والحصون والخزانات ويروى أن كل
عمود من عمد قصره الألف بأساسه رأس مغولي من الذين أسره في حروبه
معه . وقد أطلق هذا السلطان يد البذخ في الإنفاق على منشآته بفضل كنوز الدكن
والجنوب التي أتت له بها قاتله كافور :

وحين تفككت عرى سلطنة دهلí أعقاب الغزو التيموري ، رأينا
ملوك الطوائف بدورهم يبنون عناية كبيرة بالعمارة التي اختلط فيها عندهم
الطرز الهندي بالطرز الإسلامية التي كانت شائعة خارج الهند ، وهي التي أتت
لهم بها فريق من رجال المعمار للفرس والترك الذين وفدوا إليهم فيمن وفد
من رجال الفنون والعلوم . ولا يزال كثير من هذه الآثار قائمة حتى اليوم في
جونبور والكجرات ومالوه وبلان بهمنى الدكنية وبيجاپور وأحمد نكروفايا أسكر .

(1) Arderry, Legacy of Persia, p.64.

(2) بابر تلمة ورقة ٥٠٠٠٠٠ وما بعدها .

ولقد رأينا كيف كان يعج بلاط محمود الغزنوى بالشعراء والعلماء والمؤرخين وفيهم البيهقى صاحب تاريخ آل سبكتكين والمتبى الوزير صاحب تاريخ اليمىنى (يعين الدولة محمود الغزنوى) ، ثم العلامة أبو الريحان البيرونى صاحب للتأليف المشهورة عن الهند والعارف بلغتها وعلومها وعواقدها (١) .

ولم يكن الذين خلفوا محمود فى الهندستان دونه فى رعاية العلوم والآداب والفنون ، إذ كانوا قد وفدوا إلى هذه البلاد من أماكن راجت فيها أنواع المعارف والثقافات الإسلامية ، فرحبوا على الدوام بالعلماء والأدباء المسلمين الذين لم ينقطع قدمهم إلى بلاط دهلّى وغيرها من الإمارات الإسلامية بشبه القارة .

هذا وكلفت لجنة للتأليف والكتابة عند علماء المسلمين بالهند هى الفارسية وقد نبغ فريق منهم فى الكتابة بالسنسكريتية نفسها كذلك ، وفيهم الشاعر خسرو الدهلوى « غز يد الهند » الذى تتجلى فى أشعاره دقة الأحاسيس والعواطف وسمو الغزل والوصف فى الحرب والحب على السواء . وقد عاش هذا الشاعر حقبة طويلة من عمره ببلاط السلطان محمد تغلق كتب فيها ديوانه (غرة الكمال) وترجم للولى الزاهد الشيخ نظام الدين أوليا . ويشهد على وفرة محصول خسور هذا فى كافة نواحي المعرفة ما تركه من منشورات ومنظومات بالفارسية والسنسكريتية والعربية تجدها فى أشهر كتابين له وهما « إعجاز خسروى » و«خزانة الفتوح » . وعاصر الدهلوى ، من شعراء القرن الثامن الهجرى بالهند ، بدر الدين المعروف ببدر شاخ (نسبة إلى مدينة طشقند) ، والقاضى عبد المقتدر الشافعى صاحب المنظومات العربية والفارسية ثم تولى آل تغلق محين الدين عمرالى .

(١) أجمع المؤرخون على أن البيرونى كان يجيد السنسكريتية ، وقه أفاد من الحكماء الهنود فى التاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية . وقد أخذ كثيرا من معلوماته التى فيها فى كتبه التى أربت على المائة ، من أفواه العلماء لا من بطون الأسفار . (تعليقات القزوينى على كتاب جواهر مقاله لنظامى المسر كندى ترجمة عبد الوهاب حزام وحيى الخشاب ص ٥٢٠) .

أما كتاب النثر فمنهم مولانا خواجه جى ، وأحمد تيمسرى صاحب أخبار الأخبار ، والقاضى الشافعى بليغ العربية ، وعين الملك الملتقى صاحب ديوان الرسائل عند الخليين ثم آل تغلق من بعدهم . وقد ترك هذا الكاتب مجموعة من الرسائل الديوانية تعرف باسم « إنشاء ماهرى » تعد ثبنا لأحوال الهندستان الاجتماعية والسياسية فى زمانه .

أم المؤرخون فنذكر منهم أبا عمر وعثمان منهاج السراج صاحب «طبقات ناصرى» ، وضياء الدين بارنى صاحب تاريخ فيروز شاه الذى سجل فيه كثيرا من فنون المعرفة فى عصره ، وقد أكمله من بعده شمس السراج غفيف فى عناية بالغة . وأخيرا غلام يحيى بن أحمد صاحب تاريخ مبارك شاه .

هذا إلى كثير غيرهم من المشتغلين بعلوم الحكمة والفلسفة^(١) والفقهاء ، ومنهم أولئك الذين ذاع صيتهم فى إقليم جونپور ، على الخصوص ، من علماء دهلى الذين كانوا قد لجئوا إلى هناك هربا من وجه الغزو المغولى ، ومعهم فقهاء اللوديين من أمثال القاضى شهاب الدين الدولتا باده صاحب حواشى الكافية والإرشاد ، والفقهاء إلى داد شارح الهداية ، والفيلسوف مخبث حصلى . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن حركة النقل من السنسكريتية التى كان العرب قد بدعوها فى القرن الثانى الهجرى لم تتوقف وإنما صارت ببلاط دهلى إلى الفارسية بدلا عن العربية . وكان المعلمون فى الهند هم الذين يقومون على ذلك بأنفسهم فى الغالب ، فقد رأينا فيروز تغلق ، حين ظفر بمكتبة سنسكريتية فى حصن نكركت ، يعهد إلى مولانا عز الدين خالد خاتى بأن ينقل إلى الفارسية جملة من كتبها فى الفلسفة والفلك ، وتعرف هذه المجموعة باسم دلائل فيروز شاه .

كما نقلت كتب طبية سنسكريتية أخرى إلى الفارسية كذلك أيام سكندر لودهى ، هى وأقسام من المهابهارتا وغيرها من كتب الهند الدينية والتاريخية القديمة والملاحم .

(١) Prasad, India P. 569, 72.

وكما أطلق الحكام المسلمون الهنادة الحرية الدينية فى أغلب الأحيان ،
فكذلك تركوهم يمارسون الكتابة والتأليف بلغتهم فى حرية تامة حتى فى المذاهب
الدينية والفلسفية الخاصة بهم .

ولقد أشرنا من قبل إلى أن اختلاط المسلمين بالهنادة فى بيئة جامعة قد
نشأ عنه تبادل كثير من التقاليد والعادات . ويظهر أثر تعاليم الإسلام قويا بآدى
الوضوح عند بعض المصلحين من الهنادة أمثال نامديوا كبير وثاك الذى أنكرا
عبادة الأوثان والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأرامل وممارسة عادة
السماتى وقيلام نظام الطبقات بين الناس . وقد نادى هؤلاء جميعا بالتوحيد وقالوا
بأن الله هو رب الناس جميعا من مسلمين وهنادة وغيرهم . بل لقد صرح ناك ،
مؤسس السك ، باحترام شيعته وتقديسهم لرسول الله وأقبياته كافة، مع الإشادة بذكر
النبي الأكرم والقرآن الكريم خاصة .

هكذا كان الحكم الإسلامى فى الهند عهد ازدهار قوى ومصدر خير وبركة
لهذه البلاد وإن صد من وجهة نظر الهنادة ، بداعة ، كثرة قضت على استقلالهم
وهدمت الكثير من معابدهم ، إذا اغتصب الغزاة المسلمين بلادهم وراحوا يطلون
العداء لمعتقداتهم باسم القضاء على الشرك والوثنية .

على أن هؤلاء الفاتحين المسلمين ما غدا بعد قليل أن استوطنوا شبه القارة
الهندية واستقروا بها ، فلم تعد الكنوز والأموال والثروات التى انتقلت إلى أيديهم
تتسرب بدورها إلى خارج الهند ، ذلك للتسرب الذى ينتهى دائما إلى تعرض البلاد
المفتوحة إلى هزات اقتصادية عنيفة .

ولقد بهر أنظار الهنادة أصحاب التراث القديم ، ما استجلبه المسلمون من
ألوان للحضارة والمدنية الإسلامية التى تميزت فنونها على الأخص ببعدها عن
التجسيم الذى كان شائعا فى كافة نواحي الحياة الفنية الهندية ، هذا فضلا عن التقاليد
الاجتماعية الرفيعة التى اعترف مؤرخوا الهنادة أنفسهم بسمو أصولها الإسلامية
الأولى . وإلى جانب ذلك كله شهدت الهند جملة من الحكام الأكفاء من أمثال علاه
الدين الخلقى وآل تغلق الذين عملوا فى إخلاص على النهوض ببلادهم وترقية

الزراعة والصناعة والتجارة حتى توفرت الأقوات والأرزاق ونعم للناس قرونا عدة باليسر والرخاء . وإلى جانب هؤلاء السلاطين العظام ظهرت طائفة من القواد الأفذاذ الذين دفعوا عن هذه البلاد أخطار الغزو المغولى للمدبر مراراً عديدة .

وكانت النهضة العلمية والأدبية والفنية التى عرفتها الهند على أيدي هؤلاء الحكام فصاحت هناك قرونا عدة ، هى بمثابة حجر الأساس لحضارة أكبر دولة عرفتها هذه البلاد ، وهى الدولة المغولية التى أرسى دعائمها الأمير التيمورى ظهير الدين محمد بابر فى منتصف الأول من القرن العاشر الهجرى (٩٣٢هـ/١٥٢٦) فعمرت قرونا ثلاثة اتسعت فيها رقعتها حتى شملت شبه القارة الهندية بأكملها ، وهى موضوع القسم الثانى من هذا الكتاب بلئن الله ...

القسم الثاني

الدولة المغولية

الترك والمغول

سلاطين الدولة المغولية الذين حكموا الهند قرابة قرون ثلاثة . فشهدت هذه البلاد على عهدهم أعظم نهضة وحضارة عرفتها في تاريخها ، تبرز في عروقتهم دماء للترك والمغول . فأبوم ظهير الدين محمد بابر ، فاتح الهندستان ومؤسس هذه الدولة ، ينتهى نسبه من ناحية أبيه إلى الخلقان التركي تيمور لك ، ويمتد عرقه من ناحية أمه إلى خان المغول الأعظم جنكيز .

والمغول والترك كلاهما قد سبق إلى غزو شبه القارة الهندية ، وكان لهما شأن خطير ودور هام في تاريخ آسيا الوسطى بعمامة ، وبلاد الشرق الإسلامى بخاصة مما يقتضى أن نتحدث عنهم وعن تاريخهم في قدر من الإجمال قبل أن نفصل في تاريخ الدولة المغولية نفسها .

فكم من مدن إسلامية زاهرة انتهت برابرة الترك والمغول ثم دمرها ، وكم من حصون وقلاع أفنوا حامياتها نهجاً ، ثم لم يتركوها حتى سوا أبنيتها بالأرض ، وكم من ألوف كثيرة من السكان المسلمين نهوا متاعهم ثم ساقوهم في الغالب إلى حتوفهم ، وناهيك بالعدد الوفير من أصحاب الحرف الذين كانوا يسوقونهم من بعد ذلك للعمل عندهم .

على أن هؤلاء المخربين ، حين دخلوا في دين الله أفواجاً وتمكن اتصالهم بالحضارة والثقافة الإسلامية ، ما غدوا أن انقلبوا في الغالب إلى حماة للعلوم والفنون والآداب ، وإن لم يتخلوا أبداً عن ميلهم إلى سفك الدماء وإعمال السلب والنهب . فكتت تراهم في الغالب يكتمسون هلمات ضحاياهم على هيئة المنائر والأهرامات ثم ينصرفون من بعد ذلك إلى تعمير المنشآت النافعة الكثيرة ويبنسون المال والتشجيع للعلماء والأدباء وأرباب الفنون ، حتى كان منهم من شارك أهل المعرفة نشاطهم ودروسهم ، لتشهد من بعد ذلك على أيديهم جملة من المدن ، التي خربت أجدادهم من قبل ، نهضة ثقافية وحضارية لذكر^(١) .

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٩٥ - ٩٨ .

إن سلسلة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التي تمتد من الصين شرقاً إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط غرباً ، والتي تبلغ غايتها من الارتفاع في منطقة التبت ، وبجبال الهملايا التي تعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد ، هي في تشعبها وتفرعاتها ، كانت تعد بحق ، في القديم ، حاجزاً بين الشعوب المتحضرة والقبائل التي لا تزال بأسيا على البداوة في الغالب . فما من شعب سكن إلى الجنوب من هذه الجبال إلا وكان له في التاريخ دور هام وفي الحضارة والثقافة نتاج قوى وإسهام كبير . ولدينا في الهند القديمة وعلومها وفلسفتها ، وفارس وما كان لها من ملكة عتيق وماض تليد ، ما يؤيد هذه الدعوى ويقوم دليلاً عليها .

وفي حين كانت الأراضي الواقعة إلى الجنوب من سلسلة الجبال الآسيوية تعج بالمدن الكبيرة والوديان الخصبة ، كانت المناطق الواقعة إلى ما وراءها شمالاً - باستثناء الصين وبلاد ما وراء النهر وما حول نهري سيحون وجيحون - ما تزال تتجول في أغلب مناطقها مجموعات عديدة من قبائل البدو ، ثروتها قطعان الأنعام، ومذبحها ونيارها صفوف من الخيل ، ودمتورها الحرف القبلي البدائي المتوارث .

وعرفت هذه المناطق الشمالية عند القدماء باسم بلاد السيث ثم أطلق عليها أهل الصين من بعد ذلك اسم بلاد التتار .

وظل لفظ التتار يطلق على كافة القبائل التي تجاور الصين ونقطن الأقاليم الممكنة في أواسط آسيا إلى الجنوب الشرقي من أوروبا حتى ظهور جنكيز خان في القرن الثالث عشر الميلادي^(١) . ورغم اشتهار أمر المغول من بعد جنكيز خان فقد ظل صيت التتار القديم غالباً ، وصار اسمهم سارياً على المغول أنفسهم في بعض بلاد أواسط آسيا وفي سوريا ومصر^(٢) .

(١) التتار عند الصينيين هم الغزاة والشعوب البعيدة والنور من الجماعات غير المتمدية والصومس . انظر : هارولد لامب : جنكيز خان ص ٢٤ .

ثم المقدمة الإنجليزية لترجمة تاريخ ريد لكتبتها H.Elms p.83.

(٢) تاريخ الكمال لابن الأثير مجلد ١٢ - المختصر في أخبار البشر لأبي القداءم ، ٢ ، ٤ هذا ولعل تعريف المغول بالتتار ، وقد كانوا في مبدئ أمرهم على بدوة وتأخر تلم ، إنما هو من إطلاق للتجار المسلمين نقلاً عن جيرانهم من الصينيين والأكركه .

هذا ؛ وقد سلك كثير من المؤرخين سكان هذه المناطق الشمالية فى عسروى
ثلاثة هى : العرق المنشورى أو المنغورى ، ثم العرق المنغولى أو المنغولى^(١) ،
ثم العرق التركى .

أما المنشوريون فهم أغلب سكان الصين ، وإلى الغرب منهم منازل المغول ،
ثم مواطن الأتراك الذين يجاورون الصينيين فى بعض المناطق .

وإلى الجنسين الأخيرين ينتمى سلاطين الدولة المغولية وكثير من القادة
والجند الذين دخلوا معهم الهند واستقروا بها .

منازل الترك :

جاء اسم الترك صراحة ، أول مرة فى نقوش أورغون التى اكتشفها
الأثريون فى منتصف القرن للماضى ، والتى يرجع تاريخها إلى القرن الثامن
الميلادى . وتذكر هذه النقوش أن سلطان الأتراك كان فى القرن السادس الميلادى
يمتد بين حدود الصين وحدود إيران وبيزنطة ، وكانت قبائلهم تنتشر فى هذه المنطقة
كلها^(٢) .

وأدى اختلاط الأتراك بجيرانهم من أطم العالم القديم للريقة فى المدنية إلى
وصول قدر غير قليل من حضارات هذه الأمم إليهم ؟ ، وناموك بما أتاحتها هذا
الجوار من تسجيل للكثير من رسوم الترك ووقائعهم التى أغفلت الصين جارتهم
الأولى ذكر أغلبها ، فلم يكن حديثها عنهم ليعود ذكر قبائلهم .

ومما تزويه أخبار الصينيين القدماء أن قبائل « هونج نو » كانت تجاور
بلادهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . حتى إذا ما اشتد خطرهما وتفاقم عدوهم
صمدت أسرة تشن الحاكمة إلى بناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم منهم ، فولوا

(١) تعتمد بالمرك هنا الجنس . هذا ؛ والتصمية الصحيحة الواجبة هى منغول لا مغول والنظ
الأخير هو خطأ مشهور شائع .

(٢) ويؤكد الأستاذ بارثولد كذلك أن هؤلاء الأتراك هم الحفاد الهون .

Barthold - Donskies : Hist. Des Turcs d'Asie centrale. Pp.6,16.

وجوهم من بعد ذلك صوب الغرب ونزلوا في ولاية كانسوه إلى جوارتل على هيئة الخوذة ، وهي « دور كاي » بالصينية ، فنسبوا إليها^(١) .

وتم لهذه القبائل التركية في القرن الثاني قبل الميلاد ، السيطرة على مناطق متسعة الأرجاء في أواسط آسيا^(٢) ، فكان الأويغور ينتشرون فيما بين نهر تانو والنهر الأصفر ، وتيان شان والتاريم ، كما مضارب القرغيز في منطقة بنى سى ، ومنازل القرلق والتوكوى في التاي ، واليقيوت عند الجنوب من سيبيريا ، في حين انتشرت قبائل تركية أخرى حول بحيرة بيكال وبحيرة بلكاش وعند سيحون وجيخون حتى بحر الحزر .

ومناطق الأتراك هذه ، فضلاً عن تراسى رقعتها ، كان يتخللها صحراوات كثيرة متشعبة ، حتى لتبدو للمناطق الزراعية بها أشبه بالوحدات في مواقعها ، مما أحال استمرار قيام دولة معمرة بها تعتمد على الزراعة ويتيسر لها في نفس الوقت إحكام الرقابة على قبائل البدو التي ظلت أبداً مصدر تهديد دائم لأى أرض تزرع أو مدن تقوم في هذه النواحي .

ويستنتج من هذا التعميم بلاد ما وراء النهر التى تعرف أيضاً باسم بخارى الكبرى . فهى برغم وقوعها إلى الشمال من سلسلة الجبال الآسيوية ، قد سررت لها طبيعة أرضها ، وما بها من مجار للمياه عديدة ، مقومات الحضار ، فازدهرت فى الغالب ما أفلح حكامها فى ضبط أمورها ورد غائلة كل عدوان خارجى عنها .

وعن طريق هذه البلاد ، التى تعد باب آسيا الوسطى والجنوبية نفذ الأكراد والمغول إلى العالم المتحضر وأفلحوا فى إحداث تغييرات كثيرة خطيرة به .

(١) هذه المقسمة التى أوردها باركر (Engl Hist Rev . 1898 p.431 - 45) يجب أن يتقبل بالحرر هى وما جاء من إشارات للترك عند هيرودوت ، وما ذكره الأستاذ بلوشيه من اشتقاق اسمهم من كلمة تورخ الواردة فى الإيستق القديمة 8 - 305 p. 1915 RAS

(2) Czaplicka, M. The of Central Asia.

ويقال « هونج نو » هذه التي تشتهر أيضاً باسم الهون ، تكلفت موجاتها مرات عدة على بلاد ما وراء النهر وفارس والهند ، كما عبرت القولجا إلى الدقوب ، واكتسحت ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وقلزلت ، بقيادة أتتلا ، مئات عتيفة بأوروبا كما هو معروف مشهور^(١) .

ونتج عن اختلاط هؤلاء الأتراك بالفرس ، جيرانهم بأواسط آسيا ، أن نفذت إليهم ثقافة السامانيين وحضارتهم الذين كانوا يسيطرون على كافة مسالك التجارة ودروبها في العالم القديم .

ويزغ نجم الأويغور من بين الأتراك في القرن الثامن الميلادي فحكموا في أواسط آسيا ومنغوليا الحالية في مكان الترك أو غوز « القز » الذين اضطروا بدورهم إلى النزوح غرباً ، ليتألق نجمهم في القرن الرابع الهجري للموافق الحادي عشر الميلادي ، فوشمل نفوذهم من بعد ذلك بلاد التركستان وقشغر ، ويرثون جزءاً من ملك السامانيين ببلاد ما وراء النهر ويعرفون في التاريخ باسم القره خانيين ، وكانت عاصمتهم أرقند إلى الشرق من فرغانة .

وإلى جانب هؤلاء كانت منازل القبچاق الترك تمتد حتى القولجا ، وقد نشأت بينهم وبين بلاد خوارزم الإسلامية علاقات قوية .

وعزا القرغيز عام ٨٤٠م منازل الأويغور الذي أثروا الهجرة إلى حوض الترابم والولحات القريبة منه على معاشرة هؤلاء الذين كانوا على درجة كبيرة من التأخر ، بولفقتوا هناك يمارسون للتجارة والزراعة^(٢) .

واتجه القره ختاي وهم مقول في الغالب ، صوب الغرب بدورهم ، بعد أن طردتهم أسرة كين الصينية في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من منازلهم

(١) يرجع بعض المؤرخين أن الهون لم يكونوا في زحلهم أتركا خلاًساً إذ كان معهم كثير من المنول Degingnes Hist. Gen des Hans Vol Ip212 ولعل المواقف يقوس في هذا على مكان في جيوش جنكيز وأبنته من الأتراك .

(2) Grosset, R.L. Empire mongol. P.11.

بالصين الشمالية وصحراء جوبي ، فاقتحموا منغوليا على القرغيز ، ودخلوا إقليم
خطان وهزموا خان قشغر القره خاتى والسلاطان سنجر السلجوقى ، وصالحوا
أتشز شاه خوارزم على جزية قدرها ثلاثون ألف درهم يؤديها إليهم فى كل عام^(١) ،
ويلغوا بلخ بعد أن بسطوا سلطاتهم على التركستان وبلاد ما وراء النهر كلها .

ولئن أدى زحف القره ختاي إلى فتح أبواب منغوليا لهجرات من المغول ،
فقد لبثت القبائل التركية ، وغالبيتها من الأويغور والغز ويطونهما ، هى صاحبة
النفوذ فيما بين منغوليا وبحر الخزر . والأويغورهم أغلب الأتراك الذين وجدهم
الغزاة المسلمون من العرب ببلاد ما وراء النهر حين دخلوها فى أواخر القرن
الأول الهجرى .

حضارة الترك وإسلامهم :

تجمع كافة المصادر على أن الأويغور كانوا لرقى قبائل الترك قاطبة . وقد
اجتمعت لهم مقومات الدولة بعد أن ارتقت الزراعة عندهم واتسعت رقعتها ،
واستقرت حياتهم فى كثير من المدن التى أقاموها ، حتى بعثوا سفرائهم إلى خارج
بلادهم وعقدوا المعاهدات مع غيرهم من الدول . وبلغ ارتفاع الوعي القومى عندهم
إلى أن ثاروا على بعض حكامهم لإمعانهم فى تقليد الصينيين أعدائهم .

وآثر هؤلاء الأويغور فى الغالب حضارة الصغد على حضارة الصين ،
فاتخذ ملوكهم لأنفسهم لقب « شاد » مقابل لقب « شاه » الفارسى ،
واستخدموا أبجدية ترد إلى أصول صغدية ، فكانت بذلك تتلاقى مع الأبجدية
الفارسية الساسانية فى النسب ، وكتبوا بها قبل تكوين نقوش أورخون بزمان
طويل^(٢) .

(١) جرى القره ختاي أو الكورخانيون فى تقدير الجزية وفق النظم الصينية ، فمضوا على كل

بناء ديناراً واحداً . Barthold — Donskies p. 98.

(2) Czaplicka p.24.

وانتشرت الكتابة الأويغورية بين شعوب آسيا الوسطى انتشاراً واسعاً^(١) بعد سقوط دولتهم^(٢) ، إذا لبثوا ، برغم أقول نجمهم السياسى ، كدولة ، يلعبون ، كقزقد ، دوراً سياسياً وثقافياً كبيراً عند دول الترك والمغول . قاموا على تشيئة أولاد جنكيز خان واضطلعوا بالعمل فى دواوينهم ، ولرخواهم كما أرخوا لتيهورلنك من بعد .

واستخدم خواتين فارس من المغول ، الأويغورية فى تراسلهم مع بعض أمراء أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فكتبوا بها إلى بلبا روما وفيليب ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجلترا لقرض قوام حلف بينهم لحرب المماليك المصريين^(٣) .

وما تزال بدار الكتب الأهلية بمدينة فينا نماذج من هذه الكتابة ، كما كان بحاضرة الأتراك العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى من هم على دراية تامة بهذه اللغة التى تعد الأساس الذى قامت عليه الجغتائية لغة الترك التقليدية^(٤) .

هذا وكانت الديانات السائدة فى الأوساط التركية ، قبل اعتناقهم الإسلام هى الشامانية التى تقضى بعبادة الأسلاف وتعترف بالإله العظيم ولكنها لا تؤدى له الصلوات وإنما تقوم بها لآلهة الشر اتقاء لخطرها ، ثم البوذية والزرادشتية الفارسية التى كان لها نفوذ راجح ببلاد الصغد فى الغالب .

وجاور المسلمون قبائل الترك ببلاد أواسط آسيا ابتداء من أواخر القرون الأول الهجرى ، وكان الإسلام قد اكتسح مركز الزرادشتية ببلاد فارس .

(١) فى بلاد الأويغور هذه عرف العرب المسلمون ورق الكتابة لأول مرة ، ليطلموا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك . وكان الصينيون كذلك يستخدمون منذ زمن طويل .

(2) Crousset. R. Hist de L'extreme Orient. TIL P.407.

(3) Czapliska p.27.

(4) تاريخ الحضارة الإسلامية لهارتولد ص ١٠٠ - ١٠١ - ولا تزال هذه اللغة قائمة كذلك فى لتركستان الروسية .

وطفقت قوافل التجار المسلمين تتوغل في مسالك آسيا الوسطى حتى بلغت الصين شرقاً وحوض الفولجا غرباً فكان هؤلاء التجار من أنشط الوسطاء في نشو وتعاليم الدين الإسلامي .

وعنى عن البيان أن المسلمين لم يلجأوا عموماً إلى العنف لحمل الناس على الدخول في ملتهم ، كما كانوا يكفلون لغيرهم في الغالب ممارسة عقائدهم في حرية تامة كذلك ، حتى رأينا المعتصم العباسي يتشدد في عقاب بعض المسلمين الذين اعتنوا على بعض معابد الفرس ببلاد الصغد^(١) .

ولئن غدا الإسلام ينتشر ببلاد ما وراء النهر منذ أيام فتية بن مسلم أواخر القرن الأول الهجري ، فإن إسلام الترك الجماعي لم يبدأ في صورة واضحة إلا أيام السامانيين في القرن الرابع الهجري ، فأسلم خان قشغر ، ساتوك بخرخان أمير القره خاتنين ، وتسمى باسم هرون بن سليمان ، ودخل معه في دين الله أهل بلادهم^(٢) وفريق كبير من سكان التركستان الشرقية وإقليم خطان .

كذلك اعتنق السلاجقة - وهم من غز الخزر - الإسلام في القرن الرابع الهجري ، وكانوا يشتهرون بتمسكهم الشديد بتعاليمه وحدهم على نصرة أهل السنة. وقد شمل سلطنتهم بلاد ما وراء النهر وقراس والقوقاز ، ونفذت عروق منهم ومن جيولهم إلى آسيا الصغرى فغضوا على الدولة البيزنطية الشرقية بها^(٣).

ومهد انتشار الإسلام حتى الفولجا وتكاثر جموع الأتراك عند بحر آرال مسا حوله ، لقيام الدولة الخوارزمية التي صار لها شأن كبير في القرنين الخامس والسادس الهجري . وروج من أحوالها أن بلادها كانت من أبواب التجارة التي تصل ما بين أواسط آسيا والأقاليم الإسلامية المتحضرة . وكان الخوارزميون

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٨٦ .

(٢) تاريخ رشيدى ص ٢٨٦ .

(٣) الأتراك المشايقيون هم كذلك من الفز « الأوغوز » ولتنزغهم أيضاً من الفز « قوقوز » أو غوز قبل الفز الفص . هذا وتخلط بعض المصادر العربية بين الأوغوز والأوغوز وتعتبرهم قبيلة واحدة ، وإن كانوا جميعاً من بيرك .

يعتدون أمالاً كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصين ، ومعهم حلفاؤهم من القبائل الذين أسلموا على أيديهم بنورهم في القرن الخامس الهجري ، لولا ظهور جنكيز خان .

ونفتت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا ، على أيدي شيوخ الفرس للمسلمين في الغالب ، فلقوا عنهم كثيراً من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية إلى لغتهم . وما عدا أن شغفوا بالأدب الفارسية شغفاً كبيراً حتى ازدهرت قصور حكامهم بشعرائها وكتابتها، وهكذا العربية لا تجد لها سوقاً رائجة إلا عند بعض المشتغلين بعلوم القرآن والعقيدة.

المغول في موطنهم :

فيما كانت العناصر التركية توثق من علاقاتها وصلاتها بالعالم الإسلامي لتبلغ من بعد ذلك بنفوذها وسلطتها إلى إقامة دول قوية لها متسعة الرقعة عظمى للثراء كانت قبائل المغول ، عند كرويلين وخنجان وفي مناطق الأيون وتولا مما يلي أطراف الصين غرباً ، تعيش عيشة بدائية صرفة ، في مجموعات من الخيام الحفيرة المتناثرة بين السهول والغابات، لا يدرى العالم المتحضر من أمرها شيئاً مذكوراً حتى ظهور جنكيز خان في القرن الثالث عشر الميلادي .

ولم تهتم الصين ، جارتهم الكبرى نفسها ، بأمر هذه القبائل التي كانت تعرفها باسم منغ وا / منغوكاتا ، حتى رأى أحد أباطرة أسرة كوين التي كانت تحكم بالصين الشمالية في القرن الثاني عشر الميلادي ، أن يستعين بهم وبالقوة ختاي في القضاء على بعض أعدائه من القبائل التي كانت تزلزل حول بحيرة بويونور .

وعلا شأن قتي من المغول يدعى تيموجين في هذه المعارك وذاع صيته حتى اختارته قبيلته خاتماً عليها ، لقب بجنكيز ، وأحيا اسم المغول من جديد بأن أعلن نفسه خليفة للباطل المغولي الأسطوري تاتق خان الذي كان يمسك بالرجل فيشطره شطرين كما يكسر عود من قصب ، والذي كان يبيت في العراء ، صيف شتاء ، لا يأبى به بلز مهريز ولا يخشى الثلوج ، حتى كانت لقحات الذهب لا تحو عنده لسع بعوضة⁽¹⁾.

(1) Howorth, H. History of the Mongols I P.382.

واعتر خلفاء جنكيز ورهطه بهذه التسمية ، التي كانت في أول أمرها من صنع جيرانهم^(١) ، حتى رأينا رجال البلاط ، المغولي يحذرون الرحالة الأوروبي جون بيرك ، حين زار بلادهم في منتصف القرن الثالث عشر ، من أن يتحدث عن أميرهم حفيد الخان الأكبر بأنه تترى ، بل عليه أن يذكره بوصفه ملك المغول^(٢) .

ولم تمض سنوات قليلة على بدء القرن الثالث عشر الميلادي حتى انطوت قبائل المغول ، والأكرام ، في صحراء جوبي ، تحت راية الخان الجديد ليتجه بها من بعد ذلك إلى الصين فيقضى على أسرة سي هاي ، في إقليم كانسو ، وأسرة كين ، في الصين الشمالية ويدخل بكين ، ثم يستبكر هناك ليبلغ منغوليا ، فكان أرسلان خان ، أمير التتوق هناك أول حاكم يستسلم له .

وما غدا أن قبل عليه فريق من زعماء الترك في أواسط آسيا يخطبون وده ، وفيهم نفر من التتباقي ، خلفاء شاه خوارزم وأصحابه ، ومعهم فريق من التجار المسلمين الذين علوتوا لخان المغولي ، فيما بعد ، على فتح كثير من البلاد الإسلامية وتنظيم شؤونها .

وحدث أن لتهب عامل شاه خوارزم على أترار بالتركستان قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل رجالها ، وكانوا جميعاً من المسلمين ، فلما منه أنهم من عيون

(١) Barthold, W. Turkestan P. 382.

(٢) برغم ثقافت فريق من كتّاب الفرس إلى التفرقة بين المغول والأكرام حتى قبل ظهور دراسات الأجانب - فومفوا الأولين بالفتح وتنشروا بجمال الآخرين ، فقد اختلط الأمر على بعض من المؤرخين المسلمين بفعل الجوار في البيئة فمدوهم عرقاً واحداً . وساعد على هذا الخطأ ، أن المسلمين الأوائل كانوا يطلقون اسم بلاد الترك على كافة المناطق التي تقع بين آخر حدودهم ، عند بلاد ما وراء النهر والصين .

وبرغم تقرير مؤرخي الأكرام المحدثين بالتفرقة بين الصينيين ، فإن دماء التتورية من العشائين في القرن العشرين كانوا يقولون بأن الأكرام والمغول جنس واحد يتشعب إلى الأصل للتتوري ، فيقتلون بمدائح جنكيز ولا يذكرون من أصله شيئاً ، فما خزيه ودمره هو مدوهم دون ما يتخلف عن الحروب الحديثة بكثير . « تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي ١٩٠٩ ص ١٥٩ .

الخان المغولي ، لتتطلق الحرب بذلك فيجتاح المغول^(١) بلاد ما وراء النهر كلها ويخربون خرجان ويخارو وسمر قد أعظم مدنها تخريبا تاما ويقفون حاميتها بعد أن استسلمت إليهم بخداهم ، ثم يسوقوا الأهلين أمامهم قسرا ليكونوا لهم من سهام أعدائهم درعا.

ولم يواف جنكيز خان أجله عام ١٢٢٧م حتى كان له ، إلى جانب خوارزم وبلاد ما روء النهر ، خراسان وأجزاء من بلاد فارس والهند ثم أنزويجان وأرض كبيرة في الجنوب الروسي ، لينطلق أبناؤه من بعده فيتوغلوا في كوريا والصين وإيران ، ويبلغ قوادهم القارة الأوروبية فينفذوا فيها حتى البحر الأدرياتي وأبواب فينا ، ويفر من أمامهم ملوك بولسده والمجر ، وتقضى سهامهم على دوق روسيا ودوق سيليزيا وفرسانه التوتونيين .

ولولا أن اضطروا للعودة إلى بلادهم على أثر ما بلغهم من موت أوكتاي ابن جنكيز خان المغول الأعظم في قرقرورم ، ونشوب الفتن بالصين ، لأوقفوا بأوروبا من الخراب نظير ما أطوه ببلاد الشرق الإسلامي التي صادقتهم ، إذ قضوا على قواتها العسكرية ودمروا أهم مراكز الثقافة بها . ولقد كادوا يأتون على تراث المسلمين الفكري كله ، الذي قام على رعايته الخلفاء وزاد في كتوزه الصفوة من العلماء جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ، لولا أن تصدى لهم المصريون عند عين جالوت بفلسطين فيما بعد ، فأنزلوا، بهم أول هزيمة قاصمة عرفوها وردوهم على أعقابهم^(٢) .

(١) كانت قوات المغول تضم جندا كثيرا من الترك . بل إن كثيرا من الأكراد ومن أسرى المسلمين وأغلب من عائل المغول ولتخلط بهم ، كانوا يدعون نسبهم المغول جرا للمسلمين
D'Ohsson Hist. Des Mongols T. I. P.4289.

(٢) عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م - كان يقود المصريون سلطانهم المنصور طغرل ويقيم المورخ أبو القدا على هذه الواقعة « ٢ من ٢٠٥ » فيقول : « .. وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد رقت من الفصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما تصدوا إيلما إلا لقتلهم ولا عسكريا إلا هزمهم » .

ولقد كان جوجى خان ، الابن الأكبر لجنكيز ، قد مات فى حياة أبيه فقد خلفه ابنه باتوخان على البلاد التى كان يتولاها عند سهول القيقاق والأقاليم الواقعة فيما بين بحرى آرال والخزر ، وعند وادى الدون والبحر الأسود ، هذا فى حين عقد لأوكتاى ، أصغر أبناء جنكيز ، زعامة المغول فى قراقورم .

أما جغتای ، ثلثى الأبناء ، فقد صار له بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان والتركستان ومغولستان . وهى مناطق يتباين سكانها فى أجناسهم ، من ترك ومغول وفرس وعرب ، كما تتباين طبيعتها كذلك ، ففيها صحراوات واسعة جرداء وجوارها مراعى وسهول فضيحة خصبة نشأت بها مدن كثيرة وقامت بها حضارات .

وكان جغتای يعد فى حياة أبيه أكثر فقيه فى الإصا^(١) ، حتى منعه قومه من المشاركة فى الحروب بعد وفاة خاتمه الأعظم . ويوصفه أكبر أبناء جنكيز ، الذين بقوا على قيد الحياة وأكدرهم ، عهدوا إليه كذلك برئاسة مجلس الأمراء المغول لتثبيت لوكتاى أصغر أبناء جنكيز على مقام أبيه وزعامته فى قراقورم .

واتخذ الأمير جغتای من الملق فى الوادى الأعلى لنهر إالى قسبة لملكه دون بخارى أو سرخند أعظم مدائن بلادهم ، إذ كان حولها تنزل قبائله وعشائره التى كان يعتمد عليها فى حروبه ، وكان رجالها يدورهم يفضلون حياة السهول والوديان القسيحة على سكى المدن ومخالطة أهلها الذين كانوا يرون فيهم وفى أهل الزراعة أجناساً منطه وحييداً للأرض .

وأطلق اسم هذا الأمير ، دون أبناء جنكيز جميعاً ، على بلاده وطى أهلها فعرفت هذه المناطق جميعها باسم بلاد جغتای ، وعرف الأتراك فيها بخاصة وكانوا غالبية بها ، باسم الأتراك الجغتائيين .

(١) أسهلها ذوا صفاق ، فذكرها الفرس والعرب « بلصا » ترخىماً ، وهى دستور المغول الذى دونه له الأريغور أصحاب ديوله . وهى مزيج من القوانين الموضوعية على إرادة جنكيز وألغى المبادئ القبلية ، وما يدعو إليه : الاعتقاد بالله واحد والطاعة لملكه الخان الأعظم : تروخ جهان كشا امطا ملك الجوى ص ٧٧ وما بعدها .

وبرغم بقاء جغتای على دين أبائه وكرامية قومه صموما للمسلمين ، فقد اتخذ منهم وزراء ومستشارين ، وبقيت في عهده جملة من المدارس والمعابد ببلاد ما وراء النهر وغيرها كذلك^(١) .

وولفت جغتای وأخاه لوكتای المنية عام ١٢٤١م ، وابن أخيهما ، باتوخان يتوغل إذ ذلك في أوربا مع نفر من إبنائهم ، ليتسع نطاق المذابيح والفن بين أمراء المغول من بعد ذلك ، ويظل أمرها متصلاً حقبة من الزمن كانت بمثابة الهدنة للعالم الإسلامي وأوروبا ، حتى قبض على زلم الأمور هولاكو بن تولي خان فعلاود السير بمقاومة التخريب المغولية من جديد . فعبر بلاد ما وراء النهر إلى فارس حتى بلغ العراق ودمر بغداد حاضرة الخلافة العباسية تدميراً ، وقتل الخليفة العباسي نفسه شر قتلة ، ولولا صد المصريين له بأرض فلسطين ، كما هو معروف مشهور ، لقضى على تراث المسلمين كله وخربت ديارهم جميعاً في الغالب .

ويموت هولاكو بدأ نجم المغول في الأفول التام . وأثاحت الاضطرابات التي غدت تعم أملاكهم ، الفرصة لكثير من الأقاليم لتتسلخ عن سلطانهم .

وما لبث الأتراك ببلاد ما وراء النهر ، وكانوا غالبية كبيرة ، أن استعانوا كثيراً من نفوذهم القديم حتى غدا تنصيب أمرائهم من الجغتائيين يجري على هواهم .

(١) كان المغول في الغالب على لشمانية والبرونية حتى اختلطوا بالترك وغيرهم من المسلمين في قوتهم فسلم فريق منهم . وكان أول من أسلم من أمرائهم هو بركة خان حفيد باتو خان وزعيم القبيلة الذهبية وذلك في القرن السابع الهجري ، وتبناه أحمد تكودري الإلخاني حفيد هولاكو بفارس ، حتى جاء غازان خان وأخوه الجايو صمد خانبده فالتخذا الإسلام ديناً رسمياً لدولتهما . أما الجغتائيون فلم يبدأ إسلامهم الجماعي إلا في القرن الثامن الهجري .
توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٨٩ وما بعدها : بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٨٩ وما بعدها .

ولم يعد لأمراء المغول ، من بيت جغتاي ، من النفوذ والسلطان إلا في قشغر
ويرقند وآلا طاغ ومقولستان ، وبقي خولائينهم يحكمون هناك حتى اتحم الأوزبك^(١)
أغلب منازلهم فيما بعد .

تيمور لنك وخلفاؤه :

كان ظهور تيمور لنك ببلاد ما وراء النهر في النصف الثاني من القرن
الثامن للهجرى بداية تحول جديد في تاريخ آسيا الوسطى ، إذ انتقلت مقاليد الأمور
هناك من أيدي المغول الجنكيزيين إلى أيدي الأتراك الجغتائيين ، حتى انتهى الحال
بحفيد هذا الخان للتركي ، ظهير الدين محمد بابر ، إلى بسط سلطانه على
الهندستان . وقد والى أبناؤه من بعده فتوحاتهم هناك ، حتى أظلت رايتهم شبه القارة
الهندية كلها .

ولقد وصل تيمور في شبابه بجده ونكاته وشجاعته إلى أن استوزره الأمير
الجغتائي إلياس بن تغلق تيمور صاحب سمرقند إذ ذلك ، فما عدا الوزير أن تقلب
على أميره ، حتى اتخذ مكانه على عرش سمرقند عام ٧٧١هـ / ١٣٧٠م ، بعد أن
استولى على بلخ ونشر سلطانه على القسم الغربي من بلاد جغتاي ، وإن تركه
لأمراء المغول به بعض امتيازاتهم وحفظ عليهم مراسم الأمانة^(٢) .

(١) الأوزبك نسبة إلى أوزبك خان حفيد جنكيز من فرع توشي خان

D.Ohsan ; Hist d. Mongol T.11 108.9

(٢) ما فكره بعض المراجع من نسبة تيمور إلى المغول هو من وضع بعض كتّاب الأويغور
الذين ذهبوا إلى حد جمع أسلاف جنكيز وتيمور عند جد معين ، أرادوا بذلك أن يضلوا على
تيمور حرفة للسب تقريباً منه وتملقاً .

Hammer; Gist de l' Empire Ottoman T. 11 P. 96-121.

بلاد ما وراء النهر

وتملكته شهوة الفتوح ، فضم إلى ملكه مغولستان وخوارزم ، كما أكتحم حدود الهند فبلغ دهلئ التي استعصت على المغول من قبل ، فلم يرجع عنها حتى دمرها وساق معه كثيراً من أهلها أسارى ، وفيهم خير أصحاب الحرف والمهن ليقموا له منشأته ببلاده .

كذلك استولى على فارس ثم نفذ من العراق إلى بلاد الكرج والشام ولم يرجع عن آسيا الصغرى حتى أوقع في أسره بايزيد سلطان العثمانيين^(١) . وإن هي إلا بضع سنين من بعد ذلك حتى كانت بنوده تخفق فيما بين موسكو والكنج .

هذا ، وكان تيمور ، على جهله بالقراءة والكتابة ، حفياً ولولاده بأهل العلم وأصحاب الأدب والمعارف ، حتى بلغت حاصمتهم سرقد مركزاً فذاً بين مراكز الثقافة الإسلامية .

وما عدت هذه المدينة ، التي تلقى الخلقان التركي في تجملها بمنشأته الكثيرة الفخمة ، والتي شق إليها طرقاً برية جديدة تصلها بفارس والهند ، أن انتقلت إلى سوق للتجارة هامة ومركز من أهم مراكز الاتصال بين الصين وبلاد آسيا الوسطى وإيران وآسيا الصغرى بها صنوف السلع وتعتج بمختلف الأجناس .

ومات تيمور عام ٨٠٧هـ/١٤٠٥م في إحدى حروبه مع جيوش الصين عند اترار ، فاقسم ملكه من بعده ولده جلال الدين شاهرخ ومعين الدين ميرانشاه حتى إذ ما قتل الأوزبك ثاني الأميرين التيموريين واستولوا على أجزاء من بلاده، طلق الأول يصطنع الحيلة معهم حتى أبعاد خطرهم عنه ليعود أعظم بلاد أبيه إلى حظيرته من جديد فيما عدا الشام وجنوب فارس^(٢) .

(١) تذكر بعض الكتب الحديثة أن تيمور قد حمل غريمه في قس ، وهو خطأ تاريخي نتج عن سوء فهم بعض الكتب لمدلول هذا اللفظ في التركية ، فهو يطلق أيضاً عن الهوداج والاكتشاك التي لها فوائد تختلفها أسياخ من حديد .

(٢) تاريخ صومئ إيران لجلس إقبال من ٢٣٢ - ٢٤١ .

وخلف الغ بك أباه شاهرخ عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، فدخل فسي منازل
وحروب متواصلة مع أهل بيته من الأمراء ، ولم يبق الأمر عند ضياع الكثير
من أراضيه حتى قضى عليه ابنه عبد اللطيف ميرزا بنفسه ليقل هو بدوره بعد
قليل .

ولئن خبت عند الغ بك ملكته الحربية فقد تلالاً عنده نور المعرفة حتى هدته
بصيرته إلى أن يقيم مدرسته للعلمين ، في سمر قد وبخارى التي كتب على
أبوابهما طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ^(١) .

وأدى اشتغال هذا الأمير بالعلم وشفقه به إلى أن وفد إليه كثير من علماء
فارص وطلبتها ، فكان يشاركهم في الدرس بنفسه ويدرس معهم حركات الكواكب
في مرصده ، الكبير الذي ألقاه بسمر قد .

وقد نظمت باسمه جداول للهيئة كانت آخر كلمة لهذا العلم في وقته .

وبرغم اعتزال هذا الأمير بتركه فقد كان شديد التعلق بكل ما يرجى فيه
رقى الإنصاف والفكر البشري عامة .

وجلس على عرش سمر قد من بعده الأمير التيموري أبو سعيد ميرزا ، بعون
من الأوزبك ، ليقيم له من بعد ذلك ملكاً واسعاً ضم أجزاء من السند وخراسان
وسمستان وأمتد إلى العراق . حتى إذا ما هزم التركمان فالتحم آذربيجان لينحدر
منها إلى العراق ، استطاع أوزون حسن زعيم التركمان أن يتسلل إلى جبال
آذربيجان فيقطع عنه الإمدادات ، لتنفش المجاعة في الجيش من بعد ذلك وينفرط
عقد الجند وينتهي الأمر بالسلطان أبي سعيد نفسه إلى الوقوع في الأسر ، ثم القتل .

وترك أبو سعيد عشرة من الأولاد ، ولكن لم يخله في ملكه الواسع ، الذي
كان يمتد من العراق إلى السند ، سوى أربعة منهم . فولى أحمد ميرزا إقليم سمر
قد وبخارى ، وولى الغ بك إقليم كابل وغزنه ، وولى محمود ميرزا استراباد

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

وهرات ، ليقتصبها منه ابن عمه السلطان حسين بيگرا ، فيستقر من بعد ذلك فى الصاغانيان وبخشان^(١) .

لما رابع هؤلاء الأربعة فهو عمر شيخ ميرزا الذى ولى إمارة فرغانة فسأدى به طموحه إلى أن يدخل مع جيرانه من المغول أصهاره والأكرام أخوته ، فى حروب متواصلة لبتغاء توسيع رقعة ملكه ، ليمضى عام ٨٩٩هـ — ، على أثر سقوطه من أعلى حصن له ، فيحمل عبء خصوماته من بعده ابنه الصبى ظهير الدين محمد بابر الذى قبض له أن يقيم أعظم دولة عرفتها شبه القارة الهندية فى تاريخها .

البيئة فى بلاد ما وراء النهر :

فى بلاد ما وراء النهر ورث ظهير الدين محمد بابر الملك عن آبائه صيدا وقضى بها سنين غير قصيرة فى كفاح متواصل قبل أن يولى وجهه قبل المشرق ، لينتهى به المطاف والمعنى من بعد ذلك إلى إرساء أسس الدولة المغولية فى الهند .

لأن طريق هذا الإقليم ، أعنى أرض سيحون وجيخون ، نفذ الأكرام والمغول إلى بلاد العالم الإسلامى ليغيروا وجه التاريخ بها فى الغالب .

تتوسط جبال أسفرا ، المتفرعة من السلسلة الآسيوية العظمى ، هذا الإقليم فيقيم إلى الجنوب منها وادى جيخون وإلى الشمال منها وادى سيخون .

وأهم أقاليم جيخون الجبوية هى بخشان وبلخ وخوارزم وتعد باخ أقدم هذه الأقاليم الثلاثة وأعرقها ، وتعرف عاصمتها ، التى تحمل اسم الإقليم كذلك عند مؤرخى العرب « أم البلاد » ويظاها كمن يقوم معبد للنوهار الذى اضطلع آل برمك بالخدمة فيه^(٢) .

(١) تاريخ فرشته أول ١٩١ .

(٢) قروح البلدان للبلاذرى ص ٤٨ / ٤٩ .

هذا كما تشتهر خوارزم بقولم أسرة حاكمة قوية لعبت دوراً مهماً في تاريخ هذه المنطقة في القرنين السادس والسابع الهجري ، وهي الأسرة الخوارزمية أما بخشنان فهي مفتاح الطريق إلى الهند .

والقسم الشمالي من وادي جيحون جبلي في الغالب تكسو قمته الثلوج شهوراً عدة في السنة . وبه أقاليم ختلان وحصار ، الذي يعرف أيضاً باسم جغتايان أو الصاغياتيان . ثم ولاية كش مسقط رأس تيمور .

وإلى الشمال من كش وإلى الشرق من صحراء خوارزم يقع وادي الصفد المعروف بخصب أراضيه ووفرة مغانبه . وتقوم به المدينتان المشهورتان سمرقند وبخارى .

وسمرقند هي التي اتخذ منها تيمور ولولاده حاضرة لملكهم ، وبها عرف المسلمون صناعة الورق لأول مرة . أما بخارى فقد اتخذها السامانيون قاعدة لهم وبنى بها مسلم بن قتيبة ، من قبل ، أول مسجد بالمنطقة كلها .

وتعد المدينتان من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في القديم على كل حال .

والأقاليم التي تقع في حوض سيحون هي في أميتها دون سابقتها بكثير وأهم هذه الأقاليم ولاية فرغانة التي تعرف أيضاً بخجد ، وإلى الشرق منها تقع قشغر ، كما تقع طشقند عند حدودها الشمالية الغربية ، في حين ينحصر إقليم أشتر وسنة بين فرغانة والصاغياتيان .

هذا ، وكانت أرض لتركستان تمتد إلى الشمال من فرغانة وطشقند فيما بين سيرام راند سيحون وبحر آرال . وقد اتخذ منها الأوزبك ، أيام زعيمهم شيباني خان ، قاعدة لغاراتهم الكثيرة على جيرانهم . وإذا ما نظرنا إلى وجه الأرض بإقليم بلاد ما وراء النهر ، وجدنا الخصيب يتوفر في أغلب فرغانة وخوارزم وبلغ وبخشنان وكش والصاغياتيان^(١) . وفيما عدا ذلك فقد كان للجذب يظل على أرضه .

(١) معجم البلدان لأبوتري الحوى ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .

لذلك كانت الحياة هناك في الغالب منتقلة منحطة حيث الجذب والمصحاء ،
مستقرة راقية حيث الخصب والنماء الذي يمهّد عادة لقيام المدن والدول .

وأول من سكن هذا الإقليم ، فيما يرجع كثير من المؤرخين ، عناصر
تركية من الميت والتورانيين الذين كانوا مصدر تهديد دائم لبلاد فارس^(١) .
وظلّت سوجاتهم لا تنحصر عن هذه البلاد منذ غارات الهون على أواسط آسيا
في القرون السابقة للميلاد حتى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي .

ولم يمنع الميت والهون بلاد فارس من مد نفوذها في هذا الإقليم حتى اتخذ
بعض ملوكها من مدينة بلخ قسبة لهم ، ونزح إليه كثير من الفرس فمارسوا
الزراعة وبواديانه الخصبة ، كما لا بد به جمهرة من سرّاتهم حين اقتحم العرب
المسلمون بلادهم عليهم في القرن الأول الهجري .

وما عدا العرب أن طروا أغلب هذه البلاد تحت رايّتهم بعد قليل ، فإذا
بفريق من ألبائنها من فرس وترك يصيبوا بالدولة الإسلامية خطأً والفرأ فيبلغوا
أرقى المناصب بها^(٢) .

ولم تكف العناصر الفارسية الإسلامية ، حين عظم نفوذهم في الدولة
الإسلامية ، بإقامة دول لهم شبه مستقلة في أجزاء من هذا الإقليم ، حتى راحت
تعمل لإحياء تراث الفرس القديم والنهضة بالأدب الفارسية من جديد.

وكان السامانيون الذين عمت دولتهم في القرنين الثالث والرابع الهجري ، هم
أصحاب اليد الطولى في هذا الميدان ، ليأتى سلاطين الترك ، من بعدهم ، من
الغزنويين والسلاجقة وغيرهم ، فوسّروا على نهجهم في العناية بالثقافة الفارسية

(١) مما يحتج به بعض الباحثين في ذلك هو شيوع لفظ « قند » في أسماء المدن هناك كسر قند
ولزقند وطشكند إلخ ، وهو تركي قديم بمعنى مدينة

Barthold, Turkistan p.96,97

(٢) كانت بلخ من أكثر الأقاليم القديمة مساهمة في بناء الحضارة الإسلامية ، ومنها خرج
البرلمكة ، وزراء العباسيين ، وكثير من العلماء الكبار ، تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٢ .

ويزيدوا عليه^(١) ، فلم يعض إلا قليل حتى استردت الفارسية مناطق انتشارها القديم ببلاد ما وراء النهر ، لتتسرب من بعد ذلك إلى مجتمعات الهند كذلك وتبلغ بذلك كله إلى أن تصبح بحق ثلثي لغات العالم الإسلامي انتشاراً بعد العربية .

وكان مما ساعد على رواج هذه اللغة بين العناصر التركية بلاد ما وراء النهر ، تصدى شيوخ القرس في الغالب لتلقين الترك تعاليم الدين الإسلامي ومبادئه ، فكانوا يلقونهم بأها بالعربية ويحببون إليهم آدابهم الفارسية معها .

وطغى نفوذ الترك على سلطان القرس بأغلب بلاد ما وراء النهر ، حتى كان الأولون هم أصحاب السيادة الفعلية هناك قبل مجئ المغول في الغالب .

واستقر قسم من القبائل المغولية الواقعة مع جنكيز خان ببلاد ما وراء النهر جلباً إلى جنب مع القبائل التركية التي كانت - خصوصاً في الشمال وأكثر الوسط - تمثل الغالبية الفعلية للسكان .

وكان من الطبيعي أن تنكث القلة المغولية الحاكمة ، لبدائتها ، بالكثرة التركية المحكومة ، التي كانت تعيش في محيط الحضارة والمدنية الإسلامية وتتجاوب معها^(٢) ، فأخذت عليها لفتها وامتزجت بها ، ليزداد بذلك نفوذ الترك ويعظم شأنهم ويدهم كياناتهم السياسية .

وبهذا كان قيام دولة المغول أكثر أهمية في نظر الترك مما هو في نظر المغول أنفسهم ؛ فلم يقف الأمر عند حد تفوق الترك الثقافي حتى انتهى بهم المطاف إلى استيلائهم على مقاليد الحكم في هذه البلاد وإخضاع غزاتهم لسلطانهم .

وساعد على انتشار اللغة التركية بين القبائل المختلفة التي كانت تسكن بلاد جغتاي ، خضوعها جميعاً لحكومة واحدة.

(١) المصدر السابق ص ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٥

(2) Amour Ali : The Spirit of Islam p. 382.3

وتسرب إلى هذه اللغة قدر غير قليل من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية ودرجت في مدارج الرقي ، حتى إذا ما جاء القرن السابع الهجري رأينا التركية الجغتائية تحتل المكان الثالث ، بعد العربية والفارسية ، بل واسط آسيا . وما تزال هذه اللغة تسمع إلى اليوم في المدن التي تقع في نطلق جغتاي القديمة .

هذا ، وتعد أيام الأمراء التيموريين بيلا ما وراء النهر بمثابة العصر الذهبي للأدب الجغتائي الذي تتمثل أحسن نماذجه في أشعار علي شيرنواي ومنثورات . ظهور الدين بابر حتى تعد الكتابة التقليدية الأدبية للترك جميعاً^(١) .

كانت الحياة بهذه البلاد تميل في الغالب إلى الاستقرار وتعمم بمظاهر الحضارة والمدنية ما خضع الإقليم كله لحاكم واحد قوى يقر الأمور فيه ويدفع أخطار الغزو عن حدوده .

على أن تيمورلنك ، آخر أصحاب هذا الإقليم الكبار ، لم يكد يمتضى حتى غدت الفتن والاضطرابات تعم هذه الأرض كلها ، لينتهي بها الأمر إلى تمزيقها إلى ولايات عديدة ، أصحابها مقاتلون متعاونون على الدول ، برغم ما كان يربط بينهم من وشائج القرى وروابط الدم ، ومن حولهم الأوزبك والمغول والتركمان يترصون بهم الدوائر ولا ينفكون عن مهاجمتهم وتخطف أراضيهم .

وننتج عن تمزيق الإقليم بعد تيمور إلى ولايات عدة وما يستتبع ذلك عادة من ضالة عدد السكان بالتالي ، أن غدت قوات كل أمير لا تعدو أن تكون مجموعات من العصابات الإقطاعية التي تعتمد في انتصاراتها على عنصرى المفاجأة وسرعة الحركة ، فتوقع بعدها قبل أن يتمتع في حصونه .

وغالبا ما كانت الهدنة تمتد بين الخصمين بنفس السرعة التي اشتعلت بها نيران الحرب .

وفنون الحرب بهذه البلاد كان معظمها بدائياً يقوم على المبارزة بالسيوف والترشق بالسهم ، وتسلق الأسوار بسلاسل الحبال .

(١) تاريخ الحضارة ص ١٠٢ - ١٠٦ ، ١١١ .

ولم يكن البارود والأغنام غريباً عليهم فقد كانوا يستخدمونه أيام السلم في مناجم الباقوت ومواطن الحقيق بينخشان .

وبرغم استخدام بعض الأمراء لعسد قليل من بندق المعصر ذات الزناد وبعض المدافع ، التي عرفوها عن طريق الفرس نقلاً عن العثمانيين في الغالب ، قد بقيت السيوف والسهام وهجمات الفرسان هي الفصيل في المعارك.

هذا ولم يفتل أحد من هؤلاء الأمراء ، حين كان يتاح له تجهيز جيش كبير ، عن إحياء تشكيلات تيمور الحربية وتقاليده العسكرية في تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين وإقامة فرق المنوشة بأقصى الجناحين .

أما التشريع الغالب عند هؤلاء الأمراء جميعاً فكان الفقه الإسلامي ، دون إغفال أمر العرف القبلي المتوارث وتقاليده الخاصة المغولية .

ورغم ما كان من اشتغال الأمراء التيموريين بنزاعهم والتحاماتهم المتواصلة في الحروب ، فما سترعى الانتباه أنهم لم يتخلوا أبداً عن العناية بالآداب والعلوم والفنون والاشتغال بها ، فحرصوا دوماً على الظهور بمظهر رعاة الثقافة والمدنية وكان من أبرزهم في هذا الميدان وأعلامهم كعباً ، بعد الغ بك ، السلطان حسين بيكوا الذي جمع ببلاده في خراسان أساطين الفنون وشيوخ العلم والمعرفة في عصره وبهذا الأمير ختمت صفحة كبار التيموريين ببلاد ما وراء النهر بعد ما كان من يرغام الأوزبك لبلهر على الخروج من هذه الديار .

حكام المولاة المغولية :

بابر

فى السادس عشر من شهر المحرم عام ٨٨٨هـ / ١٤ فبراير ١٤٨٣ بعث صر شيخ ميرزا صاحب فرغانة برسلة إلى مغولستان لتزف إلى صهره يونس ، خان المغول ، مولد حفيد له من ابنته قتلح نكار خاتيم^(١).

وأطلق الزاهد الولي ، مولانا ملير مرغىلى ، على الوليد اسم ظهير الدين محمد ، حتى إذا ما صعب التلظ بهذا الاسم على عشيرته من الأكرام والمغول الجغتائين ، وكانت علمتهم ما تزال على عجمتها ، أطلقوا عليه من عندهم لقب بابر ، وهو الذى اشتهر به فى التاريخ وعرفه الناس به .

وفى عروق بابر امتزجت دماء الأكرام بدماء المغول ، فأبوه صر شيخ ميرزا حفيد تيمورلنك التركى ، وأمه هى ابنة يونس خان مغولسان وحفيد جغتای ثلثى أبناء جنكيز خان^(٢) .

ولقد أدت بصاحب فرغانة أطماعه إلى قضاء أغلب عمره فى محاربة جيرانه ، حتى انتهى الأمر إلى تحالف أخيه أحمد ميرزا صاحب سمرقند ، مع صهره محمود خان طشقند على غزوه فى فرغانة نفسها .

وحدث أن هوى صر شيخ ميرزا إلى الأرض من أعلى حصن له بأخشى حيث كان يتقصد حمام له هناك ، فلم يصرف موته المفاجئ هذا خصومه عن

(١) بابر نامه ورقة ١. هذا واقب خاتيم معناه ابنة الخان أو زوجته . وقد حرف هذا اللفظ إلى كلمة (هاتم) المشامة فى الشرق . ونظيره لقب بيكيم أى حرم الأمير (البك) أو ابنته ، ولقد ييجوم الشائع بالهند هو تحريف له .

(٢) ينظر بابر من ذكر المغول لغورا شديدا لآبته بأكثر من موضع بسيرته لثى كتبها بنفسه (بابر نامه ورقة ٩٠) ، ويعتز بتركته احترازا شديدا ، ومع هذا قد نسبت دولته الهندية إلى المغول ، إذ كان لهلود قد درجوا منذ قوم جنكيز خان إليهم على إطلاق اسم المغول على كل الغزاة الذين وفدوا إليهم من بلاد ما وراء النهر من بعد ، كما صار هذا اللفظ بذكره مدلولاً على الأبهة وخضعة الأجسام بصرف النظر عن الجنس .

فرغاة حيث خلفه بها ابنه الصبي بابر الذي لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، فاستيقنوا فرصة مواتية لانتهاك الميراث كله .

ولم ينفع الفتى الصغير ما بذل رجاله من جهود لحصل خصوم من نوى قرياء ، على الرجوع عن بلاده ، لكن الأقدار أسعفته من بعد ذلك إذ غرق كثير من دواب صاحب سمرقند بانهيار أحد جسور نهر قبا ونقشى الوياض في خيوله قنقع بالهنة مع ابن أخيه وآب إلى دياره . وكذلك فعل خاله صاحب طشقند حين حاصر مدينة أخشى فاستعصت عليه ، واعتلت صحته فقرر بدوره الرحيل إلى بلاده .

ودفع جند فرغاة عن أراضيهم كذلك الأمير آبا بكر ، صاحب قشغر وختن ، وكان قد قدم بدوره ينشد غنما .

ومات السلطان أحمد ميرزا بعد قليل فخلفه على عرش سمرقند أخوه محمود ميرزا الذي كان قد وسع من رقعة أراضيه بإقليم حصار حتى بلغت حدوده الهند كوش وضمت الصاغانيات وبلاد الختل وبد خشان . ورغم أن الحياة لم تطل بسلطان سمرقند الجديد ، فإن الأهلين عاثوا كثيرا في حكمه لما اتسم به من الظلم وما ذهب إليه جنده من انتهاك الدور وسلب الأموال وانتهاك الحرمات .

انقشع عن السلطان الفتى بابر أكبر خطر كان يهدده بموت عمه أحمد ميرزا ومحمود ميرزا ، فلم يكد يسترد جانباً كبيراً من أملاك أبيه الضائعة حول فرغاة ، حتى ضم إليه كذلك سمرقند ، حاضرة جده تيمورلك القديمة ، بعد أن انتزحها من أيدي بابسنغر ميرزا ابن عمه محمود في مستهل عام ٩٠٣هـ .

وبقى بابر مائة يوم بسمرقند أعظم مدن بلاد ما وراء النهر التي تزخر بأثار التيموريين الفخمة ، ومنها مسجد مزار شاه الذي أقيم حول مقام الصحابي قثم بن عباس ، ففتح المدينة في خلافة عثمان بن عفان ، والذي جالب له خبرة الصنّاع ومواد البناء من فارس والهند ، والقلعة التي تزدهن بتصاوير حروب تيمور في الهند ، ثم مدرسة الخ بك ومرصده اللذان ذاع صيتهما في العالم الإسلامي^(١) .

(١) يصف بابر في سيرته إليم سرقد وصفاً دقيقاً مفصلاً فيتحدث عن موقعه الجغرافي وما ينهل من حصنات وما به من صناعات ، ويشير إلى تاريخه ولول دخول الإسلام فيه ومن ظهر به من العلماء ومشاهير الرجال ومن حكمه من آل تيمور . بابر نلمة ورقة ٤٤ ب وما بعدها .

ثم خرج بابر من سمرقند ليقضى على ما أثاره أخوه جهاتكبر ورجاله من
الفتن بفرغانة ، فانتهاز على ميرزا صاحب بخارى هذه الفرصة وزحف إلى
سمرقند فهزم حاميتها واستولى عليها .

ولئن أتيتح لباير أن يستولى على سمرقند من جديد ، وكانت وقتذاك فى
حوزة الأوزبك الذين كانوا قد دخلوها بعد أن غرروا بسلطانها وأمه ، فإن شيبانى
خان الأوزبك لم يسكت عنه حتى أخرجه منها بعد شهر قليل .

ويمكن من بابر اليأس حين رأى أغلب جنده ينفض عنه وذوى قرياه
يعرضون عنه حين استجد بهم ، فعقد العزم على الهجرة إلى إقليم ختلان عند
الصين الشمالية ، مبتعدا عن بلاد ما وراء النهر كلها وما أصابه بها من أهوال
ومتاعب .

ولم يقن بابر فتىلا ما أمده به خاله المغوليان ، أحمد ، خان مغولستان ،
ومحمود ، خان طشقند ، من جند ، حتى كدم إليه كل منهما بنفسه . ذلك أن خان
الأوزبك لم يكتف بما أنزله من هزيمة بهذا الجند عند الجنوب من طشقند ، حتى
أوقع اللخانيين المغوليين^(١) ، فى أسرهم ثم انطلق من بعد ذلك يطارد بابر فى عنف
متواصل حتى حمله على التزوج من بلاد ما وراء النهر كلها آخر الأمر .

فى أرض كابل وغزنة :

ظل بابر بعد ، أن أفلت من ليدى شيبانى خان الأوزبك ، يضرب مدة على
غير هدى فى منطقة تلال أسفرا ، التى تفصل فرغانة عن إقليم حصار ، حتى تغلب
طموحه على نوازع اليأس فى نفسه فحزم أمره على المسير إلى خراسان لعله
يصيب حظاً طيباً عند ابن عمه السلطان حسين بيگرا . لذا غادر فى المحرم من عام
٩١٠هـ / ١٥٠٤م وهو فى مستهل العام الثالث والعشرين من عمره ، ورجاله دون
الثلاثمائة ، أما إن بلغ إقليم حصار وتخطاه صوب الجنوب حتى أقبل عليه خسرو

(١) تاريخ رشيدى ١٢٢ ، ١٥٩ - ١٦١ .

شاه صاحب حصار بقوته وجموع من عشائر الإبل والأولوس الهاريين من وجه الأوزبك فلتضموا جميعا إليه .

ورأى باير القوم من حوله فى رعب وهلع خوف الأوزبك ، وتردد شديد فى المسير إليهم ، فقرر أن لا يغامر بما اجتمع له من الجند والمال بالاشتباك مع عدوه من جديد .

ولئن غدت بلاد ما وراء النهر كلها بأيدى الأوزبك ، وهذى خراسان يحكمها سلطان قوى هو حسين بيقرا ، وهو محط أنظار شيباني ، خان الأوزبك ، وهدفه التالى فى الغالب ، فإن أرض كابل وغزنه - فضلا عن بعدها عن مواطن المعارك وقتذاك - قد أخذت القوضى تعمها حين توفى سطاتها ألغ بك بن السلطان أبى سعيد ميرزا . ويسر اضطراب الأحوال فى هذه البلاد لبائر امتلاكها عام ٩١٠هـ ، دون إراقة دماء ، بعد أن ضمن لآل أرغون ، لولى الأمر فيها إذ ذاك ، الأمان فى كندهار^(١) .

وهذان الإقليمان ، أى كابل وغزنه ، كانا يشغلان مساحة كبيرة من بلاد الأفغان الحالية^(٢) . وتقوم مدينة كابل به وسط حدائق ومروج خضراء ، وإقليمها صعب المسالك والدروب ، إلا أن توسطه بين الهند وخراسان قد ساعد على رواج مركزه التجارى .

ويشتهر الإقليمان بغرة الفواكه والحاصلات ، وطيب المناخ فى المنخفضات فى الوقت الذى يكسو الثلج فيه مرتفعاتهما شتاء ، وفيهما قامت دول إسلامية قوية

(١) حبيب السير رابع ٢٠٨ .

(٢) هذه التسمية من مصطلحات المصور الحديثة سكان هذه البلاد كانوا يتمتعون فى الواقع إلى قبائل وأجناس مختلفة من فارس ومغول وترك وحرب ، ومن هذا القبيل الهزرا والتكودرى ، ثم الأفغان ، ومعلم يوسف زى والأكرىدى والبطمان الذين كانت مواطنهم بمنطقة والتال فيما بين كابل وياشاور . والمعروف من تاريخ هذه البلاد ، على غرض ماضيها ، أن السلواتين الأخيرتين والهنود والفرس ثم العرب والمغربيين والسنهاليين والتزويين والخوريين تدولوا للحكم فيها ، كما استولى عليها تيمورلك فلبث فى حوزة أبنائه عدة قرون Sinder

Ikbal. Afghanistan p. 22 - 29.

مهمة مثل الغزنويين والغوريين . ولدت ضلالة رقعته بالنسبة لأراضى جيرانه
الفسحة إلى طمع أصحابه فى الغالب فيما يجاورهم من أراضين ، فاحتدوا إلى
سهول الهندستان ومراعى خراسان وفارس مرات متكررة فى التاريخ .

خيل لباير أن الأمر قد استقر له فى مقامه الجديد حتى انطلق ، بعد أن فرغ
من تنظيم شئون دولته الجديدة ، فى غزوات خفيفة لمشارق الهندستان ومنازل
الخليجين لينتهى من بعد ذلك إلى الاستيلاء على قندهار .

على أن الأخبار واقته بخروج شيبانى خان من سمرقند فى خمسين ألف من
الجند أواخر عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م ، ففتح بهم خراسان على أبناء السلطان
حسين بيقرا فأصلع السيف فى نفر منهم وسبى نساءهم . وأطلق لجند
بلادهم كلها فانتبهوها وقتلوا كثيراً من أهلها وفيهم صفوة من العلماء والوجوه^(١) ،
ثم استدار بهم من بعد ذلك فطاردهم من مرو حتى بلغ قندهار وأخذ يطرق على
بابر أبواب ملجئه بأرض كابل طرقاتاً عنيفا حتى ظن أن لا عامص له منه إلا أن
يولد بالهند ، فاجمع ورجاله أمرهم بينهم على الالتجاء إليها .

فهاهم الأمراء التيموريون قد أخرجوا جميعاً من بلاد ما وراء النهر ، وهامهم
الأتراك الجغتايون قد صاروا جميعاً فى نطاق دولة الأوزبك خوفاً أو طمعاً .
ولئن كان بابر قد قدر له أن يفلت من براثن الخان الأوزبكي ، فإنه وهو فى عزائه
بكابل أضعف شامناً وأقل جنداً من أن يواجه هذا العدو القوى الذى لا يرتضى
مهادنة أو يقتل مسالمة .

وشاعت الأكدار أن تهدى من روع بابر ، إذا اضطر الأمير الأوزبكي شيبانى
إلى الارتداد عن قندهار سريعاً ، على أثر ما بلغه من مباغتة بعض الثوار فى
خراسان لحصن نيره توقعده هرات وكان فيه نسلوه وأمواله^(٢) ، لوشتبك ممن بعد
ذلك فى صراع عنيف مع شاه الفرس .

(1) Vambery : Hist. of Bokara pp. 261 - 63.

(٢) لم يمض بابر إلا القليل بكابل بعد حركته إليها حتى رزق باباه هملوين فى لولغر عام
٩١٣هـ/ ١٥٠٨م . وفى هذه الأثناء اتخذ لنفسه لقب البانشاه الذى لم يحصله أحد من الأمراء
التيموريين من قبله إذ كفوا لا يملكون إلا لقب ميرزا . بابر لاهه ورقة ٢١٠.

ذلك أن شيباني خان كان قد بحث في علم ٩١٤هـ / ١٥٠٨م إلى الشاه إسماعيل الصفوى يهدده باجتياح بلاده إن هولم يعدل عن مذهب التشيع ويمسك عن حمل الناس عليه كهرًا .

حتى إذا ما بحث إسماعيل صاحب فارس إلى خان الأوزبك يسأله في لطيف أن يمنع جنده من التصرب إلى أراضيه عند الجنوب من خراسان وكرمان ويوقف اعتداءاتهم وما يمارسونه من أعمال السلب والنهب ، فرد عليه الأخير برسالة ملأها بالتعريض به حتى سخر منه في ادعائه ملكا لم يرثه ، وطواها على عكازة وطبق كبير من البوص هما عدة الدراويش^(١) ، فكانت الحرب .

وتوغل لشاه الصفوى في خراسان ودخل مشهد ولتحم هرات ، حتى إذا بلغ مرو فامتنع بها شيباني خان عليه ، عمد إلى خدعة كان فيها هلاك الخان الأوزبكي وقواته . فقد استدكر بجيشه في اتجاه المراق حتى ظن أنه الرحيل والجلاء ، فكسب على مسيرة عشرة أميال من المدينة ، وحين خرج في أثره شيباني خان في عشرين ألفا من الجند ، مطاردة ، وقع في الكمين الفارسي ولقي وقواته حتفهم فيه .

ولم يرجع إسماعيل الصفوى عن قتال أعدائه حتى خضعت له جميع خراسان وصار نهر جيحون هو الحد الفاصل بينه وبينهم .

عود إلى سمرقند :

بعثت هزيمة الأوزبك وانتحارهم على أيدي الفرس الآمال المريضة في نفس بابر ، وبات يسعى النفس باسترداد بلاد آبائه والعودة إليها . وقوى من عزيمته دعوة البهخشانيين له بالمسير إليهم وقدوم سفراء الشاه الصفوى إليه ومعهم رسالة ود من سيدهم وفي صحبتهم خازناده بيكيم أخت بابر ، وكانت قد وقعت في يد

(١) أراد بذلك أن يعرض بابل إسماعيل إذ كان درويشا ، وقد رد عليه لشاه الصفوى الذي كان يعتز بالتسببه إلى أبناء فلطمة البتول ، بأن الرقعة لا تورث وأن الملك لا ينتقل كذلك بالورثة في أطراد ، وإلا لما صار من البيشدليين إلى الكيانيين ولما لوثيه جنكيز ... تلويح لفرشته أول ص ٢٠٠ .

شيباني خان بسمرقند . ولقد شاه فارس نفسه من بعد ذلك باير بجيش قوى فتوغل به فى بلاد ما وراء النهر حتى سقطت بأيديه بخارى ودخل سمرقند فخطب له من منابرها فى منتصف رجب من عام ٩١٧هـ / ١٥١١م .

على أن باير لم يكد يمضى أشهر قلائل بسمرقند ، بعد أن صرف عنه جند الفرس ، حتى تمكن محمود تيمور بن شيباني خان من استرداد بخارى وإنزال هزيمة قاصمة بجنده بظاهر سمرقند ، فاستصرخ من بعد ذلك للشاه إسماعيل الصفوى من جديد ، فبعث إليه بقائده أميريار أحمد أصفهائى الذى بلغ من عتفه أن أمر بإنزال منجبة مروعة بسان مدينة قرشى ، حين وقعت بأيديه ، فقتل منهم خمسة عشر ألفا فيهم نخبة من علماء السنة والأعيان .

هنالك تراءى للأوزيك ومعهم الأهلون مدى ما يتهددهم من الخطر فى توغل جند التزلباش (أصحاب القلائس الحمراء) للفرس ، فجمعوا جموعهم عند غجديون واشتبكوا مع أعدائهم فى قتال مرير انتهى فى رمضان من عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م بهزيمة الفرس ومقتل قائدهم أحمد أصفهائى المعروف بنجم ثاين^(١) .

وبرغم أن ارتداد باير إلى إقليم حصار من بعد ذلك دون خسارة تذكر، إذ كانت الصدة كلها من نصيب الفرس ، فقد رأى أن مكان هذه البلاد الذين رحبوا به بالأمس ، حتى أمكن له استرداد أكثر أراضيه السابقة ، وفيها بخارى وسمرقند ، قد انقلبوا اليوم فأصبحوا له جد كارهون لارتدائه فى أحضان الفرس الذين لم يتورعوا ، فى سبيل نشر مذهبهم وحمل الناس عليه قسرا ، عن إنزال المذبح بالمكان والقضاء على فريق كبير من الفقهاء والعلماء السنيين فى قرشى على الخصوص^(٢) ، فانهالت آماله ببلاد ما وراء النهر كلها ، وقرر راجعا إلى كابل ،

(١) مذكر الأمراء أول ٤٠٩ .

(٢) رشيد موزخو الفرس عروما بالشاه الصفوى ولكنهم ينكرون عليه عتفه فى سبيل نشر مذهب التشيع . (تاريخ صومى إيران ص ٢٥٨) والمعروف أن باير حاول جهده أن يحمل القائد

ليولى وجهه بعد قليل صوب البنجاب والهندستان التى صار إليها أجداده من قبل ،
والتي غدت مسرحا للاضطرابات والفوضى فى ظل حكومة ضعيفة مقطعة
الأوصال ، وهى بثرواتها واتساع رقعتها أصلح مكان لتحقيق حلمه الكبير فى إقامة
دولة كبيرة له على كل حال .

الفارسي على العنول عن هذه المذابح ولكنه لم يوفق . وكان مما أخذه الفرس على بابر
ارتكائه لرى الفرس السكرى .

هذا وقد بلغ الأوزبك من التفوذ وسعة الرقعة أن صار فوق موسكو لا يحسن إلا برأيهم ويلزم
بفتح الجزية لهم ، فلولا قتال أنراء المسلمين فيما بينهم إذ ذاك - من الفرس والعثمانيين
الأوزبك والمصريين - لتكفر قيام روسيا التى أدى ظهورها إلى انزعاج قوة المسلمين فى
الدولة العثمانية وبارس ، وانتهى بضياح بلاد الأوزبك كلها وفيها بخارى وممرقند
والتركستان ، وخضوع أربعين مليوناً من المسلمين لجبروت القيصرة الروس واستبدادهم .

فتح الهندستان :

لم يكن الهندستان حين أقبل عليها بابر غازيا لوقت القرن العاشر الهجرى
شئ من تلك الوحدة المتماصكة التى شهدت أيام كبار الغزنويين ومن خلفهم عليها
من أمثال شهاب الدين الغورى وقواده وعلاء الدين الخلجى وغياث الدين تغلق .

ولقد حاول السلاطين اللودهيون الأفغان ، فى أعقاب الغزو التيمورى أن
يستعيدوا لهذه البلاد سابق مجدها فصادف نفرا منهم التوفيق ، فأتيج ليهلول لودهى
- مثلا - أن يسترد حدود سلطنة دهلئ القديمة وييسط نفوذه على كافة الرقعة
الممتدة بين إقليم بهار فى الشرق وأقصى البنجاب فى الغرب ثم خلفه ابنه مسكندر
من بعده فأضاف إلى بلاده منطقة الدواب وأخضع لسلطانه أغلب الراجبوتانا ووثق
من علاقته بحكام البنغال .

وكان عمال دهلئ على ولاياتها ، ضد اللودهيين ، من الأمراء الأفغان من
قبائل لودهى وفرمولى ولوحائى . وكانوا جميعا يدركون أن الدولة إنما قامت
بسوقهم ورجالهم ، فمناصبهم ، وللحالة هذه ، ليست بمتحة من سلطان دهلئ أو
هبة منه ، فهى حقهم الثابت الطبيعى معه فى الحقوق والواجبات .

وحين خلف السلطان إبراهيم أباه مسكندر فمال إلى امتحان أمرته والانتقاص
من حقوقهم حتى ركب طريق العنف معهم ، فجمعوا أمرهم على التراجع عن
بلاطه إلى ولاياتهم ليثيروا فتنا عارمة عليه بأوده وجونپور وبهار وبمصرحوا
بخروجهم على سلطانه .

وما خدت البنغال ومالوة والكجرات فأن قطعت بدورها علاقته مع
العاصمة ، وراح راقا سنكا ، صاحب أدانپور ، وأقوى أمراء الهنادكة فى زمنه
يترع أمراء الراجبوتانا على حلف عقوده فيما بينهم بغية القضاء على سلطان
المسلمين فى الهند كلها واستعادة أمجاد أجدادهم القابرة^(١) .

(١) كانت أمارات الدكن الإسلامية بدورها مستقلة عن نفوذ دهلئ ، فى حين استطاع آل أرغون ،
بذل أنخرجهم بابر من كندهار ، أن يضموا أيديهم على ولاية السند والماتان ويترعروها من
أيدي أصحابها الخلجيين . Prasad, Muslim Rule, P. 258-60.

وانتهى استبداد إبراهيم اللودهي بأمراته إلى أن انطلق فريق من كبارهم ، وفيهم دولتخان لودهي أمير البنجاب وعلاء الدين علم خان عم السلطان يستجدون بباير في كابل ويحرضونه على دخول الهند ومعاونتهم في إزال سلطان دهلئ عن عرشه .

ما يفتأ ظير الدين محمد باير يردد القول في سيرته ، أنه منذ أن استقر به المقام في كابل كان يحترم التوجه إلى الهندستان ، وذلك قبل أن يشرع في فتحه الحقيقي لها ، فضلا عما كان لجدته السلطان أبي سعيد من أملاكه عند أطراف البنجاب والسند، كان يرى نفسه الوريث الشرعي لها حتى بعث إلى السلطان اللودهي إبراهيم صاحب دهلئ يطالبه بها ، فقد تحقق لديه استحالة استرداد بلاد ما وراء النهر عليه بعد أن ثبت الأوزبك أقدامهم بها ، ويات الصفويون أصداؤه وحلفاؤه يسيطرون على خراسان وما حولها . ولقد أتوجح لباير أن ينحدر من الهندكوش إلى مشارف البنجاب وسهولة القرية في غزوتين ناجحتين بلغ بهما بهيرة وآب منهما بكثير من الأسلاب والغنائم ويقرر طبيب من المعلومات المفيدة عن الهند وأهلها ومحاربيها ، وأحوال حكومتها قبل كل شيء ، حتى إذا ما استعداه بعض أمراءها على سلطانهم خرج إليها في غزوتين أخرتين بلغ في أولاهما لاهور قصبة البنجاب ودخل في الثانية أكرا فجلس على عرش الهند وأقام بها دولة^(١) .

غزوة بهيرة :

خرج باير من حاضرتة كابل في المحرم من عام ٩٢٥هـ / ١٥١٩م فسلك طريق بشاور فاجتاح حصن بجور على حاميته برغم استنسالها الذي كلفها ثلاثة آلاف من الأرواح^(٢) حتى إذا ما عبر نيلاب وجهل من روافد السند أقبل عليه

(١) يذكر بعض المؤرخين غزوات باير الهندية بخمس ، منهم من يدخل في حسابها تجوله عند مشارف البنجاب الاستطلاعي عام ٩١٠هـ ومنهم من يضيف إليهم خروجه إلى بشاور لتكبيب القبائل الخارجة عليه .

(٢) رأى رجال هذا الصن البنادق لأول مرة فزعموا يسفرون من أعينهم وهم يشعلونها، حتى إذا ما انطلقت فأسابت الكثيرين منهم بلغ الخوف منهم مبلغه . باير نامه ورقة ٢١٧ .

زعماء القبائل هناك يعلنون ولائهم له ، فيسقط بذلك نفوذه على مناطق جيناب وخوشاب وجنوت ، وكانت مجموعها من أملاك التيموريين السابقة ، ثم عبر الحاجز الملحي إلى بهيرة فاستسلم له أهلها على جزية كبيرة دون قتال .

هناك نصح له رجاله أن يصالح سلطان دهلي على رد جميع أملاك التيموريين بالبنجاب إليه ويعود إلى بلاده .

وحمل بابر على قبول هذا الرأي ما لاحظته من ضيق رجاله بحر الهند اللافع، وإن كان أمير البنجاب قد حبس رسوله إلى دهلي عنده فلا هو أطلقه إلى غايته ولا هو رده إلى بلاده .

على أن بابر لم يكد مضى بكامل شهرا واحدا، بعد أن عاد إليها ، حتى أُرُتد إليه نائبه على « بهيرة » وما حولها لخروج الهندو^(١) والأفغان عليه وعجزه في قواته القليلة عن القضاء على عصيانهم .

وأدى إلى تعويق خروج اليندشاه إلى البنجاب من جديد ما كان من خروج بعض قبائل الأفغان عليه ببلاده حتى انتهى إلى تعزيز حصن بشاور بخاميات قوية تستطيع السيطرة على منازل الأفریدی والوزيری^(٢) وخضر خيل فيما حولها . على أنه لم يكد يبلغ مشارف بهيرة من جديد عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م حتى بلغه انقضاض شاه بيك أرغون على قندهار وإصالة السلب والنهب فيما حولها من أرضين ، فارتد إليه من فورهِ فأخرجه منها ونصب عليها ثلثي أبنائه كامران ، كما تم له كذلك الاستيلاء على بدخشان فلقام عليها ابنه الأكبر همايون .

حتى إذا ما تم ذلك كله وتوطد الأمن في ربيع بلاده فوفد إليه رسل بعض الأمراء الأفغان اللودهييين يستجدون به من طغیان سلطنتهم صاحب دهلي^(٣) طفق

(١) نطلق لفظ الهند في هذا الكتاب على المسلمين من أهل البلاد . غير الهندكة الذين بقوا على ملة آبائهم .

(٢) لهذه القبائل صفحات بطولية مشهودة حين ردت البريطانيين عن دخول بلادهم بطريق الهند .
جائز العالم الإسلامي ثلث ص ١٩٨ - ٢١٤ .

(٣) منتخب التواريخ لبدلوني ص ٣٣ .

بعد عدة لغزوة هندية كبرى انتهت باستيلائه على أجزاء كبيرة من البنجاب ودخول عاصمته لاهور .

البادشاہ فی لاہور : لم یکن بالیر لیتردد عن المسیر إلى أرض الهند من جدید وقد تکتشف له فی غزواته السابقة مدى ما علیه هذه البلاد من الثراء الکثیر وما یتکحه له تراسی رعتها وضعف حکومتها من فرصة مواتية لإقامة دولة كبيرة له ، وهام بعض أهلها بدعوته إليهم ویحالفونه على سلطنتهم .

هكذا خرج بالیر من کابل فی مستهل عام ٩٣٠هـ ١٥٢٤م . فما إن أشرف على لاہور حتى التقى بجيش قوى لدہلی فهزمه ودخل المدينة الكبيرة من بعد ذلك فلباحها لجنده أربعة أيام وأشعل النيران فی أبنيتها وأسواقها^(١) ، ثم أجه من بعد ذلك إلى دہلیور فاستولى عليها بعد أن أنزل بحاميتها مذبة بشعة .

ولحق بالبادشاہ فی دہلیور دولتخان أمير البنجاب ، الذى كان قد استتصرم على السلطان اللودھی من قبل ، فهاله ما استبان له من معيه لتثييت اقدامه فيما استولى عليه من أرضين حتى أقام فريقاً من رجاله على شئونها ، وكان الظن أنه ما يلبث حين يتم له حصر عدوه أن يزوب إلى بلاده ويترك الهند لحلفائه من أهلها . فما عدا حين لمس إهمال بالیر أن له اتطلق وأولاده يتأمرون بصاحب کابل وقواته حتى كانوا یوقعون بهم . وقد انتهى أمر المتآمرين جميعاً إلى الحبس بعد أن اتکتف أمرهم .

واتخذ بالیر من بعد ذلك طريقه إلى دہلی . حتى إذا ما انتهى إليه خیر فرار دولتخان وابنه غازی من محبسهما ، بادر من فورہ بالارتداد إلى لاہور خوفاً من قطع خط الرجعة علیه وعلى قواته . ليرغمه ظهور الأوزبك عند بلخ من بعد ذلك على العودة إلى کابل ، وإن ترك بالبنجاب حامية قوية من رجاله كانت له إقرار الأمور هناك ودفعت عن عاصمة الإقليم قوات دولتخان وأقزات بها هزيمة شديدة .

(1) Lane Poole India p.209.

وغاظ دولتخان ما رآه من حفاوة بابر بعلاء الدين علم خان عم سلطان دهلي حتى ولاء ديباور ، حتى أمدّه بالجند الكثير حين قصد إليه في مقامه بكابل وأمر قوله بلاهور أن يسيروا معه إلى دهلي فإذا دخلوها أجلسوه على عرشها . فما زال يحتال على الأمير اللودهي حتى اتقاد له وقبل صحبتته فسي زحفه إلى عاصمة الهند ضاربا عرض الحائط بتحذير قلعة البادشاه في لاهور له منه . وقد تصدى لهم السلطان اللودهي عند ظاهر دهلي وأنزل بهم في الليل هزيمة حاسمة تشتت على أثرها شملهم حتى التمس فريق كبير من القادة مخايب لهم في الجبال في حين أتر فريق آخر المبادرة بالانضمام إلى قوات دهلي .

واقعة باتلي بت :

لم يكن بابر يؤمن مؤخرته عند بلخ من خطر الأوزبك ، حتى طفق يعد للعدة ليتم ما بدأه من فتوحه الهندية معتمدا على قواته وحدها هذه المرة ليس غير .

فخرج من كابل في صفر من عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م في غزوة الفتح آخر غزواته الهندية وأعظمها ، فقد تم له فيها القضاء على ملك اللودهيين والجلوس على عرشهم في أكرأ لبيسط نفوذه من بعد ذلك على الشمال الهندي ويمارس حكمه حتى توافيه المنية به .

واجتمع لبادشاه كابل اثنا عشر ألفا من الجند عبر بهم السد ، حتى إذا بلغ شاطئ جهلم بحث إلى قواته بلاهور ليؤلفوه بمقامه ، بعد ما بلغه من أسر دولتخان مع الأمير اللودهي علاء الدين علم خان وزحفهما معا إلى دهل وهزيمتهما من بعد ذلك .

ولم يشأ بابر أن يواصل زحفه إلى غايته قبل أن يؤمن خطوطه من أي غدر قد تتعرض له . فبعث بفريق من قواته ، فما زالت بدولتخان وأولاده حتى أوقعتهم في الأسر ، ادخل بابر من بعد ذلك معقل عدوه في حصن « ملوث » ويستولى على ماله به من أموال وخبايا^(١) .

(١) استولى بابر في هذا الحصن على مجموعة كتب قيمة ، كبيرة فاحتفظ لنفسه بقسم منها وأهدى الباقي لابنه همايون . أكبر شاه ورقة ٤٩ب .

وما غدا أمير البنجاب السابق أن قضى فى محبسه بقلعة بهيرة بعد قليل .
وحين اطمأن الجيش الفاتح إلى تأمين خطوطه فى البنجاب واصل به كساده
المسير حتى بلغوا نهر جمفه فزلوا فى مواجهة بلدة « سرساو » ويعثوا بكشائفيهم
ليستطلعوا لهم مواقع العدو ويتمسكوا أخباره .

هناك استقر الراى بين القادة البابرين على دخول المعركة الفاصلة مع
عدوهم ، فعبأوا قواتهم وفق تشكيلات العثمانيين^(١) . فربطت عربات الحرب
بالسلاسل وأربطة الجلد جنبا إلى جنب تتخللها التورات^(٢) ، واصطف حملة البنادق
من ورائها ، ثم زحف الجمع إلى باقى بت حيث معسكر السلطان إبراهيم اللودهى
فزلوا بظاهرها فى آخر جمادى الثانية من عام ٩٣٢ هـ ، فجعلوا المدينة إلى
يمينهم وألقوا بعربات الحرب فى الجبهة ومن ورائها المنفع وحملة البنادق
والفرسان ، فى حين حفر الخنادق وأقيمت المتاريس إلى ميسرة الجبهة وقد
تركت بها ثغرات تسمح لمائة من الجند ، أو ما يزيد عليهم ، بالبروز للقتال منها .

وهكذا كان على بابر وقواته ، التى لم تكن تعدوا اثنى عشر ألفا ، أن تكفل
فى هذا الميدان الذى طالما تقرر فيه مصير الهند قبل ، جيش السلطان اللودهى
الذى كان يصل إلى المائة ألف من الجند عدا ومعها ألف من الأفيال .

ولم يمض على هذه القوات بهذا المكان أيام ثمانية حتى التحمت معا فى قتال
عنيف أفلحت فيه فرق المناوشة عند جناحى الجيش المهاجم ، آخر الأمر ، ففى أن
تفصل مؤخرة عدوها عن سائقه ، ثم ما زالت تقذفها بوابل من سهامها حتى
أخرجتها من الميدان ، فى حين أطلق رجال الجبهة الوسطى ومعهم حملة البنادق
وأصحاب المدافع^(٣) ، على قلب جيش دهلى ، فلم ينته اليوم حتى قضى الهادشاه

(١) بابر نامه (١٧٦٤) .

(٢) الثورة هى دروع تصنع على هيئة نسج السلال من الخشب والفصون لتقى رجال البنادق
من السهام .

(٣) لم يكن عند بابر أول أمره إلا مدفع واحد وكان لا يطلق إلا مرات قليلة فى اليوم الواحد ،
ويستغرق تعبئته مدة طويلة . بابر نامه ٣٣٧ .

على قوات عدوه قضاء ميرما ، وسقط في الميدان خمسون ألف قتيل توسطهم السلطان إبراهيم اللودهي صريعا^(١) .

هناك بادر الباشا المنتصر بتسيير فريق من رجاله إلى دهلي ومعهم القاضي الشيخ زين الخوافي فدعوا له على منابرهما في منتصف رجب من عام ٩٣٢هـ/١٥٢٦م ووصلوا قراءها بقدر من المال هبة منه إليهم ، في حين وجه ابنه همايون مع نفر آخر من قلنته إلى أكرا مقر اللودهيين ومثابة أموالهم وكنوزهم:

على عرش أكرا :

دخل بابر قلعة أكرا وجلس على عرش اللودهيين بها في التاسع والعشرين من شهر رجب عام ٩٣٢هـ/ فكان ثالث غاز مسلم يتوغل في أرض الهند وبعد من بين أعظم سلاطينها .

ولول هؤلاء السلاطين الغزاة هو « محمود الغزنوي » وثانيهم هو شهاب الدين الغوري . ولم يكن الحكام المسلمون الذين خلفوا هذين الساهلين في حكم هذه البلاد إلا من أبنائهم وقوادهم ومواليهم في الغالب .

ويتميز بابر عن سائيه بفرط الجراءة والإقدام . ذلك ان محمود الغزنوي حين أقبل على الهند غازيا ، كان له ملك سمرقند وبلاد ما وراء النهر كلها وخراسان وفارس ، كما كان له من الجند ما يتجاوز عددهم المائة ألف بكثير ، ومن الهبة ما ضمن له تأمين مؤخرته كحدوده وأوقع الرعب في قلوب أعدائه قبل لقاءه .

كذلك كان للسلطان الغوري في زحفه على الهند مائة وعشرون ألفا من الجند ، كما كان حكم خراسان كذلك في أسرته .

في حين لم يتيسر لباير في غزوة الفتح الهندية إلا اثنا عشر ألفا من الجند ، وموارده ضئيلة ، وأرضه ضيقة الرقعة ، والأوزبك ما يزالون يبلاد ما وراء النهر عند مؤخرته يتربصون به . فواجه جموع الهند الكثيفة ذات الثراء العريض في

(١) تاريخ فرشته أول ص ٢٢٥ .

طموح وإصرار وعزم ليسجل بانتصاره عليها ، من بعد ذلك ، صفحة من أروع صفحات المغامرات في التاريخ .

وإلى جانب سلطنة دهلئ التي تربع بآبر على عرشها في أكرا ، والتي كانت تمتد من البنجاب إلى بهار وتضم معها إقليم جونپور ، كان بالهند أربع إمارات كبرى إسلامية وأخرتان هندوكيتان ، عدا إمارات عدة أخرى صغيرة متناثرة هنا وهناك .

وأول هذه الإمارات هي الكجرات بباب التجارة الهندية الأكبر ، وكان يحكمها بيت مظفر شاه ، ويديرها إمارة بهمنى للدكنية وهي التي أنشأها الأمير حسن كنكوى بهمن شاه ، ثم إمارة مالوه لوماندو وكان عليها أمراء من بيت الخجيين ، والبنغال وقد حكمها نصرت شاه وأولاده^(١) .

أما الإمارات الهندوكية فكان أكبرهما اثنتان هما : أجايلكر وموار . وكان يحكم الأولى راجا كرشنادوا . في حين كان يقوم على الثانية راجا سناك أصظم الأمراء للراجبوتيين بالهند في وقته وأعلام قدرنا ولوسعهم نفوذا .

أخذ الباشا في أكرا يفتق على رجاله مما وقع في أيديه من أموال اللودهيين الطائفة وكثوز الهند ، فلم يكتب بأن جعل لكل جندي سار معه قنرا والفوا من المطاء حتى بعث بهبات مالية وفيرة إلى عماله وذوى قرياه فيما وراء حدود الهند ، ووصل الطماء والفقراء في كافة المزارات الإسلامية بخراسان وبلاد ما وراء النهر والعراق والحجاز^(٢) .

وأبى فاتح الهندستان الجديد إلا أن يكون للمدينة التي يزغ فيها نجمه وعلا بها طالع مسحه من المطاء نصيبا فأرسل بقطعة من العملة الفضية (شامرخوة) إلى كل قاطن بكابل ، رجلا أو امرأة ، طفلا أو حدثا عبدا أو حرا .

(١) فصلنا الكلام عن هذه الإمارات في القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) تاريخ فرسته أول ص ٢٠٦ .

ولم ينس ، وهو في غمرة توزيع هذه الكنوز الطائلة ، أن يلتفت إلى أسرة غريمه السابق السلطان إبراهيم فأجرى على أمه وزوجاته ولولاده وزقا حسنا ولوصى رجاله بالسهر على راحتهم^(١) .

وكان مما عرض على باير من جواهر الهند بأكبر ماسة جوهينور « الشهيرة وكلفت التي تزن ثمانية مثاقيل وقد قدر الباشا اهتماما فسي سيرته بما يولّى نصف نقلت الدنيا في عصره . وكان قد أمضى هذه الماسة لهمايون بن باير أسرة بكر ما جيت راجا كواليار لحسن رعايته لها بأكرا بعد أن هلك وليها مع السلطان إبراهيم في حرب بلخي بت .

ورد باير هذه الماسة على ابنه حين قدمها له فما زالت إحدى السلطين المغول بالهند تتكلمها حتى سقطت بأيدي البريطانيين حين دخلوا الهند فزفوا بها تاج ملكتهم فكتوريا^(٢) .

على أن استيلاء باير على هذه الكنوز الكثيرة وجلوسه على عرش أكرا لم يكن يغطي خضوع سلطنة دلهي لحكمه يرغم فضائله على السلطان اللودهي وجيوشه ذلك أن الأمراء الأفغان من حكام الولايات اللودهي أدركوا تماما أن الباشا إما قد قدم إليهم ليقتصب بلادهم لنفسه ولأنه إن وسكت حتى يتقضى على جميع نفوذهم وسلطانهم . فلذا كانوا بالأمس قد دفعهم اعتكادهم إلى الوقوف في وجه السلطان اللودهي ، وهو كبيرهم وابن جلدتهم على كل حال فكيف يرضون اليوم بالخضوع لقادم غريب عليهم . فمنهم من شاع أمير بهار جلال الدين بن دريلخان فالتفوا حوله وتلقوا به سلطانا عليهم ، ومنهم من سار إلى الراجپوتانا فانضم إلى جبهة الأمراء الهنادكة بها . وسهل لهؤلاء الثقتين تحصين مراكزهم ما تهيأ لهم من وقت كاف كان فاتح الهند مشتغلا فيه بتقسيم ما وقع بأيديه من الأموال والأسلاب . حتى إذا ما فرغ من أمر خنقته ، وجد ما حول أكرامن

(١) يرغم ذلك قد احتلت لم السلطان اللودهي على من اسم باير في طعامة ، باير نلمه ورقة

. ٣٠٦ ، ٣٠٥ .

Lane - Poile 204. (٢)

دساكر وقرى قد هجرها أغلب أهلها وتركوها خرابا بيليا حتى كاد لا يجد الطعام الكافى لجنوده والعلف لدوابه .

وأشاعت قسوة الصيف الهندي روح التلق والتنمر بين صفوف القوات الغازية فقد حسيوا ، بعد أن أصابوا من الغنائم والأموال فوق ما كانوا يأملون أن أميرهم ما يلبث أن يعود بهم إلى ديارهم بعد أن تم له هزيمة عدوه والاستيلاء على ما وجده عنده من أموال طائلة وكثوز .

ولم يكن بابر أخضع لراى رجاله فيرثد عن أرض الهند ، كما ارتد الإسكندر ومحمود الغزنوى وتيمور عنها من قبل ، والفرصة مواتية له لإقامة دولة كبيرة قوية له هناك . فما زال يقولده وأمرأه جيشه يذكرهم بمبلغ ما صادفهم من متاعب وصعاب تغلبوا عليها آخر الأمر فجنوا ثمار جهودهم بالقوز والغلبة . كما بين لهم أن الدول لا تقوم إلا على ركوب الأخطار ومواجهتها ، وأن الملك لا يكون إلا بالرحمة المخلصة والأقطار المفتوحة ، وهاهو ، بعد كفاح طويل وجهاد شاق ، قد تم لهم الاستحواذ على بلاد حريضة ، فليس للمتاعب والصعاب مهما كان من شأنها أن تغلبهم اليوم على أمرهم فينكسروا عن الهدف الذى غدوا على قلب قومسين أو أنسى من تحقيقه ويلوغه ويرتدوا على أعقابهم وكأنهم جند منهزم طحنته الانكسار^(١) وأثله .

وهكذا تم لباير بشجاعته وقوة عزيمته وإصراره للقضاء على روح التمرد والتنمر بين جنوده ليوجه فريقا كبيرا منهم ، بإمرة ابنه همايون ، إلى الولايات الهندية الشرقية ويتجه هو بنفسه من بعد ذلك إلى بيانه وكواليار التى تجاور عاصمته فيضمها إلى ملكه .

ذلك أنه برغم قنوم كثير من شيوخ القبائل الأفغانية فى الدواب إلى السلطان الجديد ومعهم قواتهم وانضمامهم إلى صفوفه ، فقد ذهب لأسيران من كبار الأفغان هما نصير لوجانى ومعروف فرملى ، يجمعان الجند حتى صار لهما أربعون ألفا منهم فاستوليا بهم على قنوج ثم اتخذوا طريقهما إلى أكرا وطفق

(١) تاريخ فرشته ص ٢٠٦ .

هـمـايون بطارد قوت للثوار فانتزع منهم جونپور وغازیپور وكالی وخیر آباد حتى ١٤ ما شرع يتعقبهم بإقليم خريد ، عند حدود البنغال ، بعث إليه أبوه يأمره بالعودة إليه على عجل ليعاونه بقواته على دفع خطر الراجپوتين الذى كان قد استشرى حتى أمتد إلى كافة المناطق القريبة من دهلئ .

معركة خاتوه : انتـهـز الأمر الراجپوتيون فرصة الضعف الذى أصاب الدولة أيام السلطان إیراهیم اللودهى فـعـتـدوا بـيـنـهم حـلـقا لمناهضة الحكم الإسلامى فى الـهـند تـزعمه رانا سنكرام سنك المعروف برانا سنكا صاحب موار ورجا أدایپور . وكان نجم هذا الأمير الـهـندوكى قد بدأ يـطـو أيام السلطان سكندر لودهى حين فر من أمامه صاحباً ما لوه والكجرات وبلغت قواته مشارف دهلئ . وما تزال القصص بالهند يروى عن بطولته حتى اليوم .

وعظم شأن هذا الأمير أواخر أيام الدولة للودهى حتى اتسعت رقعة أراضيه ودخل فى نطاقها بهيلة وسرنكپور وجندرى ورنتنپهور ، وحتى صار له من الجند مائة وعشرون ألفاً ومعهم خمسمائة من الأفيال^(١) .

وانتهز رانا سنكا فرصة اشتغال صاحب آكرا الجديد بالقضاء على الثقتن فى المناطق الشرقية وفيماحول عاصمته ، فاستولى على حصن كهندار وزاح يهاجم بيانه ودهلپور وكالئ من جديد ، ثم شرع يولب الأمراء الأفغان على فـتـاح الـهـندستان ويدعوهم للانضمام إلى جبهته ، حتى استجاب له فريق منهم ، ولهم حسن خان صاحب موات ومحمود خان أخو إیراهیم اللودهى الذى نودى به سلطانا على قومه ، فأخذوا جميعاً يعدون العدة للزحف على آكرا^(٢) .

ولم يكن باير لمسكت عن هذا الخطر الداهم الذى قد ينتهى بالقضاء على كل ما جنى من فتوح ، فبرز من عاصمته فى جمادى الأول من عام ٩٢٣هـ حتى بلغ

(١) Prasad Muslim Rule, PP.258, 7,74p.272 هذا ولقد سبق لهذا الرجاء الاتصال ببابر بدوزء

فى كابل قبل زحفه على الهند وتمهد له بمساندته .

(٢) منتخب التواريخ أول ص ٣٣٨

مكرى فأقام بها معسكرة ، وأخذ يحصن مواقعه ، فهبطت عربات الحرب والمدفعية وحفرت الخنادق وأقيمت المتاريس .

وفى هذا المكان أذاع البادشاه فى قومه وكافة أنحاء بلاده منشورا أعلن فيه عزمه على الجهاد فى سبيل الله بمحاربة الهنالكه ، ورفعة ضريبة التمتعة عن كاهل رعاياه ، وإقلاعه عن مقاربة للشراب توبة إلى الله وتقربا إليه منه ، فأهرق ما بالبلدان من النبيذ على الأرض وحطمت أدوات الشراب من ذهب وفضة إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الفقراء والمساكين صدقة^(١) :

« نحمد توأبا يحب للتوايين والمتطهرين ونشكر دينانا يهدى المذنبين والمستغفرين ... ويعد فإن طبيعة الإنسان على مقتضى القطرة تميل إلى لذات النفس البشرية . فهي ليست بمنجاة عن ارتكاب الأثام » ﴿ وما أبرئ نفسي إن للنفس لأمارا بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾^(٢) .

« وما هى التوبة عن الشراب قد آن لوائها فى هذه الأوقات المباركة التى نعد العدة فيها للجهاد فى سبيل الله ، وقد اجتمع عسكر الإسلام لحرب الكفار .. » ﴿ لم يكن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾^(٣) فافتلحنا أسباب المعصية بقرع أبواب الإثابة - ومن قرع بابا ولج ولج - وافتتحنا هذا الجهاد بالجهاد الأكبر وهو مجاهدة النفس ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾^(٤) ، ﴿ وإني ثبت إليكم وإني من المسلمين ﴾^(٥) ، فأعلننا جميعا توبتنا عن الشراب وأمرنا بأدواته من كؤوس الفضة والذهب - زينة مجلس الضلالة - فأنقذت إلى الفقراء والمساكين والمعوزين صدقة ..

(١) بابر نامه ٣١٢ - ٣١٤ ، وقد أذيع هذا المنشور فى سيرة بابر الجغتائية باللغة الفارسية لأبها كفت اللغة الغالبة فى هذه البلاد .

(٢) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(٣) سورة الحديد : الآية ١٦ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٢٣ .

(٥) سورة الأحقاف : الآية ١٥ .

وغايتنا من هذا الفرمان أن يقابل بالطاعة والخضوع ، وينفذ ما نص عليه من تحريم الشراب وصناعاته في كافة أنحاء البلاد ... ورفع القمصة (المكوس) عن كامل المسلمين ، والجرى على ضوابط شريعة مسيد المرسلين .. « فمن بدله من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه »^(١) .

ورأى بابر الخوف يشيع في رجاله من قتال الهندكة ولم يكن لهم بلقاقتهم عهد من قبل ، وقد تصدى لقيادتهم رافاسكا أعظم أبطالهم ، وتشهد على جرأته وطولته حين ققاتها السهام ونزاع بترتها السيوف وثمانون طحنة تكاثرت آثارها في جسده ، وهاهو فريق من أمراء الأفغان المسلمين أنفسهم يؤثر الانضمام إليه على جانب سلطانهم ، في حين طفق فريق منهم بـ « الدواب » وما حولها يرتد إلى حوصنه القديمة فينتزعها عنوة من أيدي حمايتها الجدد .

هنالك أخذ البادشاه يستهض هم رجاله ويتوى من روجه المعنوية لخطبهم قائلاً بأن المرء مهما طال به الأجل قمصيره إلى الفناء ، فما أشرف له أن يستشهد في ميدان الجهاد فخلد ذكره عن أن يموت خاملاً حنق ففه .

« ولقد أراد الله التقدير أن يمتحننا بهذه المحنة ، فإن سقط في ميدان الجهاد فقد كتبت لنا الشهادة وإن تنصرت فقد أعلننا كلمته تعالى » .

وجئ بالكتاب فاقسم كل فرد منهم على ألا يلوى وجهه عن القتال أو يتخلى عن أصحابه طالما كان فيه نفس يتردد بين جنيته^(٢) .

لم يفت في عضد الجند الباهري ما رأوه من انسحاب كثير من أمراء البلاد من صفوفهم ، وما بلغهم من مهاجمة الهندكة لكواليار ، ونشوب الفتن في « الدواب » ، فزحفوا إلى أرض خاتوه عند مشارف الراجيوتانا يتقدمهم أصحاب آلاتهم الحربية من رجال المنفوعة وحملة البنادق حتى يقيموا من نيرائهم « إذا لزم الأمر ، ستارا يهيئ لهم الفرصة لتشكيل صفوفهم للقتال في اطمئنان » .

(١) سورة البقرة : الآية ١٨١ .

(٢) منتخب التواريخ لبدلوتي أول ص ٢٤٠ .

والتي الجمعان قيل ضحى يوم السبت الموافق ١٣ جمادى الآخر ٩٣٣هـ/ ١٦ مارس ١٥٢٧م ليخوضوا غمار حرب تعد من أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ الهند كلها .

وتحوى سيرة باير وصفا دقيقا فيما لهذه الواقعة نقل عنه مايلي (١) :

« الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ... وصلى الله على خير خلقه محمد سيد الغزاة والمجاهدين ... وبعد ؛ فما من نعمة تستوجب الشكر أعظم من النصر على الكفار ، فهي في نظر أهل البصيرة أعلى درجات السعادة . والمنة لله وحده الذي حقق لنا ، من مكنونات نعمه ، النصر والظلبة ، فكتبنا عنده في سجل المجاهدين لإعلاء كلمته .. » .

« وتقصيل الأمر في مصدر هذه السعادة وظهور هذه الدولة ، أنه لما أضاعت ومضات سيوف فرسان الإسلام من جنودنا بلمعات أفوار الفتح والظفر ، وأعلنت إبادى للتوفيق الرباني على رفع رايات النصر في ممالك دهلي وأكرا وجونيور وغريد ويهار وغيرها من البلدان بما سبق تفصيله ، سارع بالانضواء تحت لوائنا والخضوع لسلطاننا كثير من طوائف القوم من أصحاب الكفر وأرباب الإسلام على السواء » .

« أما رانا سنكا فقد تظاهر بطاعتنا بادئ الأمر ثم ما لبث أن أظهر ما بطن فلبى واستكبر ورفع رأس الفتنة وقاد جيوشها ، واجتمع حوله طوائف فيها من متطلق بالزناز وفيها من ارتدى ثياب الكفر والارتداد (٢) » .

وهذا وكان سلطان ذلك الكافر اللعين قد اتسع قبل أن تهزغ شمس دولة البادشاه بها ، ولكن لم يحدث قبل هذه الحرب أن شاركه أحد من الراجاوات والحكام حروبه أو خرج معه فيها » .

(١) باير نامه ٣١٢ ب - ٣٢٤ ب وهو المنشور الذي عهد باير بصياغته إلى قاضية زين الدين خوافي ، فحرى بالفرنسية لئلا تفصيل القتل وخططه ونتيجته ايزاح في كلفة أنحاء المملكة .

(٢) أصحاب الزناز هم الهنالكه ، أما المرتكون فهم الأمراء المسلمون الذين ظهروا في صفوف الهنالكه .

« أما السلاطين الأتراك من أمثال أصحاب دهلَى والكجرات ومالوه ومن إليهم ، فمن كانوا فى حالة تسمح لهم بمعارضته والوقوف فى وجهه ، فقد عجزوا عن أن يكتتلوا ضده دون اتفاق الكفار وإياهم ، ففقدوا لذلك دماهنونه بدورهم ويدرأونه اتقاء لخطرة ونفعا لشده » .

« وهكذا باتت بنود الكفر ترفرف على قرابة مائتى مدينة من مدن الإسلام التى خرب ما بها من مساجد ومسبى ما بها من نساء المسلمين وقتل أطفالهم فيها » .

« أما مدى قوته ومبلغ عنته ، فعلى حساب أهل الهند وجريا على قواعدهم ، فإن كل إقليم خراجه لكا (أى مائة ألف) يستطيع أن يقدم مائة فارس ، وما يكون خراجه كروا (عشرة ملايين) يقدم عشرة آلاف فارس ولما كان خراج ولاياته جميعا يصل إلى عشر كروور فقد كان فى وسعه أن يجتمع له مائة ألف من الفرسان » .

« هذا وقد أقبل عدد من أمراء الكفار يقدمون العون له لأول مرة بدافع من أحنائهم للمسلمين . وكان لهؤلاء إعطاعات واسعة ؛ فهذا صلاح الدين أمير بهلمسه وربانن وسارنكهور ، كان له ثلاثون ألفا من الفرسان ، وهذا راول لودى سنك ، صاحب دنكروور كان له اثنا عشر ألفا ، ثم حسن خان ميواتى وكان له اثنا عشر ألفا ، وبارمل حدى وكان له أربعة آلاف ، ونريت هاره ، وكان له سبعة آلاف ، ومندى راي ، وكان له اثنا عشر ألفا ، وستورى كجى ، وله ستة آلاف ، وهرم دوى ، وله أربعة آلاف ، ويرسنك دوى وله مئتهم ، وأخيرا « محمود خان بن السلطان سكندر خان » فبرغم أنه لم يكن له من الملك نصيب فقد تم له جمع عشوة آلاف فارس أمل أن يصل بهم إلى العرش (١) » .

(١) لم ترد عدد قوات هؤلاء الحلفاء فى هذه الواقعة على مائة وعشرين ألف فارس Prasad 274
فى حين لم تكن قوات بابر تزيد على ما اشترك به فى « واقعة باقى بت » . هذا وقد أثرتا فى القسم الأول من هذا الكتاب إلى السر للقلب فى نهزم جموع الهندكة على كثرتهم أما الفؤاد المسلمين على قتلهم ، وإن زاد على ذلك استخدام بابر للمدفعية والبلندق التى لم تكن الهند تعرفها من قبل .

« هكذا انطلقت جموع أولئك الكفار معاً ، كظلمات بعضها فوق بعض فسي حرب أهل الإسلام والعمل على هدم شريعة سيد الأنام ، لكن المجاهدين تقضوا عليهم طلباً للشهادة في جهاد الكفار والمنافقين .»

« وفي يوم السبت المبارك الثالث عشر من جمادى الثاني من عام ٩٢٢هـ أقام جيش الإسلام المظفر مضارب خواجه على تل بجوار خانوه إحدى مناطق بيانه. حتى إذا ما قدم الكفار بالآلافهم - كأصحاب الفيل - برز لهم صلكر المسلمين - رباحين الجلة - يقاتلون في سبيله صفاً صفاً كالبنيان المرصوص .»

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »^(١) .

« هنالك أجمع أهل الخبرة على تغطية موضع حملة البنادق وستر مكائهم ، وكانوا في الجبهة ، فنهجوا في ذلك نهج مجاهدى الروم^(٢) ، فصفت العريكات أمامهم وقد شد بعضها إلى البعض الآخر بالسلسل .»

« وكانت جيوش الإسلام تنتظم في إحكام تام ، والحرس الشاماني قد توسط الجناحين منها ، وقامت فرق المناوشة بالخصى الجناحين .»

« وحين تقابل الجيشان ، وكائهما الليل والنهار ، بدأ الاشتباك عند الجناحين ، واشتد لولر الحرب حتى كأنما الأرض قد زلزل زلزالها ، وبلغ ضجيج قسقة السلاح صنان السماء . حتى إذا ما اقتحم جناح الأشتقاء الأيسر ميمنة المسلمين ، سارعت نجدتنا إليهم ، فلم تكتف بردهم حتى ظلت تطاردهم إلى قلب جيوشهم .»

« وألهم بالتوفيق ، نادرة عصره « مصطفى الرومى » وكان في القلب فسي إمرة ابنه « محمد همايون » فتقدم بمدفعه ويناديه وقذائفه ، فحطم صفوف الكفار .»

« حتى إذا ما زحف ألواحهم من جديد تترى لتجدة رجالهم فكروا على جيلح المسلمين الأيسر في عطف وشدة ، طلق الغزاة نوايا لنجاة يستقبلوهم في كل مرة

(١) سورة البقرة : الآية ٥ .

(٢) أى المشائيون .

بالسهام فيبعثون بهم إلى دار البوار ، أو يرغصوهم على الفرار ، وهم يرددون قوله تعالى : ﴿ قل هل ترمضون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾^(١) .

« وحين حمى وطيس الحرب صدرت الأوامر إلى رجال الحرس لشاهاة في البروز للقتال ، وكانوا في مواقعهم من وراء المدفعية كالأسود في أنفاسها ، فاندفعوا من يمين القلب ويساره كطلعة صبح صادق أمل من وراء الأفق فخرجوا الكفار في دماء بلون الشفق وأطاحوا برعوس الكثيرين منهم » .

« هذا كما طلق ، نادرة العصر ، الأستاذ عليقلی یقذفهم^(٢) وأتباعه ، من وسط الجبهة ، بقذائف تحل الجبال الراسيات كالعهن المنفوش ولو كوفى الولحد منها بقلها أصلاً طيبة لثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية، فحصد بها الكثير من الكفار حصداً .. » .

« كذلك سقى حملة الهذلق - من وراء المدفعية - كثيراً من الأعداء كأس الحمام في الميدان ، وأظهر المشاة من ضروب المخاطرة ما يخلد أسماءهم مع أسد الغاب للصيد والأبطال الصناديد » .

« وفيما الحال يجري على هذا المنوال ، صدرت الأوامر بتقدم المدفعية من مواقعها إلى الأمام ، وبدأت الحضرة الخاقانية بدورها في تقدمها، وفتح في ركبها والظفر واليمين . فزحفت على فرقة الكفار » .

« واختلط الضارب بالمضروب ، والغالب بالمغلوب ، واعتدت سحب الغبار فوق الرعوس وقد حجب الشمس عنهم حتى توارت المرئيات ، فلم يكن يضيء هذا الليل إلا لمعات السيوف ومضائتها ، وما ينبعث من الشرر حين تضرب الخيل الأرض بحوافرها في الكر والفر » .

(١) سورة التوبة : الآية ٥٢ .

(٢) كان لباير إلى جانب مدفعه قطع أخرى يسميها فرنكية عدا بناقله التي تعرف باسمها التركي « تنك » هذا وكانت عربته الحربية تصل إلى ثمانية .

Elliot & Dowson, India vol. VI. P.468.

« وختف الهتف بالفرزاة المجاهدين أن » ولا تهنوا ولا تحزبوا وأنتم الأطلون »^(١). وأنه « نصر من الله وفتح قريب »^(٢) فاقبلوا فرحين مستبشرين يقاتلون في طلب الشهادة . وبلغت المعركة أوجها بين الصلاة الأولى والثانية ، ليفتح المسلمون من بعد ذلك في تطويق جيوش الكفار وحصرهم بمكان واحد .

« حتى إذا ما رأى هؤلاء الأشرار الملحون أنه قد أحبط بهم ، انطلقوا مستبشرين يهاجمون من جديد على طول الجبهة حتى كاد النصر يواتيهم عند الجناح الأيسر ، لولا أن أطبق المجاهدون عليهم فلقطعهم من أملاكهم ولزموهم طريق الفرار قسراً » .

« هنالك أقيمت تسليم النصر على بستان حظنا ومعها مدد من قوله تعالى : { إن فتحنا لك فتحاً مبيناً }^(٣) . وتجلى لأعيننا الإقبال والسعادة في كلامه عز وجل : { وينصرك الله نصراً عزيزاً }^(٤) . »

« وهكذا انفرط صدق الهناكة فتناثروا كالمهن المنفوش ، فملهم من سقط في حومة الوضي ، وملهم من هلك في تيه الخراب فصار طعماً لجوارح الطير ، حتى تكسدت أجسادهم بعضها فوق بعض كالهضبة الرابية وتكومت رموسهم كالمناثر العالية »^(٥) .

« وكان من بين القتلى حسن خان ميواني وكثيرون من أمراء الكفار أصحاب الشوكة والأعوان الذين بعثت بهم السهام ونيران البنادق إلى مقر » .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٩ .

(٢) سورة الصف : الآية ١٣ .

(٣) سورة الفتح : الآية ١ .

(٤) سورة الفتح : الآية ٣ .

(٥) من تقليد التميموريين أنهم كانوا على أثر كل نصر ، يقيمون من رموس القتلى من أحدهم على هيئة أمراء ومناظر .

« أما دار الحرب فقد غصت بالجرحي منهم ، فكانت كجبههم حين يتلقى خزنتها المناقطين فتمتلئ بهم ، كما لم يكن هناك موطن لقدم إلا وفيه صرعى من علياتهم . » وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ^(١) .. » .

هكذا استمرت معركة خافوه من الضحى حتى الغروب لتنتهى بهزيمة عصابة الراجبوتيين هزيمة حاسمة ، وهروب رافاسنكا زعيمهم إلى أحد حصونه بالجبال متغلا بجراحه ، فلم يكد به الأجل إلا عاما وبعض عام ^(٢) .

وبهذا أتيح للغزى ^(٣) التيمورى أن يزل بأعدائه بالهند ضربتين حاسمتين فى مدى عام واحد ، ضعضعتا من كيانهن وقضتا على قواتهم .

ولئن مكن للبادشاه انتصاره عند بائى بت من الجلوس على عرش أكرا ، فقد تم له فى وقعة خافوه القضاء التام على الخطر الراجبوتى الذى ظل يتهدد سلطان المسلمين بالهند قرونا كثيرة فلم تقم لهم قائمة من بعد ذلك أبدا ^(٤) .

وبهذا النصر ، الذى لم يؤته أحد من سلاطين الهند المسلمين منذ أيام محمود الغزنوى ومحمد الغورى ، طار صوت باهر ، وازدادت هيئته بين المسلمين فى الهند ، وتوطد مركزه على عرش أكرا ، وأرسخ الأساس الذى قامت عليه الدولة المغولية ، فلم يعد يحارب دفاعا عن عرشه وتثبيتا له ، فصار خروجه لتوسيع رقعة ملكه ويسط نفوذه وسلطانه فى الغالب .

الخلاصة الشرفية :

كان على باهر لى يغزو سيد الهندستان كله ، بعد أن تم له القضاء على عصابة الراجبوتيين وأمنت أراضيه حول دهلى وأكرا ، أن يتسولى على بعض

(١) سورة آل عمران : الآية ١٢٦ ، حافظنا فى نقل هذا الوصف إلى العربية على أسلوب الأصل وصورته الأبية ما وسعنا ذلك ، ولم نرفع منه إلا أسماء القواد لكثيرة .

(٢) Havell p.425 .

(٣) اتخذ باهر لنفسه هذا اللقب على أثر انتصاره فى الوقعة . تاريخ رشيدى ٤٠٩ .

(٤) Lane Poole 210 .

الحصون الكبرى التي ما يزال يحتصم بها أمراء من الهنداكة ، ويقضى على نفوذ
الأمراء الأفغان في المناطق الشرقية ، ويخمد ما يثرونه من قنن هناك ، فقد كان
يعلم أنه لا سبيل إلى مهادنتهم في الغالب ، وهم الذين أدى بهم كبرياتهم إلى تقويض
عرش السلطان اللودهي ، زعيمهم وابن جلدتهم ، من قبل .

وسارت جند أكرا صوب للشرق بطريق قنوج ، في حين قصد البادشاه ، على
رأس فريق آخر من قواته ، حصن جندري عند أقصى الجنوب من كواليار وكان
عليه أمير هندوكي قوي هو مودني رلو .

وبرغم امتناع أسوار الحصن على مدفعية المسلمين ، إذ كانت من الحجر
الصلب ، فضلا عن موقعها بأعلى التلال ، فإن الجند استطاعوا تسليق هذه الأسوار
والتصرب إلى داخلها لوشتركوا مع الحامية في قتال وحشي عنيف رد فيه فريق منهم
عن أملاكه .

ذلك أن رجال الحصن حين أيقنوا بضياح قلعته من أيديهم ، قتلوا نساءهم
بأيديهم ، ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم على سيوف الخزاة مقاتلين في ضراوة وشدة
بلس ، في حين كان أميرهم ونفر من خلصاته يتبادلون فيما بينهم الطعجات حتى
فنى أولئك وهؤلاء جميعا عن آخرهم^(١) .

وكان في خطة بابر ، بعد الفراغ من الاستيلاء على هذا الحصن ، أن يخضع
بعض حصون أخرى بمالوه ، ثم يسير إلى الراجپوتانا من جديد ليقهضم جتور
عاصمة موار ومقر خصمه المهزوم رانا سنكا ، لولا ما بلغه من ارتداد قواته في
الشرق إلى قنوج بعد أن أرغمت على إخلاء لكتاو ، لصارع إليها بنفسه .

وبلغ بابر قنوج ليعبر رجاله جمته تحت ستر من ثيران المدفعية والبنادق
فيقتحموا في قتال عنيف مع ثوار البهار الذين قد عاد إلى تزعمهم السلطان محمود
ابن منكدر لودهي بعد هزيمته في خاوه . لولا تريت البادشاه في مطاردتهم
لأمكن من فوره القضاء عليهم قضاء تاما .

(١) تاريخ فرشته ٢٠٩ ، ٢٢٠ .

وعوق حلول فصل الأمطار القوت الغازية من الاستيلاء على إقليم بهار كله بعد ما بلغت أوده ، مما أتاح الفرصة للثوار ليعودا إلى إشعال نيران فتنة عارمة فى العام التالى استنفذ القضاء عليها كثيرا من جهود بابر وكادت تقضى إلى اشتباكه فى الحرب مع البنغال .

ذلك أن محمود لودهى كان قد اجتمع له مائة ألف من الجند استخلص بهم إقليم بهار كله ، وبعض الأراضى المحيطة به ؛ حتى إذا ما سير إليه البادشاه ابنه « عسكرى » أول الأمر ثم لحق به من بعد ذلك بنفسه فدخل « الله آباد » وجنار وينارس فأقبل عليه الأمراء الأفغان مستسلمين بعد أن انفضوا من حول الثائر اللودهى ، رايه التجاء بقية الثوار إلى إقليم خريد برغم تأكيد نصرت خان صاحب البنغال له بنزوعه إلى المصالحة وحرصه على الولاء^(١) .

هنالك رأى بابر أن يحزم أمره مع قوات البنغال التى شددت من أثر الثوار إذ كانت فى مواقعها عند النقاء للكنج برافده ككرا ، تعوق من تحركات جند أكرا فى مطارتها للثوار .

وتيسر « لعسكرى » أن يعبر ببعض قواته الملتقى الأعلى لككر والكنج فطلق يداوش البنغاليين ويشاغلمهم ، حتى تم عبور المدفعية ورجال البنادق مع بقية الجيش عند الملتقى الأدنى للنهرين ، فوقع العدو بذلك بين فكى الكماشة ، فلم يخلهم فتيلة تلوقهم العندى وإحكامهم فى التصويب ومهارتهم فى استخدام الأسلحة النارية إذ دارت الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار .

وهكذا انتهت معركة ككرا إلى القضاء التام على الثوار الأفغان وإعلان صاحب البنغال ولائه للبادشاه .

وبهذه الواقعة التى تعد ثالث معركة حاسمة خاضها بابر فى الهند ، بعد معركتى باتى بت وخاتوه ، غدا ذلك الأمير التيمورى صاحب السلطان المطلق فى

(١) أكبر شاه ورقة ٢٩ ب .

الهندستان ، وغدت دولته تمتد في رقعتها المترامية الأطراف من جيحون إلى البنغال ومن الهماليا إلى جندي وكواليار^(١) .

وآب بابر إلى عاصمته في شوال من عام ٩٣٥ هـ فلبث بها قليلا ، ليخرج منها من بعد ذلك إلى البنجاب وفي نيته أن يواصل سيره إلى نخشان ، فيدفع عنها الأوزبك الذين استقل خطرهم من جديد برغم ما أنزله بهم طهما سب ، شاه الفرس ، من ضربات قلصمة .

ولعل خوفه من قيام القلاقل بالهند في غيبته وبدلية اتسيار صحته نتيجة للجهود المضنية المتواصلة التي بذلها في حروبه ، قد منعاه حتى من الشخص إلى كابل ، وكان غير بعيد منها ، وهي التي طالما ردد اعتزاله بها وشوقه إليها .

وقد علم على بابر ، بلاهور ، ولده الأكبر همايون فصحبه إلى أكرا ، وكان القدر قد استجاب للبادشاه حين اشتد الداء بلبنه هذا ، فتمنى على الله أن يجعله فداه ، فلم يبرأ همايون من علقته حتى رقد بابر مكانه فلم يغادر فراشه من بعد ذلك إلا إلى لحد^(٢) .

حين شعر بابر بنمو أجله دعا إليه رجال دولته فأخذ منهم البيعة لولده همايون بعد أن أوصاه بهم وبأهل بيته وأخواته ونصح به باسطناع اللحم والتترع بالحزم في حكمه .

وحاول بعض رجال الدولة ، والبادشاه يعلى سكرات الموت ، أن يفعلوا حين وصية أميرهم فبعثوا بالملك إلى أحد أتمياء بابر ، وكان يدعى سيد مهدي خواجة ، لتكشف لهم المصادقات عندئذ عما كان ينتويه لهم مرشحهم هذا من أذى وشر فبعثوا إلى سيرةهم الأولى .

(1) Grenard, Baber pp.156 – 58 .

(2) كان مما عجل في نهائيه في الغالب إيمانه كذلك على تملطي المعجون (الأفيون) وإن أطلع عن تناول الشراب تملأ عند حربه مع رافسكا في معركة خافوه . تاريخ رشدي ٤٦٩ .

ومضى بابر فى السادس من جمادى الأولى من عام ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م وهو فى الخمسين من عمره ، والعالم الثامن والثلاثين من حكمه ، فتوى فى بستان نور أفشان على جمنه . ثم نقل جثمانه من بعد ذلك إلى كابل فدفن بربوة تطل على هذه المدينة التى كانت أحب بقاع الدنيا إلى قلبه ، والتى خرج منها فتم له إقامة ملك عريض شمل الشمال الهندى ، وما غدا أولاده يزيدون فيه حتى خضعت لهم شبه القارة الهندية كلها .

شخصية بابر : لا يعد ظهور الدين محمد بابر أعظم حكام المسلمين فحسب وفيهم إسماعيل الصفوى شاه الفرس وسليم الأول سلطان العثمانيين ، بل هو أعاجيب الزمان همة وطموحا وصبرا على المكاره .

ولى عرش فرغانة ، تلك الأرض الصغيرة عند سحون ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، وليس له من بين جيرانه أو ذوى قرياه ناصح أو صديق ، إذ كانوا جميعا بين طامع فى ملكه أو على هداه سابق مع أبيه . فلولاً بقية نقر من خلصاء أبيه القضاء لتضى عليه من بادئ الأمر وضاع مورثه من الملك .

تعرض بابر منذ شبابه لمحن ومتاعب جارفة عنيفة ، فلم يعرف اليأس إلى ثابة سيلا أبدا ، فكم من مرة أفض عنه أنصاره وأغلب رجاله حتى وقف وحيدا شريدا لا أرض له ولا مال ولا رجال ، فعاود جهاده من جديد ومضى فى مغامراته . حتى رأيناه يذكر فى سيرته أنه منذ ولى العرش عام ٨٩٩ هـ حتى علم ٩٣٣ هـ ، أى فى مدى خمسة وثلاثين عاما ، لم يقض رمضان عامين متتالين بمكان واحد^(١).

ولى بابر عرش فرغانة ، كما جلس على عرش جده الأكبر تيمورلنك فى سمرقند ، فإذا الدوائر تدور عليه فيقتد جميع أملاكه ببلاذ ما وراء النهر ويغدو شريدا طريدا يسير أغلب ليله ويختفى معظم نهاره ، ولا يأمن أن يبيت بمكان واحد

(١) بابر نامه ٣٣٠ .

لبلتين متعاقبتين حذر الوقوع في يد غريمة شيباني خان الأوزبك الذي أخذ على نفسه القضاء على البيت التيمورى الذى آواه وآياه من قبل^(١).

ويظل باير يضرب في الصحراوات والجبال عاما وبعض عام حتى يلتقى ، وهو فى طريقة إلى الخروج من بلاده ، بجموع من عشائر المغول والأتراك ببخشان فتسير فى ركابه هربا من وجه الأوزبك ومعها الكثير من أموال حصار وبخشان فيدخل بها أرض كابل وغزنة ويجلس على عرشها وكان فى حوزة التيموريين لسنين طويلة خلت .

ويكسر إسماعيل الصفوى ، شاه الفرس ، شوكة الأوزبك ويتنصلى على زعيمهم شيباني خان . فتجدد الآمال عند باير لاسترداد بلاده وبلاد آبائه بما وراء النهر بمعونة الشاه الفارسى ، حتى إذا مارد عنها بعد توغله فيها حين نقض السكان عهدهم معه ، لما أذاقهم حلفاؤه من ويلات لإرغامهم على اعتناق المذهب الشيعى ، ولى وجهة قبل الهندستان لقتى سبقه إليها آباؤه من قبل ، فى عزم وقوة فتوح له بهما أن يقيم بها دولته لقتى خلعت ذكره فى التاريخ .

وكان لضالة قواته فى بدء حياته ، ثم تدرجها فى الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها فواتد جملة فى حروبها الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكيمة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويبد كل تنمر أو فتنة تشيع بينهم فى مهدهما ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بحر الهند وقاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح فى أكرأ عقب دخولهم فيها ، واستنهض همهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم للخوف قليل لقاء الراجبوتيين فى معركة خاتوه .

(١) تاريخ رشيدى ١١٦ - ١٢٠ ، ١١٦ ، ١٦٧ .

على أن يابر ورث عن أجداده، من المغول والأكراد على السواء، إلى جانب صفات الجندية، ميلهم إلى الأمان في تكتيل أعدائهم وتأخيرهم بعظم الأكدراس التي كانوا يقيمونها من رموس القتلى على هيئة المنائر والأهرامات، واقتهاهم لدير أعدائهم وإشعال النار فيها ما لم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلطانهم.

وشمة خصال غير حميدة ورثها يابر عن آباءه وورثها أبناؤه من بعده، كالإيمان على تناول الشراب الذي لم يقلع عنه عند حربه مع رانا سنكا إلا ليمن تعطى المعجون ذلك المخدر القوي الذي عجل في الغالب في نهايته ولما يبلغ الخمسين من عمره، برغم ما اشتهر عنه في شبابه من قوة جسدية خارقة حتى كان يطوى ذراعيه على الرجلين ويتخطى بهما الخنادق قفزا في تتابع سريع، ورغم ممارسته كلفة ضروب الرياضة المعروفة في عصره، حتى ليذكر في سيرته أنه سبح في كل نهر صادقة في حياته، وقطع نهر الكنج في عرض موضعه في ثلاثة وثلاثين ضربة، وهو ما لم يتوسر لغيره من رجاله^(١).

وعرف هذا السلطان التيموري ببفضه للتعصب الديني وبعده عنه، ونهج أبناؤه في الهند نهجه فمارس الهناكة طقوسهم الدينية في حرية تامة إبان حكم الدولة المغولية في الغالب^(٢).

ويبلغ من تسامح هذا الجندى الموهوب أنه تغاضى عما أقرله به بعض رجاله وأقاربه من أضرار سالقة، بل لقد عفى عن هؤلاء، حين وفدوا عليه بالهند، برغم أن منهم من أبى أن يضيقه وأمه حين ضاق به الحال ببلاد ما وراء النهر، لقد كان يهدف أبداً إلى كسب عدد كبير من الأصنفاء إلى صفوفه.

وكان من قبيل هذه المرونة السياسية إقباله وجنده على ارتداء لباس القزلباش الفرس مجاملة منه لحليفه إسماعيل الصفوي واستزادة لعونه ومساعدته، وإن لم يمنعه ذلك من معارضة قواد الفرس لما كانوا ينزلونه من مذابح بالأهلين بأرض بلاد ما وراء النهر تعصباً منهم لمذهب الشيعة.

(١) يابر نامة ٣٦٣ ب.

(٢) يابر نامة ٣٦٣ ب.

هذا كما أفلح بدمائه أن يحول الأمراء الأفغان بالهندستان من عدائهم له مجتمعين إلى معاداة بعضهم البعض الآخر، ومن ثم فتح أبواب بلاطه لكل من قدم إليه مستسلما في الوقت الذي كانت جيوشه تطارده فيه من أصر منهم على عصيانه، حتى دانت له الهندستان كلها في أقل من سنوات خمسة.

حكومة الهندستان : لم يمض باهر بالهندستان، منذ أن دخلها فجلس على عرش أكرا حتى وافاه الأجل بها سوى سنوات ستة قضى أغلبها في حروب متواصلة لإرساء قواعد دولته، فلم ينعم بالسلام إلا علما وبعض العام، وهو أمد قصير لا يتألى معه لأى حاكم مهما أوتى من المقدرة والكفاءة، أن ينظم شئون بلاد مترامية الأطراف كثيفة السكان، متعددة الأجناس والأديان كالهندستان.

ولئن أبقى البادشاه على هيكل الإدارة الهندية فقد أدخل عليه، على كل حال، بعض النظم التيمورية، فجعل على كل إقليم نائبين له، يقود أحدهما الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان، ويتولى الآخر الإشراف على الإيرادات والمصروفات ويوزن بينهما، ويدفع للجند والصل أجورهم^(١).

وكذلك كان من مبادئ التيموريين التي ساروا عليها بالهند ألا يترأخى العمال في جمع الخراج والمكوس، دون إلحاق الأذى بالناس، وحض نوابهم على إجراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون في ذلك بين مسلم وهندوكي^(٢).

على أن بعثرة باهر لما وقع بأيديه من أموال طائلة وكثوز بأكرا، وما ذهب إليه من بذخ في العطاء والبنل حتى أطلق عليه أصحابه لفظ "قلندري"^(٣) ثم رفعه التمتع عن رعاياه قبيل حرب راناسنكا أدى ذلك كله إلى اضطراب ما ليته فذهب يفرض على الناس الضرائب من جديد.

(١) يقدر باهر في سيرته دخل الهندستان بما يوازي المليونين ونصف المليون من الجنيهات باهر لانه ٢٩٢ - ٢٩٣.

(2) The Indian Moslems p.23 - 24.

(٣) تاريخ فرشته أول ٢٠٦. وقول "قلندر" كان صاحب طريقة تدعو إلى الزهد في المال والنساء والقلندري هو الزاهد في حطام الدنيا حتى تعنى ليجود بكل ما تصل إليه يده.

هذا، كما أمر بمسح كثير من الأراضي وشق كثير من الطرق ليربط بها بين مختلف أجزاء بلاده، وكان أعظمها تعبيد الطريق الطويل فيما بين كابل وأكرا، وإقامة منائر به ليتهدى بها السابلة، ومنازل للمسافرين والدواب^(١).

ولقد زار بابر بكواليار أفخم دور الهند في عصره وهي قصر بكر ماجيت وابنه ما نسله ، ويرغم ما ذكره عن التلّوق في بلاتهما ونقوشهما، قد ضاق ببدهما عن التماسق مع سوء التهوية وتوزيع الضوء بهما .

ونسى بابر، وهو يظهر امتعاضه من هيئة مباني الهند، ما أنزله على الأخص جدّه تيمور من تخريب ودمار بهذه البلاد أدى إلى انهيار كثير من منشآت الفزنويين والغوريين وآثار خلفاتهم الفخمة، وما ساقه كذلك معه من صفوة رجال المعمار الهندود ليقموا له منشأته الفخمة ببلاده، تلك المنشآت التي طالما أشاد بذكرها في سيرته وعظم من شأنها .

وبلغ من ولع بابر بالعمارة أنه كان يستخدم بضع ألوف^(٢) من مهرة النحلّتين والبنّاتين ليقموا له منشآت من قصور ومساجد وحمامات ونافورات وخزانات للمياه، في أكرا وسيكري وبيانه ودهوليور وكواليار وكول .

ومنشآت بابر الباقية حتى اليوم بالهندستان هي مساجده الثلاثة في بائي بت وسنبل وحصن اللودهيين بأكرا .

ويقال أن شغفه بالعمارة، مع ضيقة بمعماري الهند، قد دفعه إلى أن يسأل سنان، معمار العثمانيين الشهير، أن يمدّه ببعض تلاميذه. والغالب أنه لم يجبه إلى طلبه، وآية ذلك عدم ظهور أي أثر لطابع المدرسة العثمانية هناك وأدى كلف بابر بالطبيعة وما تبدعه إلى إقامة طائفة من البساتين والحدائق حاكي ببعضها مغائى كابل التي طالما ترم بذكرها، ومنها بستان جار باغ بظاهر أكرا

(١) بابر تلمه ٣٥١ .

(٢) بابر تلمه ٢٩١ ب .

الذى جعله نظير سموه الكلبى، وقد جلب إلى رياضه هذه كثيرا من النباتات وأشجار الفاكهة التى لم تكن تعرفها الهند من قبل^(١).

ونهج أبناؤه من بعده نهجه الفنى هذا وزادوا عليه، حتى لترى اليوم نمط الحدائق المغولية الهندية تقوم بطلاقة من مدن إيطاليا وبريطانيا على الأخص^(٢)، كما تزرع متاحف العالم للكبرى برواق نقوش الهند وتراثها الفنى لعهدهم.

وصف بابر للهندستان : وصف بابر هذه البلاد فى سيرته التى كتبها بنفسه وصفا مفصلا استوعب كل ما وقع عليه نظره فيها . فقال عنها إنها عالم قائم بذاته يختلف اختلافا تاما عن كل الأقاليم التى عرفها، سواء فى طبيعة أرضه أو مناخه وزرعه وأنواع الحيوان فيه وعروق السكان وطبائعهم وعاداتهم وألسنتهم وعقائدهم^(٣) :

" إن الإنسان ما يكاد يعبر حدود الهندستان فى ناحية الغرب حتى يرى معالم هذه البلاد واضحة قوية توحى من فورها بعظم ثباتها عما عند جيرانها ."

" وتستمد أراضيها وزراعتها فى السقى على الأنهار وروافدها، فلا تكسوات عندهم أو ترعا أو مصارف. وقد صدهم عن إنشاءها مطول الأمطار التى تأتي بها الرياح الموسمية، فهى عماد سقيهم فى أماكن شتى، وهم يحتزنون من ماتها الكثير."

ولم يرق بابر هيئة مدن الهند ومظهر ريفها، ولا حدائقها " التى لا تتساقط فيها ولا أسوارها، فلا وجه لقياسها ببساتين كابل ورياض وفرغانه والماء ينساب بين خملاتها "

ولاحظ بابر كذلك وجود آثار كثيرة لقرى ومدائن مهجورة، ذلك أنه كان من عادة أهل الهند، حين يفد الغزاة على أرضهم، أن يفروا من وجههم ويهجروا بلدانهم.

(١) المصدر السابق.

(2) Gerratt. Legacy of India pp 299 – 302.

(٣) بابر نامه ٢٧٢ – ٢٩٢.

كذلك وصف بالبر صنوف الحيوان والطير وأنواع الثمار والفاكهة بالهند ففى
دقة وتفصيل، ليتحدث من بعد ذلك عن التقويم الشائع بها وأسماء الشهور وأيام
الأسبوع وأقسام الليل والنهار هناك :

" إن حساب الليل والنهار عند الهنود يختلف عن نظيره عند غيرهم من بقية
الأمم، فالشعوب، فيما عداهم، يقسمون الليل والنهار إلى أربع وعشرين قسماً، أما هم
فيقسمونها إلى ستين قسماً، يدعى كل واحد منها " غرى " وفترته أربعة وعشرون
دقيقة. كذلك يقسمون اليوم إلى أقسام أربعة يعرف كل قسم منها باسم " بهر " وهو
الساعة الزمنية الهندوستانية."

" وفى كل مدينة من مدن الهند الكبرى طائفة تدعى " غريالى " وهم
المقاتلون، وعدتهم صفحة من الناس ومطرقة من الخشب. وهم يلازمون ساعة
مائية بمكان عال مخصوص، فيقرعون غريالهم، كلما امتلاء كأس الساعة أو فرغ
قرباً سريعاً متتابعاً لكيها للناس، ثم يردفون ذلك بدقات بطيئة تبين الوقت لهم."

" ووحدة الوزن فى الهندستان هى " الماشة " وكل خمس منها تعادل مثقالاً
واحداً. أما معيار الجواهر والأحجار الكريمة فهو " نلاك " ويعادل أربع ماشات."

" ومملكة الحساب عند أهل الهندستان قوية واضحة. فكل مائة ألف هى " لكه "
وكل مائة " لكه " هى " كرور "، وكل مائة " كرور " هى " أرب " وكل مائة " أرب "
هى " كرب " وكل مائة " كرب " هى " نيل " وكل مائة " نيل " هى " بدم " وكل
مائة " بدم " هى منك.

وضخامة هذه الأرقام تقوم فى الغالب دليلاً على ضخامة ثرواتهم.

" وأهل الهندستان تنفر النفس منهم ولا تطيب إلى معاشرتهم، ولا تقوم فيما
بينهم صداقة أو يضمهم مجتمع. وهم ليسوا على شئ من صفاء العقل أو حميد
العادات والخصال، فلا إنسانية عندهم ولا كثرة من عبقرية أو ميل للاختراع أو
مهارة فى المهن والحرف أو خبرة بالمسار والنقش والزخرفة "

" كذلك تراهم لا يعرفون الخيل المطهمة، والطعام الطيب والفواكه الجيدة والماء المتنج، وليس لديهم حمامات أو مغاسل أو مدارس. ولا يعرفون الشموع، فيستضيئون بمسارج الزيت القذرة فتصعج بيوت كبرائهم وسراهم بمئات منها " .

« أما ابنيتهم، ففضلا عن رداءة تصميمها وتجردا من الجمال، فهي لا تتواءم مع بيئتها أبدا. وهم لا يمدون الماء إلى دورهم في القنوات ولا يجرونه كذلك إلى الحدائق، فخلت قصورهم وبساتينهم من ذلك كله » .

« ويسير عامة الفلاحين ورجال الطبقة العاملة شبة عراة، إلا مما يستر عورتهم، وهو " لنكوتى " يشدونه حول وسطهم ويعطو عند النساء حتى يستر الصدر فيدعى " لنكى " » .

« وفيما عدا ذلك فميزة الهندستان الكبرى أنها بلاد مترامية الأطراف يتوفر الذهب والفضة فيها بكثرة » .

« ومناخ الهندستان في فصل الأمطار لطيف. ولما أمطارها فغزيرة جدا، حتى لتفيض سيولها كالأنهار وتجري في الأراضي التي ليس بها للماء عيون أو مجار. وتتكدس الرطوبة في هذا الفصل فتصيب كل ما تصادفه بالتلف، سواء في ذلك الأبنية أو الأثاث والملابس والأوراق » .

« ويتخلل فصل الأمطار هبوب شديد محمل بالأكثرية يسمونه «آدهى»، وتؤدي شدته في بعض الأحيان إلى تحذر الرؤيا » .

« ولا يخلو الشتاء والصيف من أوقات لطيفة. إلا أن حر الصيف الهندى، حين يشتد، لا يطاق، ولا يقارن بغيره في البلاد المجاورة » .

« والأيدى العاملة العادية متوافرة في كل مهنة وحرفة إلى درجة بعيدة، هم ينوارثون الحرف والمهن عن آبائهم ويورثونها لأنهم بدورهم.

وقد استخدم تيمور لك فئة كبيرة من النحاتين الهنود في بناء مسجده الكبير بمدينة سمرقند » .

كذلك تحدث بابر عن حدود الهندستان وموقعها الجغرافي، وما بها من ولايات، فذكر ما هو منها بأيدي المسلمين وما هو بأيدي الهنّاكة، كما فصل خراج كل ولاية ونصيب صاحب دهلّي منه.

والغالب أن الأجل لو كان قد امتد به فطالت حياته بالهندستان، لعدل كثيرا فيما كتب عنها، ولم يقصر ميزاتها على أنها إقليم كبير فيه فضة وذهب كثير^(١).

بابر نامه : خلف بابر وراءه ثروة أدبية في الشعر والنثر ضمنت له شهرة الأديب المطبوع، إلى جانب صيت الجندي الموهوب^(٢).

وفضلا عما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركي كثير، كان يتشده في سباته، فقد ترك ديوانا له بالتركية^(٣) وأشعارا أخرى كثيرة فارسية وأصواتا في الغناء والموسيقى^(٤).

وتعد سيرته المعروفة باسم « بابرنامه » أعظم آثاره الأدبية على الإطلاق، وهي كتاب النثر التركي التقليدي بحق حتى اليوم. وقد كتبها بنفسه في لغة تركية (جغتائية) سهلة وأسلوب يدل على ذوق أدبي رفيع، وينم عن تمكن صاحبه من أصول الثقافة الإسلامية وآداب العريباء والفارسية تمكنا تاما.

لم يذكر لنا بابر في سيرته للتاريخ الذي بدأ عنده كتابته لها. على أن إشارات، في أوراها الأولى، إلى رجاله ممن كانوا معه بالهندستان، وإلى زيج كان يستخدم بالهند، يقطع بمرآسته لها هناك، حتى ذكر في أوراها الأخيرة أنه أمر بنسخ أجزاء منها وإهدائها إلى بعض الأمراء الذين طلبوها منه.

(١) ذكر بابر نفسه في ختم حديثه عن الهندستان أنه لا يدخل أن يثبت من جديد ما قد سمعه أو يلاحظه من أمور هذه البلاد.

(٢) تزيخ الحضارة الإسلامية من ١١٢، ١١٣.

(٣) نشر ما عثر عليه منه « نيسون روس » J.R.A.S.B. 1910.

(٤) أكبر شاه ٥٧.

وأغلب الظن أن الأجل لو كان قد امتد به لنقح فيها كثيرا ولصاغ أجزاءها الأخيرة على الخصوص في أسلوب يتماشى مع رصافة في أقسامها الأولى فلا تبقى أشبه بيوميات تبحث المال عند قارئها .

ومن لسف أن الأصل الأول لهذه السيرة قد فقد . وكلمل مخطوطاتها التي بين أيدينا والتي يرجع تاريخها إلى عام ١١١٢هـ ، ١٧٠٠م^(١) به ثغرات خمس تتضمن حوادث تسع عشرة عاما بينها كالاتي :

- ١ - من أواخر عام ٩٠٨ هـ إلى نهاية عام ٩٠٩ هـ .
- ٢ - من أوائل عام ٩١٤ هـ إلى نهاية عام ٩٢٤ هـ .
- ٣ - من أوائل عام ٩٢٦ هـ إلى أوائل عام ٩٣٢ هـ .
- ٤ - من رجب عام ٩٣٤ هـ إلى آخر هذه السنة .
- ٥ - من المحرم عام ٩٣٦ هـ حتى وفاة الباشا في جمادى الأول من عام ٩٣٧ هـ .

وقد نقلت هذه السيرة إلى الفارسية في عهد أكبر ، حفيد بابر ، في نهاية القرن العاشر الهجري ، كما نقلت إلى بعض اللغات الأوروبية في العصر الحديث ونرجو أن ينهيا لهذه السيرة القيمة الممتعة من ينقلها بدوره إلى العربية .

إن التقارب الكبير عند الذين أرخوا لباير وعصره وما وصل إلى أيدينا من سيرته لوجعنا نميل إلى تصديق حديثه حين يقول بأنه لا يهدف في كتابته إلا إلى الصدق ولا يجرى قلمه بخير الحق ، فهو حين يذكر بالخير أو السوء عدوا أو صديقا ، أو يشيد بفضائل واحد منهم أو يعيب عليه ذنوبه ، إنما يبغى إقرار الواقع فحسب (نون ميل أو هو^(٢)) .

(١) وهو المعروف بمخطوط حيدر آباد وقد نشرته السيدة آيتا بغيريدج في مجموعة جب التذكارية عام ١٩٠٥ .

(٢) بابرنامه ٢٠١ .

والحق أنه في حديثه عن نفسه أو غيره لم يحاول أن يخفى رذيلة أو ينكر فضيلة، فصور النفس الإنسانية على طبيعتها بما فيها من خير وشر.

فهو لا يتردد مثلاً عن أن يذكر كلفه ذات مرة بغلام حسن الصورة صادقاً بمسكره، وقد بلغ به الوجد يوماً أن كاد يسقط عن دابته حين طلع عليه في طريقه فجأة. ولكنه يقف عند هذا الحد فلا ينفس في هذه الرذيلة التي شاعت عند عمه السلطان محمود ميرزا صاحب سمرقند ورجاله حتى كثرت اعتداءاتهم على الأهليين بسببها^(١).

وهو حين يحمل على صه هذا، لفرط عنقه مع رعاياه، لا ينكر حسن إدارته لشئون بلاده وحرصه على أموالها.

كذلك نراه لا يخفى ولعه بالشراب حتى كان نبيذ كابل يحمل إليه بالهندستان ويفصل لنا ما كان يجري في مجالس شربه من عبث ولهو وتطارح بالأشعار. ولم يترك هذا كله، وهو مقدم على حربه مع الراجبوتيين، إلا ليقبل على تعاطي المعجون في إيمان شديد، حتى لا تكاد الصفحات الأخيرة من سيرته تخلو من ذكر تناوله له كل يوم.

وهو إلى ذلك يتفاخر في سيرته بلكناس القتلى في معاركه الكثيرة التي خاضها، فوصفها وصفا دقيقاً حتى فصل من ضروب الشجاعة التي كان يظهرها كل فرد من أبطاله. ولا يكتفى بذلك حتى يقارن بين فتحه لسمركند وفتح السلطان حسين بيترامدينة هرات، كما يقارن كذلك بين فتحه للهندستان وفتوحات من سبقوه إليها من التزوليين وغيرهم، مع ضالة قواكه بالنسبة لعظم جيوشهم فضلاً عن كثافة جند الهند نفسها.

وهو إلى جانب تفصيله لانتصاراته يذكر هزائمه في صراحة تامة، ويبين ما صادفه من محن ومتاعب شردته في الأرض وقد تصرف رجاله عنه وتكرأقاربه له. حتى إذا ما أقبلت الدنيا عليه لم ين عن وصل هؤلاء جميعاً، ولهم من ركن

(١) بابرنامه ٢٤ أو ٧٥.

إلى التآمر عليه من جديد برغم إحصائه إليه، وفهم من قتل ذوى قرياء وسمل صيونهم بل وتعرض لأمه وآله بالمهانة والسوء وهو حين يذكر ذلك كله تفيض عليه مسحة من التواضع فيقول بأنه إنما يثبتة تقريراً للحقيقة والواقع فحسب^(١).

ويذكر بابر فى سيرته جده الأكبر تيمور فخوراً بأعماله ومنشأته وأثاره، كما يفصل من سيرة أغلب أبناؤه وأحفاده ورجالهم. حتى إذا ما بلغ بحدیثه السلطان التيمورى حسين يقرأ الفاضل إقاضة علوم متمكن فى اللغوم والفنون والآداب، فذكر من كان يزحم بهم بلاط هذا الأمير، بهرات، من الفقهاء والمحدثين والشعراء والموسيقين، حتى اليهوديين عرف بكل واحد منهم فى إسهاب قصور للناس بصنيعه هذا صورة شاملة لما كان لفروع المعرفة من ازدهار كبير بإحدى مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى فى عصره^(٢).

وأدى بابر سعه اطلاعه، التى تشيع فى سيرته، إلى إقتناء مكتبة قيمة خاصة به، كان عليها قيم له يدعى عبد الله كذا يدور. وقد ضم إليها كذلك قسماً من مكتبة غازى خان لودهى حين استولى على حصنه بالجناب، وبعث بالقسم الآخر إلى ابنه هما يون الذى كان يحرم على تشيخته طيبة^(٣).

هذا كما كان يرسل أساطين العلماء فى عصره ويستقبل للكثير منهم ببلاطه وكان من بينهم للشاعر المشهور على شير نوائى والمؤرخان خوائد أمير، صاحب حبيب السير، وميرزا محمد حيدر دوغلات صاحب تارىخ رشيدى، أما وصف بابر لبلاده والبلاد التى دخلها، فحسبه أن يذكر فريق من المؤرخين، الذين زاروا هذه الأماكن، أن أغلب ما أوردته عن بلاد ما وراء النهر وكل على الخصوص يصدق صوماً على حالها اليوم^(٤).

(١) بابرنامه ٢٠١.

(٢) بابر نامه ٨٢ - ١٧٧.

(٣) المصدر السابق ٧٥٩ ب.

(4) Elliot and Dowson, India V.IV. P220.

وهو في وصفه للبلدان لا يدع شيئاً عرفه أو وصل إلى علمه إلا وذكره، ففي حين يعدد لنا أسماء الرياح التي تهب على كابل، ويقر أنه هو أول من أدخل زراعة قصب السكر بها، إذا هو يذكر لنا أن أهل الهند يطلقون على كل أرض خارج بلادهم اسم خراسان، مثلاً يعرف العرب غيرهم من الأمم باسم العجم^(١).

وعلى هذا جرى وصفه لسمركند. فتحدث عن أصل تسميتها وتاريخها، ووصف وادبها وأسواقها وتجارتها وصلاتها وما بها من مشآت ومدارس ومساجد، كما تحدث عن حكماها وسكانها وما ظهر بها من العلماء والفقهاء ومذاهبهم وفرقهم.

وكذلك ملق الحديث عن خراسان وحاضرتها هرات مقر آل بيگراء وفرغانة مسقط رأسه، ثم الهند التي ذكرنا له قدراً من وصفها تفصيلاً فيما سبق.

ولم يكن ظهير الدين بابر في تكوينه لسيرته بدعا بين أفراد أسرته على كل حال، فقد سبقه إلى ذلك جده الأكبر تیمور، كما نهج أبناؤه نهجه من بعده.

على أنه يتميز عنهم جميعاً بتكوينه لسيرته بنفسه. فلم يكن ليتأذى لكتاب البلاط بداهة، وهم يدونون سير سلاطينهم، أن يذهبوا مذهبه في صراحته التي جرى عليها وصنفه الذي ألتزمه في الغالب.

إن بابرنامه قد خلعت ذكر صاحبها في عالم الأدب والتاريخ، كما خلعت حروبه وقبوحاته في عالم الغزاة والمحاربين. وما من شك في أن هذه السيرة لتعد من المثل الصالحة التي يستلهمها أصحاب الطموح على الدول.

(١) بابرنامه ١٢٩ أ.

همايون

لم يكن عرش أكرّا حين اعتلاء نصير الدين محمد همايون بن بابر في التاسع من جمادى الأولى من عام ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠م، تحوطه الأتراك والرياحين، ولم تكن سماء الهند التي تطله تلبى عن صفو وصفاء.

قد ترك له أبوه خزنة خاوية استنفدت هباته وطلابه من أموالها أكثر مما استنفدته د... وغزواته. كما ترك له جيشاً من أجناس مختلفة، من الجغتايين والأوزبك... والمغول، أثارت كثرة الغنائم التي أختتمت، مع اختلاف العرق، شحنة الحسد والخصومات فيما بينهم أما الأمراء، أصحاب النفوذ بالبلاد، وكانوا ما بين خوانين من المغول ومرارز به من الترك، قد ذهبوا بدورهم يؤثرون منافعهم الخاصة على مصالح الدولة العام، في حين لم يكتف أبناء بابر الآخرون وأثر بلاؤه بما أصابوا من ملكه حتى ثاروا على أميرهم الجديد فجرروا عليه وعلى أنفسهم بذلك كثيراً من المتاعب والمحن.

ولم يكن ذلك هو كل ما تعرض له سلطان الهندستان الجديد من مشكلات ؛ فقد كان الهانديك بدورهم، وهم غالبية السكان. يرون في الحكام المسلمين صوماً معتصبين لبلادهم وغزاة دخلاء عليهم. كما كان هناك بقية من الأمراء الأفغان ما زالوا بأطراف البلاد يترصدون بغزاة الهند الجدد في انتظار الفرص المواتية لينتفوا عليهم ويخرجوهم من أرضهم.

وأقوى مراكز هؤلاء الأمراء الأفغان كانت بالأقاليم الشرقية ؛ ولبرز زعمائهم كان السلطان محمود لودهي الذي انطلق وجمع شتات بني جلته من جديد ببهار، وكان بابر قد هزمه من قبل فومن هزم من صبية رانستكا بالراجبوتانا، ثم شير خان سوري ذلك الداهية المجرب الذي ستره فيما بعد ينزل بالدولة ضربات قاصمة.

وكانت البنغال ما تزال بعيدة عن متناول أيدي سلاطين دهلبي ؛ وكان يلوذ بها أعداؤهم بالمناطق الشرقية في الغالب. وكذلك كان شأن الكجرات التي طفق أصحابها، وهم سدة باب التجارة الهندية الأكبر، يبتلون من فوضى بلادهم الغنية

لتنقوية جيشهم ويستمدون الأسلحة الحديثة من البرتغاليين الذين كان لهم بشواطئهم منازل أشرفنا إليها من قبل، حتى بقوا يتطلعون إلى عرش الهند، ولم ييخلوا عن مد يد العون لأولئك الذين يناهضون الدولة المغولية الجديدة.

ولئن كانت السدة القصيرة التي استقر فيها بابر بأكرام تيسر له القضاء التام على الخارجين على سلطانه وتدعيم أسس دولته الهندية الجديدة، فإن همايون، وهو الذي تفرس بأعباء الحكم حين ألقي إليه بمقلد بدخشان وشارك في بعض وقائع أيه الهندية فأظهر من ضروب البسالة والفروسة التي اشتهر بها الأمراء التيموريون^(١)، كان كفيلا بترسم خطأ أبوه وإتمام ما بدأه من عمل، لولا تراخيه في كسب ود رجال بابر وخلصائه، ثم فتور همته وخور عزيمته، فتراها لا يكاد يمضي في الإجهاز على أحد خصومة والقضاء عليه حتى ينصرف فجاء إلى حدو آخر غيره. وهو حتى حين يبلغ غايته في القضاء على واحد من أعدائه، كان يستخف الطرب فينصرف إلى متعة عابرة غير منتبه إلى وجوب تدعيم ما أحرزه من توفيق أو مستمع إلى نصيح القادة المجريين الذين قادوا جيوش أبيه من نصر إلى نصر.

بهذا أقيحت لأعدائه فرص متكررة لجمع صفوفهم وضم شملهم من جديد حتى بلغوا إلى إخراجهم من الهند كلها والقضاء على كل ما بذله أبوه من جهود. عمل همايون بوصية أبيه، فولى أخاه كمران إقليم كابل وقندهار، كما أقطع أخاه عسكري ولاية سبيل، في حين أعطى أخاه هندال الوار وموات^(٢). أما إقليم بدخشان فقد جعل عليه ابن عمه سليمان ميرزا.

على أن كمران لم يقنع بأرضه، فاستخلف أخاه عسكري عليها ثم اقتحم مشارف البنجاب بدعوى سيره لتهنئة همايون. ولم يثقه عن غايته ما عرضه

(١) Lane - Poole p218.

(٢) طبقات أكبر ١٨٩.

عليه أخوه السلطان من ضم أمغان ويشلور إلى حوزته، حتى انقض على لاهور واعترف له همايون بسيادته على التيجاب كله.

وأدت سيادة كلمران على التيجاب إلى قطع كل صلة بين دهلې وبين البلاد الواقعة فيما وراء الهند كوش، وهي التي كانت تمد حكام الهند المسلمين دولما بإمدادات لا تنفد من أشداء المقاتلين.

وتكبر همايون موقفه بين أصدقائه من بعد ذلك، فرأى أن يبدأ بثور الأفغان الذين عادوا إلى عصيانهم السابق بإقليم بهار. حتى إذا بلغ لكهنوتى اكتفى بضرب قواتهم عندها دون أن يكلف نفسه عناء مطاردتها، وقد كان ذلك في متناول يده. وسلك شبه هذا المسلك مع شيرخان سورى صاحب حصن جنسار إذ قنع منه بالولاء الاسمي، مؤثرا أن ينصرف عنه إلى حرب الكجرات، دون أن يلقى بالاً إلى خطورة هذا التأثير.

غزو الكجرات :

وكان بهادرخان، أحد سلاطين الكجرات الكبار، قد أخضع لسلطانه أصحاب أحمد نكر وريار وكوالور، ووثق علاقته بالبرتغاليين الذين كانت لهم مستعمرات بشواطئ بلاده ذات المركز التجارى الممتاز، هذا كما اقتحم إقليم مالوه رانا مولور بدعوى استضافة صاحبه محمود الخلقى لأخيه جند خان وكان ينافسه للعرش، فصار بذلك يتلخم سلطانه دهلې فى مواضع كثيرة، وغدت آكرا نفسها غير بعيدة عنه.

وأدى ازدياد نفوذ هذا السلطان إلى أن لجأ إلى بلاده فريق من الخارجين على صاحب آكرا الجديد، وفيهم علم خان عم إبراهيم آخر سلاطين اللودهيين، وزمرة من رجال باير السابقين الذين زيلوا له التطلع إلى عرش الهند والسعى لاستخلاصه لنفسه^(١).

(١) منتخب للتواريخ أول ٢٤٦.

وحين كتب همليون إليه يسأله لإخراج هؤلاء اللاجئين من بلاده فرفض الاستجابة إلى طلبه، لم يكن من الحرب بينهما عند ذلك مناص.

هناك بادر صاحب أكرا بالارتداد سريعاً من المناطق الشرقية، ولما جبن بعد ثمار انتصاراته هناك، حتى إذا ما بلغ ماله فوجد بهادرخان منهكاً في حربه مع صاحب جتور، أبت عليه شهامته إلا أن يمهل خصمه فلا يهاجمه حتى يفرغ من اشتباكاتهما مع الأمير الراجبوتي^(١).

وبرغم ما كان عند بهادرخان صاحب الكجرات بدوره من مدافع أمده بها أصحابه البرتغاليون، قد أرغمته قوات همليون على الامتناع في حصونه ليتسأل من بعد ذلك منها في نفر قليل من رجاله حين أيقن باتيهار مقاومة قواته لطول الحصار وعنف المجاعة التي بدأ شبحها يخيم عليهم.

وظفق البادشاه بطارد خصمه بنفسه اتبعه إلى ملادو، ثم جمبيلر فأحمد أباد حتى بلغ كمباى فوجده قد لاذ بجزيرة ديو إحدى حصون البرتغاليين هناك.

وما غدا بهادرخان أن تم له، بعون من البرتغاليين، جمع قوات جديدة استطاع بها أن يسترد أغلب أراضيه. ويسر له بلوغ هدفه ما كان من قتل ميرزا عسكري نائب همليون هناك في تصريف شئون حكومته واتفاسسه في النقص والتأمر، وانصراف أغلب رجاله إلى حياة القترف التي كفلها لهم ما وقع بأيديهم من غنائم هذا الإقليم ذي الثراء الطائل.

على أن سلطان الكجرات لم يكتب له الامتناع بشار انتصاراته هذه، إذ سقط في البحر غداً بتكبير من البرتغاليين، وهو في طريقه للتفاوض معهم، برغم شدة حره وحرط تحوطه.

وما غدا أصحاب الكجرات أن أعادوا ماله بدورها إلى حظيرتهم، وذلك حين خرج همليون من جديد للقضاء على القلاكل الشرقية التي طغقت تهديداً خطيراً.

(١) طبقت لكبرى ١٩١.

البنغال وبهار : كان شيرخان سورى، وهو من أقدر الزعماء الأفغان وأوفرهم شجاعة وعلماً، قد استخلص لنفسه إقليم بهار. توغل بقواته في البنغال من بعد ذلك فلم تصادفه بها مقاومة تذكر^(١).

وما أن توجه همايون إلى البنغال فاسترد إقليم غور حتى لرتد هذا الثائر الأفغانى إلى إقليم بهار فطلق ورجاله ينتهبون كلالة الأراضى التى تمتد بين بهار وكوج وجونپور.

وقضى السلطان شهوراً ستة بالبنغال وقد ظن أن الأمر قد دنا له فى الغالب بالأقاليم الشرقية، ولم يكن يدرك، وهو يطول فترة استجمامه هناك، أن عدوه إنما تركه يوغل فيها ليقطع خط الرجعة عليه ويقضى على ملكه قضاء تاماً بالتالى. حتى إذا ما تقه إلى هذا التدبير، بعد فوات الوقت، فاستدار إلى خصمه والأمطار الموسمية على لشدها، استطاع شيرخان بدمائه ومناوراته المحكمة أن يزل بقوات دهلى ضربة حاسمة أفت عليها جميعاً.

لقد جاءت الأنباء إلى همايون، وهو بالبنغال، بخروج أخيه هندال عليه بتحريض من بعض أعيان الأفغان حتى دعى له بمساجد العاصمة، بإدار فزعاً بالارتداد إلى لكرأ فى طريق طويل تعرض فيه جنده لعنف الأمطار الموسمية وأوبئتها حتى هلك منهم خلق كثير.

هناك صد شيرخان إلى خداع السلطان، وقد علم بتمرد أخوته عليه، فأوفد إليه من يكاد له طاعته وولائه له حتى إذا ما لطمن همايون إلى تلك المعهود فعرض على عدوه إمارة البنغال وبهار ثمناً لخضوعه له، إذا بذلك القائد الأفغانى يهبط فى القصر على معسكره بأرض جومبا ويحيط برجاله. فمنهم من لفظ أنفاسه وهو يقط فى نوم، ومنهم من لقي حلقه فى اليم غرقاً، ومنهم من وقع فى الأسر. ورغم ما بذله السلطان همايون من جهد وما أظهر من جلد فى القتل شديد قد كاد هو نفسه يتلعه الماء لولا سقاء يدعى نظام أبصر به

(١) طبقات كهبرى.

فحمله على زقته^(١) « واتخذ هذا الثآزر الأفعافى لنفسه، على أثر انتصاره فى معركة جوسا هذه لقب شاه وأمر أن تضرب السكة باسمه وتجرى^(٢) الخطبة بالدعاء له. وأردف ما أحرزه من فوز بتحالفه مع أصحاب الكجرات ومالؤه على محاربة همايون.

تكبر همايون موقفه فاستبان له أنه أن يكون له قيل بالقضاء على خصمه حتى يمد له أخوته يد العون ويلتف رجاله حوله مخلصين. وهما أمران لم تحالفه الظروف على تحقيقهما.

فمن ذلك أن أخاه كامران حين انتوى العودة من أكرا إلى لاهور، فعزم على ترك أغلب قواته لتشد من عضد أخيه، أصابه مرض مفاجئ، ليلقى أحد رجاله، عند ذلك، فى روعه باحتمال دس أخيه السم له، فعمل عن وعده، فلا يسير بأغلب جنده فحسب، حتى طلق يحرض فريقا من جنده دهلى نفسها بالذهاب معه.

ولم يكن شيرشاه ليعلم ذلك كله، من إحوال غريمه، فلا يفيد من هذه الفرصة التى سنحت له ليقتضى عليه. فسير الكج فى خمسين ألف من الجند لاقى بهم مائة ألف من جند همايون عند كتوج وأدى تراخى جند السلطان فى القتال، حين رأوا كثيرا من الأمراء الكبار ينسحبون بقواتهم من الميدان مع يده الأمطار، إلى التمسار جموع الأفغان لتتصارا ساحقا كان من أثره أن أخرج همايون من الهندستان كلها، وبهذا ذهبت كل الجهود التى بذلها أبوه بلبر فى فتوحاته أدراج الرياح.

وكاد همايون أن يلقى حتفه فى هذه الواقعة غرقا كذلك، لولا أن بصره قائد شمس الدين محمد غزنوى الذى وزر لابنه أكبر من بعد، فأنقذه^(٣) ليعود إلى الهند من جديد بعد خمسة عشر عاما قضاه فى المنفى.

(١) تذكرة الواقعات أو هيولى لاجور ص ١٤٣ - وقد وقعت زوجة همايون لسيرة بائدى

شيرشاه فى هذه الحرب.

(٢) رياض السلاطين ١٤٧ وما بعدها.

(٣) منتخب التواريخ لـ ٣٥٥.

شير شاه :

هذا الزعيم الأفغاني، الذي استطاع بشدة مراسه وقوة عزمته أن يخرج الأمراء التيموريين من الهند، والذي ينتسب إلى بيت سور الغوري، كان جده إبراهيم قد قدم للهندستان في عهد السلطان بهلول اللودهي فبال الخطوة عنده حتى ولي ابنه حسن إقليم سهرلم.

وكان أن أمهل حسن هذا شأن ابنه الأكبر فريد بتحريض من صغرى زوجته، لينتقل الولد من بعد ذلك إلى جوناور، منتدئ الصفوة من رجال المعرفة بالهندستان إذ ذاك، ثم يتركها إلى أكرا فمصاف قبولاً وترحيباً بهلاط السلطان إبراهيم اللودهي الذي وهبه لقطاع أبيه عقب وفاته.

ولجأ فريد عقب دخول بابر الهندستان إلى بهار فالتحق بخدمة صاحبه محمد بن درياخان لוחاتى. وبما كان الأمير فى المصطاد إذ وثب عليه لمر فاته كاد يقضى عليه لولا شجاعة فريد الذى بالدر بالقضاء عليه بسيفه ليشتهر من بعد ذلك باسم شيرشاه^(١).

وما غدا طموحه أن دفعه إلى الالتحاق بخدمة جنيد برلاس نائب بابر طلى جوناور، ثم أتيح له من بعد ذلك أن يظهر بهلاط بابر ففتح الهندستان الجديد وينال الخطوة عنده.

وحين عهد بابر إلى جلال خان لودهي بإقليم بهار، سار معه شيرشاه، ولكنه ما لبث أن انضم إلى عصابة الفاترين التى كان يترعها السلطان محمود لودهي. حتى إذا ما هزم هذا الأخير بإقليم خريد، على ما ذكرنا من قبل، اكبل ذلك القائد السورى يستتيب بابر من جنيد ففعا عنه، لوسقط على بهار من بعد ذلك عقب وفاته ويستخلصها لنفسه، ثم ما يزال بهمايون حتى يخرج من الهند كلها.

ورأى شيرشاه، بعد أن جلس على عرش أكرا، أنه لا سبيل إلى تأمين حدوده إلا بالقضاء على الأمراء الباريين الذين ما برحوا يحكمون بأرض كابل وكشمير.

(١) منتخب التواريخ أول ٣٥٨.

قلم يبلغ البنجاب حتى اضطرته ثورة حاكم البنغال إلى الارتداد مسرعا إلى دهملى بعد أن عهد إلى خمسين ألف من جنده بإقرار الأمن عند حدوده الشمالية الغربية منذ الغزاة إلى سهول الهند منذ القدم.

وأصبح لسلطان الهندستان الجديد هذا أن يثبت نفوذه في البنغال ويخضع للسند والملتان ومالوه له، كما أنزل ضربات شديدة كذلك بالأمراء الهنادكة وبالراجپوتانا برغم استماتتهم في القتال ورغم الصائر التي لحقت بالجدد الأفغان. وتم له كذلك انتزاع حصن كلنجر من أصحابه الراجپوتيين، لكنه أصيب في معسكر المعركة بشظية من قذيفة، لم يكتب له فنتاة من أثرها، فقضى بعد قليل في عام ١٩٥٢هـ/١٥٤٥م بعد أن حكم الهند قرابة سنوات خمسة^(١). ولبثت أسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشرة سنوات استطاع مهايون من بعدها أن ينتزع الملك منهم مرة ثانية بمساعدة طهماسب شاه القرس الذي آواه في محتته.

هذا وبعد شيرشاه من بين أمراء المسلمين العظام الذين عرفتهم الهند فقد التفت بهمة عالية إلى تنظيم أداء الحكم، ونهض بالتصانيف البلاد وتعمير الأرض، وأصلح نظام الضرائب بعد أن أمر بمسح الأرض الزراعية وحصر زراعتها على اختلاف أنواعها. وقسم أراضي الدولة إلى سبع وأربعين ولاية تضم كل واحدة مراكز عدة جعل عليها صالا له أزمهم بالسهر على مصالح السكان وجمع الخراج دون تعسف أو حيف.

كما أهتم بأمر الجيش اهتماما بالغا مسترشدا بما سبقه إليه علاء الدين الخلجي من نظم في ذلك. فجعل تحت إمرته المباشرة جيشا قويا قولمه ملئت ألف من الجنود التزم بدفع نفقاتهم من بيت المال، وكان العرف يجرى من قبل على أن يمد الأمراء وزعماء القبائل السلطان برجالهم في الحروب على إقطاعات واسعة تقطع لهم وأنصبة من الغنائم والمنافع. وبهذا أراح الناس في الغالب من عصف أصحاب الإقطاعات وابتزازهم المتواصل لأموالهم وما يملكون.

(١) منتخب التواريخ أول ٣٢٢ - ٧٢.

ونشر شير شاه جنده في كافة أنحاء البلاد، وعهد إليهم بحراسة الحقول والمحافظة على أرواح الناس ومناخهم من اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق الذين كان لهم في بعض العصور نشاط ملحوظ وخطر شديد.

وامتدت يده كذلك إلى النهوض بالبريد وتنظيمه، وتحسين الطرق حتى أنشأ منها ما يزيد طوله على الألفين من الأميال المعبدة، وأقام على جانبيه الأشجار ذات الظلال، وأنشأ بها الكثير من محطات المسافرين ومنازل الدواب، وأباحها للمسلمين والهنداكة على السواء.

وأدى قيام محطات المسافرين هذه إلى تجمع ما يشبه الأسواق الصغيرة من حولها، مما ساعد على رواج أحوال لواسط التجار وعامتهم^(١).

ولم تكن ضلوة هذا الأمير المورى^(٢) بالعلم والعلماء بكل من ضلوة بتعمير بلاده والنهوض بحكومتها. فقد أنشأ كثيراً من المدارس والمساجد، ورتب الأجور للطلبة والمعلمين على السواء، وحرضهم تحريضاً شديداً على طلب العلم والاستزادة منه.

كما فتح كثيراً من المطاعم في أنحاء متفرقة بالهند وأباحها بالمجان للفقراء والمعدمين من أهل البلاد جميعاً، مسلمين وهنداك، فساهم بذلك، في الغالب، في تخفيف وطأة المجاعات المعروفة التي كانت تجتاح بعض مناطق الهند من حين إلى حين.

وبلغ من بره برعاياه والتزامه إقامة العدل في ربوع دولته، أنه كان لا يتردد في إنزال أشد العقاب بمن تحدثه نفسه من رجاله وجنده بالاعتداء على الأهليون أو السطو على حاصلاتهم وأموالهم، فلا تشفع له من عنده مكانة المعتدى أو حسبته ونسبه^(٣).

(1) Prasad Muslim. Rule pp.801.2.

(٢) نوبة إلى آل سوري.

(3) Lane Poole 933. 36.

همايون في منفاه : طلق همايون، بعد أن دحره شيرشاه، بطوف بالسند فسي حالة شديدة من البؤس والقتناء، وأخوته ما يزالون يكيدون له، وأغلب رجاله قد تخلوا عنه. بل إن صديقه القديم مل ديو، صاحب جدهيور، حاول وغرق من أسراء الهنداكة أن يوقعوه في أسرهم، حين دعوه للنزول عندهم، على اتفاق سابق فيما بينهم وبين شيرشاه.

وبنى همايون في تجواله هذا بحميدة بانو ابنة الشيخ على أكبر جامي قرزق منها بابنه أكبر^(١).

وانتهى المطاف به إلى قندهار فترك بها ابنه الذي لم يكن يعدو العاشم الأول من عمره إذ ذاك، وقد عقد العزم على السير إلى العراق ومعه قائده بيرم خان الذي وفد إليه من الكجرات فلازمه مخلصا طول محنته.

وبلغ همايون سيستان فاستقبله نائب طهماسب، شاه الفرس، بها في ترحيب وتوقير. وكذلك فعل محمود ميرزا أكبر أولاد العاهل التيموري حين بلغ مقر حكمة بهرات. وظل نواب طهماسب يبالغون في الحفاوة بسلطان الهند الشديد على طول الطريق حتى بلغ مقام سيدهم بنواحي قزوين.

وكان أن أقاض همايون في بيان ما لقيه من محن ألتمت به بسبب تنكر أخوته له، حتى خشي بهرام آخر طهماسب أن تذهب للظنون بالشاه بدوره إلى القضاء على أخواته. هنالك حاول بهرام هذا أن يزين لأخيه العاهل الفارسي قتل صفيه للتيموري، بحجة الانتقام منه لتقاس أبيه بابر عن نصرة جند فارس في قتلهم الأوزبك عند نخشب أيام إسماعيل الصفوي، لولا أخت لطهماسب، تدعى سلطانة خاتيم، استطاعت بحكمتها ونفاذ كلمتها أن تحبط هذا التنبير كله^(٢).

ولكره همايون على التظاهر للتشيع جلبا لمعونة الشاه الفارسي الذي أمدّه بأربعة عشر ألفا من الجند ليخزو بهم بخارى وكابل وقندهار، على أن يصبح إلقليم قندهار بعد فتحه من أملاك الدولة الفارسية.

(١) طبقات الكبرى ٢٠٧.

(٢) منتخب للتواريخ أول ٤٤٤.

واللتحم همايون بجنده القزلباش أراضى أخيه كامران، فشد قتحه لقتدهار كثيرا فى عزيمته، وبعثت بذلك الآمال العريضة فى نفسه من جديد.

وصدق همايون ما عهد عليه الشاه طهماسب فسلم المدينة إلى ابنه مرادخان. على أنه حين طلب أن يأويه وجده القليل ليلان الشتاء قرفض، دفعتة قسوة البرد ورجاله إلى اقتحام المدينة على صاحبها عنوة على أن يردها له ثانية إذا ما تم لهم دخول بدخشان وكابل. وما غدا الأمير الفارسمى أن وافقه منيته بعد قليل فبقيت المدينة بيدهمايون.

وطلق جند كثير من قوات كامران تقد إلى همايون فى مقامه هذا بعد أن هجروا مضارب أميرهم، فدخل بهم كابل حيث التقى بابنه أكبر، وقد بلغ الخامسة من عمره، وكان قد تركه دون القطام بقتدهار كما ذكرنا من قبل.

وتبادل الأخوان المدينة مرات عدة حتى انتهى، الأمر بكامران إلى الفرار منها ليلتجأ من بعد ذلك عند السلطان سليم شاه سور خليفة شيرشاه. حتى إذا ما اضطره ما قول به من جفاء عنده للنزوح إلى السند فاستقر بمنازل الجكر، بادر زعيمهم بشليمه إلى أخيه. ومنع همايون من التتكيل بكامران ما وصاه به أبوه بابر، من قبل، من الرفض بأخوته، فسمح له بالسير إلى مكة المكرمة والاعتكاف بها بعد أن سملت عيناه.

وما لبث عسكري أن سار فى أثر كامران إلى الحجاز كذلك بعد أن وقع بدوره فى الأسر، لكن الأجل وافته فى طريقه، بأرض الشام. أما همدال فكان قد لقي حتفه بأرض كابل حين كانت قوات همايون تطارده وأخاه كامران^(١).

وهكذا نفى همايون يده من أخوته جميعا الذين أدوا، بتخليهم عن نصرته ومداومتهم على الكيد له، إلى إخراجهم من الهند وضياح كافة الجهود المضنية التى بذلها أبوه من قبل فى فتح هذه البلاد أدرج الرياح.

(١) طبقات أكبر ٢٢٤.

وحين أطل على سهول الهندستان من جديد، أثر أن يتريث قليلا فلا يتحدر إليها قبل أن يطلع إطلاعا صحيحا على ما صارت إليه أحوالها.

خلفاء شيرشاه : غدت سلطنة دهلي تضطرب أمورها اضطرابا شديدا عقب وفاة شيرشاه. ذلك أن ابنه جلال الذي خلفه باسم السلطان سليم (إسلام) شرع منذ مستهل حكمه يملك طريق العنف مع الأمراء الأفغان، يقتل فريقا منهم ولقيى بفريق آخر فى الحبس، ويث عيونهم وجواسيسه فى طوال البلاد وعرضها لينبئوه، بكل ما يحدث فيها، فيتخذ من انبائهم، دون تحر أو روية وتدقيق، وسيلة للصف بالقوم والتكيل بهم.

وهكذا أعاد هذا السلطان سيرة إبراهيم اللودهى مع رجاله من جديد. حتى إذا ما ثار عليه عظيم همايون نائبه على البنغال، لما بلغه من إيقاعه بالقائد القدير شجاع خان نائب أبيه على مالوه، فطلب البنغالى على أمره، خرج للسلطان من نصره هذا ليمس فى ارتكاب المظالم، حتى صار يتصرف فى أموال الدولة وفق هواه المطلق ويعطل أغلب المدن الحسنة التى جرى عليها أبوه من قبل.

وخلفه ابنه الصبى فيروزشاه فوثب عليه خاله مبارزخان، ولما مضى إلا أياما قليلة على العرش، ليقبضه ويضطلع بشئون الحكم باسم السلطان محمد عادل شاه (على).

واستورد هذا السلطان هندوكيا على الهمة يدعى هيمو (هيمون). لكن كفاءة هذا الوزير لم تستطع أن تحد من ثورات الأمراء الأفغان التى أخذت تحتاح البلاد فى عنف بالغ، وكان من أخطر نتائجها استيلاء إبراهيم شاه سور على دهلي وأكرا ليطرده منها بعد قليل سكندر شاه سور ويضع يده على الإقليم الواقع بين السند والكنج كله.

وما غدا هيمو أن استرد أكرا لسيد، فصارت الهندستان بذلك نهبا لسلطين ثلاثة. فهذا عادل شاه يحكم أكرا ومالوه وجونپور، وإلى جانبه سكندر شاه تخضع له دهلي والبنجاب، فى حين كان إبراهيم شاه يسيطر على رقعة من الأرض تمتد من بيانه إلى حدود كواليار^(١).

(١) تاريخ سلاطين الهندى ٤٥

عودة هماميون : رأى هماميون في هذه الاضطرابات الفرصة المواتية لاسترداد بلادهم، فالتحقم لاهور في ربيع الأول من عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م دون مقاومة تذكر، ليهزم من بعد ذلك جيوش سكندر شاه سوري عند سرهند هزيمة حاسمة^(١)، ويدخل دهلي بعد أن اتخذ أميرها سبيله إلى جبال البنجاب فراراً.

ويرد الفضل في انتصارات هماميون هذا كلها إلى قائده بيرم خان التتركماني الذي أبى دون أغلب رجاله أن يتخلى عنه في محنته، وقد كافاه أميره على وفاته هذا بأن ولاه البنجاب مع ابنه أكبر وعهد إليهما بمطاردة ذلك الأمير السورى.

ولم يطل الأجل بهماميون ليجنى ثمار جهاده الطويل الشاق، فقد انزلت به عصاه وهو يصعد درج مكتبته بدهى، وكان من المرمز الخالص، قضى بعد قليل في ربيع الأول من عام ٩٦٢هـ/١٥٦٦م، وهو في الحادية والخمسين من عمره، ولما يمض بالهند، وقد آب إليها بعد غياب طويل، سوى شهر سنة.

لم يكن هماميون دون أسلافه التيموريين في الشجاعة والجرأة، فقد شارك أباه أغلب حروبه وترسم خطاه في التجل بالصبير واحتمال الشدائد، فلم يفارقه جلده وثبته طيلة محنة المنفى، التي بلغت خمسة عشر عاماً، لولا ما كان يداخله من الغرور وينقصه من مضاء العزم الذى قعد به في الغالب عن المضى في مطاردة أعدائه والإجهاز عليهم، فكان يقنع بأول ضربة ينزلها بهم ولا يزيد.

كذلك عرف عن هماميون شغفه، كآبيه ولجاده، بالفنون والعلوم والآداب. وقد ترك، فيما ترك مكتبة عامرة بالمؤلفات القيمة لا يزال بنواها قائماً بدهى حتى اليوم. ولولا المنية التي عاجلته لأكم بناء المرصد الذى كان قد شرع فى إقامته هناك.

ومن أسف أنه ورث عن أبيه عادة تماطى المعجون (الأكيون) الذى بكر بنهائية الأب وهد من كيان الابن.

(١) طبقت لكبرى ٤٥٨ - وفى هذه الوقعة، التي بلغت فيها قوات اسكندر سوري أربعة أمثال هماميون، شارك أكبر أباه الحرب لأول مرة.

أكبر

وصلت أخبار وفاة همايون إلى ابنه أكبر وهو في كلاتور بالبنجاب يطارد الثائر سكندر سوري، فيلاد مرافقة القائد الشيخ بيرم خان إلى المنادة به سلطاناً على الهند، باسم جلال الدين محمد أكبر^(١)، ولم يكن يتجاوز إذ ذاك للرابعة عشرة من عمره.

ويقسم المؤرخون مدة حكم أكبر التي امتدت من عام ٩٦٣هـ/١٥٥٦م حتى عام ١٠١٣هـ/١٦٠٥م إلى فترات ثلاث / فالفترة الأولى هي التي كان زمام الحكم الفعلي فيها بأيدي الوزير الشيعي المجرب بيرم خان الذي كان خير معين لهمايون في منفاه. ولما للفترة الثانية فهي التي حاول فيها بعض نماء القصر إملاء رغباتهن على السلطان الشاب، وذلك بعد أن أفلحن، بالنس والرقعة والخداع، في إبعاد بيرم خان من منصبه بسبب تنقيمه وتغويض ما كان له من نفوذ بالغ. وكانت الفترة الثالثة، وهي التي انفرد فيها أكبر بالأمر كله، أطول هذه الفترات جميعاً إذا امتددت من عام ٩٦٩هـ/١٥٦٢م حتى وفاته عام ١٠١٣هـ/١٦٠٥م.

وتعد هذه الفترة الثالثة كذلك من أزهر عصور الهند التاريخية. ومن أجلها اعتبر المؤرخون القدامى من هنادكة وغيرهم، السلطان أكبر أعظم صاهل عرفته الهند منذ أيام آشوك (أشوكا) حامي لبوذية في القديم، كما سلكه المحدثون من كتاب التاريخ في مصاف أعظم الملوك الذين عرفهم العالم في عصره طراً^(٢) :
وكما يقسم المؤرخون مدة حكم هذا السلطان إلى فترات ثلاث كذلك يسلكون غزواته وفتوحاته في أحوار ثلاثة.

الدور الأول، ويبدأ من عام ٩٦٥هـ/١٥٥٨م حتى عام ٩٨٣هـ/١٥٧٦م.
وفيه بسط أكبر سلطانه على الهندستان كلها.

(١) كان ذلك في يوم الجمعة الثاني من ربيع الأول عام ٩٦٣هـ/مارس ١٥٥٦م. منتخب التواريخ ثلث ص ٨.

(2) Prasad, Muslim Rule p.831, 88.

الدور الثالث، ويبدأ من عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م حتى عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م. وفيه تم له تأمين الحدود الشمالية الغربية ومناطقها التي تعد أخطر أبواب الهند، فهي منفذ الغزاة الفاتحين إلى سهول السند والكنج منذ القدم.

الدور الثالث، ويبدأ من عام ١٠٠٦هـ/١٥٥٨م حتى عام ١٠٠٩هـ/١٦٠١م وهو الذي ملق أكبر يتوغل إياه بالمكن حتى تم له ضم أغلب مناطقه لملكه.

والواقع أن الهندستان، حين جلس أكبر على عرشها، كانت تفيض بالاضطرابات. فأمرأ أسرة سوري، خلفاء شيرشاه، كان منهم سكندر شاه بالبنجاب يتحفظ للانقباض على دهلې وأكرا واسترداد الأراضي التي أخرجه همايون منها، في حين استقر محمد عادل شاه سوري في جنار بعد أن أخرجه إبراهيم خان سوري من دهلې، وبعث بقلته الهندوكي هومون على رأس قوات كثيفة وقف بها غير بعيد من العاصمة في لوتناب الفرصة المواتية لاستردادها من جديد، هذا كما كان هناك أمراء آخرون من آل سور يستأثرون كذلك بالأمر كله في البنغال.

ولم تكن أسرة سور هذه هي وحدها التي تهدد سلطان أكبر بالهند، فإن ميرزا حكيم، أخا أكبر، كان قد أعلن استقلاله بكابل، أرض الرجعة لسلطين المسلمين بالهند وطريق الإمدادات إليهم التي كانت تمدهم بمحاربي سلاح ما وراء النهر الأشداء، ثم أخذ من بعد ذلك يرنو ببصرة إلى أرض الهند نفسها ويتطلع إلى الجلوس على عرشها.

وكانت ولايات السند والملتان وكشمير قد انفصلت عن سلطان دهلې بدورها لسنين خلت، في حين راح الأمراء الراجبوتيون، في موار وجسامير ويوندي وجد هبور، يقتسمون ما أفلحه لهم اضطراب الأحوال من فرص لاستعادة الكثير من سلطانهم القديم ونفوذهم، واستردت مالوه والكجرات استقلالهما الضائع وثبت أمراء النكن المسلمون أقدامهم في بلادهم من جديد، في خاندش، ويران وبيدر وأحمد نكو ويحايور وغولكونده.

ومن وراء أولئك هؤلاء جميعا كان الأمراء الهاندكة، أصحاب إمارة
فيلايكر في الجنوب، يجهدون في المحافظة على استقلالهم من اعتداءات جيرانهم
أمراء الدكن المسلمين.

وكان البرتغاليين بدورهم يقومون في حصونهم القوية في جوا وديوا على
شاطئ الهند الغربي بعد أن خاضوا غمار معارك بحرية عنيفة ضد سلاطين
الكجرات المسلمين وأعدائهم من سلاطين الممالك المصرية والعثمانيين.

ونتيجة عن انتصار هؤلاء المستعمرين أن اشتد خطرهم وتفاقم طغيانهم في
مناطق الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي وعند منافذ البحر الأحمر حتى
اقتربوا من شواطئ الحجاز ورواحوا يهددون طرق التجارة الهندية والحج
الإسلامي إلى البيت الحرام^(١).

حرب آل سور : رسم أكبر ورجاله خطتهم على أن يعملوا أولا على
التخلص من آل سور، خلفاء شيرشاه، الذين كانوا يجهدون لاسترداد عرش الهند.
وفيما كان جند الدولة يجد في مطاردة سكندر شاه سور بالبنجاب هاجم هيمون قائد
محمد عادل شاه مدينة أكرا في خمسين ألف من الخيل وخمسمائة من
الفيول.

وكان هذا القائد الهندوكي، الذي يشتهر في كتب التاريخ باسم البقال^(٢). قد تم
له من قبل دحر إبراهيم شاه سور، بالقرب من دهل، وكاد يقتحم عليه معقله في
بيانه لولا ما كان من زحف سكندر خان صاحب البنغال على أملاك عادل شاه في

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٤١، ٢١٢.

(٢) كان هيمون في أول أمره بقالا بمدينة راولي بكليم مول ثم عهد إليه بمراقبة الأسواق حتى
صار مديرا لإمدادات الجيش، غير أن لقب بقال لصق به طول حياته. وما زال يرتقى بلغ
مرتبة القيادة وصار وكيلا (وزيرا) السلطان محمد عادل شاه الذي كان يشتهر بين العامة
باسم عتلى (طبقات أكبرى ص ٢١٤).

جونهور وكالبي. وما إن تم هيمون دفع قوات البنغال عن أرضى أميره حتى اقتحم حصن أكرا وأرغم سكندر أوزبك قلند أكبر هناك على الارتداد إلى دهلئ.

هنالك بادر أكبر من فورہ بتسمير قلندہ عليقلئ خان زمان إلى دهلئ لموازرة تردئ بيكخان ورجاله فى الدفاع عن هذه المدينة وصدد جحافل هيمون عنها، فلم تبلغ الإمدادات مكان المعركة إلا بعد فوات الفرصة.

فلقد تمكن رجال الميمنة المغولية من دفع جناح العدو المقابل لهم أول الأمر، إلا أن هيمون استطاع بقواته الرئيسية فى القلب أن يحدر القائد المغولى تردئ خان حتى بادر بالانسحاب من الميدان دون أن يقطن إلى عدول خصمه عن مطاردته، فقد فت فى عضده تأخر وصول الإمدادات إليه من جهة، وعظم قوة عدوه من جهة أخرى.

واتخذ هيمون لنفسه على أثر هذا النصر لقب بكرماديت (فكرماديت)^(١) الهندوكى القديم ليعطن بذلك عزمة على إحياء أمجاد أمته القديمة ومناضته للإسلام والمسلمين. فلم يكف بإهمال شأن سيده عادل شاه، حتى راح يضرب السكة باسمه ويولى خاصته ورجاله مناصب الدولة وشئون الولايات.

وبرغم حنف المجاعة التى كانت ما تزال تجثم على دهلئ وأكرا ويوانته وما حولها حتى طعم الناس الجيف وهلك خلق كثير، فإن هيمون لم يتردد عن مطاردة قوات أكبر حتى ميدان بائئ بيت، وهو الميدان الذى انتصر فيه ظهير الدين محمد بابر بقواته القليلة على حشود الهند الكثيفة لثلاثين عام خلت.

وهال رجال أكبر كثرة قوات هيمون، التى كانت تبلغ مائة ألف من الجند وخمسمائة من الفيول، بالتقايص إلى ضلالة قواتهم التى لم تكن تعدو عشرين ألفا ما بين فرسان ومشاة حتى أشار أغلبهم بالارتداد إلى أرض كابل، لولا إصرار السلطان ووزيره بيرم خان على القتال.

(١) وهو من الأبطال الذين يمدحهم تاريخ الهند القديمة وأساطيرها على السواء وكان قد أخرج السيوط والسكا من الهند ووجدها تحت حكمه.

هناك عهد أكبر إلى صهرة خضر خان بمواصلة قتال سكندر سور ثم خرج هو على رأس قواته للقاء الأمير الهندوكى وعصبته.

استطاع هيمون أول الأمر أن يكتسح جناحي جيش أكبر، برغم سقوط مدفعيته بأيدي عدوه، غير أن سهما أصابه فألقى به من فوق فوله الذى كان يدعى «الهوا» لخرة حركته البالغة. وحين طلب إلى فوله أن يسير به وبدايته إلى خارج الميدان توهم رطله وقوع الهزيمة بهم، فانفرط عقدهم لمساعدتهم وتفرق شملهم ووقع هيمون نفسه فى الأسر. وفى هذه الواقعة لقي كثير من الأمراء الأفغان حتوفهم.

وأبت على أكبر شهامته أن يستجيب لوزيره يروم خان أشار عليه بقتل أسيرة، محتجا بأنه ليس من المروءة التتكلل بأعزل جريح^(١)، غير أن الوزير وثب على هيمون وقتله، ثم بحث برأسه إلى كابل وبعثه إلى دهلئ ليرى العصاة فى مصير صاحبها عبرة لهم وعظة.

ودخل السلطان المنتصر دهلئ من جديد، فاستقبله الأهليون على اختلاف طبقاتهم بحفاوة بالغة. وما غدا أن أقبل عليه ببر محمد شروانى ومعه أموال هيمون وما كان بخزائنه فى موات من نفائس، وفى ركابه خاضعة لقباعه وأهل بيته.

وقعت هزيمة ذلك القائد الهندوكى الكبير ومقتله فى ضد أمراء أسرة سور، ونال اليأس من نفوسهم منالا شديدا، فما إن خرج أكبر إلى لاهور فبلغ جالندهر حتى رجع سكندر سور من تلال سيوالك إلى حصن مانكت فاعتصم فيه. حتى إذا ما قدم أكبر ومدفعيته فتشدد الحصار عليه، لم يجد بدا من طلب الصلح، مع التمسك بالولاء التام للسلطان، على أن يسمح له بالمسير إلى البنغال فى أمان.

وحفظ أكبر على هذا الأمير كرامته فولاه بهار وغريد فى الشرق؛ فلبث بها حتى وافته منيته بعد عامين.

لما عادل سور قد اقتحم عليه مقره فى جنار، خضرخان وأخوته فدحروا قواته وقتلوه انتقاما منه لمقتل أبيهم محمد خان بنغالى بظاهر أكرا.

(١) منتخب التواريخ بدون ثان ص ١٥، ١٦.

وحاول شيرشاه الثاني بن عادل شاه هذا أن يستحوذ على جونيور بعد مقتل أبيه، ولكن خانزمان قائد أكبر تصدى له وجره وضم كل أراضيه إلى أملاك الدولة.

أما إبراهيم شاه سور قد زينت له بعض القبائل الأفغانية الاستيلاء على ولاية مالوه. حتى إذا أخفق في هذا الأمر انطلق إلى ولاية لورية في إقليم النيبال فبقى بها حتى عام ٩٧٥هـ/١٥٦٨م حيث لقي مصرعه على أيدي القائد المغولي سليمان كرائي^(١).

وعرف البانداش لوزيره بيروم خان همتة وحزمه في القضاء على آل سور خلفاء شيرشاه، على الخصوص، فأنعم عليه بلقب خان خانان (أمير الأمراء) وجعله وكيلًا للسلطنة وزوج به ابنة أخته.

والحق أن هذا الوزير المجرب بذل جهدًا صادقًا في تصريف شئون الدولة على أحسن وجه، كما نظم الإدارة، وبحث بالجد ففتحت كولايار وأجمير واقتحمت جونيور وأمنت الحدود الشمالية الغربية، فلم يكن بذلك لسلطانه دهلئ أن تستعيد أغلب الأراضي التي كانت لها أيام باير. وعمل كذلك، وهو في غمرة مشاغله الكثيرة، على تثقيف السلطان الشاب، وحضه دواما على طلب العلم والتزود بالمعرفة.

غير أن هذا الوزير الشعبي طفق يحابي أبناء منعبه ويخصصهم بالمناصب الرفيعة في الدولة ويمعن في اضطهاد السنين جملة، أصحاب الغالبية بين مسلمي الهند، مستغلا في ذلك حادث اندحار القائد السنئ تردئ بكخان أمام القائد الهندوكئ هيومن في معركة دهلئ، حتى فاضت النفوس بالسخط الشديد عليه^(٢).

(١) طبقات أكبرئ ص ٧٤٥.

(٢) ليس هناك ما يؤيد ما ذهب إليه بدوائئ. منتخب التواريخ ثلث ص ١٤ « من حصول بيروم خان على أمر صريح بقتل تردئ بك بسبب هزيمته. وقد أثرت لملة بيروم خان هذه نفوس

واستغل نساء القصر، وعلى رأسهن حميدة باتويكيم لم السلطان وما هم فكرة مرضعته، ما كان من تعيين الوزير على السلطان في التفاتات وما أشيع من موله سرا إلى أبي القاسم ابن كامران^(١)، الذي كان يطمع في الجلوس على عرش الهند، فرحن يحرضن أكبر على إبعاد مستشاره الداهية عن منصبه^(٢).

وأحسن بيرم خان بنغور أكبر منه فقد التية على الابتعاد عن البلاط بالمسير إلى البيت الحرام. حتى إذا ما بلغه تسيير السلطان الجند في أثره، مخافة أن يستحوذ على البنجاب، على مادم للسامسون، استبد به الغضب فأعلن عزمه على مناهضة قوات الدولة، غير أنه وقع في الأسر. وقد عفى عنه أكبر على كل حال وذلك لسابق ألياده وعظيم خدمته، وسمح له بالانطلاق إلى الحج.

وفيما كان بيرم خان يجتاز الكجرات عام ٩٦٨هـ، في طريقه إلى البيت الحرام، اختاله أفغانى، يدعى مبارك خان لوحانى، كان أبوه قد لقي مصرعه على يديه. وعلى أثر مقتله لاحتضن أكبر ابنه عبد الرحيم ببلاطه وكان إذ ذاك فى الرابعة من عمره، فما زال يرعاه حتى بلغ أكبر مناصب الدولة.

هكذا تخلص أكبر من نفوذ وزيره الشيخ ليقع تحت تأثير حاضنته الداهية، على الأخص، حتى كان لا يبرم فى الغالب أمرا دون رأياها. وطلقت هذه السيدة تعهد بمناصب الدولة إلى أتباعها وفق هواها وترفع من مقام أيها أدهم خان، وإن لم تستطيع أن تبلغ به الوزارة على كل حال.

على أن أكبر ما غدا أن تكشف له خطورتها بمناقبيل عليه فأخذ يرقيب سلوكها وعصبتها بعين اليقظة والحذر. فحين بعث بأدهم خان ومعه بير محمد شروانى لفتح مالهو فخلعاهما عام ٩٦٧هـ/١٥٦٠م، بعد أن هزما بلز بهادر ابن شجاعت خان خاصة خيل نائب شيرشاه السابق عليها، فلم يصل إلى أكرا من غنائم الفتح إلا القليل، دفعه الريبة فى سلوكه فأنهه هذا إلى أن يفاجئه بظهوره

(١) هو ابن عم لأكبر.

(٢) منتخب التواريخ ثامن ص ٣٣.

هناك ليطلع بنفسه على ما بحوزته من أسلحة ضخمة، ولم يملك أدهم خان عند ذلك إلا أن يدعى أنه كان بسبيل إرسالها إلى العاصمة.

وافترق بير محمد شرواني بالحكم في مالوه على أثر استدعاء أدهم خان إلى أكرا لينطلق من بعد ذلك إلى أعمال السلب والنهب والتخريب في كافة المناطق المجاورة لإمارته حتى شواطئ نهر تريدا الجنوبية، فلم ينج من أذاه مسلم أو هندوكي أو مسجد أو معبد، حتى اجتمع الأهليون عليه لفتح لأسيرهم السابق وأصحابه استرداد بلادهم بمعونتهم من جديد، وما زالوا يطاردون نائب أكبر هذا حتى لقي حتفه غرقاً نهر تريدا وهوفي طريقه إلى ماندو قراراً^(١).

وما عدا البادشاه أن بحث بقتاده عبد الله خان أوزبك بعد قليل فاسترد هذه الولاية من جديد، وقد لا يزال بهادر بيلاط أدای سنغ، أحد أمراء مروار، ثم ما لبث أن سعى إلى التماس الصلح من البادشاه فأجيب إليه.

كذلك لم يمنع حر الهند أكبر من أن يسير إلى جونپور فيقاضي عامله هناك عليقلی خان الأوزبكي بدوره، كما فاجأ أدهم خان بمالوه من قبل، وورده إلى طاعته.

ذلك أن هذا القائد، بعد أن تم له رد جموع الأفغان التي التفت حول شيره شله الثاني بن عادل شاه سور حصن جنار فخرجت تبقي الاستيلاء على جونپور، بدأ من تصرفاته وعصبته من الأوزبك، الذين كانوا في رعاية بيرم خان من قبل، ما أثار الريب في نفس البادشاه حتى خرج إليهم بنفسه. فما إن غادر كالمبي فبلغ قوره حتى جاء إليه عليقلی خان وأخوه بهادر خان فجدد له الولاء وإن عاود العصيان بعد ذلك ببضع سنين.

بلغ أكبر في هذه الأثناء مبلغ الرجال، وغدا يدرك مدى خطورة المسئوليات التي يلتقيها عليه منصبه، فالتخذ له وزيراً من رجال أيه الأكفاء المخلصين، هو شمس الدين محمد أفكه. حتى إذا ما ثارت عصبة ما هم أفكه مرزعة البادشاه، لهذا

(١) منتخب التواريخ ثل ٥٢.

الإجراء ورأت فيه ما يحد من نفوذها، فبرز أدهم خان ابن ماهم أنكه في زمرة من رجاله قويت على الوزير وهو يؤدي فريضة للصلاة بالبلط فقتله، باعث أكبر القتال ويض عليه بنفسه ثم أمر قنظ به من حلق حتى هلك، وما غدت أمه أن لحقت به كمدا بعد قليل^(١).

تقريب الهنداكة :

هكذا قضى أكبر للقضاء التام على نفاقس لواء القصر ومن سار سيرتهم إثر مقتل وزيره ليبدأ بذلك عهداً جديداً في حكم الهند . ذلك أن بصيرته قد هدته إلى وجوب العمل على توحيد سكان الهند جميعاً مسلمين وهنداكة تحت رايته، فطبق، في سبيل تحقيق هذا الأمر، يقرب زعماء الهنداكة وأمرامهم منه ويفتح لهم أبواب بلاطه ويعهد إليهم بالمناصب الرفيعة مدنية وعسكرية على السواء، فكان ممن أسهر إليهم من كبارهم راجا بيهارمل أمير جايپور للرجبوتي، كما كان ممن قلدهم المناصب الهامة راجا تدرمل، الذي خلف خولاجه ملك اعتماد خان، فصار في شئون الدولة المالية على الخططة الحسنة التي كان اختطها شيرشاه في إصلاحاته من قبل، بعد أن أدخل عليها قدرأ من التعديلات والتحسينات.

كذلك رفع أكبر الجزية، التي كانت تفرض على الهنداكة والريشوم التي كانوا يلزمون بها عند الحجيج إلى مقنساتهم، ففدا رعاياه جميعاً على قدم المساواة فيما يلزمون به من واجبات وما يتمتعون به من حقوق. وكان صنيعه هذا كله البداية العملية لتحويل الهنداكة وأمرائهم من أعداء الدولة إلى خدام لها وحماة لأراضيها.

حروب الشمال والوسط :

التفت أكبر إلى التفتوحات على نهج أجداده فاندفع في حروب وغزوات تكاد حلقاتها تتصل حتى عام ١٠٠٩هـ / ١٦٠١م لينتهي بذلك إلى تكويم ملكه من جهة وتوسيع رقعة دولته من جهة أخرى.

(١) طبقات أكبر ٧٧٢.

غوندوانا :

تبدا هذه الفتوحات بغزو غوندوانا إحدى إمارات الوسط. وكانت تحكمها ملكة هندوكية تدعى راني دروكاتي وصية على ابنها الصغير برترايان وقد اشتهر اسم هذه الملكة لاستماتتها في الدفاع عن بلادها حتى سقطت في ميدان الشرف.

وحين استبان لابنها الصغير بدوره استحالة الوقوف في وجه آصف خان فالتد القوات المغولية أثر تناول السم (الجوهر) على للتسليم لأعدائه فلحق بأمه.

وعوق من خطة أكبر في القروح، بعد ما أصابت قواقه أسلأيا كثيرة في غوندوانا، ما كان من التفاض الأوزيك، رجال بيرم خان القدامى عليه. ولئن انتهى الأمر مريعا بعدد الله خان الأوزيكى إلى طرده من مألوه بعد هزيمته حتى لجأ إلى الكجرات، فإن عصيان أخيه عليقلی خان زمان في جونپور وما حولها، حتى جهر بخلع طاعة أكبر والدعاء لأخيه حكم مكلله، قد اقتضى من السلطان الكثير من الوقت والجهد ليتم له القضاء عليه.

ذلك ان أكبر لم يكد يمضى في مطاردة قوات الثائر الأوزيكى، حتى بلغه مهاجمة أخيه للبنجاب، يتحريض من الأوزيك، بعد أن طرده سليمان شاه صاحب بدخشان من كابل، مستعينا في ذلك بالقوات التي كان أخوه قد بعث بها إليه لجنده.

ولم يكن البادشاه ليفعل عن أهمية المركز الاستراتيجى لمنطقة الحدود الشمالية الغربية التي تعتبر باب الهند، فبادر من فوره برد أخيه وقواقه عنها كلها بعد أن كانوا قد دخلوا لاهور.

وما غدا حكم خان أن استرد حاضرتة كابل من أيدي سليمان شاه واستقر بها، ليمود أكبر من بعد ذلك مسرعا إلى المناطق الشرقية ثانية، فما يزال يطارد الثائر الأوزيكى وعصيته حتى التهم بهم عندما نيكور حيث سقط خاقزمان في الميدان في حين استسلم أخوه بهادر خان وفريق كبير من بنى جلدتهم فاوردوا جميعا مورد القردى^(١).

(١) طبقت الكبرى ٣١٨ - ٢١.

واستبان لأكثر أنه ان يصير له السيادة على الهندستان كله إلا إذا تم له إخضاع حصونه الكبرى التي ما يزال فريق من الأمراء الراجبوتيين يسيطرون عليها ويعتصمون بها.

جطور : بعد حصن جطور أمنح هذه المعال على جميعاً، إذ كان يقوم على سلسلة من الاستحكامات القوية تمتد لمسافة أميال ثمانية على نثوء من الصخر يبرز على ارتفاع شاهق في السهل. وكان صاحبه لوداي منغ رفا موار قد غدا يلاوى عنده فريقاً من الخارجين على سلطان أكبر من أمثال بهادر خان أمير مالوه السابق، فضلاً عما كان يسديه من المون ويبتله من التعذيب لأبناء عمومة البادشاه من الطامعين في ملكه^(١).

ولم تمتنع هذه المعال على جند الدولة برغم وعورة مسالكها واستتات جاي مل ولتقح (بتا) منغ قائد الأمير الراجبوتي ورجاله في الدفاع عنها بعد أن لاذ سيدهم وأسرتهم بالجبال، فقد بلغ من عزم المدافعين حين رأوا زمام الأمر يفلت من أيديهم، أن عمد نسلوهم وشيوخهم إلى قتل أنفسهم بأيديهم، فلمهم من جرح تسم، ومنهم عرض نفسه على نيران المواقد. ثم فتحت أبواب الحصن بعد ذلك لتتطلق الحماية منه فتشتبك مع مهاجميها في قتال وحشي عنيف قلى فيه أغلبها^(٢).

وأثار ما أظهره الراجبوتيون من ضروب البسالة إعجاب أكبر حتى لاختطف بتمثالين قيل إنهما للتائدين الهندوكيين^(٣). والحق عن هذا البادشاه المغولي كان ممن يقدرون شجاعة الشجعان حق قدرها حتى رأيناه في مواقف كثيرة يحفظ على الأبطال من أعدائه، حياتهم ويحيطهم بالرعاية والإكرام .

وكان من أثر حصن كبير هذا، لا سيما مع الأمراء الراجبوتيين، أن طفق كثير منهم ينضم إلى صفوفه ويوثق من صلته معه، وكان من بين هؤلاء

(١) تاريخ لقي ١٧٠ - ١٧٤.

(٢) مكنب للتاريخ ثان ١٠٤.

(3) Muslim Rule. 325.

رجا بيكانير وجيسلمير ثم بها رمل راجا أمير وابنه بهكوان داس وحفيده من سنغ
وقد صحبوه جميعا إلى آكرا وأصهر إليهم قوما بعد .

على أن رأى براتب، حين خلف أباه لو داي سنغ في إقليم مولار عاد يرى
في توثيق الصلات بين الأمراء الراجبوتيين وسلطان المغول خطرا شديدا قد يؤدي
إلى القضاء للتام على أمجاد بني جنسهم وما ينله أسلافهم، من أمثال جده رائاستكا
من تضحيات وما خلده من صفحات البطولة الرائعة لدفاعا عن شرف عنصرهم
فنصب نفسه للدفاع عن تراث الهلاك وماضيهم التليد، ومن ثم طلق يستنهض من
همم أقرانه ويعمل على إثارتهم وتحريضهم على مناهضة الدولة. وقد بنى خطته
على تحصين حدوده وحدود حلفائه ثم إطلاق عصاباتهم جميعا من بعد ذلك لتقضي
من مضاجع صاحب آكرا.

ولئن كان أكبر قد سير قوات كثيفة من جنده لتكتمح إقليم مولار كله فإنه لم
يتيسر له تحقيق غايته على التمام برغم ما أحرزه من انتصارات متكررة على رجا
براتب وابنه لمر سنغ.

رنتتهبور : لم يكد البادشاه يفرغ من حرب جتور عام ٩٧٥هـ/١٥٦٧م حتى
أخذ بعد العدة لالتحام حصن رنتتهبور ثان قلاع الهندستان الكبرى، فسارت قواته
إلى هناك في العام التالي ليحلق هو بها بنفسه في رمضان من نفس السنة.

وحين رأى سورجانا، صاحب الحصن، أعداءه يبلغون بمدافعهم أعلى تل
يواجه معقله المنيع فتهاطل قذائفهم عليه بلادر، بوساطة من بهكوان داس ومن سنغ
الذين كانا في صحبة البادشاه، إلى إعلان خضوعه واستسلامه، فخلع أكبر عليه
وعلى ولديه، وما عدا بعد قليل أن ألقاه على إقليم بنارس، كما عهد بقلمه جتور.

وأدى سقوط حصن جتور ورنتتهبور إلى تيسير مهمة الحملة التي كان
السلطان قد بعث بها للاستيلاء على حصن كلنجر في بند لخاند وهو في طريقه إلى
ثاني التلحين سالفتي الذكر. وصار أمر راجا جندرا صاحب هذا الحصن إلى أن
أقطع إقطاعا على مقربة من أحمد آباد.

وباستيلاء أكبر على هذه الحصون الثلاثة المنيعه رسخت أقدامه وتمسزت حدوده. وأدى ما سلكه مع أصحاب هذه الحصون، حين استسلموا إليه من طريق المودة والرفق، فصحبهم إلى بلاطه في القالب أجرى عليهم رزقا حسنا وعهد إليهم بقدر من مناصب الدولة، إلى أن ركن أغلب الأمراء الهنادكة إلى السلم وطلقوا يساهمون معه في بناء الدولة بهمة بالغة وإخلاص^(١).

في ذلك الوقت رزق أكبر بابنه وولى عهده الأمير سليم، الذي يعرف في التاريخ باسم جهانكير من أم هندوكية هي لينة بها رمل راجا جيور وكان قد بنى بها عام ٩٦٩هـ/١٥٦٢م.

وعلى أثر مواد هذا الأمير عام ٩٧٧هـ/١٥٧٠م انتقل البادشاه بحكومته إلى مدينة سكرى، عند حدود الراجبوتانا من ناحية أكرا، فأتخذها حاضرة له ومساها فتحبور، فلم يهجروا إلى أكرا إلا حين انهال خزان المياه بها عام ٨٨٩هـ/١٥٨٠م وضررها الماء.

وكان مما حبب إلى أكبر اللزوح إلى هذا المكان، قيام ولي صالح به يدعى سليم جشتي كان قد بشره وتنبأ له بمولد ابنه هذا بعد أن مات له أطفال كثيرون من قبل. وبلغ من تعلق السلطان بهذا الشيخ أن بعث بزوجته هذه حون ظنهرت عليها بواند الحمل فقامت إلى جواره، حتى إذا وضعت حملها أطلق على المولود اسم الولي تبركا. وفي رحاب هذا الشيخ ولد أكثر أولاد البادشاه.

وعنى أكبر بتعمير هذه المدينة عالية بالغة حتى لتعد منشأته من أروع نماذج العمارة الهندية الإسلامية. وكان من بين هذه المنشآت الفخمة المسجد الجامع، الذي أقيم على طراز البيت الحرام، ثم ضريح الولي سليم جشتي، وجملته من القصور أجاد المعماريون في تصميمها كما أبدع النقاشون في زخرفتها وترصيعها بمختلف الزخارف والتصاوير^(٢).

(1) MuslimRule. 327-28.

(2) Lane - Poole, 721 - 75.

وأعظم أثر أكبر بهذه المدينة هي بلند دروازہ (البوابة الكبيرة) التي أنشأها
تذكرا لانتصاره في الكجرات، ذلك الإقليم الذي تم لأبيه هلايون إخضاعه
لمسلطانه قبل إخراجہ من الهند، والذي يعد، إلى جانب خصب تربته ووفرة
زراعته، أعظم مراكز التجارة الهندية. فمن موانئه، بروج وسورات وكمباي، كانت
السفن تبحر وعليها منتجات الهند التي كان يتهاقت عليها سكان العالم منذ القدم،
حتى لم يقتحم غاز من الغزاة أسوار الهند إلا وكان في حسابه دخول هذا الإقليم،
ومن بين هؤلاء كان محمود الغزنوي الذي أغراه موقعه وطيب هوائه حتى جرى
بخطره أن يتخذه مقاما دائما له وقاعدة يدير منها دولته الهندية الجديدة.

فتح الكجرات : كان مظفر شاه الثاني آخر سلاطين الكجرات، الذي
خرج إليه أكبر في ربيع الثاني من عام ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م، ضعيفا خائلا،
اجتمع عليه نفر من رجاله فسلبوه كل نفوذ، ثم ما عدا نفر منهم أن انتهب
فرصة الفوضى التي كانت تسود الدولة في عهده فراح يسعى إلى
الاستقلال بما بأيديه من قطاعات.

واستسلم سلطان الكجرات من فورہ للبادشاہ الذي أجرى عليه رزقا حسنا.
وحذا حذوه كثير من رجال الكجرات، لينطلق أعظم عزيز كوكا قائد أكبر، من
بعد ذلك، ومعه إمدادات من ماله وجندري، فوطارد إبراهيم حسين ميرزا ابن عم
البادشاہ وفريق من الأمراء التيموريين العصاة الذين كانوا يقيمون هناك، فمساروا
بهم حتى أخرجهم من سورات.

على أن أكبر لم يكد يعود إلى مكري فتحبور حتى ارتد الكجراتيون إلى
العصيان من جديد، فلم يرجع عنهم هذه المرة إلا بعد أن استخلص من أيديهم مدينة
أحمد آباد ودخل كمباي وبارودا، كما فتح حصن سورات المنيع الذي طالما
استعصى على البرتغاليين ودفع خطرهم عن المنطقة كلها.

وفي هذا الحصن، الذي كانت أسواره يصل سمكها إلى ما يزيد على أمتار
أربعة مسلحة بالحديد، عثر البادشاہ على قطع من المنفعة تحمل اسم السلطان

العثماني سليمان القانوني، فهي بقايا من آلات أسطوله البحري الذي كان قد بحث به لمعاونة سلاطين الكجرات في دفع خطر البرتغاليين عنهم^(١).

رجع أكبر من هناك في منتصف عام ٩٨١هـ/١٦٧٣م بعد أن عهد إلى وزيره تدرمل ثم شهاب الدين أحمد خان من بعده بتنظيم شؤون هذا الإقليم الغني الذي كان خراجها يعد من أهم موارد الدولة.

وظلت الأمور في هذا الإقليم تميل إلى الاستقرار حتى أتيح لمظفر خان أن يجمع قوات جديدة سقط بها عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م على أحمد أبدا فدخلها كما استولى على كمباي وبلدوا فتم له بذلك السيطرة على أغلب الكجرات، حتى سير إليه البادشاه قائده عبد الرحيم خان فرده عن كثير مما وقع بأيديه من أرضين، ومازالت قوات أكرأ تطارده من بعد ذلك حتى استسلم إليها عام ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م ليقتل نفسه من بعد ذلك بموسى كان يخفيها في ثيابه.

وقد عهد أكبر إلى ثالي لهنائه مراد بشؤون هذه الولاية التي صارت جزءا من أراضي الدولة وبقيت في حوزة السلاطين المغول قرابة قرنين من الزمان.

هذا وكان البادشاه قد صادف بالكجرات البرتغاليين لأول مرة، وكانوا فئة قليلة كدمت لشدة أزر مظفر خان في حربه معه، فلم يتعرض لهم بسوء، ولكنهم بأن أخذ عليهم موتقا بالآ تعرضوا لحجاج البيت الحرام حين يخرجون من موافى الهند التي كانوا يسيطرون على مسالك أغلبها^(٢).

وكان هؤلاء البرتغاليون قد استطاعوا أن يقوموا لهم مستعمرات بشواطئ الكجرات بعد مواقع بحرية عدة مع سلاطين الكجرات في القرن ٩هـ/١٥م وقد اتحد المماليك المصريون وسلاطين العثمانيين بأساطيلهم بسلاطين الكجرات لدفع خطر البرتغاليين هؤلاء الذي امتد حتى البحر الأحمر.

(١) طبقات الكبرى ٣٥٠.

(2) Dumber 168.

غزو البنغال : بينا فيما سلف كيف اتخذ شيرشاه من البنغال وما جاورها قاعدة لحملاته التي انتهت إلى إخراج هيايون شاه من الهند. وابتث هذا الإقليم في حوزة أمراء من الأفغان حتى اقتصره من أيديهم سليمان خان كراتي صاحب بهار في عهد سليم شاه مسوري. وجرى هذا الأمر على إعلان ولائه الأسمى للدولة المغولية، حتى إذا ما خلفه ابنه بايزيد فقتله ووزلوه بعد قليل، جاء أخوه وخلفه داود لوزيريه ما بخزائنه من أموال كثيرة وما تهيأ له من جند كثيف على مهاجمة أراضي الدولة المغولية الشرقية وتخطفها حتى بلغ بنته وخربها.

ولئن كان أكبر قد خرج إلى هذا لانتثر بنفسه عام ٩٨٢هـ / ١٥٧٥م حتى بلغ بنارس فالتحمها على صاحبها كما استولت قوته بدورها على بنته، فبان قائده منعم خان رضى آخر الأمر بالصلح مع خصمه بقل ما كان بينه وبين أبيه من صداقة قديمة، وأقطعته إقليم أوريسه برغم معارضة زميله تكممل. وما غدا داود، حين بلغه وفاة نائب أكبر هناك بالهبيضة، أن تطلق يسترد أراضيهِ السابقة، حتى أوقع به خان جهان نائب السلطنة الجديد قضى عليه في ساحة راجا محل في ربيع الثاني من عام ٩٨٤هـ / ١٥٧٦م. ومقتله قضى على استقلال البنغال الذي لبثت تتمع به قرابة قرنين ونصف القرن.

على أن خان جهان لم يكبد قضى عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م. حتى خلفه مظفر خان تربتي ليؤدي ما فرضه على أصحاب الأراضي من ضرائب عالية لصالح بيت المال إلى ثورة هؤلاء الملاك.

وأدى إلى اتساع نطاق الفتن، حتى شملت البنغال وجونبور كلها، فنور أغلب العلماء ورجال الدين المحافظين هناك من الدراسات الفقهية واللاهوتية التي كان الباشاه يمارسها وما بلغهم من انصرافه إلى التفكير في ابتداع مذهب جديد ينوب فيه عقائد الهند كلها ويجمعها على التوحيد، حتى لم يتردد ملا محمد يزدي، قاضي جونبور، أن يفتي بوجوب حرب السلطان لما استحدثه من بدع تزعرع بناء الإسلام في الهند.

وبلغ من عنف الثورة هناك أن قتل ظفر خان نفسه نقب أكبر هناك كما اضطرت قوات البادشاه التي كانت قد قدمت من دهلي إلى الاعتصام وقتلها تكميل في حصن منفر، حتى جاء ميرزا عزيز كوكا فقتل على تمرّد باب خان وعشقره للجنّة بالبنغال، لينطلق من بعد ذلك قتله بازخان إلى بهار فيرغم معصوم فولخودي زعيم الثوار هناك على الفرار إلى تلال سولك بالبنجاب.

ثورة ميرزا حكيم : كان من نهج ثوار المناطق الشرقية من أفغان ولوزيك أن يمدوا في الغالب، وهم في غمرة العصيان، إلى إثارة القلاقل والفتن بأيدي أبناء جلدتهم عند حدود لدولة الغربية والشمالية الغربية تخفيفا لضغط قوات السلطان عليهم.

ولم يكن ميرزا حكيم خان ليقعد بدوره عن الاستجابة لهؤلاء الثائرين وهم الذين دأبوا على التلويح له بعرش آكرا إذا ما عاونهم على التخلص من نير أخيه الجالس عليه. وقوى في عضد هذا الأمير هذه المرة، على ما عرف عنه من خور في العزيمة والفتكباب على الشراب، ما كان من انضمام فريق من قلادة أكبر من طلاب المغامرات إلى صفوفه، حتى خرج علم ٩٩٠هـ/١٥٨٣م إلى البنجاب فدخل لاهور واتهب ما حولها من أرضين.

وما عدا أكبر أن أسرع إلى هناك في خمسين ألف من الفرسان وخمسمائة من فيول الحرب وجموع كثيفة من المشاة ومعه ولداه سليم ومراد، فتقدم سليم إلى جلال آباد بعد أن عبر ممر خيبر، في حين اتجه مراد إلى كابل فالتحم بقوات عمه وأرغمه على الفرار. على أن البادشاه ما أبث أن رد أخاه إلى إمارته بعد أن عفى عنه خوف انضمامه إلى أعدائه الأوزبك بهلاد ما وراء النهر^(١).

وهلك في حملة البنجاب هذه خولجه شاه منصور، ديوان السلطان^(٢) وأحد مستشاريه الذين ساهموا مساهمة قوية في إقرار الأمور في الجبهة الشرقية من قبل،

(١) طبقات لکھری ٤٢٥.

(٢) الديوان هو اللّيم على شئون المال، وهو وزير عادة.

إذ دس عليه راجا مان سنغ بضع رسائل قبل أنه كان يتبادلها مع ميرزا حكيم فأمر
أكبر من فوره بشنقه دون تثبيت من أمره، وقد دم على قطعه هذه من بعد.

ولئن كان من المعروف أن منطقة الحدود الشمالية الغربية هي منذ القدم باب
الهند الأعظم الذي ينفذ منه الغزاة إلى هذه البلاد، فإن اهتمام سلاطين الهند الجدى
بتحصين هذه المنطقة لم يبدأ إلا غداة غزو جنكيز خان وأبنائه من بعده للهند حتى
رأينا آل بلبن والخلجيين ثم آل تغلق من بعدهم يقومون بها سلسلة من المعقل والحصون
القوية حسبوا بها قوات كثيرة العدد والعدة.

وأتيح لتيمورلنك اجتياح أغلب هذه الحصون حين فكر الاهتمام بها ودب
الإهمال إليها لما كان عليه آخر سلاطين آل تغلق من الضعف. حتى جاء أكبر
فعمرها من جديد لتتفع عنه أخطار الأوزبك، أصحاب بلاد ما وراء النهرين والند
أعداء الأمراء التيموريين وأشدهم مراساء ومعهم القبائل التي تقطن أرض كابل
وغرنة من الأفغانيين وغيرهم الذين طالما أغرام ثراء الهند جارتهم، بالتفاس إلى
جذب أراضيهم وقر بلادهم، بالسقوط عليها وتكطف أراضيها وانتهاك أرضها بل
والتوغل فيها ما سمحت لهم الفرصة بذلك وغفلت عنهم أعين نواب دهلى على
التهجاب.

وكان من اثر مبادرة البادشاه إلى إرسال قواته لاحتلال إقليم كابل عقب وفاة
أخيه ميرزا حكيم في شعبان من عام ٩٩٢هـ/١٥٨٥م وضمه إلى أراضيّه، وما
أنزله قواده، من أمثال راجا من سنغ وزين خان وراجا بيريل، بعد الله خان
الأوزبك وتبذل يوسفزاي الأفغانية من الهزائم الحسمة، أن أمنت حدود الدولة في
المناطق الغربية والشمالية الغربية، لتتجه قوات لكرام بعد ذلك بقيادة راجا
بهكوان داس لنزول كشمير فتضمها إلى أملاكه الدولة عام ٩٩٥هـ/١٥٨٧م.

كذلك دخلت جيوش البادشاه إقليم لوريسه كما سيطرت على السند
والملتان ومنازل البطهان لتظل من ذلك على كدهار التي كان أكبر يمدى
النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس، فهي مفتاح الطريق إلى
حدوده الشمالية الغربية.

وانتهز السلطان الهندي فرصة اشتغال عباس الصفوي شاه الفرس بحروبه مع العثمانيين والأوزبك فنفذ بقوته عام ٩٩٨ هـ/ ١٥١٠ م إلى هذه الأيالة، فلم يهل عام ١٠٠٣ هـ حتى صارت في حوزته دون قتال، إذ وصل إلى غرضه في مهارة سياسية فائقة أثبتت على علاقات المودة بينه وبين جاره^(١).

وهكذا صار أكبر، ولما انصرم القرن العاشر الهجري بعد، مملكه متسعة الأرجاء امتدت من آخر حدود البنغال الشرقية إلى ما وراء الهند كوش وأرض كابل وغزنة وقندهار في الغرب، ومن جبال الهملايا في الشمال إلى نهر نريدا في الجنوب، ولما تنته فتوحه بعد.

فتوح الدكن : لبث سلاطين المسلمين في الهندستان يرون في الدكن وما ورائها جنوبا بلادا غريبة عنهم، في الغالب، بأهلها وعاداتها ورسومها. على أن أطماعهم، حين كان يستتب لهم الأمر في الشمال الهندي كله، كثيرا ما أغرتهم بالنفوذ إلى ذلك الجنوب الذي كشفت لهم حملات علاء الدين الخلجي عما به من ثراء والذي قامت به دويلات وإمارات إسلامية لدى أصحابها الاعتراف بسيادة دهلبي عليها طواعية.

وكان من الطبيعي أن يتطلع أكبر بدوره إلى هذا الجنوب، وهو المحارب الطموح، بعد أن ساد سلاطنته الشمال وعظم شأنه وامتد حدوده.

وامتدعت إمارة أحمد نكر أول الأمر على الأمير مراد بن أكبر وقتئذ عبد الرحيم خان لحسن دفاع الأميرة الشجاعة جلد بيبي عنها، فلم تستقر جهود هذين القاتلين بالدكن إلا عن ضم إمارة برار إلى أملاك الدولة^(٢).

(1) MuslimRule.347.

(٧) هذه الأميرة ابنة حسن نظام شاهي وأرملة إبراهيم خليل شاه الثاني صاحب بوجاير. وقد رجعت إلى مسقط رأسها في أحمد نكر بعد موت زوجها لتلق إلى جانب الصغير بهادر نظام شاهي صاحب الحق الشرعي في الإمارة مما أدى بالوزير موان منجهو، وكان يناصر أمير آخر يدعى محمد خدينده، إلى الاستجداء بمراء بن أكبر الذي كان يحكم بالكجرات، ورغم نجاح هذه الأميرة في إقرار بهادر على بلاده، فما عدا أنصاره من الأبحاش والدكنيين أن اقتلبوا عليها حتى ضيقوها وضيقوا إمارتهم معها. هذا وإلى القسم الأول من هذا الكتاب من ١٦٨ - ١٧٦ تفصيل لنشأة إمارات الدكن جميعا.

كذلك لم يفلح قواد الباشاء فى حسم موقفهم مع قوات أحمد نكر ويوجابور
وغو لكندة مجتمعة حين التقوا بهم من جديد، حتى جاء الوزير أيسو الفضل بن
المبارك نفسه إلى النكن فى جند كثيف، وما عدا أن لحق به أكبر بنفسه بعد أن عهد
بأمر حكومته إلى ابنه سليم.

وكان مما أدى بالسلطان إلى السير بنفسه إلى هناك، موت ابنه مراد من
جهة والضمام أمير خاندش إلى الخارجين عليه من جهة أخرى.

وسير أكبر ابنه دانيال إلى أحمد نكر فى حين قصد هو إلى خاندش، فلما أن
دخل عاصمتها بر هاتبور ثم شرع من بعد ذلك فى حصار (صير) أقوى حصونها،
وكان يتمتع فيه صاحبه ميزان بهادر، حتى ولقة الأتباء بخروج ابنه سليم عليه
وتتصيه لفسه سلطاناً فى مدينة الله آباد بلدى النول^(١) فلم يثبته ذلك عن المضى فسى
خطته حتى سقط الحصن فى يده وتبعه استسلام إمارة أحمد نكر له بدورها.

ويستوطن هذه الإمارات فى مستهل القرن الحادى عشر الهجرى، وختام القون
السادس عشر الميلادى، تم لأكثر السيطرة على النكن التى استمرت حروبها بها
سنوات خمس^(٢)، وصارت الدولة المغولية أعظم الدول لسمرها وأقواها وأكثر
ثراء وحنى، بما دخل فى حوزتها من أرضين وما تطوى تحت لوائها من الأمراء
وما صمرت به خزائنها من أموال الفتح وغنائمه وكثوره.

ولم يطل الأجل بأكثر حتى يتم فتح جنوب شبه القارة الهندية بأكمله بعدد أن
شرع فيه، وقد كان يوسعه تحقيق هذا الأمر فى أمد قصير أن أكر الأحوال فى
الشمال كله بقضائه على أسرة سور وكبحه جماح الأوزبك وفتحها للبنغال واقتحامه
حصون الرليجوتيين الكبرى وتأمينه حدوده كافة، لولا ما تعرض له من ثورات

(١) على أكبر عن ابنه حين عاد إلى كرا غولاه البنغال وإن لبثت العلاقات متوترة بين الباشاء
وابنه إلى آخر أيامه.

(٢) كان من أثر طول مقاومة إمارات النكن الإسلامية للمنول، ابتعاد الخطر إلى حين عن إمارة
بنالانكر الهندوكية التى كانت تقع ما وراءها جنوباً.

وفتن عنيفة بسبب ما ذاع عنه من أفكار وآراء فلسفية أدت به إلى استنباط مذهب ديني جديد.

المذهب الإلهي :

برغم أن أكبر يلحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها، فقد أدى اضطراب حياة أبيه في الغالب، إلى حرمانه من قدر وفير من التعليم في الصغر، فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة. ومع ذلك فقد فاضت حياته بالطويلة بالنشاط العقلي، إذ كان قوى الملاحظة كلًّا بالمعرفة، فنعلم عن طريق التلقين مكتفيا بالإصغاء والتأمل. وكانت ذاكرته القوية تمتص كل ما كان يقرأ في حضرته من الكتب القيمة التي جاوز عددها في مكتبته الخاصة أربعاً وعشرين ألفاً.

ولقد ولد أكبر عن أب سني المذهب وأم شيعية، وبنى ببضع أميرات من الهندكة. وطلق لا يشغل نفسه إلا بعلوم أهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك ناكوري وولديه فيضي وأبي الفضل وكان ثلاثتهم من المشتغلين بعلوم الحكمة، فتفتحت، صباه على كثير من المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية، ودفعوه معهم في طريقهم، طريق البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول إلى الحق المجرد.

وأدى به شغفه بهذه المسائل إلى إقامة دار العبادة (عباد خاغه)، بمدينة فتحبور حاضرتة الجديدة، تم بناؤها عام ٩٨٣ هـ / ١٥٨٥ م لتكون منتدى للفقهاء والمتصوفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتكلمون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة.

ودرج أكبر على الحضور إلى هذه الدار عقب صلاة الجمعة عند انصرافه من خانقاه شيخ الإسلام. هذا كما كان يتعمد كذلك في كهف غير بعيد من قصره ويمضي لياليه بأكملها يناجي ربه برموز الصوفية واصطلاحاتها.

كان هذا السلطان يرى في الملك نعمة من نعم الله العظمى، يتجلى العرفان بها في حسن إدارة الحاكم لحكومته على وجه يجعل رعاياه جميعاً يتفانون في طاعته وتلجج ألسنتهم بالثناء عليه.

وعلى مدى هذه الغاية حاول أن يمزج نفسه بالهند وشعوبها من مسلمين وهنالك مزجا عميقا لينقلب هو وبلاده آخر الأمر إلى وحدة لا تنقسم أو تتجزأ. فمضى يعمل على انصواء الهندكة جميعا تحت راية الحكم الإسلامي عن رضى وقبول بتألف قلوبهم، وفتح أبواب بلاطه لهم حتى بلغ كثيرون منهم أعلى مناصب الوزارة^(١)، كما أصبح إلى كثير منهم كذلك، وإن أدى سلوكه هذا إلى نفور طائفة من العلماء ورجال الدين الذين كانوا ينكرون قيام المساواة بين المسلمين ومن خالفهم في دينهم.

وكان من ثمر نهجه هذا الذي انتجه أن طلق فريق من الأمراء الراجبوتيين يوالونه حتى ساروا معه بقواتهم لتحقيق أهدافه في الفتوح والقضاء على الفتن التي كانت تنشب من حين لآخر في أنحاء بلاده الواسعة. وكان من بين هؤلاء راجا بهكوان داس وابنه من سنغ اللذان ظاهراه في حصاره لحصن جتور أغوى قلاع الهند، راجا بيرمل الذي لاقى حتفه وهو يدافع عن حدود الدولة الشمالية الغربية.

ولعل تدرج مل أبرز هندوكي قام على خدمة أكبر في إخلاص بدت آثاره العظيمة واضحة جلية في تاريخ الهند. فهذا الوزير، الذي كان قد نشأ عند السلطان القدير شير شاه فألم بالكثير من اتجاهاته السديدة في شئون الإدارة الحكومية، قد شارك بنجاح في حملات البادشاه البنغالية كما أظهر كفاءة ودراية كبيرة حين عهد إليه بتنظيم شئون حكومة الكجرات، أغنى إمارات الهند، وتنسيق مواردها المالية، حتى صار من بعد ذلك خير مشير لأكثر فيما شرع فيه من إصلاحات شملت كافة نظم الحكم وشئون الدولة^(٢).

لقد أدرك أكبر أن بلاده الواسعة لا يمكن حكمها وإقرار الأمور فيها بإقرارا إلى بقوام المواخاة والألفة بين أهلها على اختلاف مللهم وتباين عروقهم ونحلهم. وهو حين قرب إليه الهندكة، دفعه شغفه بالمعرفة إلى التطلع إلى ما عندهم من ثقافات ورموز قديمة ومعتقدات، فعهد إلى فريق من العلماء بنقل صيون الكتب

(١) بلغ عدد المناصب الكبرى في الدولة أيام أكبر ٤١٥، وكان الهندكة يشغلون منها ٥١ منصبا.
(2) Lane Poole 260 - 62.

الهندوكية القديمة من المستعربة إلى الفارسية، لسان المصر بالهندستان، ومن بينها الرامينا^(١)، ثم المهاهرا، كتاب الهند القديمة الأقدس، التي بعد قراءة قدر منها مجلبة للرحمة والمغفرة، كما يقرء المسلمون القرآن وأتباع المسيح الإنجيل، وتحوى ربع المليون بيت من الشعر، في حين لا تعدو إلاذنة هو ميروس، نظيرتها عند اليونان القديمة، خمسة وعشرين ألف بيت.

ولم يكتف الباشا بقراءة هذه الأسفار حتى راح في سبيل دراساته، يستدعي إليه، في دار العبادة وفي قصره، شيوخ العقائد من برهمية ويوزية وجينية وويشوية وزراندشتية ونصرانية^(٢)، ليعرضوا عليه بضاعتهم على يبلغ إلى علة الفروق بينها حين تكفر كل فرقة أختها وتحرم على أتباعها أن يطاعوا غيرهم أو يخالطوهم.

ولم يكن أكبر، وهو المفكر المسلم الحر، لوحم عن إعلان إعجابه بما يعرض عليه من نواحي الخير والمبادئ الإنسانية في هذه العقائد، بل لقد بلغ من تلطفه مع أصحاب هذه المال وحد به على استمالتهم إليه أن ارتدى مسوح الهندوكية وجرب معهم طقوسهم^(٣) وكف عن استخدام الثوم والبصل في أطعمته وتقديم اللحوم على مائتته.

(١) قام المؤرخ بذواتي بنقل الرامينا إلى الفارسية فأنشأ في أربع سنوات، وهي تحوى خمس وعشرين ألف بيت، يتركب كل بيت منها من خمس وستين حرف وبطلها رام جند، وكان مسط رأسه مديلة أودم. وقد زينت هي والمهاهرا التي قام فريق من علماء الهندوكية ولجباء المسلمين بنقلها إلى الفارسية بنقوش كبار النقاشين في بلاط السلطان. منتخب التواريخ ثان ٢٢٠، ٣٣٦.

(٢) نقل الإنجيل إلى الفارسية كذلك الوزير أبي الفضل بن المبارك منتخب التواريخ ٣٦٠ (٣) من ذلك أنه رتل معهم الابتهاالات الدينية البرهمية التي رصوا له بأنها تجعل الشمس وفق هواه. ولم تبق تجاربه عند هذا الحد حتى راح يحاول اختبار القطرة الإنسانية في أطفال عزلهم بقصره عن الناس بعد أن رتب لهم المراضع، ليعرض عليهم مبادئ الأديان كلها حين يشبوا عن الطوق ويرى ما عسى أن تهدمهم إليه فطرتهم. لكنه فشل في تجربته إذا استبان بكمهم جميعا بسبب عزلةهم « منتخب التواريخ ثان ٢٨٨ ».

ولقد كان أكبر في الواقع لا يهتم أبداً بأصناف الطعام، ففشا منذ صغره على غير ميل إلى تناول اللحم حتى حرمه على نفسه محتجاً بأنه لا يليق بالإتسان أن يجعل من جوفة مقبرة للحيوان، وإن لم يحرمه على رعاياه.

كذلك كان يكن كراهية شديدة للقصابين والصيادين الذين كان يرى فيهم أناساً وقتلوا حياتهم على قتل الحيوان^(١). هذا كما منع اقتناء الطيور وأطلق ما كان منها حبيس الأقفاص.

ولم يكن أكبر يتناول سوى الماء القراح، وإن كان قد عكف في شبابه على تناول النبيذ بعض الوقت.

كذلك اجتنب البادشاه الموسويين الذين ولدوا إلى بلاطه ليستمع إلى بيان النصرانية من ألوانهم لا من بطون كتبهم، فلكر منهم، وكانت لهم بعوث تبشيرية تنتشر في مستعمرات البرتغاليين بالهند، حتى حملوا على محمل رغبته في التصدير ما أظهره من اللبيل والتوقيير للإنجيل حين راعوه إليه، ولأقومه المسيح وأمه البتول حين أطلعهوا عليها، وما كان من رده المهنذ عليهم، حين عرضوا عليه الدخول في مذهبهم، فقال لهم بأن الأمور كلها تجري وفق المشيئة الإلهية. وقد تجاهلوا موقفه منهم حين كانوا ينجحون إلى التحامل على الإسلام فيردهم عن ذلك بما أثار عنه من رفق ولطف.

استمع أكبر إلى هؤلاء جميعاً في حرية وتسامح ديني مطلق وقت أن كانت أوروبا تحتاجها موجات محمرة من التعصب، فللكاثوليك كانوا يفتكون بالبروتستانت في فرنسا، والبروتستانت كانوا ينجحون للكاثوليك في إنجلترا، ومحاكم التفتيش كانت

(١) لا يتفق تحريم اللحوم هنا ومقاطعة الجزاير ومن إليهم بما أدها بدواتي من إلهة السلاطين للحوم الثمينة وقتلته للظاير والكلاب بفسره، وقد أصبح هذا المؤرخ عن وجه الحق في اتهامه هذه وغيرها بما كان يحز في نفسه هو ومن كانوا على هواه حين كانوا يرون السلطان يقرب الهذخة إليه ويملئهم بالتسامح والتكريم « المصدر السابق ٣١٤ ».

تتكلم ببقايا المسلمين واليهود في إسبانيا، ورجال الكنيسة بإيطاليا كانوا يحرلون بتهمة الهرطقة جمهرة من العلماء تكين لهم المنية والحضارة الحديثة بالكثير.

والمعروف أن هذا الأمير التيموري الذي كان يعمل، في سبيل بلوغ الحقيقة، على استخلاص الحسن من الآراء المختلفة التي قد تنتهي به إلى غايته، هذه تفكيره الفلسفي وبصيرته للفتاة إلى أن يرى الديانات صوماً، بعد إطلاعه عليها، كأنها رموز مختلفة تمثل الأسرار التي تحيط بالكون وأهله. لذا دلوا أنه استطاع إذابتها في مذهب جديد يقوم على التوحيد، وجمع ما في هذه العقائد من فضائل، ويقضي على الخلاف بينها، ويزيل ما بين الناس من فوارق، ويدعم أخوة الإنسان لأخيه الإنسان لينبغ بذلك كله إلى قيام التجانس التام في مجتمع بلاده.

إلا أن مسعاه لم يتكمله بالنجاح في مؤتمر الأديان الذي عقده في « عباد تخافه » وحشد له الصفوة من رجال الأديان وشيوخ العقائد على اختلاف ملتهم ونحلهم. ذلك أن هؤلاء الأعلام لم يتبادلوا فيما بينهم إلا لفظ التهم وأنقضوا لشتاتهم^(١).

وعلى ذلك فقد أدركه كبر، قبل أن يأتي الفلاسفة المحدثون بزمن طويل ويقرروا على وجه التحقيق، أن المعتقدات مستقلة تمام الاستقلال عن العقل الصرف^(٢).

وبرغم سخريه البادشاه من هؤلاء جميعاً فقد راح لأصحاب كل مذهب وقبيلة يدعيه بدوره لنفسه في غير تورع ولا استحياء.

أدعاه الزرانشيون حين وضع علاماتهم على ثيابه، وأدعاه الهنالكات حين رأوه يمتنع عن أكل اللحم ويحرم الصيد واستخدام البصل والثوم في طعامه، ويحض الناس من حوله على ذلك. ونسوا تشده المطلق في محاربة عادة المساكين الخاصة بهم - حيث تقبل الإيم التي ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان ن

(١) اقترح أحد المناظرين، وكان يدعى قطب جيسري، أن تختير المسيحية إزاء الإسلام بمطحة النار، وذلك بأن يخوض أحد القسوسة اللهب، فمن خرج منه سالماً كانت فرقته صوت الحق. في الأرض، لكن اليسوعيين رفضوا ذلك وخالفوه « منتخب التواريخ ثامن ٢٩٩ ».

(٢) اختلال التوازن العالمي لجورجستاد لورين ص ٢٥١.

زوجها - حتى تدخل بنفسه لإقلاق إحدى النساء الأشراف ومنع عشيرتها من إرغامها على ذلك^(١). كما أباح زواج الأرمال وحض عليه، على خلاف شرائعهم.

وإدعاء النصراني حين أكثر وزيره أبا الفضل بترجمة الإنجيل له وأدخل دراسة النصرانية في تعليم ابنه، ولم يمنع - على حد قولهم - في تصوير أحد من أهل الهند، على الاختيار. وزعموا أنه بفضل تعليمهم، أحال أحد المساجد في حضرته إلى أسطوانات للخيول والبقرة، بدعوى الاستعداد للحرب، وأمر بحرق المصاحف وحرم ذكر النبي الأكرم ﷺ، ولتصير على زوجة واحد، وحرم على أتباعه المسلمين ختان أولادهم الذكور حتى يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم فتكون لهم الخيرة فيما يعتقونه من الأديان^(٢).

وعلى مدى نشأة اللغة الأوردية في الغالب - وهي مزيج من لغات الفاتحين المسلمين ولغات الهند، نشأت تشوفا غريزيا من اختلاط هؤلاء الشعوب بعضها ببعض، حتى غدت بالكاد لغة الهند القومية - هنت أكبر قريحته، بمعاونة وزيره أبسى الفضل وأخيه فيوضي، إلى ابتكار مذهب جديد يتكلف كل ما هو حسن في سائر العقائد على وجه فيوضي، فيما ظننه على تلاحر الفرق والأديان ويهيئ السلام للناس والأمن للدولة.

وهذا المذهب الذي يعرف في التاريخ باسم « دين إلهي » والذي يقوم على تمجيد الله وينادي بوحدة الوجود ويمتزج فيه التصوف والفلسفة بالعبادات، فيه البادشاه هو الإمام العادل^(٣) ظل الله على الأرض، والمجتهد الأكبر، من أطاعة فقد أطاع الله ومن عصاه فقد خسر الدنيا والآخرة.

(١) هي ليلة أداي مبلغ وأرملة جاي مل أحد أبناء صومة راجا بهكون داس من زعامة الهنداكة المتربين من البادشاه. وقد ركب أكبر بنفسه لإقلاق هذه الأميرة.

(2) Muslim Rule 375 - 81.

(3) فكرة الإمام العادل هي عند أكبر بتغيير المذهب الشيعي ونظرية المهدي المنتظر حتى استطاع له تقريبا جديدا يربط من علم ارتقاه للعرش، وهو ما حدا به كذلك في الغالب إلى أن يوحى لتريق من المؤرخين وعلى رأسهم مولانا أحمد دلود بن قلضي تبا بكتابة « تاريخ أفسى » الذي يضم تاريخ المسلمين وسلاطينهم إلى العلم الألف من تاريخ لتقال النبي الأكرم ﷺ إلى التريق الأعلى.

وكان من رسوم هذه العقيدة الجديدة التي رمى أصحابها فيها إلى تمثيل عقائد الهند كافة أحسن تمثيل، أن يقر المؤمن بها باستعداده لتضحية أملكه وشرفه وحياته وعقيدته في سبيل البلاشاه، وأن يقتصر في غذائه على النباتات، ويمتنع عن تناول اللحم أيما كمية مرسومة، ولا يجالس الجزارين والصيادين وغيرهم من قتله الحيوان، ولا يحبس حيواناً أو طيراً عنده، ويتجنب البصل والثوم، وأن يبذل الصدقات للفقراء والمعوزين.

وكانت تحيتهم فيما بينهم هي : « الله أكبر » وجوابها : « جل جلاله »^(١).

وقرن أكبر إعلانه لمذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الاجتماعية المفيدة. فمنع عادة الساتى، وأباح لأرامل الهندكة الزواج، وحض الناس على الاكتفاء بزوج واحدة والابتعاد عن البناء بالأقارب الأقربين لما ينجم عن ذلك من ضعف النسل وفقر في المول، ومنع زواج الأطفال دون البلوغ^(٢)، وزواج النساء المتقدمات في السن بشبان يصغرهن بكثير.

وفرض كذلك عقوبات صارمة على مثيري الشغب والشجار، كما منع تعاطي الشراب وتداوله، وأمر بعقاب شارب الخمر وبائعها ومشتركيها وصانعها وقصر بيعها للتدأوى على متجر خاص بمقرية من قصره وجعل به سجلا يثبت به اسم كل مريض يتعاطاها واسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له بها^(٣).

(١) لم يقل أحد من المؤرخين بإدعاء أكبر الأوهية أو النبوة. وما يذكره بدوائى في هذا الصدد (منتخب للتواريخ ثامن ص ٢١٠) - وكان من أشد الناقمين على هذا المذهب الجديد - أن البلاشاه رغب عام ٩٨٣هـ في ضرب عبادة « الله أكبر » على المنكه والخاتم الشاهلى، فأصححه أحد رجاله بأن يستبدلها بقوله تعالى : (ولذكر الله أكبر) حتى لا يحمل الأولى على أدعاء الأوهية، فاحتج عليه السلطان بأن كل ما في الأمر هو موافقة مقتضى الحال فكيف للإنسان أن يرقى إلى إدعاء الأوهية وهو على ما هو عليه من العجز والضعف.

(٢) نص هذا التشريع على أن لا يقل من الشبان عن ستة عشر عاماً والفتاة عن أربعة عشر.

(٣) يرى بدوائى في هذا الإجراء تنظيماً غير مباشر لتعطى الشراب فحصب وترخيصاً مقابلاً به، ويغل من فوط تحامله هنا أن صرح بأن النبيذ يدخل لحم الخنزير في صناعته « منتخب للتواريخ ثامن ص ٣٠١ ».

وأمر كذلك بجمع البغايا في دار تدعى « شيطانيور » أي محطة الشيطان
وكل بهن عملا خاصا يقدم على شئونهن، ثم أخذ من بعد ذلك يستدعى إليه كل
واحدة منهن فيستوضحها عن أغواها ودفع بها في طريق الشر والفساد، لينتهي من
ذلك إلى قتل كل من ثبتت هذه التهمة عليه.

ولم يكتف بتعميم هذه الدور في مناطق كثيرة ببلاد حتى أمر بأن يساق إليها
كل زوجة وثبتت إدمانها على الخمر والشجار مع زوجها.

هذا كما منع من استرقاق أسرى الحرب^(١) واختلاط النساء بالرجال في
الأسواق وعند شواطئ الأنهار طلبا للمنى أو الاغتصاب.

وأعطى الهانكة من ضريبة الخمر ورفع عنهم رسوم الحج^(٢)، حتى
يشعروا بقيام المساواة التامة بينهم وبين مواطنهم من المسلمين. ولم يكتف بأن
يصرح للذين أجهروا في صياهم على الإسلام أن ينظروا، متى بلغوا سن الرشد،
في البقاء على إسلامهم أو الرجوع إلى دين آبائهم، حتى راح ينادى بحرية الناس
جميعا في تخير ما يروقهم من الأديان والعقائد ويسدى لهم النصيح بألا يتعرضوا
للذين يخالفونهم في عقيدتهم بسوء أو أذى، وأن يسلكوا معهم سبيل المودة والرحمة
حتى يصلوا وإياهم إلى معرفة الحق.

(١) هذا الإجراء يعد، على ضوء ملائمت القرن السادس عشر الميلادي، من أقبل ما شرعه
ملك، فضلا عن تحقيقه لهدف من أهداف الإسلام الإنسانية الكبرى في الدعوة للتحرير وملك
القلب، ولا تنسى أن الهانكة كانوا يستلمون عن الأسرى قيمتهم الإنسانية فيسلكونهم في
حداد المنبوذين، هذا وتجد بيان هذه التشريعات جميعا في الجزء الثالث من أبين أكبرى لأبي
الفضل بن المبارك بمواضع عديدة متفرقة منها.

(٢) كان يجبي من الهانكة رسوم معينة نظير السماح لهم بالحجج إلى أملكهم المقدسة وهذه هي
لتي راعها أكبر عن كاهلهم - هذا وكان أكبر هو كذلك أول من سبر المصل إلى الأراضي
المقدسة.

والحق أن أكبر لم يحاول أن يحمل الناس أبدا على الدخول في مذهبه الجديد هذا. فلم يلق بالآ إلى رفض راجا يهكون داس وراجا من سنغ^(١) الاستجابة إلى دعوته ولا إلى احتجاج قائدته عزيز ككا، برغم أنه كان بوسعه - بطبيعة الحال - أن يحمل كثيرا من رجاله على الانتظام في حزيه.

ولئن التفت فريق من الناس حول المذهب الجديد جلوبا للنفع وطمعاً في اكتساب الحظوة في الغالب، فإن الفضل التام قد أصاب البادشاه في مشروعه هذا الذي لم يكن ليقوى أبداً على هدم التقاليد الموروثة، فلبثت الغالبية العظمى على استمساكها بعقائدها ومذاهبها.

ولم تكن حركة أكبر هذه إلا واحدة من المحاولات القوية التي اضطلع بها نفر من المسلمين والهندكة، من قبله ومن بعده، للتقريب بين الإسلام والهندوكية وتضييق شقة الخلاف بينهما وإحلال التفاهم وتحقيق الوحدة بينهما.

وهذه التعاليم التي اضطلع بها كيتانيا، ونلك وكبير، وداراشكوه، ويلاحظ فيها تأثير التوحيد الإسلامي تأثيراً كبيراً، حتى لترى فرقة « السك الهندوكية » تجهر صراحة بتعظيم النبي الأكرم على الخصوص، وتمجيد القرآن الكريم.

وأدت هذه الحركات في الغالب إلى إضعاف روح التعصب الديني والعرقى وأوهنت من ضغط نظام الطبقات إلى حد كبير.

وبلغ أكبر بتسامحه الشديد على كل حال إلى كسب ولاء الهندكة حتى أولئك الذين لم يستقوا مذهبه الجديد، واستطاع صوما أن يحقق لبلاده الوحدة السياسية التي كان يهدف إليها ويعمل في سبيلها^(٢).

(١) كان من رد مان سنغ على البادشاه أنه يعرض حياته دائماً للموت في سبيل المظلم، وأنه على دين الهندكة، فإذا ما طلب إليه أن يسلم قد يفعل ذلك، وهو لا يمتدح بغير هاتين الملكتين على كل حال.

(٢) لم يصرح أكبر في نوافع بتكره للإسلام أو خروجه عليه وإن اضطلع جملة من شيوخ المسلمين. ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول بتمسكه بدينه، قد كانت السياسة هي دينه، ووحدة

نظام الدولة : لئن كان أكبر بوصفه الباشا هو صاحب السلطان المطلق فى الدولة الذى يوجه أمورها وفق هواه، إلا أنه سار فى حكمه على مقتضى العدل والتسامح المطلق، فنظر إلى رعاياه دون أدنى تفرقه فى الدين أو الجنس، فامرسوا جميعا طقوسهم الدينية على اختلاف ملتهم ونظمهم فى حرية تامة، فى الوقت الذى كان فيه ملوك أوروبا يتكلمون بأصحاب المذاهب التى تغاير مذاهبهم فى المسيحية على ما كان يفعل الأكويثيون مع كاثوليكى أيرلندا، وأصحاب فيليب الثلاثى ملك أسبانيا مع البروتستانتين.

كذلك لم يكن هذا الأمير المغولى ليتردد عن مشاوره رجاله فى تصريح شئون الدولة على أحسن وجه بكل صالح الأهلى، حتى بلغ من حرصه على إسعادهم أن لم يعارض فى فروض جديدة عليهم فحسب بل ورفع عنهم كذلك قبرا مما كان يفرض عليهم من قبل.

وهذا السلطان، الذى قول أنه قد لوتى حظا وافرا من راحة العقل حتى صار الموجه الفعلى لكافة المشروعات والإصلاحات التى تمت فى عصره، كان يعتمد أكثر ما يعتمد، فى تصريف الأمور على طائفة من كبار الرجال فى الدولة وعلى رأسهم وكيل السلطنة، وكان فى أول عهده بالحكم يرسم خان قائدته ومرييه، ويأتى من بعد الوكيل فى المرتبة الوزير أو الديوان وهو القوم على شئون المال فى الدولة، وكان يشغل فى العادة مركزا كبيرا فى الجيش (منصبدار) شأنه فى ذلك شأن أصحاب المناصب فى الدولة ، ويليه مير بخشى وهو الذى يقوم برفع مرتبات

أهل الهند تحت سلطانه فى عقيدته. وما ذهب إليه السيد أمير على، العلامة الهندى من أن أكبر « لم يخل فى حياته تعاليم الرسول والأئمة. Islamic Culture, Oktober 1927. إما كان لاستنساخه حقيقة بغنساب الإسلام الكبرى، وإن لم ينف ذلك عنه ورهطه الخوض فى بعض مسائل الفروض والمبادئ بما يغلب الشرع، فضلا عن تفرقه بفكره لتتلمخ عند الهند وإصلاحه بما تدحوا إليه الويشنوية من إعادة اكتشاف الإنسان لنفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التى تفرضها المرف وترسمها التقاليد الدينية، واقتناعه بأراء البروانشاد فى القول بأن كل إنسان إما يسمى لكنن الأسمى باسم يلكم وجهة نظره.

الجند والقادة ويشرف على شئون القوات جميعها، ويعد مسئولاً بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص. ويأتى من بعده خان سامان وهو صاحب شئون البلاط وكان يلازم البادشاه فى حله وترحاله ويشرف على شؤونه الخاصة جميعها. ثم قاضى القضاء وهو الموكل به شئون العدل وإجرائه وفق الشرع، وأخيراً المحتسب وهو الذى يراقب سلوك الناس ويمنع ممارسة البدع ولارتكاب ما ينافى الشرع والآداب عموماً.

وبإلى جانب هؤلاء الكبار، كان هناك فريق آخر من أصحاب المناصب المهمة، دونهم فى المنزلة، مثل المستوفى، محاسب الدولة الأول، والكتول وهو بمثابة رئيس الشرطة، ومكان يوكل إليه حراسة المدينة فى الليل والبحث عن اللصوص وقطاع الطرق، ومراقبة السكان ورقابة الأسواق، ثم صاحب البريد وأمير العرض الذى يرفع إلى البادشاه الاتهامات والشكاوى.

وبلغ من حرص أكبر على ضمان العدل فى دولته أنه كان ينظر بنفسه فى القضايا الكبرى التى كان على عماله بولايات الدولة أن يعرضوا بها إليه، كما كان يفتح أبواب قصره للناس يوماً معلوماً فى كل أسبوع ليتلقى منهم تظلماتهم بنفسه أو يتلقاها من ينبيه عنه من ثقته حين كان يتغيب عن مقره.

وكان صدر الصدور (المفتى) وقاضى القضاء ومساعدوه يعاونون البادشاه عادة فى النصل فى ذلك كله وفق قواعد الشرع الشريف، مع مراعاة رسوم الهداكة وشرائعهم فيما يعرض لهم من مشاكل ويقوم بينهم من خصومات.

وقد ألغى أكبر كثيراً من العقوبات البدنية التى تتنافى مع الإنسانية، كتر بعض أعضاء البدن، وأمر أن يكون تنفيذ أحكام الإعدام متوطاً بمصادقته شخصياً على الحكم.

هذا ولم تكن الدولة الإسلامية فى الهند، قبل عصر أكبر، تعرف التسميات الإدارية فى الغالب، اللهم إلا ما ذهب إليه شيرشاه فى هذا الباب من قبل، إذ كان تحديد الإقطاعات رهناً بمشينة السلطان وحده.

وانتهى أكبر إلى تقسيم أراضي الدولة إلى ولايات « سبه » وكل ولاية إلى عدة مراكز (مراكز) وكل مركز إلى جملة دساکر (برکنا) .

وكانت هذه الولايات في أول أمرها اثنتي عشرة، حتى إذا ما فتحت المدن بلغت خمس عشرة هي : آکرة والله آباد ولوده ودھلي ولاهور والمکتان وكابل وأجمير والبئغال وبهار ولحد آباد ومالوه وموار وخاندش وأحمد نکر^(١) .

ورأس كل ولاية، في هذا النظام، يدعى سبهسالار، أي القائد العام، وهو نائب السلطان بها . ولم يكن له أن يدخل في حرب أو يبرم التحالف والمصلح دون مشورة السلطان ورأيه .

وهو المشرف الأول على شئون القوات والقضاء في إقليمه . وله أن يعين صغار العمال ويقلعهم . ولم يكن له أن يتدخل في الأمور الشرعية، التي هي من اختصاص المصدر وحده، أو يصدر الحكم بالإعدام دون إذن السلطان نفسه .

ويليه في المنزلة ثمانية من أصحاب المناصب الكبيرة وهم : الديوان، والمصدر، والعامل، والبخشى، والخزندار، والفوجدار والكتول ووقائع نويس . ويبلغ وظائفهم هو كالآتي :

الديوان : يناط به شئون المال بالولاية، وهو يلي السباهسالار في المرتبة . وكان في أول أمره يعين من قبل أمير الإقليم نفسه، حتى رأى السلطان أن يجعله تابعاً له ليكون رقيباً من لده على كل ما يصدر عن الحاكم من تصرفات وأفعال، ويحد من سلطاته كذلك إذا أزم الحال .

المصدر : وهو صاحب الشريعة في الإقليم كله، وكان في العادة من العلماء أصحاب المهابة، ويقرر القضاء ورجال العدل بأمره .

العامل : وهو صاحب الخراج، وكان عليه أن ينظم جباية الضرائب ويراقب عماله جميعاً في بقعة تامة وحذر على وجه العدالة، وأن يجري تقدير خراج الأرض على درجة خصوبتها وجودتها، وأن يعمل على تأمين الناس على أنفسهم

(١) انظر تين أكبرى لأبي الفضل بن المبارك .

وما يملكون، ويظهر الطرق والسبل من النصوص وقطاع الطرق ويراقب البيع والشراء.

البتخشي : وهو المحاسب الذي يرجع أعمال العمال ورجال الدخولية، ويشترط فيه أن يكون ماهرا في الحسابات ملما بأصول الخراج ونظمه وأسس الإيرادات والمصروفات، وأن يسجل ذلك كله في سجلاته بالتفصيل.

الخزندار : وهو صاحب الخزنة الحافظ لأموال الدولة، وعليه أن لا يخرج مالا دون إذن الديوان، مع إيصال بالتسليم، ويثبت ذلك كله في دفاتره.

الوجدار : وهو القائد المباشر لقوات الولاية، وعليه أن يعلن الميهسالار في إقرار السلام في الإقليم كله، ويعين العمال على تحصيل الضرائب من أهل القرى والدساكر الذين ينتمون عن أدائها، على أن يكون ذلك بطلب مكتوب وتصريح من الحاكم، وكان هو الذي يطارد بتوافقه عصابات النصوص وقطاع الطرق ويخمد كل عصيان أو فتنة تنشب في الإقليم.

الكوتول : وهو صاحب الشرطة والمنوط به مراقبة تنفيذ الأوامر والقوانين في المدن.

وقائع نويس : وهو مسجل الوقائع، وضابط الاتصال بين الحكومة المركزية والولاية والرقب الذي لا تخفى عليه في الإقليم كله خافية.

ويواسطة هؤلاء الرقباء كان البانشاه يقف على كل أمر، صغير أو كبير، يجري في كافة نواحي دولته المترامية الأطراف. وكان على كل واحد من هؤلاء أن يحيط أمير الإقليم ورجاله علما بما يبلغه من الحوادث والوقائع قبل أن يرفع خبرها وتصليلها إلى السلطان.

ويرغم أن البانشاه كان قد أحكم نظام الرقابة على عماله جميعا في مختلف أنحاء دولته فأقام من كبارهم رقباء بعضهم على البعض الآخر، فإن صعوبة المواصلات وتراكم المسافات، مع اشتغال الدولة نفسها بالحروب والغزوات

المتواصلة في الغالب، قد أضعف من جدوى هذا النظام حتى صار حكام الأنباليم يتصرفون عموماً وفق هواهم وعلى مسؤوليتهم الخاصة.

وامتدت إصلاحات أكبر كذلك إلى نظام خراج الأرض الذي كان يعد أهم موارد الخزينة بعد رفع ضريبة الرعوس عن كاهل الهنادكة وإعفاثهم من ضريبة الحج.

ولم يكن هذا السلطان هو أول من أجرى ضريبة الأرض على نظام كفل العدل للمسلمين والهنادكة على السواء، فقد سبقه إلى ذلك شيرشاه سوري، وإن كان خلفاؤه قد عدلوا عنه من بعده فأثروا النهج القديم مع ما كان فيه من إجحاف بالغ الأهلين.

وحين عهد أكبر إلى تكمّل وزير ماليته « ديوان أشرف » بوضع نظام ثابت لخراج الأرض يوفى للدولة حقوقها ولا يضار الأهليون به، عد هذا الأخير أولاً - على ضوء تجاربه السابقة بالكجرات حين عهد إليه بتنظيم شئونها - إلى مسح أراضي الدولة كلها وبيان ما يوجد منها فيزرع على مدار السنة، وما يزرع منها مرة واحدة في العام، وما لا يثبت إلا مرة واحدة في كل بضعة أعوام، وما يعتمد منها في السقي على الأمطار، وما يقس منها من الأنهار والينابيع والآبار، وما هو في حكم البور، وما يقع منها في السهل أو يقوم على سفوح الجبال أو تنطويه الأحرار والغابات^(١).

حتى إذا تم له ذلك كله ربط الضريبة على متوسط الإنتاج في عشر سنوات، على أن يكون للدولة ثلث المحصول نقداً، في الغالب، بعملة العصر، وكانت دقيقة الصنع مضبوطة الوزن، ما لم يصب للزرع بآفة أو ينقطع الماء عن الأرض فتجذب.

كذلك حاول أكبر جاهداً أن يدرأ عن بلاده خطر المجاعات المروعة التي كانت تدهسها حين كانت تجذب الأرض بسبب انحسار الأمطار الموسمية عنها.

(١) منتخب التواريخ ١٨٩.

فاهتم اهتماما بالغا باستصلاح الأراضي البور، وحض الأهالي على الاشتغال بالزراعة وتوسيع رقع الأراضي المزروعة، وأمدم بما يحتاجونه من البذور ويعاونهم على زيادة إنتاج الأرض.

وكان من ثمره هذه الجهود أن نعم الناس في الغالب بحياة طيبة لم يألفوها منذ زمن بعيد، وازدهرت عيشتهم، وصارت الأسفار في متناول أيديهم جميعا.

وقد اقتبس البريطانيون أغلب نظم أكبر، الحكومية والإدارية والاقتصادية، حين صار إليهم زمام الأمور في الهند.

وثمة إصلاح آخر بالغ الأهمية أجراه الوزير الهنوكي تدرمل، بتوجيه من سلطانه، حين أمر بتحرير سجلات الدولة كلها بالفارسية، لغة المسلمين الرسمية بالهند إذ ذاك؛ فأقبل كثير من عمال الدولة من المسلمين الهنود والهنداكة على تعلم هذه اللغة، مما أدى إلى رواجها كثيرا⁽¹⁾، فهي اليوم ثلث لغات العالم الإسلامي انتشارا بعد العربية.

ومهد هذا الإجراء لظهور الأوردية المكتوبة، تلك اللغة التي هي مزيج من لغات المسلمين ولغات الهند، والتي نشأت نشوءا غريزيا من صلات سكان الهندستان من المسلمين والهنداكة بعضهم ببعض، لتأخذ صورتها الأدبية بعد قليل وتعم البلاد كلها.

الجيش : جرى سلاطين المسلمين في الهندستان على الاستعانة في حروبهم بما كان يمددهم به أصحاب الإقطاع من الرجال في الغالب. وكانت هذه الحشود، على ضخامة عددها تجهل أساليب القتال وفنونه صوما ولا يتوكل لها فرص المران والتدريب.

حتى إذا ما قضى أكبر على نظام الإقطاع وصارت الأراضي كلها ملكا للدولة، وغدت ولاياتها تحكم بواسطة نواب السلطان يوليهم شئونها على نظام مرسوم، رأى أن ينهج في تنظيم قواته الحربية نهج علاء الدين الخلجي وشيرشاه

(1) Lane Poole 246-66.

سورى من قبل، فتتخذ الدولة قوات نظامية دائمة تقوم ببلع أجورها من الخزانة العامة.

وكان من بين هذه القوات من يعمل تحت إمرة البادشاه نفسه فهى بمثابة حرسه الخاص، ومنها من كان يعمل تحت إمرة حكام الولايات. هذا عدا القوات الخاصة التى كان يحتفظ بها أصحاب المناصب الكبرى فى الدولة (المصيدارية).

وقضى هذا النظام على كثير من مساوئ سلفه، ومنها ما كان يئذله الأمراء عادة من الرشاوى للحصول على إقطاعات واسعة نظير ما يتعهدون به من إمداد السلطان بالجند والمؤن، وما كان يستتبع ذلك من إهلاكهم لساكن الإقطاع ولبناتrazهم لأقواتهم ومصادرتهم لأموالهم ولملكهم.

هذا وكانت قوات أكبر المسلحة تتألف من المشاة والمدفعية والفرسان والبحرية.

والمشاة، إذ استئثنا منهم حملة البنادق (بندقى) ولرباب السيوف (شمشير باز)، لم يكن لهم فى المعارك شأن يذكر فى الغالب. فعامتهم، على كثرة عددهم، كانوا يضطلعون بخدمة القوة العاملة ونقل المؤن ورعاية الدواب وحراسة المعسكرات ليس غير.

أما سلاح المدفعية، وهو الذى أتى به ظهير الدين بابر إلى الهند على ما ذكرنا من قبل، وعرفه الكجراتيون من بعد ذلك على أيدي البرتغاليين الذين كان لهم مستعمرات بشاطئهم فاستخدموه فى حروبهم مع هيايون، فقد كان مناط حماية البادشاه الكبرى حتى كان يشرف على كل شئونه بنفسه. وأغلب خبراء هذا السلاح كانوا من رجال فرغانه ومن العثمانيين ومولدى البرتغاليين بالهند. وبلغ من اهتمام أكبر بهذا السلاح وحده على إخال كل تحسين ممكن عليه، أنه احتال على تيسير استخدام قطعة الثقيلة، التى كانت تستنفد جهود الرجال عند نقلها من مكان إلى آخر، بأن وجه مصانعها إلى صنعها من قطع صغيرة يسهل فكها وتركيبها ويهون حملها ونقلها على جنده.

وأما سلاح الفرسان فكان هو القوة الضاربة الرئيسية في الجيش، حتى كان البادشاه يوالى بنفسه التفتيش عليه ويختبر خيوله، وينزل إلى حظائرها ويراقب تدريب رجاله.

وإلى جانب الفرسان كانت هناك وحدات الفيلة، وقوام كل واحدة منها كان يتراوح بين العشرة والثلاثين. وكان كل فيل يحمل اسماً خاصاً به على العادة التي لا تزال تجرى بتلك البلاد حتى اليوم.

كذلك عني أكبر بتحصين ساحله البحري وإن لم يبلغ به إلى درجة الأساطيل التي كانت تجوب أعالي البحار في عصره على كل حال. وأغلب سفنه كانت تعمل في أنهار الهندستان وفي حدود موانئه، ومن بينها ما كان يحمل المدافع الخفيفة وآلات الحرب.

وقام، بتشجيع من السلطان وتوجيه منه، عدة مصانع لبناء السفن مختلفة الأحجام والأشكال في لاهور وأحمد آباد وكشمير. وكان يعمل على هذه السفن فريق من مهرة الملاحين الذين كانوا يقدون من ساحل الملبار وكمباي ليلاقوا من تقدير البادشاه ما انتهى إلى تقرير رتب لهم نظير رتب الضباط في جيشه البري. هذا وتبناين أهوال مؤرخي كبر في تحديد عدد قواته، حتى أذهب بعضهم إلى تقويم الفرسان حنده بأربعمائة ألف والمشاة بما يقرب من أربعمائة ملايين.

والثابت المعروف أن الجيش الذي سار به البادشاه للقضاء على فتنة أخيه حكيم خان عند الحدود الشمالية الغربية كان يضم قرابة خمسين ألفاً من الفرسان مع خمسة آلاف من فيول الحرب وألوف كثيرة من المشاة، وجميعهم كانوا يتناولون مرتباتهم من الخزانة العامة.

ومن الطبيعي أن يتضاعف هذا العدد حين تنضم إليه قوات الولايات وينكمش إلى ما دون ذلك بكثير أيام السلم.

الحياة الفكرية والثقافية : وقف المؤرخ عبد القادر ابن ملوك شاه بدوايى المجلد الثالث من كتابه « منتخب التواريخ » على ذكر من عصر كبر واختلط به

من الحكماء والطماة والفقهاء والمؤرخين والشعراء والأدباء الذين تجاوز عددهم
الثلثمائة.

والواقع أن الهند لم تعرف من قبل أكبر سلطانا مثله اجتمع حوله هذا العدد
الكبير من رجال العلم والأدب، واتصلت ندواتهم عنده ولقوا منه كل إجلال
وتوقير وتقدير ، حتى بلغ من احترامه لشيوخه عبد النبي صدر الصدور مثلاً أنه
كان يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه . بل إنه حين بلغه مقتل وزيرة
الفضل، وكان عالماً ومؤرخاً كبيراً مشهوداً له بسعة الإطلاع وغزارة المعرفة ،
أشدت حزنه عليه حتى ودلو كان هو المقتول مكانه . فتوايغ العلماء ، على حد قوله،
لا وجود بهم للزمان إلا في النادر القليل ، بخلاف الملوك وإن صلحوا .

كان من بين كبار المؤرخين الذين عرفهم بلاط أكبر ، المؤرخ محمد القاسم
فرشته صاحب للتاريخ المعروف باسمه ، وعبد القادر بدواتي سالف الذكر ونظام
الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى ومحمد عبد الباقي صاحب متأثر رحيمى وكان
أبعد هؤلاء ذكراً وأخلصهم صيتاً الوزير أبو الفضل بن مبارك العلماى الذى لعب
دورا هاما فى توجيه آراء البادشاه الفلسفية ومبادئه المذهبية على السواء . وله
كتابان مهمان : أولهما أكبر نامه ، وفيه يستعرض به تاريخ حكم البادشاه كله ، ثم
أبين أكبرى الذى يعد ثبوتا كاملا لتقاليد الدولة المغولية ورسوم البلاط ونظام
الحكومة وقوانينها ، إلى جانب ما يحويه من حديث مفصل عن الهنداكة ورسومهم
وعاداتهم وعلومهم .

ولم يكن أبو الفيض فيضى نون أخيه أبى الفضل فى نباهة الذكر . فهذا
الشاعر لم يكن له نظير فى عصره ، حتى كتب فى المثنوى والديوان أكثر من
عشرين ألف بيت ، كما كان على نبوغ كبير فى الكتابة والفقهاء ثم الطب الذى بلغ
من شغفه به أن أوقف علمه به على علاج الناس بالمجان . وترك هذا العالم
من بعده مكتبة كبيرة ضمت قرابة خمسة آلاف مجلد من التولدر فى الشعر
والطب والفلك والموسيقى والرياضيات والفلسفة والحديث . وقد نقلت جميعها ،
على أثر وفاته إلى البلاط بعد تصنيفها^(١) .

(١) بدواتي منتخب للتاريخ ثالث ٢٠٥

وإلى جانب فوضى ، اشتهر الشاعران الهند وكيان تتسمى دلس ومسور دلس
للذان كانا يجيدان النظم فى الفارسية والمنسكريثة معا .

ولا أدل على عظيم غاية أكبر بالفنون الجميلة من مخلفات عصره الفنية
الرائعة التى يزدان بها كثير من متاحف العالم الكبرى اليوم . ولقد وفد إلى
بلاطه جملة من مشاهير النقاشين القروس وعلى رأسهم ميرسيد على وعبد الصمد
فلقوا عنده كل غاية وتشجيع .

ودفع بأكبر ولعه بهذه الفنون إلى أن يأمر بإقامة معرض للنقش مرة فى كل
أسبوع تشجيعاً منه للفنانين وتشجيعاً لهمهم وإغراء لمشاهيرهم بالتقدم إلى بلاطه .

ولم يغفل أكبر بدوره كذلك عن تشجيع فناني الهداكة حتى نشأ من بينهم
طبقة فذة عنت تنافس نقاشى المسلمين فى أكثر من ناحية^(١) .

ولا يستغرب ذلك كله من عاهل أوتى من الأحاسيس الفنية مع جطه يصرح
بأن التصوير هو ضرب من العبادة ، وأن للفنان ، فما يبدو ، طريقته الخاصة
للإقرار بواحدانية الخالق المبدع . فهو حين يصور الكائنات الحية وينقش أعضائها
وأطرافها وملامحها على لوحته ، لا بد وأن ينصرف بذهنه وخياله إلى التفكير فى
إبداع خالقها الذى نفع فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه ..

وقد تخلف عن فنانيه لوحات كثيرة سجلت حياة البلاط ورسومه وكثيراً من
مظاهر المجتمع لعصره فى إبداع منقطع النظير .

ومدرسة النقش المغولية التى وضع أسسها أكبر لها اليوم صيتها الذائع فى
عالم الفنون على كل حال .

كذلك كانت مصانعة تخرج طرفاً من النسيج المزركش والمسجاد الفاخر
المحلى بمختلف النقوش والألوان .

(1) Laurence Binyou: The Court Painters of the Grand Moghul, Oxford
1921.

ولم تكن غنية أكبر بالموسيقى دون غنيته بالتصوير والنقش وما تزال
الأثاث المغولية وأثاثها لها سوق رائجة بالهند حتى اليوم .

أما العمارة الهندية الإسلامية التي تعد بحق من مميزات العصر الأكبرى
فى القصور والمساجد والحمامات وغيرها من المنشآت ، بمدينة فتحبور على
الخصوص ، ما يعد من بين خير نماذجها التي تجلت رائعة فيما بعد فى مثوى تاج
محل بأكرا الذى يعد من بين عجائب الدنيا .

وفنون الهند هى جملة ، باعتراف المؤرخين الأوروبيين ، لم تكن فى عصر
أكبر دون فنون أوروبا منزلة إن لم تتفوق عليها فى بعض نواحيها^(١) ابتلى أكبر
فى أواخر أيامه بكارلث عاتلة حطمت من قوته النفسية وهدت من كيانه . من ذلك
فقدته لولديه مراد ودانيل على التوالي بإدماتهما على الشراب ، وعقوق ابنه الأكبر
سليم وعصابته له حتى دبر مقتل الوزير العالم أبى الفضل بن المبارك أعظم
خلصاء البادشاه وأكبر مستشاريه^(٢) .

وأشتد الداء على أكبر عام ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م فأسلم روحه إلى بارئها فى
جمادى الآخر من العام نفسه .

وحاول الخان الأعظم عزيز ككا ومعه الأمير الهنوكى راجا من سنغ ،
والبادشاه فى أيامه الأخيرة ، أن يمهدا للمناداة بالأمير خسرو ابن سليم وحفيد أكبر
سلطانا على الهند بدلا من أبيه الذى أدى ببغيه إلى تمكن كراهيته من قلوب
الكثيرين . لكن تكبير هما باء بالفشل حين قدم سليم إلى أبيه وهو فى النزاع فقلد
سيف همايون وعمامته وعهد إليه من بعده^(٣) .

ولم يكن أكبر بهى الطلعة ، وإلما كان قوى البنية مقداما شجاعا ، لم يتقاصر
أبدا عن مشاركة جنده فى أعنف المعارك أو يتردد فى مواجهة أضرى للشمرة

(١) V. A. Smith, History of Fine Arts in India and Ceylon Oxford 1930.

(٢) تكملة أكبر نامة لغنية اهـ ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢

(٣) وقليلى « حالات » أحمد بك قزوينى ١٦٩ - ١٧١

والأسود والقبيلة وأشدها شراسة في المصطاد ، كما كان يستخف بأربعين ميلا مشيها في اليوم الواحد ، ويندفع بحصانة في مجرى الكنج إبان موسم الأمطار والفيضانات وسبيله الجارفة .

كذلك كان أكبر شديد البر بالناموس عظيم الإحسان إلى الطبقات الفقيرة خصوصا ، حتى جاوزت رحمته بهم كل مدى وشملهم عدله إلى أبعد حد .

ومن تواضعه أنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا هداياهم البسيطة التافهة بنفسه ويضمها إلى صدره ممكنا ، مع أنه كان لا يكثر بثهدايا الأمراء والأعيان^(١).

وكان إلى جانب نظافته الشديدة ، بسيط الثياب في الغالب ، فلم يكن يميل كثيرا إلى التحلى بالجواهر ، غير كلف بأنواع المأكول والمشرب . ولقد أكل معجونات الأفيون ، وهي رذيلة ظلت تتمكن من كثير من سلاطين الهند وفارس وتركيا أمدا طويلا^(٢) لتوردهم موارد الردي في سن مبكرة في الغالب .

هذا وكان أكبر طموحا يستمتع بصفات عقلية ممتازة يسرت له أن يقضى وقتا مرسوما في النظر إلى شئون الدولة وما تقتضيه نظمها من ضروب الإصلاحات التي كان يجوش بها صدره ، لينصرف من بعد ذلك إلى الجلوس إلى طوائف العلماء والحكماء الذين كانوا يقدون إليه من كل أمة على اختلاف مذاهبهم وملهم ، حتى شهدت الهند في عصره نهضة عقلية رائعة لم تكن تقل عن نظيرتها بأوروبا إذ ذاك .

(١) الهند وجيرانها ١٢٧

(٢) جرب الباحثاء كذلك التخنين وكان تتبع حديث ورود إلى الهند « واقعي أسد بك ١٦٥ - ١٦٧ ، وفي هذه الصفحات نقاش طريف بين أسد بك وولييب السلطان الذي كان يحضره من الاندفاع وراء تقاليد الأوربيين في عاداتهم ودينهم .

وترك أكبر من بعده لابنه دولة موطنه الأركان تتألف من الشمال الهندي بأكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن . فكان هو أول من انتقل بالبابريين من محاربين وطلاب للمغامرات إلى أصحاب أسرة مالكة عظيمة . ذلك أن بابر ، أول سلاطين المغول في الهند ، كان قد شغل بحرويه ومغامراته وفتوحه طويلة حياته ، في حين قضى همايون الشطر الأكبر من عمره في المنفى يجاهد لاسترداد ملكه الذي كان قد انتزعه منه الأمير الأفغانى شيرشاه سورى ، وطرده من الهند كلها ، ثم كتب الاستقرار على عرش الهند لأبى الفتوح جلال الدين محمد أكبر فتجلت عبقريته في تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها ، حتى كانت طريقته في الحكم هي التي أذاعت من صيته أكثر مما أذاعته فتوحاته ، فأجمع كثير من المؤرخين على أنه أعظم ملك عرفته الهند ، حتى ليسلك كذلك بين أعظم الملوك في التاريخ طرا^(١) .

(1) Dunbar, 197 Lane Poole 288.

جهانكير

لم يكن أكبر، وهو من هو في رعايته العلم والعلماء، لينسى لابتسه سليم مقلته لوزيره المورخ العالم أبي الفضل بن المبارك. كذلك لم يكن ليروقه منه ولحه الشديد بالشراب، حتى جال بخاطره يوماً، بتحريض من صديقه راقا من سنغ وقتلته عزيز ككا، أن يتخطاه بولاية العهد إلى حفيدة خسرو.

وحال دون تحقيق هذا الأمر حسن تكبير هذا الأمير حين قدم إلى أبيه مستتبيا عما بدر منه من عصيان وعقوق في السابق، ليجلس من بعد ذلك على عرش الهند في أكرا في الثامن من جمادى الثاني عام ١٠١٤هـ/١٦٠٥م باسم السلطان أبي المظفر نور الدين محمد جهانكير.

وبرغم ما كان من ميل هذا الأمير للشراب، فقد كان على درجة كبيرة من الثقافة، شغوفاً بالمعرفة التي نشأ أبوه عليها، متشبهاً بالتسامح المطلق الذي دأب أبوه على غرسه في نفسه ويثا فيه، حتى غدا في ذلك كله صورة مصغرة لسلفه أعظم سلاطين الهند المسلمين بلا شبهة.

ودفع جهانكير حرصه البالغ على ضمان إجراء العدل المطلق في دولته، بالوقوف على شكاوى رعاياه والنظر في تحقيقها بنفسه، إلى أن أمر بمدة سلسلة العدالة التي ذاع صيتها عنه : « أول ما أمرت به بعد جلوسي على العرش هو مدة سلسلة العدالة لأطلع بنفسى على شكاوى المظلومين من إعمال رجال ديوان العدالة لأمرهم^(١). وكانت سلسلة من الذهب الخالص تطول ثلاثين ذراعاً، وتتلقى منها أجراس سبعة، وتمتد من شرفة البرج السلطاني الخاص بقلعة أكرا لتبلغ أسطونا هبت إليه عند شاطئ جمنا. والغالب أن سطوة الحكام ونفوذ العمال كان أقوى من إرادة السلطان، فلم تحرك هذه السلسلة وتجزأ أجراسها إلا مرات قليلة.

هذا كما كان في أسفاره ورحلاته الكثيرة لا ينى عن تقصد أحوال الناس والجلوس إليهم وتحقيق مطالبهم بنفسه.

(١) واقعات جهانكيرى من ٢٥٨ . وهي تقليد جرى عليه بعض حكام المين الاكمين Modern

Universal History - vol. VII p.206.

دستور أمل : ودعم جهالكير صنيعة هذا بإصدار « دستور أمل » وهو اثنتا عشرة وصية وجهها إلى عائلة ليسيروا على هديها في علاقاتهم برعاياه وتبويرهم لثنون الدولة.

وقد نظم هذا الدستور وظائف الدولة ومناصبها المدنية والعسكرية والدينية على السواء، وفسر شؤون الميراث وقوانين الضرائب، ودفع عن كاهل الأهليين ما كانوا يلزمون بدفعه للولاة والعمال من الضرائب ليقودوا منها لأنفسهم، كما حظر تطبيق العقوبات التي تؤدي إلى جرح الألف أو قطع الأذن أو بتر أى عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عظم ذنب المذنب. كذلك حرم هذا الدستور تعاطى للشراب وصناعاته وتجارتها، وحض على إقامة دور الشفاء فى كافة أنحاء البلاد وتزويدها بالأطباء، على أن تقوم الدولة بالإتفاق عليها، لتصرف الغذاء والدواء للمرضى بالمجان، وحرم على الولاة والعمال استخدام أفكارهم فى مناصب الولايات أو مصاهرتهم إلى الأهليين دون إذن صريح من السلطان، وحثهم على إضفاء الأمن والطمأنينة على الناس فلا تفتصب أملاكهم أو أموالهم، وأن يكفوهم أخطار اللصوص وقطاع الطرق بتسيير الأرض الخلاه التي يأوى الأشرار عادة إليها، وذلك ببناء الدور والمساجد بها وحفر الآبار فيها فوائس الناس إليها.

كذلك نظم هذا الدستور مسكوكات الدولة من الذهب والفضة والنحاس وجعل لكل صنف منها علماً مرسوماً^(١).

ونهج جهالكير نهج أبه أكبر فى التشييت بالتسامح المطلق بأزاء رعاياه من الهنداكة على الخصوص تقربهم إليه وفتح لهم بلب المناصب الرفيعة فى الدولة.

والثابت أن هذه السياسة قد ساعدت فى كثير من الأحوال على إقرار السلام فى أراضي الدولة المغولية المترامية الأطراف أكثر مما عاوت عليه قواتها العسكرية وآلتها للحربية. وحين حل حكم هذه الدولة فيما بعد عن سياسة التسامح هذه التي جرى أباهم عليها، أخذت الدولة تتعرض لمتاعب شديدة دفعت بها آخر الأمر فى طريق التفسخ والانهيار.

(١) واهلت جهالكيرى ٢٨٤ - ٢٨٧

وإثن كان السلطان قد شمل صديقه راجا برمنغ ديو، قتل الوزير أبى الفضل، بالكثير من الرعاية، فإنه لم ينس، على كل حال، عبد الرحمن خان خاتان ابن الوزير المقتول فرفعه عليا. كما تفاضى كذلك عن فطه القائد عزيز ككا وراجا من سنغ، حين كادا يمولان بأبيه إلى أبعاده عن ولاية العهد، فأجزل عطاءه لهما، وإن لم يغمض عينيه أبدا عن مراقبة سلوكهما وسلوك ابنه خسرو الذى كادا يناديان به مكانه فى السابق.

ثورة الأمير خسرو : ما حدث نوازغ للشباب الغض وأطماعه أن تغلبت على خسرو وهو يعلم أن له من بين الكبار فى الدولة ظهراء فى آماله، فانطلق من حصن أكرا، حيث كان أبوه يستقبه به تحت عينيه، واتجه إلى البنجاب فى بضع مئتين من رجاله وقد رفع بنود العصيان.

وانضم إليه فى الطريق بعض سفار القادة ومعهم عبد الرحيم ديوان لاهور الذى اتخذ وزيراً له، كما نقحه كورو أرجونا - زعيم طائفة السك وصاحب جرائث صاحب، أفسد كتبهم - قهراً كثيراً من المال بدوره. حتى إذا ما بلغ لاهور، امتنع دلاور خان أمير البنجاب عليه بها، ليقتل السلطان من بعد ذلك بنفسه فيوصده عنها ويوقعه فى أسرهِ ويمثل بمن ماله فى عصيانه من القادة أشنع تمثيل^(١).

وكان ما نفع بجهانكير إلى خروجه بنفسه عجلاً فى أسر ابنه، هو ما خافه من احتمال اتصاله بعدوه راجا من سنغ فى البنغال، أو الأوزبك والفرس عند حدوده الشمالية الغربية فيفتح بذلك باب للمناصب والأخطار التى لا تحمد عقبىها.

على أنه ارتكب خطأ شنيعاً حين أمر بقتل زعيم السك، كورو، لمدد ابنه اللاتر بالمال، وكان فى مقدوره أن يلقى بهذا الشيخ فى الحبس حتى يوافيه أجله بسلام، فيجنب بذلك إثارة عدا طائفة السك الكبيرة القوية التى

(١) وأقامت ٣٠١، ٣٠٢.

دفعت شهيداً إلى مرتبة القديسين، وراحت تتحدى على طول الزمن بالثأر لمقتله، فساهمت بعداتها هذا مساهمة فعالة في تعجيل انهيار بناء الدولة المغولية حين بدأ الضعف يعورها^(١).

وكان الحصن لم يفت في عهد الأمير خسرو، فما ضا بعد قليل أن استمال إليه نفرأ من حراسة ليتآمروا معه على قتل السلطان حتى إذا ما وقف جهاتكير على تدبيرهم، حين بلغ لأمور قائماً من كابل حوث كان يستجم، أمر بقتل المتآمرين، دون ابنه الذي سمعت حينئذ وإن ترفق به الكحال حتى استرد بعض بصره بعد قليل. وقد بقى خسرو في محبسه حتى وافاه أجله بالمكن عام ١٠٣١هـ/١٦٢٢م^(٢).

اضطرابات البنغال : أدى اضطراب الأحوال في البنغال لكثرة توالي الحكام عليه وقصر إقامة كل واحد منهم به، إلى أن جمع الأفغان هناك شملهم من جديد، فراحوا، بزعمانة من يدعى عثمان أفغان، ويثرون القلاقل والفتن، حتى قدم إليهم القائد مهابت خان قضى على عصيانهم وأقر الأمور في هذه البلاد من جديد.

وكان لحسن صنوع جهاتكير مع زعماء الثوار في البنغال، حين غلبا عليهم وقد بعضهم مناصب في الدولة، أكبر الأثر في ركونهم إلى طاعته وتغاييرهم في خدمته.

وكذلك فعل السلطان مع رانا أمار سينغ صاحب مولر فوصله وابنه ويالغ في إكرامهما^(٣).

ملك عنبر : كانت الدكن قد ظهر بها قبيل وفاة أكبر وزير حازم وقائد شجاع هو ملك عنبر الحبشي وزير ملوك نظام شاهي أصحاب إمارة أحمد نكور.

(1) Prasad, Muslim Rule, p.432.

(2) انتخابات جهاتكير شاه ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

(3) Muslim Rule pp.445,6.

وقاد هذا الوزير بصيرته النافذة إلى الإفادة من مرهبتها الهندكة وما عرفوا به من شجاعة وتهور في القتال، فدرهم على حرب العصابات ومعارك الأدغال.

وقد استغل أمر هذه الطاقة حين بدأ الضعف يندب في الدولة المتواوية فصارت لهم دولة وقوة هائلة طغقت تهدد حكام الهند المسلمين تهديداً خطيراً.

وأمكن لهذا القائد الحشي أن يسترد أغلب الأراضي عند أسيركاه وما حولها، وهي التي قد استولى عليها أكبر ومنعه خروج ابنه سليم عليه من التوغل عند الجنوب منها. حتى إذا ما توالى قواد جهانكير على الدكن فصددهم عنها وأرضهم على الارتداد إلى الكجرات^(١)، بعث السلطان بالخان خاقان فمهذ الأرض بضرب العدو، ليقيم شهادة خرم من بعد ذلك ويقر الأمور هناك بعد حروب طويلة انتهت بضم أقاليم الدكن الشمالية إلى أراضي الدولة، وإن لم تكسر شوكة الوزير الحشي ورجاله، حتى تمكن خليفته حميد خان، وكان من بنى جلنته، أن يصرف قادة السلطان عن حربه على قدر كبير من الأموال.

قد أقام السلطان ابنه خرم نائباً له بالدكن ولقبه بشاهجهان وهو اللقب الذي عرف به من بعد ذلك في التاريخ.

كذلك كتب لجهانكير التوفيق بالاستيلاء على حصن كجرا الهندوكي الشهير عام ١٠٣١هـ/١٦٢٢م بعد حصار طويل دام أربعة عشر شهراً. وكان قد امتنع من قبل على فيروز تغلق وأكبر نفسه، بل وكل الفاتحين المسلمين منذ أيام محمود الغزنوي الذي تم له اقتحامه فانتهب ما بمعد نكرت الذي يقع في نطاقه من أموال وكثوز^(٢).

(١) ولغات ٣٢٢ ، ٣٢٤ .

(٢) ولغات ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

ثورة شاهجهان : أدى ضياع قندهار من أيدي الدولة المغولية إلى إثارة حفيظة السلطان على ابنه شاهجهان، بتخريض من زوجته نورجهان، حتى صار الحال إلى خروج الابن على أبيه وجهره بمصيباته له.

ذلك أن هذه المدينة فضلاً عن أهميتها التجارية الكبيرة، حتى كان يمر بها في العام الواحد ما يوفى على أربعة عشر ألف جمل تحمل البضائع فوما بين الهند وفارس، كانت موقعاً حريياً خطيراً عند حدود الهند الشمالية الغربية، مما حدا ببابر وأولاده من بعده أن يحرسوا على الاحتفاظ بها في أيديهم.

ولئن كان القرس قد أكرهتهم بعض الظروف على التخلي عنها إلى حين فإنهم لم يعدوا أبداً إلى التنازل عن حقهم الثابت فيها أو تغفل حيوتهم عنها أبداً. فالتنكر للشاه الصفوي فرصة اضطراب الأمور ببلاط الهند حذب وفاة أكبر فزحفت قواته إلى المدينة، فمال زال أميرها شاه بك خان ممثماً فيها حتى ولفته قنوات جهانكير فأباحت هؤلاء الغزاة عنها.

هناك شرع الشاه الفارسي يلاحق محاولاته الودية عند السلطان الهندي على يسترد مدينته سلباً. حتى إذا ما أيقن بفضيل مساعيه بادر عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م بضرب الحصار عليها.

وحين طلب جهانكير إلى ابنه شاهجهان أن يبادر بالسير من الدكن إلى قندهار لدفع القرس عنها، خاف أن هو سار إلى خارج الهند، أن تكيد له زوج أبيه نورجهان في غيابها، وكانت قد شرعت تحشد جهودها ومعها أخوها أصف خان لحمل السلطان على جمل ولاية العهد للأمير شهريار أصغر أبنائه وزوج ابنتها من زوجها الأول شير لفرن، فجهر بمصيباته لأبيه حتى رفض أن يسير إليه جند الدكن حين طالبه بها.

هناك امتثلت نورجهان هذه الفرصة التي منحت لها بذلك، فراحلت تحط من قدر الأمير القاتر وتعلم من قدر خنتها. أصغر أبناء السلطان حتى عقد له جهانكير لواء حملة قندهار.

وفيما كانت السلطنة منهكة في تنفيذ خططها، سقطت كندهار بأيدي القوم،
لقد من بعد ذلك رسل الشاه الصفوى إلى جهانكير وتؤكد له حق أميرها بالمتسورات
وقومه في هذه المدينة فيقبلهم بقول حسن ويبيع في أثر قواته يأمرها بالارتداد
إليه.

وقوى من جهة نورجهان أن كان ينلصرها في خططها فريق من كبار
القواد والأمراء، وفيهم آصف خان ومهابت خان ويرمنغ بندلا قاتل أبي الفضل
، وما هو السلطان نفسه يسير برأوها، وموارد الدولة كلها رهن تصرفها.

واشتبك الخصمان : السلطان وابنه، في قتل عنيف عند الجنوب من دهلي،
حتى إذا ما دارت الدائرة على شاهجهان، فاعترض ملكه غير وسلطان غولكونده عن
مديد العون له حين أكره على الارتداد إلى الدكن، فطلق إلى أوريسه فتم له من
هناك إخضاع البنغال وبهار له. على أن فشل في الاستيلاء على أورده والله آباد وما
تكشف له من نقشي الخيلة بين صفوفه، اضطره إلى الارتداد إلى الدكن من جديد،
فرحب به، في هذه المرة، ملكه غير الحبشى حتى كاد يشتبك إذ ذلك مع قوات
الدولة في بيجاور.

ووضع لشاهجهان آخر الأمر ضعف مركزه بالدكن، فلم يكذب يكتب إلى أبيه
مستنكيا حتى حملت نورجهان السلطان من فورها على الصفح عن ابنه، على أن
يبعث بأبيه، دارا شكوه وأورنكزيب، وكانا حديثين إذ ذلك، رهقن بدار السلطنة^(١).

مهابت خان : لم تكن نورجهان لتذهب هذا المذهب في حمل السلطان على
الاستجابة إلى ضراعة ابنه الأكبر لولا ما بدالها من أخطار تهدد بالقضاء المبرم على
خطتها وهدفها الأكبر في الحصول على البيعة لختها شهربار.

ذلك أن مهابت خان، وهو نكلم القائد القدير الذى تم على يديه إقرار الأمور
بالبنغال وبحر قوات شاهجهان من بعد ذلك، ضاق ذرعا بنورجهان التى غدت
تسيطر بنفوذها على شئون الدولة والتي أدى بها غرورها إلى الحط من أقدار كبار

(١) تمة ولفات ٢٩٦ .

الرجال، فانتطلق يدعو لأخذ البيعة ليرويز ثاني أبناء السلطان، وكان طوع بيمينه،
ليضمن بذلك خلاص الأمر له مستقبلاً.

وأدى غلو السلطان، بتحريض من زوجته، في اضطهاد ابنه وقتلته حين أمر
الأول بالسير إلى الدكن ولتأني بالتوجه إلى النيبغال، إلى أن فر الاثنان من عنده
وخرجوا عن طاعته.

وما عدا مهابت خان أن كمن السلطان. وهو في طريقه من لاهور إلى كابل
قائماً من كشمير، فنقط عليه في خمسة آلاف من محاربي الراجبوتيين الأعداء عند
نهر جهلم رافد السند، وأوقعه في أسر^(١). ولم تفلح نورجهان أول الأمر في فك
أسر زوجها، فباعت قواتها بالهزيمة وسقطت وأخاها بدورها في الأسر، لتصل
بدهانتها وحيلتها من بعد ذلك إلى الإيقاع بمهابت خان وهو يسير في حفنة قليلة من
رجاله، حتى لم يتمكن من الخلاص إلا بشق الأنفس فهرب إلى الدكن.

هذا وكان شاهجهان قد سارع بدوره لتجدة أبيه حين علم بوقوعه في الأسر،
فلم يبلغ السند حتى وافته رسل نورجهان تكتبه بما أشاعه خبر مقدمة من
الاضطراب في صفوف مهابت خان، حتى تم لهم الخلاص مما وقعوا فيه، وتشير
إليه بالارتداد سريعاً إلى الدكن لإقرار الأمور فيها^(٢).

نورجهان : هذه السيدة، التي صارت صاحبه السلطان في الهند في عهد
جهانكير، هي ابنة تاجر فارسي يدعى ميرزا غياث سافقة الأقدار إلى بلاط أكبر
فولي ديون كابل واضطلع به في مقدرة فائقة. وما غدت ابنته هذه، وكانت تدعى
مهر النساء أن بنى بها مغامر فارسي آخر يدعى علي قلي استأجروا وبشتره كذلك
باسم شيرا فكن، وكان قد قدم الملتان فالتقى بالخان خانان الذي ألحقه بأحد
المناصب في الجيش.

(١) إقبال نامه جهانگیری ٢٥٧.

(٢) مآثر جهانگیری ٤٤ - ٤٤٥.

وصحب على قلى هذا الأمير سليم (جهانكير) حين سيره أبوه أكبر لقتال رانا مور، ولبت معه كذلك بعض الوقت بالمكن، حتى إذا ما خرج الأمير على أبيه، كان ذلك القائد القارسى من بين الذين تخلوا عنه من القادة وتركوا معسكره.

وحين ولى جهانكير العرش، فتلقى لكل رجال أبيه السابقين ما كانوا قد ارتكبوه فى حقه وشملهم جميعاً بمره، عهد إلى شيرا فكن بدوره بأحد المناصب فى البنغال؛ حتى إذا ما استراب فى اتصاله بمصاة الأفغان هناك، فبعث إلى نائبه البنغالى قطب الدين يأمره بتسييره إليه، اهتبل هذا القائد فرصة لفراذه بحاكم البنغال فهوى عليه بسيفه حتى كاد يقضى عليه، لولا أن أسرع إليه حرس قطب الدين فمزقوه لرباً بسيفهم وألقوا أميرهم.

وسيرت أرملة شيرا فكن عقب ذلك إلى البلاط فلبت به سنوات أربع حتى بنى بها جهانكير عام ١٠٢٠هـ/١٦١١م.

وما نقوله الرواية عن غرام السلطان بهذه السيدة منذ أن رآها بالمكن ليام أبيه - حيث كان زوجها يسير فى حاشيته، حتى انتهى إلى تكبير مقتل زوجها بالبنغال لتخلص له - قد يجد له سنداً فى حملة السلطان نفسه ومؤرخيه على شيرا فكن، حين يصفوه بأنه كان مجرد ساق عند الشاه الصفوى إسماعيل الثانى، وأنه سار سيرة أهل البغى والفساد فى البنغال^(١).

ولعل بناء جهانكير بهذه السيدة، بعد أن تركها تقويم سنوات أربع فى حرم أمه، إنما كان فى الغالب لينسى الناس قصتها وتخف لوعتها على زوجها وما لقيه من مصير اليوم. وأيا ما كانت حقيقة المسألة، فإن هذه السيدة التى كانت لا تزال على جمال فائق برغم بلوغها الرابعة والثلاثين من عمرها حين بنى بها السلطان، قد أوتيت من قوة الشخصية وحدة الذكاء ورجاحة العقل ما يسر لها أن تغدو صاحبة الكلمة الأولى فى الدولة حتى خضع لمشيئتها السلطان والقادة وتقبلوا جميعاً مشورتها بأحسن القبول. ولا أدل على دعاتها وسعة حيلها من نجاحها فى

(١) إقبال نلما ٤٠٢، ٤٠٥.

تخليص نفسها وزوجها من أسر القائد مهابت خان والإيقاع به بدوره على ما فصلناه من قبل.

واشتهرت هذه السيدة كذلك بقوتها البدنية الفائقة وشجاعته الخارقة حتى أنبرت لصراع أشد الكواصفكا، كما كان لها مشاركة في الدراسات الأدبية وتفنن ذاتع في تصميم الأزياء ونقوش الجواهر والخط^(١).

ولقد كان حرياً بنورجهان أن تقصر جهودها على وجوه الخير التي حققت الكثير منها، حتى نهضت بالمرأة الهندية ورفعت الكثيرات من الفتيات الفقيرات على الزواج. فقد جرها ما صار لها من بالغ النفوذ على زوجها، حتى ضربت السمكة باسميهما^(٢) وذيلت مراسيم الدولة بخاتميها جنباً إلى جنب، إلى أن طفقت، بوحي من أطماعها، تعمل لحمل السلطان على البيعة لأصغر أولاده وختتها الأمر شهرار، فأثارت بذلك ثائرة شاهجهان، صاحب الحق الأول في ولاية العهد، حتى جهر بالخروج على أبيه. نهجه ونهج كذلك طائفة من كبار رجال الدولة حين رأوا هذه السيدة تعمد، بدافع من غرورها وكبريائها، إلى محاولة النيل من أقدارهم، لترزع هذه المسائس والفنن كلها من بناء الدولة وتعوق من إقرار الأمور فيها من بعد ذلك.

وساعد على إطلاق يد نورجهان في تصريف شئون الدولة، فضلاً عن ولـه جهانكير بها، ما كان من إيمانه على الشراب، الذي قضى على أخويه وهما في ميعة الشباب من قبل، وتسلطيه للأكيون، حتى قضى في ٢٨ صفر من عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م، والكأس في يده، بعد أن حكم اثنين وعشرين عاماً.

شخصية جهانكير : لولا محنة الشراب التي ابتلى بها جهانكير لأفادت الهند منه خيراً كثيراً.

(1) Muslim Rule 411.

(2) Lane. Poole 317.

فلقد كان لهذا السلطان الكثير من صفات أبيه للغاية التي أرادها له حين حرص على تزويده بالكثير من العلم والمعرفة والفضل، فنهج نهج التسامح المطلق في حكمة وقرب إليه المسلمين والهندكة على السواء، ولاطف الأوربيين ومبشرينهم حين قدموا إليه.

هذا، كما كان له مشاركة كبيرة في الدراسات الأدبية والتاريخية، وإمام واسع بطوم الحيوانات والنبات خاصة، وشغف بالغ بالحدائق وتنسيقها بل ويتزويدها بكل نبت جديد، مما لم تكن تعرفه الهند، على ما كان يفعله جده باهر من قبل.

ويبلغ من رسوخ قدم جهانكير في الفنون الجميلة وبخاصة في فن النقش والتصوير، أنه كان في مقدوره أن يميز نقوش كل فنان بخصائصه، في سهولة ويسر، حتى عند ما يشترك جملة منهم في نقش واحد^(١). وحين كان يعرض عليه زواره من الأوربيين صور ملوكهم وأمراءهم، كان يأمر نقاشيه بنقلها، تواً، ليزين بها جدران بلاطه.

وقد كتب بدوره سيرته على غرار ما فعل آباؤه في الغالب، وضمنها الكثير من أصالة ومشاهداته. ويؤكد صادق رولوت صوما، ما كتبه معاصروه من الأوربيين عن هذه البلاد حين زاروها^(٢).

البريطانيون عند جهانكير : أدى ما أذاعه البرتغاليون بأوروبا عن مبلغ ثراء الهند الطائل، وما كانوا يرونه من كرم حكامها وترحيبهم بالمسيحيين وملافتهم لهم، أن قصد هذه الأرض في القرن السابع عشر الميلادي نفر من التجار الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين ليبيح كل واحد منهم لأمنه كدراً من الامتيازات ظاهرها للتجارة وباطنها وهدفها الاستعمار.

وسبق البرتغاليون الأوربيون جميعاً إلى الهند على ما فصلناه من قبل، ثم جاء الهولنديون في أثرهم، وكان لهم نشاط تجارى ملحوظ في جزر الهند الشرقية،

(١) وقعات ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(2) Muslim Rule 462 – 72 Morland, India 231.

وفى جاوه ويتانيا على الخصوص، فنجحوا فى إقامة بعض مصانع لسههم بسورات بالكجرات وعند شواطئ فوايانكر وغولكونده الشرقية، ودعموها بالحصون لتلق فى وجه منافسهم من البرتغاليين الذين كان لهم عند دولة المغول مقام حميد. ومازالوا يجدو فى نشر أسواقهم بالهند حتى بلغوا بها آكرا نفسها^(١).

واقضى البريطانيون أثر الهولنديين فى غزو الأسواق الآسيوية والهندية بخاصة. وجاء منهم إلى الهند عام ١٦٠٨م وإيم هو كلز، فان أول بريطاني يظهر فى آكرا ويلتقى بالسلطان. وحين عرض على جها تكبر رسالة من مليكه جيمس الأول يرجوه فيه تيسير أمور التجارة الإنجليزية ببلاده، احتفى به السلطان أول الأمر احتفاء كثيراً حتى أنن له بمشاركته مجالس شرايه. وبقي عنده لفترة من الزمن، حتى بلغ البرتغاليون بدمائهم إلى تنفيره منه، فرجع إلى بلاده دون أن يحقق غرضه على الوجه الذى لبتناه. وكان مما لاقاه هؤلاء إلى السلطان فى شأنه أنه لا يعدو أن يكون رسول ملكه صغير على جزيرة صغيرة تدعى إنجلترا، أغلب سكانها من صيادى الأسماك^(٢).

ومهد ازدياد النفرة بين حكام الكجرات والبرتغاليين ومبشرينهم، إلى الترحيب بتوماس رومبوت ملك الإنجليز حين وفد إلى هنالك من بعد ذلك عام ١٦١٥م، فاستطاع بلباقته وحزمه وما جلبه معه من الطرف والجواهر والطقى وما قدمه لرجال الدولة من الهدايا الفاخرة، أن يبلغ عند السلطان مكانة ملحوظة ويصل إلى ما يريد. فثبتت شركة الهند الشرقية البريطانية أقدامها فى أماكن عدة وصار لها مصانع فى سورات وعند ساحل كورومندو، وغولكونده وإلى الجنوب من مدراس.

وقد وصف هذا السفير وسلفه، سلطان المغول الهندى وبلاطه وما كان له من أهبة بالغة كما تحدثا عن نظام حكومته وجيشه وتقاليده القوم ورواج الثقافة عندهم.

(1) Dumber, Indin 220.

(2) Lane Poole, 253 - 302.

هذا، وكان التجار الأوروبيون يحرصون عموماً على أن يجلبوا إلى الهند كل طريف من منتجات بلادهم ويضربوا أسواقها بالكماليات وأدوات الزينة التى كان الناس هناك يكفون بها كفاً شديداً ويتهافون عليها تهافتاً عظيماً، ليأخذوا منهم فى نظيرها المواد الأولية واللبهار والقطن والذيلة، فيجنون من مقايضاتهم هذه أرباحاً طائلة وغنماً وفيرة. وكانت هذه المقايضات تجرى فى الغالب فى سوائى بروج ومورات وكمباى واليقوط ثم فى كلكتا من بعد ذلك^(١).

وكان مما يسر البريطانيين على الخصوص غزو أسواق الهند، خلو جالياتهم أول الأمر من المبشرين وحرصهم على تجنب التدخل فى شئون الناس وتظايرهم بالمودة والمداينة لهم

وأدى تعرض البريطانيين لبعض المغن التى كانت تحمل بضائع برسم السلطان، مع نفور الناس منهم، إلى أن أجرى جهات كير البريطانيين بقتالهم، بعد أن طردهم من بلاطه، فزلات بهم فى البحر ضربات قاصمة.

وكسب التجار البريطانيين بصنيعهم هذا امتيازات أخرى مازالت تزداد على مر الزمن، وما غدا يدعمونها بالخبط والدماء ويثبتونها بالخدر والخيانة حتى وضعت بريطانيا أيديها على شبه القارة الهندية كلها.

(١) Duns 231.

شاهجهان

حين مات جهانكير سارع آصف خان بإبلاء صهره شاهجهان بذلك بالخبر، ثم عمد من فورهِ إلى إخراج داور بخش، حفيد السلطان الراحل من ابنه خسرو، من محبسه وأجلسه على العرش، ليتقى بهذا الإجراء المؤقت ما صباه أن يحدث من اضطراب الأمور في المدينة، حتى يتأتى له تخلص أولاد شاهجهان، محمد دار اشكوه، وشاه شجاع، وأورنگزوب، وكلوا جميعاً يقيمون عند نورجهان^(١) منذ أن بعث بهم أبوم رهاًن في دار السلطنة.

ولم تكن نورجهان لترضى بما ذهب إليه أخوه آصف فحرضت ختها الأمير شهريل على أن ينادى بنفسه في لاهور، قصبة البنجاب، سلطاناً على الهند. وظاهره على هذا الأمر أمير من أولاد صه دافيل، ليمسارح إليه من بعد ذلك آصف خان بنفسه ويقتحم المدينة عليه ويقتل به في الحبس بعد أن سمات عونا.

وتسارح خبر ذلك كله إلى شاهجهان، وما يبرح النكن بعد فكتب في التماس إلى صهره آصف خان يحرضه على القضاء على منافسيه جميعاً، فكان لتنفيذه كل ما رغب فيه زوج ابنته أكبر الأثر في ارتفاع مكانته حنده ولزدياد نفوذه في البلاط بالتالي، حتى صار وزير السلطان الأول ولقب بيمين الدولة. ولم تكتب النجاة من منبحة آصف خان تلك إلا لداور بخش فلاد ببلاد فارس حتى أواخر أيامه.

هنالك لم تملك نورجهان بإزاء ذلك كله إلا أن تعزل الحياة العامة. وقد تكاسى لها السلطان الجديد كل ما كان لها معه من عداو وأجرى عليها رزقاً حسناً. حتى وأقاما أجلها بلا هور عام ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م فتويعت إلى جوار زوجها جهانكير بيستان دلکشا بظاهر قصبة البنجاب.

ولد شاهجهان عام ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م، من أم هندوكية - كنيه - هي ابنة رانا مرور. وهو ثالث أبناء جهانكير وأقدمهم جميعاً، تصف برجاحة العقل والنكاء وقوة العزيمة حتى كان جده أكبر شديد الاعتزاز به كثير الحذب عليه. وقد

(١) باد شاهنامه ص ٥.

عرف دون سائر أمراء أسرته السابقين بعزوفه، في الغالب، عن مقاربة الشراب مع مجانبته للهو والعبث. وكفلت له صفاته العالية هذه ثقة أبيه فيه دون أخويه : خسرو، الذي عمد إلى عقوبه له منذ صغره، وپرویز الذي لازمته الطل وضمف الإدراك منذ ولادته، وكان كلاهما يدمن الشراب قفضيا به في حياة أبيهما.

وزاد من قدر هذا الأمير عند أبيه ما أظهره من مقدرة وكفاءة في حرب للاراجبوتيين عند مولو، وما أبداه من حنكة ودراية حين أرغم ملكه حنبر الحبشى على قبول شروطه بعد ما أقرله من الهزائم المتكررة بقوات للدولة، فأنعم عليه بلقب شاهجهان وعهد إليه بإدارة حكومة النكن. حتى إذا ماتوجست نورجهان الخيفة من علو شأنه فخشيت أن يطفئ بنفوذه على سلطاتها، رلحت توقع بالدمن، بيله وبين أبيه، فما عدا أن رفض السير إلى قندهار حين طلب إليه أبوه ذلك، وكان قد بلغه ما تكبره زوج أبيه لحمل السلطان في غيبته على البيعة إلى ختنها أصغر الأمراء شهریار - لينتهى به الحال من بعد ذلك إلى الجهر بصيوان طال أمده حتى عادت المياه بينهما إلى مجاروها من جديد على الوجه الذي فصلناه من قبل.

وحين دخل جهانگیر في النزع، تكبر آصف خان الموقف، على ضنوه مصالحه الخاصة، في روية وحذر، فأثر أن يقف إلى جانب ختنه القوى الرشید شاهجهان معرضاً عن أخته نورجهان وختنها شهریار، ليصل من بعد ذلك - وفق ما قدر ودير - عند السلطان الجديد إلى أعلا المناصب ويصير له بالدولة شأن وأى شأن.

ممتاز محل : بنى شاهجهان عام ١٠٢١هـ/١٦١٣م وهو في صدر شبابه بأرجمند بالنویکم ابنه آصف خان وهى التى تشتهر فى التاريخ باسم ممتاز محل أو سيدة التاج.

وهذه السيدة، التى حرص أبوها على تنشأتها تنشئة طيبة وتزويدها بالعلوم والآداب منذ صغرها، كانت على جمال فائن وخلق نبيل وصفات عالية أدت بها إلى ملازمة زوجها فى كل المحن التى مرت به، إبان خلافه مع أبيه وحرويه معه. فى

وفاء وإخلاص قل نظيره. وحين رقى زوجها العرش صارت له خير ناصحة ومرشدة فلم يبد منها أبدا ما كان من شأنه أن يغضب رجال الدولة أو يثير ثائرة القادة، وإن أخذ عليها بعض المؤرخين دفع زوجها، بولزع من تقواها وروعها، إلى العدول بعض الشيء عن التسامح المطلق الذي كان يصطنعه أبواه بلزاء الهنادكة والمبشرين المسيحيين. ولعل شاهجهان إنما منع، بوحى منها كذلك، سجون الناس للسلطان، على ما كان متبعاً منذ أيام أكر، وعاد بالدولة إلى اتخاذ التقويم الهجرى فى أعمالها^(١)، وحرم التناول على مقام الخلفاء الراشدين عند شعبة بلاده، وحد من بناء معابد جديدة للهنادكة.

ولم يطر ممتز محل ما كان لها من نفوذ بالغ وثراء طائل، فكأنت تقوم على البر بالفقراء والأرامل، وتعين بمالها التقويات للتقويات على الزواج، كما وسعت رحمتها كثيراً من المذنبين، حتى كفت تبلغ بتدخلها عند زوجها إلى رد حياتهم عليهم فى الغالب، وإعادة أصحاب المناصب منهم إلى مناصبهم^(٢) الأولى.

ووافاهما أجلها عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م وهى تضع طفلها الرابع عشر، فخرن عليها زوجها حزناً شديداً، حتى عزف عن كل مباحح الحياة برغم امتداد الأجل به من بعدها خمسة وثلاثين عاماً. وقد أذاع من صيتها ذلك المثلوى الفخم الذى أنقلمه زوجها لها، فكان من آيات وفاته لذكرها. ويعرف هذا الضريح باسم « تاج محل » ويعد بحق من بين روائع الفن المعماري فى الدنيا.

ثورات الدكن : تعرض شاهجهان فى بداية حكمه لبعض ثورات فى الدكن كان منها ثورة راجا ججهار سنغ فى بند لاختد. ذلك أن هذا الأمير الهندوكى كان قد ورث عن أبيه برمن سنغ، قاتل أبى الفضل، أموالاً طائلة، فجاء بخاطره أن يناهض الدولة فى قوات أبيه السابقة، وكانت بدورها وفىرة العدد، حتى اضطر السلطان أن يسير إليه قائده معايت خان فى سبعة وعشرين ألفاً من الفرسان وستة آلاف من المشاة، فأرغمه على الاستسلام له، إيعاود عصيانه فى العام التالى من

(١) بدلا من التقويم الأول الأكرى.

(2) Mnslim Bule. P 485.

جديد، وينطلق ينتهب أراضي جيرانه من الهندكة ولكن خروجه ما غدا أن انتهى به إلى مقتله وولده بكر ما جيت.

وفرغ شاهجهان من هذه الفتنة لتتطلق قواته في العام الثاني من حكمه في أثر قائد أبيه السابق خان جهان لودهي حين أشعل بالمكن نيران ثورة ثانية فقد عمد هذا القائد الأفعائي، عقب وفاة جهانكير وقبل بلوغ شاهجهان العاصمة، إلى الزحف إلى ماندو والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها. وأطعمه عفو السلطان عنه من بعد ذلك حين ولاه بعض الدكن، فاعطلق يعنف بالأهلين ويشنت في ارتكاب المظالم والجور، ليسير إليه السلطان عندئذ قائد به عبد الله خان، ومظفر خان فما زالا يطاردانه حتى ظفرا به بعد عامين فأورد حنقه^(١).

المجاعة والقمط : لم يفرغ شاهجهان من هذه القلاقل إلا ليواجه مجنة القمح الذي اجتاحت بلاده في العام الرابع من حكمه، وذلك بسبب انحسار الأمطار الموسمية التي تعتمد عليها الهند في السقي والري، فإجابه عن مجاعة بشعة بدت أقسى مظاهرها في الكجرات والدكن، وزاد من سوء الحال انتشار الأوبئة الفتاكسة بين السكان.

وبرغم ما بذله السلطان من جهود جبارة لإغاثة الناس، حتى أمدهم بالكثير من المؤن والأرزاق والأموال وأقام المطاعم المجانية لهم وأعطاهم من أغلب الضرائب المفروضة عليهم، فإن رداءة المواصلات وازدحام الطرق بالمهاجرين قد عوق كثيرا من بلوغ هذه النجدة أهدافها، حتى باع الناس أولادهم من الإملاق وطعموا الجيف من المخصصة، وغلبهم تعلقهم بالحياة على حبهم لأولادهم حتى كان منهم من ذبح ولده وطعم لحمه^(٢)، وكثيرا ما سنت الطرق لأحداث الألوف من الصرعي، وأقترت قرى وأحياء بأكملها من سلكيها.

(١) بادشاهنامه ص ٢٢

(٢) بادشا هنلمه ٢٤، ٢٥

البرتغاليون : ضلّق شاهجان ذرعا باستبداد التجار البرتغاليين عند شواطئ البنغال، إذا انطلقوا يتخطفون الناس هناك سراً لبيعهم في سوق الرقيق، وفرضوا على السكان مكوساً لحسابهم، حتى عم أذاهم وجورهم أغلب المناطق التي كانوا يزلون بها عند شواطئ الهند الشرقية والغربية على السواء.

وتفاقم خطر مبشريهم ثقافياً خطيراً، فقد جهدوا، في ظل مواطنيهم هؤلاء، لحمل الأهاليين على قبول عقيدتهم قسراً، كما راحوا يتدخلون في شئون الدولة التي يعيشون في كثفها ويتآمرون عليها مع التجار الهولنديين وغيرهم من الأوروبيين الذين كانوا يفسدون إلى هذه البلاد لامتناس مواردها، ويشجعون بعض الخارجين على سلطان الدولة من أبنائها على العصيان حتى كتب أسقف جوا البرتغالي نفسه يشكوهم إلى ملكه^(١).

ولم يكن شاهجهان بغافل عن سلوك هؤلاء البرتغاليين الذين أكنموا، إبان محنته مع أبيه، على اختطاف فتاتين من أتباع زوجه ممتاز محل حين نزل على مقربة من محظنهم، فسكت إذ ذاك على مضض ولم ينسها لهم. حتى إذا ما ولى الحكم ووزع الناس إليه من صنفهم بحث من فورهم عام ١٠٤٠م/١٦٣١م بقائده قاسم خان^(٢). حاكماً على البنغال وأمره باقتحام مركز هؤلاء الطغاة وتشتيتهم.

وبرغم امتناع هؤلاء الدخلاء في حصون قوية، كانوا قد صمروها بالمدافع وشحنوها بالبنادق والرجال، فقد اقتحم عليهم رجال السلطان أقوى مواقعهم فسي هوجلي وخلصوا من أيديهم عشرة آلاف من أهل الهند كانوا معيّنين للتصدير^(٣).

ولم تخسر الدولة في هذه الحرب أكثر من ألف قتيل، في حين سقط من أعدائها عشرة آلاف، ووقع في الأسر أربعة آلاف آخرون منهم، سيقوا إلى أكرا ليختاروا بين اعتناق الإسلام أو الحبس.

(1) Muslim Rule 388.

(٢) بلخشا هنلمه ٣٢ - ٣٥

(٣) منتخب القباب ٢١٢.

ولئن كان شاهجهان قد صعد بإجرائه هذا مع أسراه إلى أن يسرد الصاع صاعين لمبشرى البرتغاليين^(١)، وهو خطأ لم يكن لمثله أن يرتكبه، فهو حتى كل حال لم يذهب إلى ما ذهب إليه ملوكهم بأوروبا وأسبانيا على الخصوص حين خيروا مسلمي الأندلس بين اعتناق المسيحية أو الموت حرقاً. وقد رد السلطان الهندي هؤلاء البرتغاليين آخر الأمر إلى محلتهم على كل حال، وإن لم يستطيعوا أن يعودوا بها إلى سيرتها الأولى من العمران لفرط ما كان قد نزل بها من الدمار.

ولم يتردد البريطانيون، على الخصوص، في الإفادة من هذه المحنة التي نزلت بأعظم مناقسهم بالهند فبدلوا جهوداً كثيرة للتقرب من السلطان والحصول على مزيد من الامتيازات لهم ولقومهم بالتالي.

حروب الدكن : تفاق شاهجهان إلى أن يتم الفتوح التي بدأها أبوه وجده من قبل بالدكن والتي شارك هو بنفسه في بعض منها أيام جهانكير. وشدد من عزمته للمضي في هذا الأمر، وهو المني المتمسك بعقيدته، حرصه البالغ على منع انتشار مذهب الشيعة الذي كان بعض سلاطين الدكن قد طلقوا يروجون له في إماراتهم ويرحبون بأصحابه القرم، حتى غدت بلادهم مثابة لمناوئة المسلمين في الهند وإثارة الفتن بين السكان.

ولئن قد بشاهجهان بعض ما اعترض عهده من الأحداث عن المضى بخطته إلى غايته، فقد اضطلع بهذه المهمة ابنه أورنگزيب من بعده، وما زال بها حتى أتمها على خير وجه، فلم تخضع الدكن كلها لسلطان الدولة فحسب، بل لقد أظلمت راية المسلمين شبه القارة الهندية كلها من أنانها إلى أكصاهما.

هذا ولقد كان من أثر خروج شاهجهان ومهايت خان على طاعة السلطان جهانكير، وما تبع ذلك من أحداث فصلانها في موضعها، أن ضعف سلطان الدولة في الدكن، ليتنزه أصحاب بيجاپور وغواكونده هذه للفرصة فدخلوا

(1) Muslim Rule 489.

عنهم الولاء للسلطان المغولي ويوسعوا، من بعد ذلك، في رقعة أراضيهم على حساب إمارة أحمد نكر التي بقيت على ولايتها الأسمى للسلطان.

واستبد بشئون الحكومة في أحمد نكر قائد مراهمي يدعى شاهجي، حتى صار سلاطين هذه الإمارة ينصبون وفق هواه. وظاهره في استبداده هذا أصحاب بيجابور فراحوا يمدونه بالمال والرجال، فلم ير شاهجهان بلزاء ذلك كله إلا أن يخرج بنفسه إلى الدكن، وكان قد طلب إلى أصحاب بيجابور وغولكونده أن يعلنوا عن عدم دفع الخراج لشاهجي ويعترفوا له بسلطانه هو من جديد فلم يستجيبوا له.

وأدى ظهور شاهجهان بالدكن في قواته الكثيفة إلى أن باهر أمير غولكونده بإعلان طاعته له من جديد، وقد تعهد له بمنع سب الخلفاء الراشدين ببلاده، وإجواء الخطبة بالثناء عليهم، والحدول عن الدعاء لشاء الفرس فيها.

وبقى صاحب بيجابور على صيقله حتى اقتحمت قوات السلطان ببلاده فتفكت بأغلب قواته واقتربت عددا كبيرا من حصونه، ليرضى أخير الأمر بالخضوع ويتمهد بالابتعاد عن القائد المراهمي شاهجي الذي باهر بمهادنة السلطان بدوره. ولم يرجع شاهجهان من الدكن حتى أقام ابنه أورنگزيب نقبا له هناك عام ١٠٥٤هـ/١٦٣٦م وقد دخلت في حوزته : دولت آباد وأحمد نكر وتلنجلانا وخاتنش ويرار وهانده شاهجي^(١).

مكث أورنگزيب بالدكن سنوات ثمانية، حتى إذا لم يستطيع صبرا على ما بلغه من تمكن أخيه الأكبر داراشكواه من قلب أبيه، فصارت أمور الدولة لا تجري إلا وفق مشورته قدم بنفسه إلى العاصمة بدعوى قلقه على صحة أخته جهان آراء، وكانت قد أصيبت بحروق شديدة حتى أشرفت على الموت فلم يجد لها نفعا ما بذله الأطباء من جهود كثيرة لإنقاذ حياتها، لولا تريقا صنعه لها مولى يدعى عارف أراح به آلامها عنها ورد الحياة إليها. وقد قابل السلطان صنيعه هذا بإغراق الأموال والإنعام عليه.

(١) باد شاهجهان ٥٨

بلغ وينخشان : يسعى الأميرة جهان أراضى السلطان عن أورنكزيب من جديد فندبه لحكومة الكجرات تقضى بها عامين اضطلع فيهما بشئونها على خير وجه، حتى وجهة من بعد ذلك إلى بلغ وينخشان، ليشاركه هناك فى حروب عنيفة مع الأوزبك، كان شاهجهان يبنى من ورقها استرداد بلاد ما وراء النهر كلها، موطن آباءه السابقين، التى لم يفقد أحد من سلاطين المغول بالهند عن السعى إلى استرجاعها ما وانتهت الفرصة وتكشف لهم ضعف حكامها.

ولئن أفلح أورنكزيب فى إزال ضربات قاصمة بالأوزبك، على كثرة عديمه بالقياس إلى قلة قواته، فقد انسحب آخر الأمر من بلغ بعد أن اجلس على عرشها أحد أحماد نظر خان حاكمها السابق، على الولاء له، ليقتله الزمهرير بفريق من قواته من بعد ذلك وهى فى طريق العودة وتضيق كل الأموال والجهود التى أنفقتها الدولة فى هذا الغزو بهاء^(١).

قدهار : أشرنا من قبل إلى ضياع قدهار من أيدي جهانكير حين رفض ابنه شاهجهان أن يسير إليها لدفع الفرس عنها، إذ كان قد بلغه ما تكبره نورجهان فى الخفاء لحصل زوجها السلطان على البيعة لاختها الأمير شهر يار من بعده.

وحاول شاهجهان عام ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م أن يستعيد هذا الإقليم بالمودة من أيدي الأمير الفارسي على مردان، نائب الشاه الصفوى عليه، لكن مسعاه بهاء بالفشل، حتى إذا ما كتب أمير قدهار إلى سلطانه يسأله إمداده بالجند والعتاد ليقوى بهما على صد قوات الهند عن أراضيه، حمل مطلبه على غير حقيقته فظنه لا يبنى من وراء ذلك إلا تدعيم سلطانه ثم الخروج عن طاعته، فسير إليه قوات كبيرة، لا لتشد من أزره وإنما لتوقعه فى أسرهما وتعود به إلى العاصمة.

وحين وقف على مردان على ما كان يدبر له، سارع من فوره بالكتابة إلى حاكم كابل المغولى يستجد بشاهجهان، لتقبل قوات الهند على المدينة من بعد ذلك فتدخلها ثم تكفج قوات الشاه الفارسي عنها بعد قليل.

(١) شاهجهاننامه ٨٢، ٨٣

ولم يسكت القيس بدورهم على ضياع هذه المدينة من أيديهم. حتى إذا ما رقى الشاه عباس الثاني عرش الصفويين اعترم الخروج لاستردادها في شتاء عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م وهو يعلم أن تلوج الهند كوش سوف تعوق أي مدد يسارع به سلطان الهند إلى تعزيز حميتها إبان هذا الفصل.

وصح ما جرى في حساب الشاه الصفوي. ذلك أن دولت خان، نائب شاهجهان هناك حين بلن له تردد دولته في تسيير الجند إليه إبان فصل الثلوج وكان يلح عليها من قبل هذا لتعزيز قواها فلا يجد لمطلبه سمعاً، لم يصير طويلاً على الحصار فاستسلم لأعدائه وهو لا يعلم أنهم بدورهم كانوا على وشك الرحيل منه لتقص كبير طراً على مؤنهم، وأن قوات الهند كانت بالفعل في طريقها.

وجهد شاهجهان من بعد ذلك في استرداد هذه المدينة عن جديد، فسير إليها نخبة من قواده وقواته وعلى رأسهم ابنه أورتكزيب ووزيره سعد الله خان الذي خلف آصف خان بعد وفاته.

وكان حرباً بالسلطان أن يستجيب لأورتكزيب حين طلب إليه أن يأتين له بالمسير في محاولة ثالثة نحو هذه المدينة^(١)، وكان قد أمكن له في حصاره السابق لها أن يدرس مواقعها وإمكانات حمايتها دراسة خبير، حتى كاد أن يتم له دخولها لولا إقبال الشتاء ونفاذ مونه، فأدى رفض شاهجهان لطلبه ثم تسييره دارشكوه إليها هذه المرة على قلة دراوته وخبرته الحربية. إلى رد قوات الدولة عنها كوة ثالثة وضياع ما بطل لفتحها من أنفوس وأموال هباء^(٢).

أورتكزيب في الدكن : عاد أورتكزيب إلى الدكن عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م بعد غياب دام سنوات ثمانية قضاهما في الكجرات وعند بلغ وقندهار، لسري حكومتها قد ساحت لأحوالها حتى غدت عبئاً على الدولة، تستنفد إدراتها كثيراً من أموال بيت المال بدور السلطنة بعد أن كانت تمد في السابق بخراج وغير. لقد

(١) صل صلح ثل ٥٣٤

(٢) شاهجهان تلمه ١٠١، ١٠٢

انصرف حكامها إلى رعاية مصالحهم الخاصة، فأهملوا شأن الزراعة بها وطلقوا يفلون كاهل الأهاليين بما فرضوه عليهم من مكوس لخصابهم حتى هجر الفلاحون أغلب أراضيهم وفروا من قراهم، فأجديت الحقول وخسوت البساتين والحدائق على عروشها. فما غدا، بمعاونة إدارى حازم يدعى مرشد قلى خان، أن نهض بالزراعة، صمد ثروة الإقليم، من جديد، فجعل كافة الأراضي للخصبة تحت إدارته مباشرة، وأمن الفلاحين فى أعمالهم وأمدهم بالبنور الجيدة والمائية وشجعهم على استصلاح الأراضي البور وزراعتها.

واعتدى مرشد خان بنظم تدرمل وزير أكبر، فأمر بمسح الأراضي كلها وأعاد تقدير الخراج المفروض عليها من جديد، فجعل للدولة نصف محصول الأرض التى تزرع بمياه الأمطار. وثقلته من الأراضي التى تروى بمياه الأنهار فيما عدا البساتين والحدائق فوجبى منها ربع المحصول. أما الأراضي التى كانت تسمى من الترع والقنوات فكان ربطها يتراوح بين الزيادة والنقصان بحسب طبيعة تربتها. وبهذا النظام، وما كفه من توفير الأمن للفلاحين، أقبل هؤلاء على أعمالهم فى جد ونشاط أدى إلى استقرار الاقتصاديات الدكن من جديد ونهوض مواردها بالتالى.

كذلك كان من أثر سوء إدارة حكام الدكن، إيان غلاب أورنكزيب عنها، أن عاد أصحاب غولكونده وبيجاپور إلى سابق خروجهم على طاعة السلطان فامتنعوا عن دفع ما فرض عليهم من جزية وراحوا يتخطفون أملاك الدولة هناك حتى اغتلم أورنكزيب فرصة سحنت له بنشوب الخصام بين عبد الله قطب شاهى سلطان غولكونده ووزيره محمد سيد المعروف بمير جملة - وكان هذا الأخير قد بلغ الكثير من النفوذ والقوة فصار له جيش خاص به داخل الدولة قوامه خمسة آلاف من الفرسان وعشرون ألفا من المشاة - فزحف بقواته على هذه الإمارة بدعوى تخلص أسرة اللوزير من الحبس ورد أملاكها إليها. ولم يغن سلطان غولكونده قتيلًا ما بعث به إلى قادة القوات المهاجمة من أموال كثيرة وجواهر صامم يرجعون بذلك عنه، فالتحم محمد ابن أورنكزيب عاصمته وأوقعه فى أسره.

وعنى شاهجهان آخر الأمر عن قطب شاهي ورده إلى إمارته بعد أن أنقسم على الولاء له، ليرتبط معه من بعد ذلك برابطة النسب حين زفت ابنته إلى محمد ابن أورنكزيب^(١).

وما غدا مير جملة بنوره أن شمله شاهجهان بالرعاية حتى وزر له خلفا لسعد الله خان.

وسار أورنكزيب كذلك إلى بيجابور، وكان قد بلغه اضطراب أحوالها بعد وفاة سلطانها محمد عادل شاه، فما زال بها، ومعه مهايت خان ومير جملة، حتى وقع بأيديهم حصون بيدار وكولبوركة وكايتي وبارده. فما إن فرغوا من أمرهم عام ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م فأنطلقوا إلى منية بيجابور نفسها، حتى أمرهم شاهجهان بوقف القتال، إذ رضى سلطانها بالصلح على جزية كبيرة مع إعلان خضوعه وولائه، وتكثله عما ضاع من أيديه من الحصون^(٢).

فترة الأمراء : رأى شاهجهان، حين اشتد به المرض عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م أن يعهد بالملك من بعده إلى دار لشكوه أكبر لبنته الأربعة من ممتاز محل دون أخوته، وكان قد استبقاه إلى جانبها بأكرا حتى يتكرب على التمرس بأعباء الحكم.

ولم يكن لهذا الأمير بطبيعته كفاية حرية أو حنكة سياسية، إلا أنه كان واسع الإطلاع، شغوفا بدراسة الأديان بخاصة، حتى نقل، بمعاونة بعض علماء البراهمة، اليونانيشاد المقدس من السنسكريتية إلى الفارسية. وجر عليه لاختلاطه بالهنداكة واشتغاله الكثير بطومهم، سخط علماء السنة، مما يسر لأخيه أورنكزيب أن يفيد من ذلك مستقبلا، حتى بلغ إلى تكليب للمسلمين في الهند عليه إبان نزاعه معه على العرش.

لما شجاع، ثغى الأنعام، فكان في مقامه بالبنغال منصرفا في الغلب إلى ملانده. وقد تعاون جو هذا الإقليم وإملائه للشراب على إضعاف عزيمته والهد من كفايته.

(١) شاهجهانتملة ١١٨، ١١٩

(٢) عمل صلاح ١٢٨

هذا، في حين كان أورنكزيب يسوس شئون الدكن في همة وتشايط.

ولم يكن رابع الأخوة، مراد بخش، وهو في مقامه بالكجرات إلا صورة أخرى للأمير البنغال.

وأثار نيا البيعة لداراشكوه ثائرة أخوته الآخرين، إذ كان كل واحد منهم يرى نفسه أحق بالملك من أخيه^(١)، ومن هذا الأمير، بخاصة، الذي كان يشاع عنه ميله إلى محاولة إيجاد دين جديد يمزج فيه قواعد الإسلام بعقائد الهنداكة.

على أن أورنكزيب - وهو الذي قد كفل له محبة الناس وتقته به ما أظهره من كفاية في الحرب وما عرف عنه من الحزم والخلق القويم والتمسك التام بأحكام الشرع - تمكن من أن يغري أخاه مراد بالانقلاب معه، على أن يقتسما أرض الهند فيما بينهما فيكون الثاني منها البنجاب والسند وكشمير وبلاد الأفغان. فالتقت قواتهما بقرية دهرمت على مقربة من لاجين وقد أطلنا معا أنهما إنما قد قدما لتخليص البلاد من رقة ذلك الأمير المرتد داراشكوه.

واتجه شجاع، بدوره، على رأس جيش كبير، إلى دهلي بعد أن كان قد نادى بنفسه سلطاناً على البنغال، لكن قوات سليمان بن داراشكوه ما عذبت أن أرغمته على الارتداد إلى إمارته بعد أن بلغ بنارس^(٢). وباعت بالقتل كل الجهود التي بذلها الوسطاء لمنع الصدام بين قوات داراشكوه وأخويه لومني من بعد ذلك جند دهلي بهزيمة شديدة ساعد عليها نفور بعض القواد المسلمين في جيش الدولة من السير تحت إمرة قادة من كبار الهنداكة فاتحازو إلى صفوف مهاجميهم.

وقوى من هزيمة أورنكزيب ما انضم إلى جبهته من قوات عديدة وما وقع بأيديه من أسلاب ونخائر حربية وموئن، فاتجه إلى كواليار حتى حط رحاله بسهل سموكره إلى الشرق من أكرا، لينزل من بعد ذلك هزيمة أخرى قاصمة يحدهم بعد قتال عنيف عظمت فيه خسائر الطرفين،

(١) تاريخ مفصل ١٤٣

(٢) منتخب اللباب ٢١٥

حتى اضطر داراشكوه آخر الأمر إلى الارتداد إلى آكرا سريعا في الليل
تاركا كل عتاده ومونه لأخيه.

وحين بلغ الأمير الظافر آكرا فكتب إلى أبيه يعتذر إليه من هذه الحرب التي
أكبره أعداؤه على خوض غمارها، بعث إليه شاهجهان بسيف يدعى عالمكير
هدية منه ودعاء للقنوم إليه. غير أن رجال أورنكزيب حذروه مما قد يكون أعدده
له أبوه من شرك لايقاع به، وأشاروا عليه بأسر السلطان على الفور حرصا على
سلامته وتأمينا لمركزه.

وأدى قطع الماء عن حصن آكرا إلى استسلام حاميته بعد دفاع
مجيد، لتحدد من ذلك إقامة شاهجهان في جناح الحرم بالقلعة، ولم يكن
يرخص لأحد الاتصال به إلا لا يثته جهان آرا التي تقات في السهر على
راحته حتى آخر حياته.

ووقع بلودي أورنكزيب رسالة كان أبوه قد بعث بها إلى داراشكوه
يحذره فيها من القنوم إليه ويطلب إليه لزوم دهلي، فتكشف له بذلك سوء
نوايا أبيه نحوه وصح لديه ما حذره رجاله منه في السابق، فحرم الكتابة
على السلطان المعتقل.

وأحسن أورنكزيب، وهو في طريقه إلى دهلي زحفا، بنفوس أخيه مراد منه
حتى شرع يتأمر عليه، فدير بدوره أمر اعتقاله غدا ليسيره من بعد ذلك إلى
الكجرات ويسقطه بقلعتها. وما غدا أن أدين هناك لقتله ديوقه على نقي قتل به عام
١٠٧٢هـ/١٦٦١م^(١).

وحين بلغ أورنكزيب دهلي نودي به عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م سلطانا على
لهند باسم عالمكير.

هذا، وقد ظل داراشكوه يضرب البنجاب والمقتان والكجرات وأجمير، حتى
خط به المطاف عند زعيم من البطهان يدعى، ملك جيون، كانت له عليه أباد سابقة

(١) عمل صلح ١٢١، ١٢٢

كثيره، فلم يغن عنه ذلك كثيرا، إذ عذر به الأتقي ودفع به إلى أخيه فألقى العلماء بكفره وأباحوا دمه^(١).

أما شاه شجاع فما زال به قواد لورنكزيب يطاردونه في البنغال حتى اختفى في جبال آسام وانقطعت أخباره.

ولو أن شاهجهان، حين أبل من مرضه الذي اعتقد أن فيه نهايته، كان قد عمد من فوره إلى حسم الموقف بنفسه بدلا من أن يبعث إلى ابنه داراشكوه يطلب إليه العدول عن قتل أخوته، وقد كان يوتن أنه لا بأس عليه من قدومهم إلى دار السلطنة، لتغير الموقف كله على وجه السلامة.

قد كان حريا به أن يبرز إلى الميدان بنفسه فيقتضى بظهوره على الشائعات التي راجت بموته والتي ساعد على انتشارها سد ابنه الأكبر لكافة الطرق المؤدية إلى الدكن والكجرات والبنغال وقطعه ليريد عنها.

هذا كما كانت دعوته لمجلس الحرب الذي يضم كبار القادة كغولا بدوره، في مثل هذه الظروف، بالقضاء على الفتنة في مهدها، في الغالب.

وغنى عن البيان أن ما عرف به لورنكزيب من مقدرة وحزم مع أقصانه العلماء السنة وتأييدهم له، قد أدى إلى التلطف القوم حوله، فلم يكن ما أظهره الأملون من الأمل حين جئ بداراشكواه إلى دهلي أسيرا فطوف به في طرقاتها إلا لفسر مضيفه به في الغالب.

وليث شاهجهان في محبسه سنوات ثمانية، حاول في أثنائها حبثا العمل على استرداد ملكه، حتى قضى أسيرا حزينا عام ١٠١٧هـ/١٦٦٦م وهو في الرابعة والسبعين من عمره، وهو يرنو ببصره إلى تاج محل، حيث ترقد زوجته الحبيبة ممتاز محل، وإلى جولره جهان آرا، ابنته منها، والتي وقفت حواشيها على خدمته والعناية به.

(١) منتخب للباب ٢٤٦

شخصية شاهجهان : كان شاهجهان حاكما قديرا بلغت الدولة في عهده أوجها وعلت مكانتها، وقد نهج نهج أبيه وجده في تنظيم شئون الحكومة، وتميز بالحزم الشديد مع رجاله وعماله والسهر على مصالح رعيته، حتى كان لا يتردد في إنزال العقاب للشديد بمن يراه يتراخى في تحقيق العدالة لهم أو يتسبب بإهماله أو يتسبب في إلحاق الضرر بهم^(١).

ولئن ذهب إلى فرض ضرائب جديدة على التجار وأعاد فرض الرسوم للتسى كان الهنادكة يلزمون بها عند زيارة أماكنهم المقدسة، فإنه كان، على حد قول الرحالة الفرنسي تافرويه، ينظر إلى رعاياه عموما نظرتة إلى أبنائه^(٢) وتجلت شفقتة بهم وحد به على رعايتهم فيما كان يبذله من جهود كثيرة لتخفيف وطأة القحط والمجاعات حين كانت تنزل بهم، فلم يكف بما أقامه لفقرائهم من مطاعم مجانية كثيرة وما كان يبعث به إليهم من الأرزاق والمون والأموال، حتى أمر عماله بشراء الأطفال الذين كان أهلهم يعرضونهم للبيع من فرط الإملاق ليردهم عليهم ثانية فيما بعد^(٣).

وبلغ من بر هذا السلطان، الذي عرف بتسكته الشديد بشعائر السنة، أن دأب على إرسال هبات من الأموال في كل عام إلى قراء الحجاز وعلماء الأراضى المقدسة وأشرفها.

ولدى به ذوقه للفنى الرفيع، وما ورثه عن آبائه من أموال طائلة^(٤)، إلى تزيين الهند في عهده بجملة من المنشآت المعمارية الفخمة التي ما تزال ترى

(1) Muslim Rule 541, 43.

(2) Lane Poole 329.

(3) Muslim Rule. 546.

(٤) يذكر الرحالة الألماني بمانسلوما كان يحرق دار السلطنة حين زارها في عهد شاهجهان، بما يعادل ثلاثمائة مليون جنيه، عدا الدخل السنوى، كما ذكر كذلك أن جيش السلطان كان يضم مائة وأربعمائة ألفا من الفرسان ووصف مدينة كرا وأزدهار الحياة بها، يقال أن

آثارها حتى اليوم بكرا ويدل على الجديده التي بعد بحق منشئها ومجدها، والتي
اتخذها مقاما له بعد أن أتم بناء قصره الكبير بها.

ومن هذه الآثار المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلمة الحمراء وأروعه
جميعا ذلك المئذى الفخم الذى يعرف باسم تاج محل، والذى أقامه لتخليد ذكرى
زوجته ممتاز محل، بعد بكماله وبهاته من بين روائع المعمار فى الدنيا وقد
استغرق بنائه اثنين وعشرين عاما، واستخدم فيه عشرون ألفا من العمال وبلغت
تكاليفه سبعة عشر وتسعمائة لكا^(١) من الروبيات.

وبلغ بشاهجهان كلفه بالأبهة إلى صنع عرشه الفخم المعروف بعرش
الطاووس الذى رصع بالكدر من الجواهر النادرة، وكانت قوائمها من الذهب
الخالص، وكان سقفه المطلى بالمينا يحمل على إثني عشر عمودا من الزمرد،
على كل واحد منها طاووسان تزينهما الجواهر وتتوسطهما شجيرة يغطيها الماس
والياقوت والزمرد، وتتلى منه درج ثلاث تكسوها الجواهر والياقوت. وقد استغرق
صنع هذا العرش سنوات سبعة وبلغت تكاليفه أكثر من ستة ملايين من
الجنيهات^(٢). وحين غزا نادر شاه الفرس، لهند عام ١١٥١هـ/١٧٣٩م حمله معه،
فأثرى حكام الفرس من جواهره، وأعاد فتح على شاه سلطانهم من بعد ذلك من بقايا
وحطامه فى إقامة عرش جديد له حمل الاسم نفسه.

طرقها كانت مهذبة نظيفة وإن حوائط التجار كانت تزخر بمختلف أنواع السلع وقد
خصص لتجار كل سلعة محطة موقوفة عليهم، وكانت دور المسافرين فخمة ونظيفة كذلك.
وأحصى هذا السائح بهذه المدينة سبعين من المساجد وثمانمائة من الحملات، هذا حدا
للقصور المشرفة التى كان يسكنها المسلمون والهندكة بظاهرها. وقال إن سكان أكبرا
كثروا من الكثرة بحيث يمكنهم أن يتكسوا من بينهم فى الحرب مائتى ألف من الرجال.

Lane Poole 333-5.

(١) ذلك مائة ألف، وفى هذا البناء اختلط الطراز الفارسى بالهندي.

(2) Muslim Rule. 533.6.

أورنكزيب عالمكير

اعتلى أبو المظفر محمد محيي الدين أورنكزيب عالمكير عرش الهند عام ١٠٦٩هـ/٦٦٩م والبلاذ يسمى الخراب الشامل الذي اكتسح حقولها ومروجها إبان حروب الوراثة الجالصة التي قامت بينه وبين أخيه دارا شكوه. وحالف القحط هذا الخراب بسبب تدهور الأمطار الموسمية، فأتى على كل ما تبقى بالبلاذ من أخضر وياض.

لذا رأى أورنكزيب أن يرفع عن كاهل الأهلين عدداً من المكوس والضرائب تخفيفاً عنهم ورحمة منه بهم، فأعفا من ثمانين نوع، منها مكوس الطريق والمسور ومكوس الأرضية، التي كان يلزم بها أصحاب المتاجر والحوافيت جميعاً، ومكوس الأضرحة ورسوم الدواب، كما خفض كذلك كثيراً من الرسوم التي كانت تفرض على المحاصيل الغذائية للزراعة تيسيراً على السكان جميعاً من مسلمين وهنالك^(١).

وبرغم أولامره المشددة في تنفيذ هذه الإعفاءات وعنفه في معاقبة المقصرين من عماله بنان سكان المدن كانوا هم وحدهم، في الغالب، الذين أفادوا من ذلك كله، إذ احتل حكام الأقاليم دوماً على إبقاء الحال على ما كان عليه، حتى لا يضاروا في أهم مواردهم ومصدر ثرائهم، ولا سيما حين عدل أورنكزيب عن نظام التجنيد الذي رسمه جده جلال الدين أكبر، ومار عليه أولاده من بعده، إلى نظام الإقطاع القديم^(٢).

(١) منتخب الذهب لعلی خان ٢٤٦ - ٤٩

(٢) كان الحكم وصال الدولة، فضلاً عن حرصهم البالغ على الاحتفاظ بمظاهر الأبهة والعظمة، يتنافسون في تقديم الهدايا الثمينة من الجواهر وغيرها إلى السلطان في كل مناسبة وأعظم هذه المناسبات هي ذكرى مولده حيث كان يوزن بالذهب والجواهر على رسم مغولي قديم. ويذكر الرحالة الفرنسي برنيه، وكان قد حضر هذا الحفل في أحد الأحوال أن ما قام به السلطان من الجواهر يقدّر بما يوزن المايوليين من الجنيهات

اشتهر أوركزيب منذ أول شبابه بتمسكه الشديد بتعاليم السنة، حتى خاض حرب الوراثة ضد أخيه داراشكوه على هذه المبادئ ولورده حقه على ما ألقى به علمائه. لذا أبطأ الاحتفال بالنيروز عيد الفرس وحظر دخول بلاده على أصحاب مذهب الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب غير السنانية^(١).

وكان من أثر هذا الإجراء، ومناصبته قبائل الأفغان العداء فيما بعد، وما سبق إليه جده حين نادى بأن الهند للهوند، أن انقطع عن جيوش الدولة مصدر مهم طامعا أمدحا بحاربين أشداء، من أبناء بلاد ما وراء النهر وبلاد الأفغان وكابل، كانوا بلا مرأى كغيلين بشد أثر بنى جلنتهم، الذين تكثرت عزيمتهم على مر الزمن بحر الهند، في دفع خطر المرتها والسك عن الدولة، وهما المصبتان اللتان عجل ترليد نشاطها في نهايتهما.

وأدى حرص أوركزيب عالمكير على أن يصيغ دولته بالسريرة الإسلامية الخالصة إلى أن تشدد في تحريم الخمر والميسر تحريما تاما وأبطل البدع، ثم أمر بتعمير المساجد وترميم الخرب منها وأمدحا بطلقة مختارة من الأئمة والعواظ والمدرسين، وحض الناس على الإقبال على حلقات العلم بها وشجعهم على السدرس فيها، ثم بعث بمحتسبيه من بعد ذلك ليراقبوا الناس ويحملوهم على التمسك بتعاليم الشرع والابتعاد عن نواحيه.

وطلق أوركزيب من بعد ذلك يبعد الهندكة عن مناصب الدولة الكبرى ويقال من عدهم في النواوين عامة، فلم يبق بها منهم سوى نصفهم حرصا على مصالح العمل^(٢)، ولم يكن ذلك بدعا منه بعد أن رأى بوادر الفتنة والعصيان تظهر من بينهم أيام أبيه.

وانتهى أمره معهم إلى أن أمر بخلق كثير من مدرسمهم ومنعهم من إقامة معابد جديدة لهم، حتى هدم معبد بنارس ومومناات، وأقام على أنقاض معبد متهره مسجدا كبيرا، بعد أن بدل اسم هذه المدينة إلى إسلامبور، ونقل لوتان هذا المعبد

(١) عالمكير نامه ٢٨٩

(2) Dunbar 264.

المكالة بالجواهر إلى أكراف قدم بها أساس مسجد نواب بيكيم صاحب حتى يطوها المسلمون بقلعهم في صلاتهم تقريباً إلى الله^(١).

وأعاد أورنكزيب فرض جزية الرأس على الهنادة وأعطى من تأديتها غير القادرين عليها. وقد أدى الحرص بكثير من عامتهم إلى الدخول في الإسلام تخلصاً من دفعها.

وكذلك فرض أورنكزيب رسماً جديداً على البضائع التي كان يستوردها التجار من الخارج، وكان أغلبها من أدوات الترف والزم الهنادة منهم بدفع هذا الرسم مضاعفاً.

يمكن تقييم مدة حكم أورنكزيب التي تجاوزت سبعة وأربعين عاماً إلى فترتين :

الأولى : وهي التي شغل فيها عامة بقرار الأمور في الهندستان.

والثانية : وهي التي قضاهما في حروب متواصلة بالمكن والجنوب استوعبت ستة وعشرين عاماً واستنفدت أموالاً طائلة وهلك فيها ملايين عدة من الجنود والأهلين. وقد هدف من ورقها في الغالب إلى الجهاد في سبيل نشر الإسلام بين الهنادة والقضاء على مذهب الشيعة أكثر مما هدف إلى توسيع رقعة ملكه.

آسام والبنغال : أفاد أورنكزيب من كفاءة قائده مير جملة فوجهه في جيش كبير وأسطول من السفن النهرية إلى آسام وكوش بهار اللتين تقعان عند الطرف الشمالي الشرقي وهي منطقة تغطيها الغابات والأجام وكان أصحابها يتخطفون أراضي الدولة. ورغم فتك الأويئة بجند الدولة وبشدة ضغط المعصبات عليهم، وهم في حصارهم لمعصمة آسام، فقد مضى بهم قائدهم عدة لشقاء موسم الأمطار، والحمى تركيه، حتى أرحم الآساميين على التسليم، فعاملهم برفق ومودة^(٢). ومن

(١) مذكر عالمكبرى ص ٩٥

(2) Gait Hist of Vissam 141-51.

لسف أن واقى الموت ميرجمله وهو فى طريق عودته إلى دكا عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م، وقد أضاع لوليه جميع جهوده بعد بضع سنين بسوء إدارتهم وعصفهم.

وخلف ميرجمله على البنغال الأمير شايسته خان، خال السلطان. وكان ملوك أراكان بها قد اشتد نشاطهم حتى راحوا يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع البرتغاليين لمناهضة الدولة، فرحبوا بقرصنة هؤلاء المستعمرين وغيرهم من المغامرين، حتى باتوا يسيطرون على خليج البنغال، فضلاً عن مساحات واسعة ممتدة من دلتا الكنج إلى دكا، ثم انطلقوا يقطعون الطريق على التجار ويتخطفون الأهليين ويبيعونهم ببيع الرقيق لتجار الهولنديين والإنجليز والفرنسيين فى الثغور للدكنة الشرقية وفى جزيرة سرنديب غير بعيد من شيتا جونج.

وبرز شايسته خان لمقاتلة هؤلاء جميعاً ومعه أسطول كبير عتته ثلاثمائة سفينة فغاض ضدهم غمار معارك متصلة على ١٠٧٥، ١٠٧٦هـ/١٦٦٥م، حتى كسر شوكتهم وحرر كثيراً من السكان من أيديهم واستعاد للدولة مساحات كبيرة من الأراضى التى كانت فى حوزتهم. وقد تحالف شايسته خان فى حروبه هذه مع الهولنديين والبريطانيين الذين كانوا يتوقون للقضاء على منافسيهم من البرتغاليين، ولم يكن يدرى أن بقضائه على البرتغاليين إنما يسهل السبيل للبريطانيين الذين بدلوا وتذاك بدلية متواضعة هناك فأقاموا مصانعهم فى منطقة كانت نواة لمدينة كلكتا الحالية^(١).

البطهان والأفغان : أخذت أطراف الهند الشمالية الغربية تتعرض ابتداء من عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م لغارات قبائل البطهان الأفغانية، وعلى رأسها بوسفى والأفريد^(٢) ولما ينقضى عام واحد على فراغ الدولة من مشاكل الحدود الشرقية.

(١) Lane-Pool 382.3 - المصانع هنا هى المخازن.

(٢) تشتهر من هذه القبائل الأفريدى والوزيرى على الخصوص بشدة المراس حتى صمدت جيوش الهند البريطانية مرات عديدة عن بلادها فى القرنين : الحالى والماضى، وأزيلت بها خصائر جسيمة.

ولقد جهد السلطان أكبر من قبل في الحد من نشاط هذه القبائل، وحذا حذوه جهاتكير ثم شاهجهان فسبروا جيوشهما للقوة إلى كندهار وبخشان مرات عدة. وحين تجددت حركات هذه القبائل أولاف عهد شاهجهان، بسبب حرب الوراثة الجامحة التي نشبت بين أبنائه، فالتحدرت جموع يوسفزي إلى مناطق الهزرا فهاجت شواطئ نهر كابل، لم يكتف حاكم أتوك بردها في عنف حتى خرب منازلها وأراضيها.

وركت هذه القبائل إلى الهدوء بضع سنين من بعد ذلك كان راجا جسوانت، نائب السلطان عند جامرود، يراقبهم فيها بعين ساهرة حذرة ثم برزت قبائل الأتردي، وحلوا زعيمها أكمل خان تستلخص همم القبائل الأخرى وتستعين بها في السيطرة على المنطقة الواقعة بين كابل وبشاور. حتى أئوج لها آخر الأمر أن تغزل هزيمة قاصمة بتوات الدولة عند ممر خير، سقط فيها عشرة آلاف من جند السلطان أسارى بأيديهم.

وشجع هذا النصر القبائل الأفغانية الأخرى التي كانت تضرب بين أتوك وكندهار، فركت بدورها إلى العصيان. وقوى من عزيمتها انضمام الزعيم الأفغاني خو شحال إلى صفوفها؛ وكان هذا الزعيم قد استخرج من قبل، بالخيانة والغدر إلى بشاور ثم ألقى به في السجن بدلهي، فأطلق سراحه على أن يسير وابنه بجند الدولة لمحاربة أعدائه من قبائل يوسفزي؛ ولكن ما أحرزه بثو جلدته من الانتصارات على الدولة أنساء عداء معهم فأنضم إليهم.

هنالك بعث لورنكزيب بنداي خان حاكم لاهور إلى بشاور، وسير قائده الأخو مهايت خان إلى كابل. حتى إذا ما تكشف له تواطؤ هذا الأخير مع العدو جعل مكانه شجاعت خان.

وأدى ظهور قوات الدولة القوية عند منطقة الحدود إلى تقدم فريق من شيوخ العشائر الفاترة مسلمين. حتى إذا ما أصم شجاعت خان أنفقه عن الاستماع إلى نصيحة راجا جوانت فلم يصطنع التريث والصبر حتى يأتوه بقوة الشيوخ فيرم للصالح معهم على خضوعهم للدولة، فالتفغ بقواته إلى منازلهم في

مناطق التلال المجاورة لكابل، الحذر البطهان إليه في نيل شتاء عاصف عام ١٠٨٤هـ/١٦٧٤م فأنزلوا بقواته هزيمة شاملة لاقى فيها حتفه.

هنالك لم ير السلطان بدا من المسير إلى هذه المنطقة آخر الأمر بنفسه، فطلق وقائده أغار خان، بقوة السلاح ثائرة وبيدل المودة والمال والعطاء لشيوخ القبائل ثائرة أخرى، في أن يؤمن منطقة ممر خير، لخطر أبواب الهند وأهم طرق الغزاة إلى سهولها وأراضيها.

ولم تستنزف قلائل الحدود الشمالية الغربية هذه كثيراً من أموال الدولة فحسب. بل لقد اضطر السلطان بسبب عنفها إلى استدعاء نخبة من قواته الدكنية إليها، مما أتاح الفرصة لإمارات الدكن والمرهتا على الخصوم، ليقبضوا من نفوذهم هناك ويثربوا المتاعب في وجه الدولة من بعد ذلك.

ولو أن أورنگزيب كان قد استطاع المودة مع القبائل الأفغانية منذ بادئ الأمر وأخذهم بالسياسة والهدوء الذي اشتهر به، لأفاد من شدة مراسهم في القتال في حروبه الطويلة، مع الراجبوتيين والسك والمرهتا وشيعة الدكن، وقد كانوا على هواه في تعصبتهم الشديد لتعاليم السنة.

الجات والمستلمون : أدت السياسة التي انتهجها أورنگزيب عالمكير في تدمير معابد الهنداكة وإقامة مساجد المسلمين على أنقاضها، إلى شيوخ روح التئمر بينهم حتى ثار الجات منهم^(١) ثورة عارمة عدد ما نهو فتمكن زعيمهم جكال من قتل نائب السلطان هناك وفتحها أراضي سعد آباد. ولم يفت سقوط هذا الزعيم في يد الدولة ومقتله، في عضد بني قومه، فطلقوا يزعون إلى التمرد والعصيان بين الفينة والفينة حتى تقام خطرهم حين بدأ الضعف يندب في بناء الدولة بعد عهد أورنگزيب.

(١) الجات أو الزط، منهم المسلمون ويسكنون السند الأعلى والمثلان، وقد ذكرهم الجاحظ بأنهم أصحاب مهارة في التجارة والصيرفة والصيلة ومنهم فريق من الهنداكة في الراجبوتانا، ومنهم السك في الهجاب أتباع ناك، وجميعهم من الوثنية، وأغلب الصيرفة والملايين في الهند اليوم منهم.

وجاءت ثورة المستكمين في أعقاب سلبتها . وهم طائفة من الزهاد ينتسبون إلى الاسم الحسن (ش : ستام) ويحرصون على كبرياتهم وأنفقتهم حرصاً شديداً، حتى لا يتركذون في سبيل ذلك عن بيع أنفسهم بيع السباح ولم يكن مرد ثورتهم إلا لإعتداء بعض الجند على فريق منهم^(١) دون أى سبب ديني آخر، فزحفت جموعهم من نارنول عند موات تخرب ما يصلحها من مساجد وتعمل السلب والنهب فى المدن والقرى حتى بلغت مشارف دىلى، وفى ركابها شاتعات قوية عن نفاذ سحرها وطلاسمها. حتى فرغ الناس والجند من لقتهم فلم يتأتى للسلطان القضاء عليهم إلا بمشقة.

المسك : لم يقعد المسك بدورهم عن المشاركة فى حركة السخط التى عصت الهنادكة جميعاً بسبب موقف السلطان غير الودى معهم، وكانوا قد غدوا بالاصبون الدولة العداء من قبل منذ أن قتل جهانكير زعيمهم أرغون حين ظاهر ابنه خسروا فى خروجه عليه.

وهذه الطائفة وهى من الجات البنجاليين، إمامها مصلح دىلى يدعى غورو ناكه، ظهر فى القرن التاسع الهجرى، وحاول أن يصهر ديانات الهند فى مذهب واحد يقوم على تعظيمها جميعاً، ويقضى على فروق الطوائف، ويعلن المساواة التامة بين الناس.

ويبلغ رابع خلفائه رام داس مكافئة مرموقة عند السلطان أكبر، حتى أنقطع له أرضاً أقام عليها محلة لأتباعه ومريديه، لما زالت تكبو وتكبر حتى صارت إلى مدينة أمر تسهر كعبتهم الدينية اليوم بالبنجاب.

حتى إذا ما تفشت الكراهية للمسلمين بينهم بسبب مقتل جهانكير لخليفة أورغون، شرع زعيمهم الجديد هار غورود يعدم إعداداً عسكرياً للدفاع عن كيانه. وحين ثار بهم تاسع زعمائهم غوروتغ بهادر ليعارض الدولة فى اضطهادها للهنادكة وتخريبها لمعابدهم. قبض عليه أورنكزيب عام ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م وأوردته

(١) منتخب التالاب ٩٦/٢٩٤

مورد الردي، لتطلق ابنه غوند سنغ يشعل روح الحماص في قومه لينثروا لقتلهم، وهو يواصل تكريبه الحريى لهم ويعمدهم بنقع السيوف والخناجر. فقصموا لكل الضربات التى وجهتها إليهم الدولة فى عزم وإصرار حتى تم لهم السيطرة على منطقة التلال فيما بين ستلج، راند السند، وجمنه.

وأحاطت قوت الدولة بهذا الزعيم آخر الأمر بعد أن قتلت ولديه، فالتحق بخدمة بهادرخان خليفة أورنكزيب^(١) لينقلب قومه، حين بدأ الضعف يدب فى بناء الدولة، إلى جيش جسر خدا والمرهتها نذير سوء عليها.

الراجبوتيون : أدى فرض أورنكزيب جزية الرؤس على الهنادكة من جديد، بعد أن ظلوا ينفون من دفعها قرابة قرن ونصف القرن، إلى تفالقم الاضطرابات بينهم واشتداد أولر غضبيهم.

وكان هدف السلطان من وراء إعادة فرضها هو الحصول على المال الذى أعوزه فى حروبه الكثيرة، فلم يلتفت إلى توسلات جموعهم الكثيرة التى وفدت إليه وزحمت طريقة إلى المسجد، حتى استخدمت القيلة لتفريقها وهلك كثير منهم تحت أقدامها.

ولم يقبل الأمراء الراجبوتيون جزية الرؤس هذه عن طيب خاطر، وقد انتقلب السلطان ينظر إليهم بعين الاتمهان، فى حين أن أسلافه، حتى بعد استيلائهم على أقوى حصونهم فى جتور، كانوا يعدونهم فى الغالب حلفاء لهم ويحفظون عليهم مراسم الأبهة والإمارة.

حتى إذا ما احتجز أورنكزيب ببلاطه أحد أبناء راجاجسوانت بعد موته، وكان هذا الأمير قد شارك فى إقرار الأحوال عند الأطراف الشمالية الغربية للهند، فترامى إلى قومه أنه إنما يبنى بفعلته هذه إلى حمل الأمير الراجبوتى الصغير على اعتناق الإسلام، ألتلوا حول درشا دلس راج مروار (جدهبور) الذى توصل

(١) منتخب للباب ٩٤ - ٩٦

بالحيلة إلى تخليص الأمير من أسرته ونقله وأمه إلى إمارته^(١) لينفذ السلطان عندئذ قائده تهور خان وابنه أكبر لغزو هذه الإمارة وضمها إلى أملاك الدولة.

كذلك انبرى أمير أدليبور (موار)^(٢) بدوره يعارض ما فرض عليه وعلى قومه من جزية للرؤس، فاجتاحت قوات الدولة بلاده بدورها وخربت ما بها من معابد هي وأمير التي لم يشفع لها ما كان بين أميرها وأورنكزيب من صلات مودة وسلام.

اعتصم الأمراء الراجبوتيون الفارون من بعد ذلك بحصولهم في الجبال، وقطعوا من هناك تشطين للإيقاع بقوات الدولة. وقد فشل أكبر رابع ابنه أورنكزيب في كبح جماح هؤلاء الثائرين الذين كانوا يصلون إلى قطع الإمدادات والمؤن عن أورنكزيب نفسه وهو في موار.

وأدى حرج المواقف بأورنكزيب إلى استدعاء ولديه الآخرين، أعظم ومعظم، بقواتهما من الدكن والبنغال ليشركاه للحرب عند موار، في حين وجه ابنه أكبر إلى موار بعد أن أنه تأنيباً شديداً لتهاونه السابق مع العدو. فلذا بالأمراء الراجبوتيين يلتفون حول هذا الأمير الغاضب وكان إذ ذاك في الثالثة والعشرين من عمره طموحاً فتياً، فمالوا ليننون له الخروج على أبيه حتى استجاب لهم ونادى بنفسه سلطاناً عليهم.

هناك قر قرار القوم على الزحف بجموعهم التي تجاوزت السبعين ألفاً، إلى أمير مقر السلطان، ولم يكن بها حوله من الجند عندئذ ما يزيد على الألف فارس، حتى أتاح تباطؤ الأمير أكبر والتشغاله بمتمة الفرصة لأورنكزيب، فبلغ بهائته وحسن تكيده إلى صرف الأمراء الهادكة وجموعهم عن ابنه وجذب ما معه من قوات الدولة إلى صفوفه، إذ استطاع خطاباً بعث به إلى أكبر، تعدد أن يقع بأيدي

(١) منتخب الباب

(٢) راضى أمراء أدليبور دلتاً مصاهرة سلاطين المسلمين، كما وافقوا فيما بعد أن يشتركوا في حل تقوية فكروريا ملكة بريطانيا أميراطورة على الهند، ورد أميرهم إلى نائبها قلادة كوكب الهند محتجا بأن أحداً من أجداده لم يحمل شعار البيودية من قبل.

الراجبوتين، وقد أثنى فيه على الأمير وعلى خداعه للأعداء على ما رسمه له من قبل، وأمره باستدراجهم وقواتهم حتى يحصرون بين قوتى المسلمين ليبدأوا عن آخرهم^(١). فإذا بالراجبوتين ينفط عقدهم حين أطلوا على الرسالة، وإذا بالأمير الثائر يجد نفسه وحيداً فى الميدان، فومن فى الهرب حتى ينزل بعد مطاف طويل عند شمبهوجى زعم المرهتها بالمكن. وقد أبحر من أحد موانيه من بعد ذلك إلى إيران فأقام بها إلى آخر حياته.

وانتهت الحرب مع موار عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م بعد أن قبل أميرها التنازل عن بعض حصونه للدولة نظير إعفائه وقومه من جزية الرؤس. أما موار فقد بقيت على عصيائها حتى أقر بها درشاه، خليفة أورنكزيب، لأصحابها بحقوقهم فيها.

الشعبة والمرهتها : قضى أورنكزيب، بطريق العنف الذى سلكه مع الأمراء الراجبوتيين، على مورد قوى من الجند الذين طالما ساندوا الدولة فى حروبها أيام السلطان جلال الدين أكبر وخلفائه، كما شارك أمراهم، فى الوظائف الكبرى وفى الجيش، فى تحقيق المتعة للدولة وتوفير المهابة لها. وكان هؤلاء المحاربون الأشداء كقبائل بشد أزرأورنكزيب فى حروبه الطويلة التى قضاهما بالمكن فابتلعت الأموال الطائلة وفى فيها ألوف كثيرة من أبنائها وبدأ بناء الدولة من جرائها يتزعزع ويتصدع.

فقد عقد العزم، بعد أن تم له إخضاع موار عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م، على السير إلى الدكن. فهام سلاطين المسلمين فى بيجابوروغولكونده لا يزالون يحملون هناك لواء التشيع ويروجون لهذا المذهب الذى يرى أورنكزيب أنه من أكس الفروض عليه، بوصفه سلطان السنيين وحامى المذهب، أن يقضى على ملكهم أو يعيدوا إلى ملته. ولقد أرغم فى عهد أبيه على وقف التكال معهم ومهادنتهم، ليهتالوا الفرصة التى أتاحت لهم من بعد ذلك بمرض شاهجهان وقبام حرم الوراثة بين أبنائه فعيدوا إلى سيرتهم الأولى فى المصيان وبذ طاعة الدولة. وما هم المرهتها قد تقام خطرهم، والدولة منشغلة بحروبها عند الحدود الشمالية

(1) Muslim Rule, 427.

الغربية وفي الراجيونانا، فانتشرت عصاباتهم تخرب المدن والقرى وتنتهبها وتقتصب الحصون وتقطع الطريق على التجار وتلوى عندها الخارجين على سلطان الدولة حتى نزل الأمير أكبر بن أورنكزيب آخر مطاقه بكنفهم.

ولم تكن الدكن، على كل حال، بغريبة عن هذا السلطان، فدولى حكمها فى عهد أبيه ما ينفى على اثنى عشر عاما فصرف ما لأرضها من خصب عقيم وما لأمراتها من ثراء عريض.

وكان المرهتا الدكنيون هم أول من اجترأ من سكان الجنوب فى الغالب على الزحف إلى الهندستان. وقد قضى أورنكزيب عالمكير أكثر من ستة وعشرين عاما يحاربهم هناك. وقد أنزلت عصاباتهم بالدكن كله فى أيامه خسائر بالغة بما خربته من مملته وقراه وما أحرقته من زرع وضرعه حتى شاركوا فيما بعد مشاركة فعالة فى انهيار الدولة.

ويشتق اسمهم من مهاراشترا، أى المملكة الكبرى، وهى التى لم يبلغ الباحثون إلى تحديد موقعها فى القديم بعد. ويحدهم البراهمة من زمرة الشودرا أدنى طبقات الهند وطوائفها، وإن كانت مساهم فيها كثير من سمات التورانيين. وقد ذاع اسمهم فى القديم على كل حال حين استعان بهم بليكسين الثانى فى حروبه مع هرشا.

وامتدت إلى منازلهم بالدكن بدورها موجة الإصلاح الدينى التى ظهرت فى أماكن متفرقة بالهند فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى، فظهر من هذه المراهتها. اكتائه وتكرام ورلم دلس، يفكرون نظم الطبقات ويجـهرون بأن الشودرى قادر بعقيدة بهلكى (أى الإخلاص لله) أن يبلغ عدد الله منزلة ليست دون منزلة البرهمى الورع⁽¹⁾.

وقد أُلاد منهم ملك عنبر الحشى الوزير الدكنى فى حربه مع جهانكير، على ما ذكرناه من قبل. وظهر من بين صفوفهم من بعد ذلك شاهجى بهونسلا الذى

(1) Mbslim Rule. 582.3.

حارب الدولة ثم عمل تحت لوائها لينضم آخر المطاف إلى صفوف الياجوريين من بعد ذلك.

وحين قضى شاهجهان على إمارة أحمد نكر، تمكن ذلك القائد المرهتهى بعد قليل من أن يمد نفوذه إلى هذه الإمارة ويجلس على عرشها أميراً من أسرة نظام شاهى. حتى اجتاحت جند الدولة هذه الإمارة من جديد، فلجأ شاهجهى ثالثة إلى يياجور ثم اعتكف آخر الأمر فى إقطاعه بيونا وشمارغوندا على مقربة من بمباى.

شيواجى : نشأ شاهجهى ابنه شيواجى تنشئة عسكرية منذ صغره. وأتاح له لزومه بلاط يياجور بعض الوقت التمرس بالسياسة والوقوف على الكثير من أحوال الدولة وعلاقاتها بملاطين الدكن، كما بث فى نفسه حكيمة المرهتهى، رام داس، حب الهنداكة، وحرصه على وقف حيلته للدفاع عن بنى جلته ومقدراتهم.

حتى إذا ما اضطريت الأحوال فى يياجور بسبب مرض سلطاتها عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م، انتهز شيواجى هذه الفرصة ليستولى على جملة حصون حول بيونا^(١). إقطاع أبيه، وينفذ من بعد ذلك إلى إقليم ككان.

هنالك بادر سلطان يياجور إلى اعتقال شاهجهى فلم يطلق سراحه حتى تعهد ابنه سيواجى بالركون إلى السلم والابتعاد عن انتهاب أراضي الإمارة وتخطفها.

ولكن المرهتهى مالم يث أن عاد إلى ككان من جديد، وأورنكزيب نائب شاهجهان إذ ذلك بالدكن مشتبه فى الحرب مع يياجور، فوضع يده على أغلب أراضيه، وتحكم فى مواليه حتى رد الياجوريين عنه حين ساروا إليه من بعد ذلك، وطلق بتعقيهم فى تعقرهم عنه حتى دخل بلادهم، فلم يرتد عنها إلا حين بلغه زحف شايسته خان قائد أورنكزيب على الدكن.

وأتيح لشايسته خان أن يقتحم بيونا وحصن شكن ويثبت كداسه فى القسم الشمالى من ككان، ليفاجئه عندئذ شيواجى بمقره فى مائتين من رجال

(١) منتخب للباب ٢٥٦، ٥٧

عصاباته قدموا في هيئة من يحتفلون بزفاف صبي، فاختصوا على قصره في غارة ليلية قتل فيها أغلب حراسه وحریمه وأصيب هو نفسه بجراح شديدة^(١).

واستشرى خطر هذا الزعيم المرتهى حتى سقط في أربعمائة من رجاله على ميناء سورفات القنى فالتهب مكانه وتجاره وما صادفه فيه إذ ذاك من سفن الحجاج المسلمين. فلم يقف في وجهه هناك إلا مصانع الهولنديين والإنجليز الذين لم يأبهوا لتهديده وأغلظوا القول لرسله، فعاد بأسلابه إلى مقره دون أن يجرء على التعرض لهم بسوء.

وثار أورتكزيب لفرط جرأة هذا الثائر، فبعث إليه بجيش كبير، طيه ابنه معظم، اكتسح بلاده حتى هدد مقر حكومته في راوكره، إيهادن الدولة من بعد ذلك فيتنازل لها عن الكثير من الحصون ويتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة لها.

وما زال السلطان بعده حتى حملة، بحسن تدبير قائده راى سنغ، على القنوم إلى آكرا ومعه ابنه شمبهوجى ليقدّم فروض الولاء إليه بنفسه.

وحين أحس هذا الزعيم المخامر بأنه وأبنه معقلان في دارهما، احتالا على الحراس فهريا من محبسيهما في سلتن من سلال الفاكهة بتدبير محكم، لينطلقا من بعد ذلك إلى ملواه أورتكزيب من جديد. وقد كان فى إمكانه أن يكسبهما إلى صفه باصطناع المودة معهما فيبلغ بمعونتهما إلى إخضاع الجنوب كله لسلطانه دون كبير عناء^(٢).

ومن عجب أن شيولجى، حين عاد إلى مقره، وجد وزراء منصرفين إلى تدبير شئون الدولة وكان شينا لم يقع لأمرهم.

وهادن شيولجى الدولة عامين أنصرف فيهما إلى تنظيم حكومته، وكان يدير شئونها إذ ذاك مجلس برئاسته قوله ثمانية من الوزراء لشئون المال والشئون

(1) Sarkcar. Hist. Of Aurengzib Voliv p47-51.

(2) Mughal Rule in India PP137.33.٧١ - ٩١٧ نمة ١٦٧

الدخالية والخارجية والدينية والبلاط وشنون الحرب والتضاء، وجميعهم، فيما عدا وزيرى العدل والشنون الدينية، كانوا من أصحاب الرتب فى الجيش.

وعدل شيواجى عن نظام التجنيد الذى كان يلزم به رجاله قضاء ستة أشهر من كل سنة فى المعسكرات لينصرفوا من بعدها إلى حقولهم، فقام له جيشاً ثابتاً التزمت حكومته بنفقائه، وكان قوامه أول الأمر المشاة حتى يسهل تشكيل العصابات منهم، ثم ضم إليهم من بعد ذلك فرق من الفرسان صاروا مصدرًا للفرع والرعب أينما حلوا وصاروا^(١).

ولم يهتم المرهتها إلا بترقية الزراعة وتوسيع رقعتها، فلم يلتفتوا إلى العناية بالتعليم أو العمل على كسب الأهلىن إلى صفوفهم^(٢).

وظلّت عصاباتهم تعود نشاطها من جديد ابتداء من عام ١٠٨١هـ/١٦٧٠م حتى طردت نائب السلطان من ككان. وسقطت مرة ثانية على سورات، فبلغ ما انتهت منها ما يزيد قيمته على سبع ملايين من الرويات. وكان من أغر غاراتهم المتكررة على هذا الميناء المهم أن أدى انتشار الرعب منهم بين السكان إلى كساد التجارة فيه :

ولدى شيواجى بنفسه آخر الأمر أميرا على قومه عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م، والدولة مشغلة عنه إذ ذاك بفتن الشمال. وقد ضم إليه كثيراً من الأراضى والحصون فى نطاق مملكة فياينكر القديمة التى بات الهندكة فيها يحلمون باستعادتها لمجدها الغابر على يديه.

ثم انطلق من بعد ذلك ينتهب أملاك الدولة نفسها، بعد أن اغتصب بعض حصون أخرى من سلطنة بيجابور، فلم يستطع دارخان قائد أورنكزيب أن يصمد

(1) Hist. Of the Mahrattas. Vol 1. 175.

(2) Shivaji and his times 485.6.

فى وجهه كثيراً، حتى طواه الردى عام ١٠٩١هـ/١٦٨٠م ولما يكمل الثالثة والخمسين من عمره^(١).

وزعزع من بناء الدولة التى أقامها شيولجى، انصراف رجاله من بعده إلىسى تحقيق أطماعهم ومآربهم الخاصة فالتفت إلى القوة التى أقام. صرحها إلى سلاح هدام استخدمه رجاله فى منازل عاقهم فوما بينهم، لوجئ من بعد ذلك لورنكزيب، بعد فراضه من حروبه فى الشمال، فالتحم معهم فى معارك متعاقبة استمرت سنين طويلة وأصيبوا فيها بضربات متلاحقة منه وخسائر جسيمة فى الأموال والأففس.

بيجاور وغولكونده : قدم لورنكزيب عالمكير إلىسى برهاتبور عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م ليوقد بنفسه معاركه الدكن، فبعث باليه الأمير معظم لفسزو لأراضى المرتها، فوغل فى كلكان لوجد العر قد جلى عنها بعد أن أحرق زرعها وخرب قراها. حتى إذا ما حاول الجيش للفازى أن يمون جنده بالمؤمن عن طريق البحر سقط الثوار على السفن فاستولوا على ما بها من حبوب وأغرقوها.

وحين وجه السلطان ابنه الثانى أعظم إلى بيجاور وسار هو إلى أحمد نكر، أطلق شمبهوجى بن شيولجى وخليفته إلى خاندش فخرّب بصبابته قراها، حتى إذا ما قدمت إليهم قوات للدولة تفرقوا سراعا على عاقبتهم، ليتصيدوا أفرادها ويسزلوا بها خسائر كثيرة.

هناك رأى لورنكزيب أن يوجه جهوده كلها إلى الاستيلاء أولاً على إمارتى بيجاور وغولكونده فيحرم بذلك المرتها من أموال كثيرة كانت تلتزم هاتين الإمارتان بدفعها لهم لقاء لشهرهم، ويبلغ فى الوقت نفسه إلى القضاء على أصحاب مذهب ينكره أشد الإنكار، وهو الشيعة الذى كان يدين به سلاطين هاتين الإمارتين ويروجون له بالهند.

وفى هاتين الإمارتين، اللتين كان الضعف قد تسرب إلى حكومتها فى قوة بسبب تنازع حكامهما ووزرائهما فوما بينهم، كانت نواة عصابات المرتها الحديثة،

(١) يذكر خالى خان فى متخف الباب « ٢٠٥ » لشيولجى أنه كان يحرم لى غارقه على ألا يتمرض أحد من رجاله لمساجد المسلمين أو تساتهم وأطفالهم بالسوء برغم حداقه الشديد لهم.

وفيهما كذلك عاش زعيمهم شاهجي وابنه شيراجي وحفوده شمبهورجي، وكتبوا جميعا على تحالف وثيق في بعض الأوقات مع حكمهما، ويجمعهم معا في صعيد واحد، آخر الأمر، عداؤهم المشترك للدولة وكرهيتهم المتأصلة في نفوسهم لهم.

وأشرف أورنگزيب بنفسه على حصار حصن بيجابور، فلم يخن صاحبه قطيلا استجاده بأبي الحسن قطب شاه سلطان غولكوندة أو بشمبهورجي أمير المهرتها، حتى أرغم على الاستسلام بعد دفاع مجيد، دلم عاما وبعض العام، استطاع إيلانه اليبجابوريون بمعاونة المهرتها أن يخرّبوا كافة الأراضي الزراعية ببلادهم ويحرقوا محاصيلها حتى عانى الغزاة شحا شديدا في الاكوات كاد يصرفهم غير مرة عن غايتهم، لولا عناد قاتلهم أعظم بن السلطان وشدة مراسه.

ودخل السلطان بنفسه المدينة قبيل أواخر عام ١٠٩٧هـ / ١٦٨٦م فهدم كل النقوش الهندية التي كانت تزين قصر سلطانها سكينرشاه، كما خرب رجاله بدورهم جملة من المنشآت الفخمة الأخرى بها :

ولمضى سلطان بيجابور وهو في الثانية والثلاثين من عمره بعد أن ألتقى بضع سنين في حصن دوات آباد بالمكن. وشاركه محبسه هذا بعد قليل أبو الحسن قطب شاه سلطان غولكوندة بعد أن سقطت بلاده بدورها في أيدي الدولة^(١).

ذلك أن أورنگزيب كان قد اشتد حنقه على صاحب غولكوندة أمير حيدر آباد حين امتنع عن دفع الجزية التي تعهد بها الدولة من قبل، ونقض اتفاقه معها بالابتعاد عن محالفة أعدائها، حتى اتخذ له وزيرين من الهانكة هما مادنبا وألنا فكانا على اتصال وثيق بشمبهورجي، زعيم المهرتها في الخفاء، وها هو آخر الأمر يعاون أصحاب بيجابور في حربهم مع الدولة.

هنالك زحف أورنگزيب على غولكوندة، وابنه أعظم في حصاره لبيجابور، حتى إذا ما بلغه قتل الأهليين بها للوزيرين الهندوكيين عدل عن المضى في زحفه، إلى حين، ليعاون ابنه أولا في حربه.

(١) عالمكير نامة ٩٤٦

وعاد السلطان، بعد سقوط بيجابور، إلى غولكونده من جديد، ليراجه بها مقاومة عنيفة علون أصحابها عليها المهرتها، فأحرقوا الزرع على علاتهم وأخذوا الجوع والوباء يفتك بجند الدولة حتى تمكن أورنكزيب، بالرشوة والخديعة، من التسرب آخر الأمر إلى داخل الحصن.

ولم يفت تحقق الغزاة في ضد الوزير عبد الرزاق الذى انطلق فى حفنة قليلة من رجاله لا تريد على اثني عشر نفرا يدفع بهم أعداءه عند باب الحصن فى تهور وشجاعة مذهلة حتى أعاقته جراحه التى زادت على السبعين عن مواصلة النضال.

وتدب أورنكزيب لعلاج هذا الوزير طبيباً هندياً وآخر أوروبياً وحين شفى من جراحه أراد السلطان أن يكرمه لشجاعته بإلحاقه وولديه ببعض المناصب، فاعتذر له معتقاً بأنه لا يستطيع أن يخدم سلطاناً بعد ملكه أبى الحصن، كبر أورنكزيب فيه وفاءه وشمله بالكثير من الرعاية والإحسان^(١).

وفى حصن غولكونده ومدينة حيدر آباد الدكنية استنوخذ أورنكزيب على كتوف كثيرة وأموال طائلة كانت تدرها على هذه البلاد أراضيها الخصبة، وموائها التى كانت تزدهم بالتجار الأوربيين، ومصانعهم التى كانوا يدفعون عنها للسلطان رسوما باهظة سنوية.

شمبهوجى : انتهى أورنكزيب من أمر هاتين الإمارتين ليفرغ من بعد ذلك لحرب المهرتها، وكان أميرها سمبهوجى قد أثر أن يلزم حصن سنجمشوار طلباً للسلامة، والسلطان منهمك فى حربه مع جيرانه، حتى وقع عليه مقرب خان قائد أورنكزيب، وهو فى نقاصه منصروف إلى لهوه، فأسرعه مع زوجاته وبناته وفريق من رجاله، ثم قتله وأحياه وأمر قطوف برووسهم فى أغلب مدن الدكن عام ١١٠١هـ / ١٦٩٠م، عظة وعبرة^(٢).

(١) منتخب الباب ٣٣١ - ٣٣٥

(2) Sarkar. Hist. Of Aurengzib IV p 408.

وسقطت راجكوه عاصمة المراهتا بلوى الدولة بعد أشهر قليلة من أسر أميرهم، وأحيط بأفراد أسرته جميعاً إلا رام داس، ليجتاح أورنكزيب من بعد ذلك الجنوب كله حتى يبلغ تجوره بالقصاه.

بهذا صارت شبه القارة الهندية كلها فى حوزة أورنكزيب إلا أماكن قليلة على الساحلين الشرقى والغربى كانت بلوى المستعمرين الأوربيين، وإن لم يمكنه تراسى أطرافها، وما يحمله له أغلب أهلها الهندكة من كراهية وعداء، من إحكام قبضته فى الواقع عليها وثبتت أقدامه بها. هذا فضلاً عما استنزفته حروبها من أموال طائلة حتى عجزت الدولة لولخر أيامه عن الوفاء بمقرارات الجند^(١).

لقد أراد أورنكزيب أن يجعل من جنوب الهند إمارة تابعة له يجرى حكمها على غرار حكومة البنغال أو البنجاب، فتتضمن هذه السنين الطويلة مقيماً، فى الغالب، هناك حتى نهاية صره، فلم يبلغ إلى تحقيق هدفه على الوجه الذى ابتغاه ذلك أن قواده لم يكونوا من طراز أولئك الرجال الأشداء نوى الجاد، الذين ساروا مع جده الأكبر باهر ففتح بهم الهندستان وكسريهم شوكة الرلجپوتيين، إذ كان كل واحد منهم يحرص أشد الحرص وهو فى حملات النكن على توفير أسباب الرفاهية والأبهة لنفسه على أكمل وجه وكأنه لا يزال يقيم بالعاصمة فى قصره ومن حوله نسائه وجواريه. هذا كما كان الرلجپوتيون بدورهم قد تطلوا عنه، وهم الذين طامعوا حاونوا ألباته فى حروبهم من قبل. فلو كان قد أتيح لأورنكزيب رجال من أولئك وهؤلاء لاستطاع، أغلب الظن، القضاء التام على المراهتا فى يسر، وثبتت أقدامه فى الهند كلها، ولجنب الدولة بالتالى الأخطار الثقيلة التى تعرضت لها فيما بعد على أيدي المراهتا والمسل^(٢).

هذا وقد حاول رام داس أن يلم شعث المراهتا من جديد، بعد أن كتبت له السلامة من الأسر، فلم يحالفه التوفيق، حتى حاصرت قوات الدولة آخر الأمر فى حصن متنا إلى الجنوب من بونا. واستسلم أصحاب الحصن لأعدائهم بعد موت

(1) Dunbar 279.

(2) Lane-Poole. 401,2.

أميرهم، وقد تعرضتهم من بعد ذلك لتوربي أرملة هذا الراجا قتلت عصاباتهم في عزم أسلاكها وحككتهم. وحين سار لورنكزيب إلى أحمد آباد عام ١١١٧هـ/١٧٠٥م، مضوا في أثره يخربون أراضي الدكن حتى مشارف مالوه، فبلغ ما هلك من السكان على أيديهم هناك، وما قضى عليهم القحط بسبب انحباس الأمطار قبل ذلك بسنوات، بضعة ملايين.

لم ينقض عام على لورنكزيب بأحمد آباد حتى بلغ به المرض والشيخوخة مبلغه فأيقن بخلو أجله. هنالك فرق أبناءه في أنحاء الدولة مخافة أن يقع بينهم ما وقع بينه وبين إخوته من قبل من تطلعن وقتن، فبعث بأعظم إلى بيجابور وكام بخش، أحب أبنائه إليه، إلى مالوه.

وكان لورنكزيب منذ أول عهده على حذر تام من أبنائه حتى لم يتردد في إلقاء ابنه الأكبر سلطان في الحبس حتى مات، كما سجن ابنه، معظم سنوات ثمانية حين بلغه خبر تفاوضه مع سلطان بيجابور، أثناء حرب الدكن، دون تصريح منه. وفعل مثل ذلك مع ابنه كام بخش وكان أقرب أولاده إليه. بل إنه لم يتردد كذلك في عقاب ابنته زيب النساء، وكانت شاعرة موهوبة، لمطفاها على أخيها أكبر حتى وافاها أجلها في الحبس^(١).

وحين اشتد به الداء أوصى رجاله أن يقيموا له جنازة بسيطة عند وفاته، ويمرعوها بنفقه في أقرب مقابر المسلمين، ولا يزينوا في ثمن كنفه على خمس روبيات كان قد كسبها من صنع الطواقي وبيعها، وأن يتصدقوا على الفقراء بثلاثمائة من الروبيات كانت هي كل ما يملكه وما تبقى له من دخله من نسخة القرآن الكريم وبيعه.

وافضت روحه يوم جمعه، على مساء، في الثامن والعشرين من ذي القعدة عام ١١١٨هـ/١٧٠٧م وهو في التسعين من عمره فورى التراب في مقبرة دولت آباد^(٢).

(1) Muslim Rule 652.

(٢) مرآة علم ١٦١

شخصية أورنكزيب : وقت أورنكزيب عالمكير حياته كلها على إعلاء شأن السنة ونشر لواء الإسلام خفاقا عاليا، ومجاهدة عبادة الأوثان والخارجين على إجماع أهل السنة من أصحاب المذهب الشيعي وغيرهم. وقضى أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقي يحفظ القرآن ويصوم أغلب أيامه، حتى كان لا يتردد، وأعطى المعارك تدور من حوله، في أن ينزل عن دابته فيؤدي الصلاة في وقتها باطمئنان بالغ وخشوع وكأنه يقيمها بالمسجد الجامع أو في داره^(١).

ويبلغ من ورعه وتجنبه للترف والمتع، إلى جانب تحريمه التام للخمر والميسر، أن أبعد الموسيقيين والمطربين عن بلاطه برغم براعته في العزف^(٢)، وخير الرقصات بين الزوج أو النفي في الأرض. كما طوى قلبه على الرحمة البالغة برعاياه حتى بعد كل البعد عن القسوة والقتل، وكاد يستغنى عن اصطلاح العقاب في محكمة المجرمين إلا قطع الطرق منهم^(٣).

هذا فضلاً عما شهر به من تجمل بالصبر ومحوه النفس في المحن، والتواضع الشديد الذي أدى به إلى تهديد نائبه بالبنغال حين بلغه أنه يتعالى عن الناس في مجلسه حتى اتخذ له ما يشبه العرش ليترفع عليه^(٤).

ولقد نشأ منذ شبابه على التمرس بالحكم والاضطلاع بالحرب ووقائعها، فأصاب نجاحاً كبيراً في حكم الدكن وحروبه، كما ذاع صيته كذلك في معاركه بالبحر وبداخلان مع الأوزبك وغيرهم.

ولنت به رقبته لضميره في كافة ما كان يصدر عنه من أعمال أنه كان لا ينال إلا ساعات قليلة، لينفق وقته كله في الإشراف على كل كبيرة وصغيرة من

(١) يروي أن الموسيقيين حلوا عندئذ النعوش مولولين والسلطان في طريقه إلى المسجد، فحين استقر عن أمرهم فاجأوه في طريقهم لدفن الموسيقى، طلب إليهم أن يحسنوا دفنها حتى لا تعود إلى الحياة ثانية.

(2) Lane-Poole. 353.

(3) Lane-Poole. 401,2.

(4) Muslim Rule 635.

شئون الدولة بنفسه، ويسهر في دأب متواصل على مصالح رعاياه، ويبت في كل مسائلهم برأيه الخاص، حتى كان وزراؤه في الغالب مجرد كتاب لتنفيذ أوامره.

ويبلغ من حرصه على تحقيق العدل إرعاياه أنه أصدر أوامره المشددة لقضاته في كافة أنحاء البلاد بأن يتولوا على دراسة قضايا الناس ومشاكلهم، مع سرعة الفصل فيها بالجلوس للقضاء خمسة أيام في كل أسبوع بدلاً من يومين على الرسم السابق.

على أن غياب الطويل بالجانب وهو يدير دفة الممارك هناك، قد أدى إلى تسرب الفساد إلى جهاز الحكم وسلوك أغلب العمال طريق العنف مع الأميين.

ولم يلبس أورنكزيب إلا بعبط الثياب، ولم يكن يسمح لأحد أبداً أن يغتاب غيره في حضرة. وأدى به ورعه وزهده إلى أن كف يده عن بيت المال في الغالب، فعاش على ما كان يكتسبه من صنع الطوالى بنفسه ونسخه للقرآن الكريم بخطى لشكست (الرقعة) والتستعليق، وكان في كتابته ذوق فني رفيع، وكان يبعث ببعض هذه النسخ هدية منه إلى الحرمين الشريفين. وقد كان من أملائه أن يحج إلى البيت الحرام أولاً ما خافه من اضطراب أمور الهند في غيبته، فأخذ على عاتقه تيسير سبل الحج لرعاياه.

ولم يشتغل أورنكزيب في حياته بغير علوم القرآن والسنة في الغالب، طمى تمكنه من الأدب الفارسية وبراعته في النظم الذي عدل عنه حذر الغولية.

وآلف بأمره وإشرافه موسوعة مهمة تجمل أقوال أئمة الفقه الحنفى في المذهب، وهي المعروفة بالفتاوى الهندية أو العلمكورية^(١).

على أن أورنكزيب كان يرى لصطناع الخداع في السياسة أمراً واجباً وأنه لا خير على الحاكم من نشر شبكة من عيون الناس لتأنيبه بأخبارهم وتنبهه بأحوالهم. كذلك لم يكن يربداً من أن يصطلع السلطان الرحمة والشفقة مع أعداء

(١) طبعت هذه الفتاوى بمصر عام ١١٨٢هـ أي بعد مئتي قرن ونصف القرن على وفاة أورنكزيب وهي من المراجع الشرعية المهمة في الأحوال الشخصية.

عقيدته الذين يناوئونه، فعصف لذلك بالمرهتها والراجوتيين والشيمة والسك حصفاً شديداً حين وقعوا في قبضته.

البريطانيون عند أورنكزيب : كان من أثر وقوف البريطانيين في وجه شيواجي زعيم المراهتها، حين أقدم على نهج سوارت، أن توقفت علاقتهم بأورنكزيب الذي قابل موقفهم من عدوه بتخفيض الرسوم التي كانت تفرض على وارداتهم.

وكان البريطانيون قد أقادوا، من قبل، من سحق شاهجهان على البرتغاليين وتميمه لمراكزهم عند هوجلي، فحصلوا على إذن لهم منه بإقامة وكالة لهم هناك، لتخضع من بعد ذلك كل وكالاتهم الهندية لإشراف موحد مركزه في سوارت.

وامتد نفوذهم التجاري من بعد ذلك إلى بمباي بالساحل الغربي، حتى إذا ما عارضوا شايسته خان حكم البنغال فيما فرضه عليهم من رسوم جديدة، على خلاف اتفاقهم السابق من شاهجان، فسدوا إلى مناهضة الدولة، حترتهم قوات أورنكزيب عند كل مراكزهم، فضاعت منهم مصالحهم عند هوجلي وشوابيانات، وحرموا حرماناً تاماً من ممارستهم لنشاطهم التجاري في أراضي الدولة من بعد ذلك.

على أن ما كانت تجنيه الدولة منهم من رسوم كثيرة، أغرت أورنكزيب بالعمو عنهم، فجاءوا من جديد ليقيموا لهم بأبنى هوجلي محلة جديدة بالقرب من قرية صغيرة تدعى ككتا. وما غدت هذه القرية تنسج في تدرج سريع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل أن ينتقل نائب الملك إلى دهلي الجديدة.

ووجد البريطانيون من بعد ذلك جهودهم ونشاطهم التجاري عند الساحلين الشرقي والغربي في شركة الهند الشرقية، ودأبوا قرابة نصف قرن على التظاهر، في حرص تام، بالتباعد عن التدخل في شئون الدولة.

ولم يكن يجرول بخاطر أورنكزيب عالمكير أنه يتسامحه مع هذه العصبية إنما يمهّد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا من سلوك أخط السبل وأداتها حتى تم لهم استعمار شبه القارة الهندية كلها.

خلفاء أورنكزيب

يتهم بعض المؤرخين أورنكزيب عالمكير بأن عدوله عن سياسة سلفه العظيم جلال الدين أكبر في تقريب الهنداكة إليه وفتح باب مناصب الدولة الكبرى لهم قد أدى إلى شيوع الفتن بينهم وجنوحهم إلى الثورات في مختلف أنحاء البلاد مما عجل بنهاية الدولة المغولية. في حين يرى مؤرخون آخرون، أن تقريب السلاطين السالطين للهنداكة وإصهارهم إليهم وحضهم المسلمين على الامتزاج بهم كان هو العامل الأول في زلزلة بناء هذه الدولة.

وفي هذين القوتين متسع البحث : فأورنكزيب في تمسكه بتعاليم السنة واتصره وظائف الدولة الكبرى على المسلمين لم يكن إلا ضرباً لمحمود الغزنوي ومحمد الغوري اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامي بالهند. وسلاطين المغول وغيرهم من حكام المسلمين بالهند، حين حضوا الناس على الإصهار إلى الهنداكة ومخالطتهم، إنما كانوا يغيثون من وراء ذلك إلى تآلف أفراد شعوبهم. وهو أمر علون على ازدياد عدد المسلمين زيادة بالغة بالهند. حتى لئلا يرى أن الغالبية الغالبة من المائة مليون مسلم في شبه القارة الهندية اليوم هي من أصول هندوكية.

ولاحجة الدلالة على خطأ القول بأن اختلاط المسلمين بالهنداكة وإصهارهم إليهم أدى إلى ضياع دولتهم بالهند، هي أن أورنكزيب نفسه أمه هندوكية خالصة، وهو الذي خضعت لولاية المسلمين في عهده شبه القارة الهندية، والذي عرف بتمسكه بالبالغ بشعائر الإسلام وسننه. وقد شهد قادة المؤرخين، وفيهم من الهنداكة، بحزمه وشجاعته وعلو همته وأصلاته رأيه، وقالوا بأن الهند لم تعرف منذ أيام سكندر لودهي، سميلاً له في حب العدل والسير على مصالح الناس. ولئن كان هو آخر السلاطين المغول الكبار زمناً فهو يعد من بين أعظمهم وأقدرهم على كل حال.

وغاية القول أن تدهور الدولة للمغولية لا يرجع إلى سياسة أورنكزيب أو سياسة أسلافه نحو الهنداكة، وإنما يرد إلى ما كان عليه خلفاء أورنكزيب من الضعف حتى عجزوا عن إدارة دفة الحكم في بلادهم التي بلغ أيوم يرتفعها إلى ما لم تبلغه، حتى أيام أكبر، من السعة وتراعى الأطراف وتمكن بما أوتي من حزم

وقوة شكيمة، من السيطرة على إدارتها سيطرة تامة، اللهم إلا في أغريات أيامه حين خذلته الشيخوخة وأضناه المرض.

هذا ؛ كما انصرف كثير من رجالهم بدورهم إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة فحصب، حتى سعى فريق منهم إلى الاستقلال بما بأيديه من ولايات غير أبيه بالأخطار التي طغقت تهدد كيان الدولة في الداخل على يدي المرتكها والسك والراجبوتيين، مما أدى إلى تيسير غزو الفرس والأفغان لها مرات متتابة من بعد ذلك، فزلزل بناء الدولة على أيديهم زلزالاً شديداً مهد الأرض لأولئك المستعمرين الأوربيين الذين بلغوا، بقصور السلاطين السابقين عن إدراك نواياهم، إلى تثبيت أقدامهم في أماكن عديدة بالشواطئ الهندية بما حصلوا عليه من امتيازات ورخص، ثم انطلقوا من بعد ذلك يحصنون مواقعهم بجندهم المدرب والأسلحة الحديثة التي لم يكن لها عند الدولة المغولية نظير، حتى أفلح البريطانيون منهم، بالقوة حياء، وبالنس والواقعة والغدر أغلب الأحيان، في أن يضعوا أيديهم على شبه القارة الهندية كلها.

بهار شاه :

لم يجد فتيلاً حرص لورنكزيب على أن لا تتكرر بين بنيته مأساته مع إخوته في تنازعهم على الملك. فهو حين فرق أبناءه في الأرض قبل وفاته، ولم يعهد لأحد منهم بالملك من بعده حتى لا يتآمروا عليه في حياته فينتهي به الحال إلى ما انتهى إليه أبوه شاهجهان من مصير ألوم على يديه، إنما أدى بإجراءاته هذا إلى تأجيل الفتنة إلى ما بعد اقتضاء أجله فحصب، دون اقتلاع أصولها.

فلم يكد يوسد الثرى حتى قامت الحروب بين أبنائه، وقد هدف كل واحد منهم إلى استخلاص عرش الهند لنفسه، فعادى أعظم بنفسه سلطاناً بمالوه وكذلك فصل أخوه كام بخش بيبجاور، في حين زحف شاه عالم بهادر أكبر أبناء لورنكزيب من بشاور إلى البنجاب حتى بلغ دلهي، لينطلق إلى قتال أخويه من بعد ذلك فيقتضى على أعظم بعد أن بلغت قواته مشارف آكرا، ويوقع كام بخش في أسره على

مقربة من حيدر آباد الدكن بعد ذلك بعامين، وقد رفض الأسير في عناد أن يعالج من جروحه حتى قضى بدوره^(١).

هناك عهد بهادرشاه بالوزارة إلى بخشي منعم خان الذي كان له خير معين لبلوغه العرش لواجه بعد ذلك ثورات المرهتا في الدكن والراجبوتيين في منازلهم ثم السك في البنجاب والجات عند مشارف أكرا. وإلى جانب هؤلاء جميعا كان البريطانيون قد أخذ خطرهم يتفاقم في أغلب مراكزهم وعند العشوائى الشرقية بخاصة، وكان أغلب القادة قد بعث السلم والضجر في نفوسهم حروب أوركنزيب السابقة الطويلة وبات الجند أنفسهم بسببها في حالة الإثهاك الشديد الذى أدى إلى سريان الفوضى في صفوفهم، كما نتج عن اتصاع رقعة الدولة، وضعف رقابتها على عمالها منذ أواخر عهد السلطان السابق، أن شرع فريق من الولاة بدوره يتعاص عن شد أزر الدولة ومدها بقوته في انتظار للفرصة المواتية للاستقلال بما بيده من أرضين.

الراجبوتيون والسك : لم يمهل الراجبوتيون السلطان الجديد وهو فى حريه مع أخوته حتى انحدر لجيت سنغ بن جسوانت من مكنمه بالجال فانتلف وأمر سنغ صاحب أوديبور لينطلقا من بعد ذلك إلى جدهور فيطردا عمال الدولة منها ويعملا التخريب فى مساجدها ويتخذوا منها معابد لأوثانهم، ويذبحا المسلمين الخسف والذل بأرضها.

واتيح لبهادرشاه، بعد أن فرغ من أمر أخيه أعظم، أن يلزم هاذين الأميرين طاعته من جديد، ليعودا إلى سيرتهما الأولى من البغى بعد قليل وهو فى شغل عنهم بحريه مع ثائى إخوته كام بخش بالدكن. حتى إذا ما عاد إليهما ثانية بعد القضاء على قتلة الوراثة، دفعه حسن تدبيره إلى مهانة الراجبوتيين جميعا فى لوديبور وجدهور وجايبور، فاعترف لهم بالرسم الذى كان لأبائهم أيام جده أكبر، كسبا لمودتهم، حتى يصرف مطمئنا إلى حرب السك الذين جنحوا إلى الثورة فى البنجاب من جديد^(٢).

(١) منتخب الباب ٣٩٩ - ٤٩٠

(2) Lane Poole 413.41.

ذلك أن أحد البطالانيين الأفغان اغتال بالدكن كوفند منغ، عاشر زعماء هذه الطائفة، الذي كان قد وقع في أسر أورنكزيب ثم التحق من بعد ذلك بخدمة بهادرشاه فسار معه في حرب كام بخش بالدكن. وحين بلغ خبر مقتله البنجاب من بعد ذلك انطلق خليفته بندا شعل الحماس بين بني جلدته وحرضهم على الانتقام لزعيمهم المقتول، فسقط بهم على سر هند فقتل حاكمها لينتشر رجاله من بعد ذلك في البنجاب الشرقي فوشيعون فيه الخراب والدمار والقتل، فلم ينج من سيوفهم الأطفال أو النساء والشيوخ ولم يقتنعوا بذلك كله حتى امتد طغيانهم إلى لاهور وكادوا يلغون بقتلهم مشارف دهلí. لولا أن سارع إليهم السلطان فردتهم قواته إلى تلال جامو. ولم يمنع جند الدولة عن مطاردتهم وتشكيك شملهم إلا وفاة بهادرشاه بلاهور عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م وهو في السبعين من عمره بعد أن حكم أربع سنوات وشهرين ساعد فيها أحوال الدولة المالية حتى اضطر القائمون على أمورهما إلى اقتراض الأموال من بعض أمراتها لسد العجز في الخزنة.

وكان من حسن تكبير هذا السلطان حين أطلق سراح شاهو، حفيد شيراجي، أن ركن المهرتها في عهده إلى الهدوء حتى صحبه في حربه مع أخيه بالدكن، فيما سندها، أحد كبار صدورهم.

ولئن كان المهرتها قد تفرقوا عقب موت أورنكزيب شيئا وأحزباء، حتى ابتعدوا عن تحقيق أهداف شيراجي وشبهوجي في إقامة دولة موحدة كبيرة لهم، فإنهم لم يعدوا أبدا عما عرفوا به من الميل إلى التخریب والتكمير ما أتاحت لهم الفرصة بذلك.

جهاددار :

تقاتل أبناء بهادرشاه الأربعة على العرش، بعد موت أبيهم، على العادة الغالبة عند الأمراء التيموريين بالهند. ولقد كاد الحال يستقر بينهم، بادئ الأمر، على يقتسموا ملك أبيهم فيما بينهم فيكون لجهانشاه الدكن ولرفيع الشأن الملكان، وتناه وكشمير، على أن يقتسم جهاددار وعظيم الشأن بقية الأرض فيما بينهما، لولا أن

تنازعوا من جديد على الأموال ليبلغ ذو الفقار خان يدهاته إلى إثارة جهانداد ورفوع
الشان وجهانشاه، مجتمعين، على أخيهما عظيم الشان.

واتسع نطاق الفتنة بين الأخوة جميعاً حتى سقط فيها ثلاثة منهم، ليرقى
العرش من بعد ذلك جهانداد فينصرف إلى اللهو والمتعة، ويبعد عن بلاطه للرجال
المجربين والطغماء، حتى زحف إليه محمد فرخ سير، ابن أخيه عظيم الشان، من
بتنا، وكان قد استقل بها على أثر مقتل أبيه ثم مد سلطانه إلى البنغال، فالتف حوله
عمال الدولة هناك لعدله وشجاعته، فأُزيل بقوات الدولة على كثرتها، ضربات
متلاحقة حتى دخل أكرّا فانطلق منها إلى دهلي فوجد صه بقلعتها، فأورده الردي
ولما يمش عليه في الحكم أحد عشر شهراً^(١).

فرخ سير :

جلس فرخ سير على عرش دهلي في المحرم من عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م
بعد أن طاف موكبه المدينة، والقوة تتقدمه وعليها جثتا صه جهانداد ووزيره ذي
الفقار، فاتخذ له وزيرين أخوين يتسميان إلى أشرف العرب هما السيد عبد الله خان
والسيد علي خان، لينصبا من بعد ذلك على عبد الله ميرجملة معتمد الملك ما حياه به
المسلطان من نفوذ واسع حتى اتخذ مشيراً له وأطلق يده في تصريف شؤون الدولة
كلها، فما زالوا يوقعان به عند السلطان حتى أبعد آخر الأمر إلى بتنا وانفرد بالأمر
كله. وقد نجم عن تناقض الخصمين وما كانا يحكيانه من التآمر والفساد إلى هلاك
كثير من الأتقى ظلماً^(٢).

السك والمرهتها :

ونزع السك عام ١١٢٦هـ/١٧١٤م، إلى الفتنة من جديد، وكان زعيمهم بندا
قد وحد صفوفهم بعد أن أقاموا لهم معقلاً قوياً بجود اسبور بالبنجاب، ثم انطلق بهم
إلى أراضي هذا الأقليم الشمالية فانهيروها وسيطروا على كافة الأراضي الواقعة بين

(١) منتخب التلخيص ٤٣٨

(٢) المصدر السابق.

لاهور و سرهند. حتى بعث السلطان إليهم بكتابه عيد الصمد دارجته فخاص معهم وقائع عذبة، فلم يفلح في إرغامهم على الخضوع والتسليم بعد أن ارتدوا إلى حصونهم إلا حين شاعت فيهم المجاعة بفعل الحصار المحكم الذي ضربه عليهم.

وسيق غورو بندا وألوف من أتباعه إلى العاصمة أسارى، ليقتل منهم في كل يوم بضع مئات حتى قتلوا عن آخرهم. وما غدا زعيمهم أن لحق بهم بعد أن شهد ذبح ابنه، أمام عينيه، انتقاماً لمن ذبحهم من أبناء المسلمين في البنجاب^(١).

وكان من أثر هذا العقاب الرهيب أن ركن السك إلى السلم بضع سنين.

هذا وكان قليج خان نظام الملك بهادر فتح جنك، مؤسس بيت النظام في حيدر آباد، حين ولاه السلطان شتون النكن قد حد في كبح جماح المرهتها الذين انطلقوا يفرضون على التجار والسكان ريع المكوس المقررة عليهم نظير عدم تعرض عصاباتهم لهم. حتى إذا ما استدعى هذا الأمير إلى البلاط ليحل محله هناك الوزير حسين على خان بعد أن غضب السلطان عليه، أدى بهذا الأخير انصرافه إلى مشاحناته وخلقه مع السلطان إلى مهادنة المرهتها على أن يجعل لهم أكثر من ثلث خراج النكن كله.

وضاق فرخ سير آخر الأمر ذرعاً بنفوذه وزيده الآخر عهد الله خان، فغبر وبعض رجاله خطتهم على الخلاص منه، لكن عبد الله أفسد تكبيرهم بحذره، حتى قدم أخوه العاصمة في قوة من المرهتها فأطبقتوا جميعاً على السلطان في قصره وألقوه في أسره ثم سملوا عينيه، وقضوا عليه شنقاً بعد ذلك بقليل بعد أن حكم ست سنوات وبضعة أشهر.

رفع الدرجات :

هناك اجلس الوزيران على عرش دهلې لبا للبركات رفع الدرجات في حين نادى خصومهم بنيكوسير، أحد أحفاد أوتكزيب، أميراً عليهم بأكر.

(١) منتخب للباب ٤٥٨

ووافق رفع الدرجات أجله بعد أشهر ستة من حكمه قضاهما على فرائض المرض ليخلفه رفع الدولة شاهجهان الثاني فمسير سيرته في الاستسلام في كل شيء إلى وزيريه والخضوع التام لرايها. وقد قوى من نفوذها استمادتهما لأكرا ووقوع أميرها نيكوسير في أسرهما.

محمد شاه :

قضى شاهجهان الثاني بدوره بعد حكم لم يبلغ شهراً ثلاثة، فأتى الوزير جيد الله خان بابنه محمد روشن اختر وأجلسه على العرش في ذي القعدة من عام ١١٣١هـ/ ١٧١٩م باسم محمد شاه ليحكم من بعد ذلك تسعاً وعشرين عاماً ويشهد تفكك الدولة وانهيارها على يديه لاحتلال السلطان الجديد بدوره على التخلّص من استبداد وزيريه الآخرين به، حتى إذا ما تم له القضاء عليهما، استدعى إليه أصف جاه نظام الملك فاتخذ وزيراً له. لكن سلوك العصبة العاقبة، التي غدا السلطان يتقاد بالباطل لمشورتها ما لبث أن دفعه إلى ترك العاصمة بعد قول إلى اللكن حيث أمكن له أن يثبت قدمه بإمارة حيدر آباد الحالية بعد أن هزم قوات الدولة التي ولدت لقتاله، حتى أقره محمد شاه آخر الأمر عليها وأطلق يده في شئون اللكن^(١).

ولم يكن نظام حيدر آباد هو أول أمير استقل بإمارته استقلالاً فعلياً لا ينال منه اعترافه الاسمي بسيادة السلطان. إذا الواقع أن نفوذ الدولة وسيطرتها على كثير من ولاياتها كان قد غدا، بعد وفاة أورنگزيب بوضع مثنين، يأخذ طريقه إلى التلاشي. فقد استقل كذلك بما بأيديه من أرضين مرشقلتي خان نائب السلطان على البنغال وأوريسه وبهار، أخنى أقليم الهند، فتوارث أولاده ملكه من بعده، وحنذا حذوه كذلك سعادت خان وأبنائه بإقليم أوده.

ولئن عمد نظام الملك في إمارته الجديدة إلى إجراء الخطبة وضرب السكة باسمه، فقد ظل سنين كثيرة على ولائه للدولة فساندا في كثير من المواقف بإخلاص.

(١) تاريخ هندي ٤٤ - ٤٥

وهكذا زال كل سلطان للدولة على الأراضي التي تقع إلى الجنوب من نهر نريدا بقيام إمارة حيدر آباد الدكنية، ومن حولها الممرتها الذين توصلوا لتمكين نفوذهم وأقدامهم بما أقرته الدولة لهم من نصيب خراج الدكن، ضموا به موردا كبيرا لهم.

المراهتها :

لدى فتور همة شامو أمير الممرتها إلى انقراط عقد دولتهم، فراح كل زعيم من كبارهم يعمل لحسابه الخاص، وقد نبذوا جميعا الحرص على وحدة الدولة التي حصل لها شبيهو جي وشيواجي من قبل وتجردوا للسلب والنهب والتخريب، ومسلحتهم السابقة وغايتهم من قبل.

وامتد نفوذ عصاباتهم إلى البحر، فقاد قبائلهم تولا جي قراصنتهم عند الشواطئ الشرقية والمغرب، فظل البريطانيون يرهبونهم هناك حتى تم لهم القضاء على كل نشاط بحري لهم في الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادي^(١).

لقد كان على الممرتها أن يمسكوا بعصابتهم عن إثارة الاضطرابات بجنوب الهند نظير ما ترصده الدولة لهم من نصيب في خراج الدكن. حتى إذا ما علنوا إلى سيرتهم الأولى من اللبغى والعدوان، فحاول نظام حيدر آباد أن يقتحم قصبتههم القديمة بونا بقواته، رد عنها رداً عقيقاً. وشرع أصحابها يطاردونه حتى تعرضت حاضرتهم نفسها لخطر هجومهم عليها، فلم يجد آخر الأمر ملدوحة من خطب ود البيشوا^(٢) وزرائهم الأكوياء الذين كان بيدهم مقاليد القملية لإدارة الدولة، فهادنهم على ألا يتعرض لهم إذا ما ساروا إلى أراضي الدولة في الشمال بعيداً عن أملاكه، وفي خاطره أنه بخطته هذه سيدفعهم إلى مناهضة الراجيوتيين أعدائه وأعداء الدولة على السواء.

(١) Dandekar. 297.

(٢) البيشوا هو الزعيم.

ولو كان المرهتها قد انتقلوا مع هؤلاء الراجيوتيين على الدولة بدلاً من اجتياح أراضيهم، مغيرين، طلباً للثمن الذى صار كل غايةهم فى حروبهم فى الغالب، لكتفوا لأنفسهم نفوذاً أوسع مدى ومغالباً أضخم قدراً بالهند دون شبهة.

على أنهم لم يكادوا يبلغوا مآلوه ثم يظهروا من بعد ذلك عند مشارف دهلى، حتى استنجد محمد شاه بنظام الملك، الذى طمع بخروجه إلى حريمهم فى أن يقضى على خطرهم المتزايد، حتى إذا ما دحرت قوات السلطان وأمير حيدر آباد مجتمعه عند بهوپال، نشر راجي راول الزعيم المرهتهى نفوذه وسلطانه على كافة الأراضي التى تمتد فيما بين نريدا وسنڤيل بما فيها مآلوه.

الغزو الفارسي :

لعبت على الهند كارثة مروعة فى ركاب نادرشاه، صاحب فارس، كانت أشد وطأة على الدولة وأبعد أثراً من الغزو التيمورى الذى تعرضت له البلاد قبل ذلك بثلاثة قرون ونصف القرن.

ذلك أن هذا العاهل القدير، وكل من أسرة تركمانية رفيقة الحال فى خراسان، توصل بجده وطوحوه ودهاته إلى الجلوس على عرش الصفويين ب إيران، أبتجه من بعد ذلك إلى توسيع ملكه حتى دالت له كافة الأراضي الواقعة فيما بين بحر الخزر وقندهار. وما لبث بعد ذلك أن استحوذ على إقليم كابل، وكان لا يزال بأيدى أصحاب دهلى، ثم انحدر إلى البنجاب فنشر الخراب والدمار فيه كله، بعد أن دخل لاهور فى شوال من عام ١١٥١هـ / ١٧٣٩م.

ولقد أصمت حكومة دهلى أنذيتها حين استغاث بها عاملها على البنجاب لدى مقدم نادرشاه إلى أراضيها^(١)، فلم تنتبه من غفلتها إلا بعد أن كان الفرس قد توغلوا فى البنجاب واقتحموا قصبتها. ومع هذا فقد أضاع السلطان المغولى ورجاله كثيراً من الوقت فى نقاش عقيم غلبوا فيه أحقادهم على مصلحة الدولة، حتى انتهوا إلى

(١) تتكررة لتتدرج مخلص ٧٧

استبعاد إسناد قيادة الحملة إلى نظام الملك أمير حيدر آباد الذى كان قد قدم للخدمة السلطان ببعض قواته، حذر الشائعات التى زعموها بتواطئه مع شاه القرس^(١).

واستجد السلطان كذلك بالراجبوتيين والمرهتيا ؛ فلما الأولون ظلم يعسروا دعوته التفاتاً، وأما الآخرون فقد أثروا أن يصرفوا إلى تأمين حدودهم، فأكلموا لهم خطوطاً دفاعية حصينة على طول نهر نريدا وكنوا من ورائها.

وانتفى الغزاة بالملاحين حدد كرنال على حدود البنجاب فى معركة لم تستغرق سوى ساعات ثلاثة منى فيها السلطان بهزيمة منكرة استسلم على أثرها لندرشاه، ليندخل من بعد ذلك جند فارس مدينة دهلى فيحصلون فيها السلب والنهب والتدمير ويقتلون من أهلها ما يزيد على العشرين ألف نسمة.

ولم يرجع نادرشاه عن الهند إلا بعد أن اغتصب عرش الطالووس لنفسه، وأرغم محمد شاه، نظير إعلائته إلى عرشه، على التنازل له عن أرض كثيرة بالبنجاب تمتد من كشمير حتى ولاية السند، مع تعويضات مالية طائلة ومزيد من الجواهر والأحجار الكريمة جعلته، يتقاضى عن جمع الضرائب من سكان فارس لسنوات ثلاث^(٢). ولم ينس نادرشاه بدوره أن يسلك فى ركابه قسراً فريقاً من مسهرة الغنائمين ورجال المعسكر^(٣)، على غرار ما فعل محمود الغزنوى ويكمور من قبل.

ويضم نادرشاه بلاد الأفغان وقسم كبيراً من البنجاب إلى بلاده حرمت سبلطة دهلى من حدودها الطبيعية التى كانت تحمى سهولها، ومنع عنها موارد كثيرة كان مصدرها هذه الأقاليم الغنية، وانكمشت بالتالى إلى إمارة صغيرة لم يعد لها قبل المرهتها والسك الذين استشرى خطرهم وأخذوا يعيشون فى الأرض اسداً.

والواقع أن غزو نادرشاه كان لخطر على الدولة الإسلامية، بالهند من الغزو التيمورى وأبعد أثراً وأوخم عاقبة.

(١) تاريخ هندي ٦٠

(2) Dunbar 301.

(٣) سير المتأخرين ٢١٦ - ٢٠

ذلك أن الدولة الإسلامية، برغم تفككها عقب تخريبات تيمور، استطاعت على كل حال أن تستعيد سيرتها الأولى من القوة في أغلب إماراتها وأقاليمها الكبرى، إذ لم يكن لها بالبلاد أعداء يتربصون بها نظير المرهتا والسك، على الخصوص، الذين كانوا للدولة المغولية بالمرصاد، ومن ورائهم المستعمرون الأوروبيون، وعلى رأسهم البريطانيون، عند شواطئها يحدون المدة لايتلاخ أراضيها كلها.

الغزو الأفغاني :

ظل البنجاب بأيدي القرم اثني عشر عامًا حتى دخله عليهم أحمد أبدالي الدرائي، شاه الأفغاني، الذي نجح بعد مقتل نادرشاه في أن يوحد قبائل الأفغان بزعامته ويمد سلطانه حتى سيحون وشواطئ قزوين لينحدر من بعد ذلك إلى سهول الهند.

وأطلق محمد شاه سلطان الهند في رد الأفغان وأميرهم عن بلاده أول مرة عام ١١٦٠هـ/١٧٤٨م، حتى إذا ما وافته أجله في مستهل العام التالي، خلفه ابنه أحمد شاه ليوالجه ثورة قبائل أفغانية أخرى، هي الروهيلا إحدى بطون يوسفزي، عند كوج والدواب، فلم يتح لوزيره صفدر جنك نائب لوجه القضاء على فتنتهم إلا بعد أن استعان بالقائد المرهتي مولكر وكان إذ ذلك بمالوه^(١). وقد مهد السلطان المغولي باستماتته بالمرهتها إلى انتشار نفوذ هذه الطائفة حتى بلغ البنغال بعد أن شمل مالوه والكجرات.

وانتهت غزوات أحمد أبدالي المتكررة على الهند مع اشتغال الدولة، في ضعفها، بفتن الروهيلا المتعاقبة، إلى ضياع البنجاب واستيلاء الأفغان عليه.

عالمكير الثاني :

ما عدا الوزير غازي الدين نظام الملك أن تآمر على السلطان أحمد شاه لما كان من عهده هو وأمه له، فمزله وأجلس مكانه محمد بن جهاندل باسم عالمكير الثاني^(٢).

(١) تاريخ لحد شاهي ١١٧، ١١٨

(٢) تاريخ عالمكير ثلث ١٤٠ - ١٤٢

ونجم عن خلاف هذا الوزير صاحب حيدر آباد مع زعيم الروهила نجيب الدولة، أن بعث هذا الأخير أحمد أبداي شاه الأفغان يحرضه على الزحف إلى دهلئ نفسها، فاقحمها برجاله عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م وأُزيل بها وبأهلها أنصرا وأُفادحة ثم عاد إلى بلاده بعد أن ألقى بمقاليذ الأمور فيها إلى نجيب الدولة ونعصب ابنه الأصغر تيمور شاه نائباً له بالبنجاب.

ولم يكن نظام الملك ليرضى بقل يده عن تصريف الأمور في دهلئ، فما إن فشل في إقحام أوده والله آباد، وكان أصحابهما على صلة وثيقة بنجيب الدولة، حتى راح يستعين بالمرهتها، فحرضهم على مهاجمة قوات الشاه الأفغانئ في البنجاب، ونجيب الدولة في العاصمة وما حولها.

وأطلق القائد آئينه بك خان في أن يطرد قوات أحمد أبداي من البنجاب بمعونة المرهتها ويستخلص لنفسه من بعد ذلك لاهور وتتا والملتان لتتي خلقه الملك عليها فيما بعد. ولم يكتف غازی الدين نظام الملك بطرد نجيب الدولة من العاصمة التي باتت تحت رحمة المرهتها وقادتهم، حتى أوفد رجاله لقتلوا عالمكير الثاني وهو بحصن شاهجهان^(١).

على أن نجيب الدولة ما لبث بمعاونة خليفة شجاع الدولة بن صفدار جنك، أمير أوده، أن دفع المرهتها عن منازل الروهلا، ثم استنجد من بعد ذلك بالشاه الأفغانئ ليخلصه من نظام الملك لذلك وحلفائه الذين لم يكن له قبل بالقضاء التام عليه، حتى لبى أحمد أبداي نداءه ونجح في طرد المرهتها من البنجاب والشمال الهندي كله.

بحر المرهتها عند باقي بت :

على أن عصابات الدكن هذه مالبثت أن جمعت جموعها عقب أنصرا لم فصل الأمطار فصار لها ثلاثمائة ألف من الجند ومعها ثلاثمائة من مدافع المودان^(٢)

(١) عبرتله ٢٤١ - ٢٤٢

(٢) فرحة الناظر بن - ١٧٠

الثقيلة زحف بها لمرأواها، وسواها راو وسداسيوها وسنديا، إلى دهلئ ثم جاوزوها ليلتقوا من بعد ذلك بقوات الشاه الدرالى عند بانئ بت .

ولم يكن شاه الأفغان يدروء فى قوة تريد على الثمانين ألف مقاتل، ومدافعها لا تبلغ العشرين، ولم يكن رجاله على دراية بطرائق الحرب الحديثة التى أتبع لفريق من جند المرتها التدريب عليها بأيدئ الفرنسيين بمستعمراتهم للكنية . فأفادوا منها كثيراً فى حروبهم .

ونجح الأفغان آخر الأمر عام ١١٧٤هـ / ١٧٦١م فى قطع المون عن أمداتهم ليخوضوا معهم من بعد ذلك معركة عنيفة هدت من كياهم وصعصعت من نفوذهم بالهند . وبلغ من وقع فى الأسر من رجالهم مائتى ألف وفوجهم قاتدهم سنديا الذى قتل لوقتئ . ولم يقو زعيمهم اليشوا بالاجئ راو على تحمل هذه الصدمة حين بلغتئ أنباوا، وهو فى طريقئ بالإمدادات عبر نريدا، فارئت إلى بونا حيث قضئ نحبه هناك بعد شهر مست(١) .

البريطانيون فى البنغال وبهار : لم يكن المنتصر فى بانئ بت هذه المرة هو الذى قدر له أن يمسك بزمام الأمور فى الهند كلها كما قدر لظهير الدين بابر حين قضئ على السلطان إبراهيم الأودهى ولجلال الدين أكبر حين هزم الأمير الهندوكى هيون وجنوده من قبل، فقد اضطر أحمد ألدالى شاه الأفغان، بعد انتصاره الحاسم هناك، إلى أن يعود إلى بلاده حين ثار عليه جنده لتأخر مرتباتهم ولانتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة فيهم بالهند، ليميل ثقل الحنتان من بعد ذلك إلى ناحية الشرق حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد غدت توطد أقدامها فى البنغال وتحكم من خططها فى الجنوب الهندئ حتى تم لها القضاء على نفوذ الفرنسيين هناك، ولما يكن قد مضئ بعد أسبوع واحد على انتهاء معركة بانئ بت، لتبلغ من بعد ذلك بالتكريع إلى وضع يدها على شبه القارة الهندية كلها وتضمها فى قرن واحد من الزمان إلى أملاك التاج البريطانى .

(1) Duff Hist of the Marhattas VI PP 524-9.

ولقد وقعت أحداث بائي بت هذه وعرش دعلي خال بعد مقتل صاحبه عالمكير الثاني وفرار ابنه على جوهر من وجه غازي الدين نظام الملك، حيث لا بد بجلال الدين حيدر شجاع الملك نواب^(١) أوده في جلال آباد.

موقعة بلاسي :

عن لطي جوهر بن عالمكير الثاني وهو في أوده أن يغزو البنغال، وكان البريطانيون قد بسطوا نفوذهم عليه بعد أن تم لهم إخراج أميره سراج الدولة منه. وكان هذا الأمير قد انتزع كلكتا من أيديهم فلم يبلغوا إلى استردادها منه إلا بعد أن استمال كلايف، مدير شركتهم، القائد جعفر خان إليه برشوة قدرها ثلاثة ملايين من الروبيات^(٢) ضمنوا بها للنصر على الأمير المغولي ومعه سراج الدولة في معركة بلاسي، في شوال من عام ١١٧٠هـ/١٧٥٧م، تلك المعركة التي تعد أولى المعارك الحاسمة بين المستعمرين والدولة في الهند^(٣).

وكوفي جعفر خان على خيائته هذه بتتصيه حاكما على البنغال تحت وصاية الشركة البريطانية.

وما غدا الأمير المغولي أن بلغ بتنا في مائة ألف من الجند ومعه محمد قولي خان نائب ولاية آبه فالتقى مع ميران خان بن مير جعفر وأحلافه البريطانيين في حرب كاد يتم النصر فيها لجند الدولة لولا ما نجم عن نقص مؤنه عند انسحاب جملة من الأمراء من صفوفه، فملهم من آب إلى دياره ومنهم من استجاب لإغراء الأعداء فانضم إلى قواتهم، حتى اضطر الأمير إلى مهادنة خصمه بعد ما نزلت به الهزيمة^(٤).

(١) كلمة نواب هذه تعادل لفظ راجا أو أمير، فهي من لقب التشريف، ولا يستلزم أن يكون صاحبها من أرباب المناصب.

(2) Dumber 341.

(٣) تاريخ مظفرى ٣٢٥ - ٣٣٠

(٤) كان الأمير المغولي قد جعل من كلايف، مبعوث الشركة البريطانية وقائد قواتها. بعد معركة بلاسي، قائدا لخمسة آلاف من الفرسان، فحين طلب إليه الانضمام إلى قواته في محاربة مير

شاه عالم :

فى بتنا بلغ الأمير على جوهر خير وفاة أبيه فنادى بنفسه سلطاناً على الهند باسم شاه عالم واتخذ شجاع الدولة وزيراً له ثم أب إلى الله آباد فأقام بها.

وضاق البريطانيون زرعاً آخر الأمر بجعفر خان وخداعه، حتى إذا ما كثفوا عن تواطنه مع الهولنديين حين حاولوا إزال بعض قواتهم إلى البر ليحصوا بها مصالحهم التجارية فى شرق الهند، ظفوه بحجة تقديمه فى السن وربطوا له معاشاً ثم أقاموا مكانه زوج ابنته الأمير على قاسم.

وما لبث حاكم البنغال الجديد أن رفض بدوره أن يسير على هوى المستعمرين، حتى عارضهم فى رفع المكوس جملة عن بضائعهم، وكان الإعلاء فى الأصل وفقاً على ما يصل منها يرسم أعضاء جاليته الخاص، حتى وضع يده عنوة على يتلوا بها من مصانع لهم.

موقعة بكسر :

حين قدمت قوات المستعمرين من كلكتا فأطبقت على بتنا، اتخذ على قاسم، بعد هزيمته، سبيله إلى نواب أوده فلاتبه. وقد أوقع بهما البريطانيون عند بكسر أواخر عام ١١٧٧ هـ/ ١٧٦٤م ثم دخلوا الله آباد ولكتوا وجنار^(١).

وفى هذه الواقعة استسلم للبريطانيين شاه عالم فتنازلوا له عن الله آباد وما حولها وضموا له معاشاً سنوياً قدره مليونين ومستمائة ألف من الروبيات على أن يطلق أيديهم فى جميع الخراج بالبنغال وبهار وأوريسه^(٢)، وبعبارة أصح، على

جنر بالبنغال، بوصفه من قواده، اعتذر له بتخلفه مع أمير البنغال على رسم البريطانيين فى الدماء، والخداخ الاستماری. Dunbar 345.

ولم ترد قوات البريطانيين فى هذه الموقعة على أربعمائة وخمسين رجلاً مع ألفين وخمسمائة من أهل الهند، لكن أسلحتنا الحثيئة وحسن تربيها ودهانتها كفل لها النصر بطبيعة الحال.

(١) حديقة الأقاليم.

(2) Dunbar 354.

أن يعترف لهم في الواقع بسلطانهم على هذه الأقاليم. كذلك ردوا لشجاع الدولة
أغلب أراضيها على خمس ملايين من الروبيات يدفعها لهم.

المرهتها في دهملي :

لبث شاه عالم يقيم في الله آباد على وعود متكررة من البريطانيين بتوسيع
عودته إلى دهملي، ولكنهم لم يوفوا له بشيء منها أبداً.

هذا، وكان أحمد شاه أبداً قبل أن يعود إلى بلاده بعد انتصاره في باتي بت
قد اعترف بشاه عالم سلطاناً على الهند، على أن يعود بالوزارة إلى نظام الملك
ويشئون المال والخراج إلى نجيب الدولة، وفي خاطره أن هذا الوضع سيكفل لإقوال
أمرور الدولة هناك.

على أن نجيب الدولة تأتى له أبعاد خطر المرهتها ونظام الملك عنه، لينفرد
من بعد ذلك بسنوات تسعاً بشئون الحكم في دهملي والسلطان في منفاه
بالشرق. وتمكن هذا الزعيم الأفغاني خلال ذلك من القضاء على فتنة الملك، على
كثرة عددهم بالبنجاب، لكن تهديد الجات له وزعيمهم سورج مل ثم ابنه جواهر
منع من بعده أدى به إلى التفكير في الاستعانة بالمرهتها لدفع خطرهم عنه.

ولجم عن وفاة نجيب الدولة تخرج الحال في العاصمة، حتى بات الناس
يتوقعون سقوطها في أيدي المرهتها أو الملك بين يوم وآخر. هنالك حزم شاه عالم
أمره باتفاق مع المرهتها على أن يبادروا بدخول المدينة باسمه فوسلموها له من بعد
ذلك على أربعة ملايين من الروبيات يدفعها لهم في أوقات مرسومة. وبهذه الخطة
أنقذ السلطان على الأكل سكان المدينة من تعرضهم لمذابح الملك أو كانوا قد أتوحت
لهم الاستيلاء عليها^(١).

ومصادفت خطة شاه عالم هذه قدراً كبيراً من التفويق والتناجح ليكتشف - من
بعد ذلك ببضع سنين - أنه لم يتخلص من أيدي البريطانيين ويوفر منهم إلا ليقع في

(١) حافظ المرهتها دوماً على تقاليدهم حتى في أيام تفككهم فلم يترغوا قتل السكان الأمنين على
ما أشرنا إليه من قبل.

برائث المرتها. الذين ما غدا أن يسطوا نفوذهم على دهلى وما حولها وألقوا بمعاونة من ضباط من الفرنسيين فى دفع البريطانيين عنهم بعض الوقت حتى اجتاحت أراضيهم القائد البريطانى ولسلى ودخل دهلى عام ١٨٠٣م.

قد قدر أن يفقد من عون المرتها له، دون خطر كبير عليه منهم، بعد أن كسرت شوكتهم فى بلتى بت، فوحيق لنفسه بذلك الاستقلال الذى ينشده بعداً عن البريطانيين ونفوذهم. وهو بعد فى مقامه الجديد سيصير له من دخل الأراضى التابعة لدهلى ما يعوضه عما كان يدفعه البريطانيون له، ثم منعه عنه فيما بعد.

وهكذا سار شاه عالم إلى دهلى فتدخلها فى مستهل عام ١٨٥٠هـ/ ١٧٧٢م برغم معارضة أغلب أتباعه الذين كانوا يؤثرون البقاء بإقليم الله آباد أرغد عيشاً وأمن مقاماً. وقد وجد فى وزيره الفاروسى ميرزا نجف خان ذو القنار الدولة خير معين وحازم وناصح أمين طوال الاثنى عشر عاماً التى قضاهما فى منصبه حتى وفاته. فقد دفع هذا الوزير عن الدولة خطر السك بعد أن هزمهم واسترد منهم أكر، كما كسر شوكة الروهلا الأتفان بتحالفه مع البريطانيين وشجاع الدولة لوبل أوده عليهم، حتى أصبحت الدولة تمارس نفوذها ممارسة تامة فيما بين ستلج وسنبهل، كما استردت كراً من مهابتها السابقة التى غابت عنها سنين طويلة من قبل.

ولضى نجف خان، ليوذى القحط للشديد، الذى نزل بمنطقة دهلى من بعد ذلك عام ١٧٨٢م فأهلك ما يقرب من نصف السكان، إلى اضطراب اقتصاديات الدولة، حتى عجزت عن الإنفاق على الجيش القوى الذى أنشأه ذلك الوزير الحازم، فزاد به عن أراضيها طويلاً، فأنصرف عنه كثير من الأمراء والقادة إلى بلادهم.

وأدى تناقص رجال الدولة فيما بينهم إلى استجداد خلقه الوزير أتراسياب بمادهورجى سندھيا زعيم المرتها، بعد أن أخفق السلطان فى الاتفاق مع البريطانيين على مساعدتهم له وفق شروطه، ليجمع هذا الزعيم المرتهى من بعد ذلك مقاليد السلطة كلها فى يده بوصفه نائباً للسلطان، ويجعل من همت بهادر أحد رجاله وكيلاً مطلقاً بالدولة.

وتعرض سندهما لعدة ضربات في الراجبوتنا والدواب، كما لقتحم دهملى فى غيبته غلام قادر خليفة نجيب الدولة على الروهلا منتصف عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م وقبض على شاه عالم وسمل عينيه ثم نادى بابنه بدار بخت مكانه^(١).

وتم للزعيم المرهتمى آخر الأمر تثبيت أقدامه فى المنطقة كلها من جديد بفضل ضباطه الفرنسيين الذين آزرُوا ابنه دولت رلومن بعده كذلك، حتى دفع البريطانيون عن بلاده، ليقبلوا من جديد عام ١٨٠٣م يقودهم قائدهم ولسلى فيجتاحوا أراضى المرهتمى كلها ويتوضوا سلطانهم ويدخلوا دهملى.

(١) عبرتله ٢٤٧، ٤٨

الاحتلال البريطاني

طرد المنافسين :

أخذت بعوث البريطانيين التجارية تد إلى الهند منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي، ولم يثبط من عزيمة رجالها ما بذله البرتغاليون من جهود متواصلة عند سلاطين الدولة المغولية ليحولوا دون منافستهم لهم بهذه البلاد، وما لبث هؤلاء البريطانيون، بما اشتهر عنهم من لادهاء وسعة الحيلة، أن صرحت الدولة لهم بإقامة وكالات تجارية^(١) عند سوارت في الغرب وهو جلى في الشرق، ثم ما زالوا يتقربون من بعد ذلك إلى سلاطين الهند حتى عاينهم في حريمهم للبرتغاليين عند الشواطئ الشرقية، كما دفعوا المرهتها كذلك عن بعض الموانئ الهندية الغربية، ونال البريطانيون، إثر كل عون قدموه للسلاطين، مزيداً من الامتيازات حتى بلغوا من الثراء والقوة واتساع النفوذ ما مكنهم من شراء بمباى نفسها من البرتغاليين وتوسيع رقعة أراضيهم عند كالكتا ومد نفوذهم إلى مدراس وما يليها جنوباً.

ولم يطق البريطانيون بطبيعة الحال منافسة الفرنسيين لهم بعد ما كسروا شوكة البرتغاليين وأحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت أقدامهم عند بعض شواطئ الهند.

وكان الفرنسيون قد بلغوا بتدبير دويلكس، مدير الشركة الفرنسية الهندية، ودعايته، إلى مزيد من النفوذ في الدكن وجنوب الهند فقد استطاع هذا الداهية الفرنسي أن يدرج بعض جنود إمارة حيدر آباد الدكنية وفريقاً من قوات جنوب الهند على أساليب القتال الحديثة وخططه حتى صار الحاكم القملى لكافة الأراضي الواقعة إلى الجنوب من دكر كرشنا والموجه لدفة الحكم فيها من وراء ستار.

(١) كان لتجار الإنجليز يملكون كثيراً من المشقة في إخراج العملة النضمية من بلادهم ليدفعوا ثمن التوابل التي كانوا يشترونها من جزر الهند، حتى اهتدوا إلى إقبال تجار البهار على مملوجات الهند، فسموا بدورهم إلى إقامة وكالات تسير لهم بالهند. هذا كما كانوا يجلبون كذلك إلى الهند من بلادهم أدوات تعرف فيحصلوا نظيرها على ما يتنون من متعلات هذه البلاد بتقديرهم.

وحين نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠م وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانيين بأوروبا، باذر دويلكس إلى اجتياح مدراس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطئ الشرقية. وما لبث البريطانيون أن استردوا مراكزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب، إذ ألقوا، بدعائهم بالعاصمة الفرنسية، في حمل لويس الخامس عشر على استدعاء دويلكس وبهذا خلاصهم الجو حتى قضوا على كل نفوذ للفرنسيين بالهند وانتزعوا منهم كل أراضيهم إلا ميناء بندشيري وبعض أماكن أخرى صغيرة متفرقة بالهند.

واصطنع البريطانيون طرائق دويلكس الاستعمارية الفذة فانطلقوا يخضعون هذه البلاد الواسعة بهند من أبنائها وأموال من أموال أهلها.

وما لبث هؤلاء المستعمرون أن ثبثوا أقدامهم بالبنغال وأودع على أثر انتصارهم للحامض في معركة بلاسي وبكسر، واهزموا عام ١٧٦٦م معاهدة مع نظام حيدر آباد تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض أحد منهما للعدوان.

سلطان ميسور : هدف اتفلق البريطانيون ونظام حيدر آباد في الواقع إلى الحد من أطماع حيدر على أمير ميسور عند الجنوب الغربي من الهند. واضطر هذا الأمير بدوره إلى قبول مهادنة للشركة البريطانية آخر الأمر عام ١٧٦٨م وذلك بضغط من قواتها وقوات النظام. غير أن صاحب ميسور هذا ما لبث أن استولى عام ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م على كرناتيا كلها عند شاطئ كوروماندل. وخلفه ابنه تيبو قاشتبيك في حروب متواصلة مع البريطانيين عدة سنوات.

وما إن هادنوه عام ١٧٨٤م حتى عقد العزم على أن يبدأ بضرب المرتهما ونظام حيدر آباد ليتفرغ من بعد ذلك للبريطانيين ويخرجهم من جنوب الهند كله، وفي حسابيه أن فرنسا سوف تستجيب لاستجداءه بها. غير أن رسله عادوا من باريس وليس في جعبتهم سوى صبارات التشجيع والإغراء^(١).

(1) Moreland 319.

على أن أعداءه ما لبثوا أن اجتمعوا عليه آخر الأمر فحاصروه في
حاضرته سرنابام عام ١٧٩٢م، يقودهم كورنواليس قائد شركة الهند
البريطانية، حتى أرغموه على مهادنتهم وقبوله التنازل لهم عن نصف
أراضيها.

وقوت انتصارات نابليون بونابرت بأوروبا من عزيمة تيبو. وأصاب
الفرنسيون بدورهم قدرًا جديدًا من التوفيق بالهند كذلك، فاسترجعوا بعض نفوذهم
في حيدر آباد وعقدوا أواصر الصداقة مع أمير ميسور واضطلعوا بتنظيم جيوش
هاتين الإمارتين وتدريبها.

على أن القائد البريطاني ولزلي توصل بدهائه إلى القضاء على النفوذ
الفرنسي من جديد واسترجع أميرها إلى حظيرة الشركة. حتى إذا ما وجد من تيبو
الإصرار على تمسكه بالضباط الفرنسيين في جيشه وتحالفه مع فرنسا، سار إليه
من مدراس فالتحم عليه حاضرتة في قتال عنيف سقط فيه السلطان الميسوري وهو
يقاتل. وبهذا قضى البريطانيون على آخر أمير مسلم قوى وقف في وجههم بالهند
في إصرار وإيمان وعناد.

وأنجح البريطانيون بالتفريج بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب،
وعملوا على تأمين طريقهم إلى الهند فوضعوا أيديهم على جزيرة سيلان
عام ١٧٩٧م بعد أن كان الهولنديون يربطون في بعض شواطئها،
كما انتزعوا من الهولنديين كذلك رأس الرجاء الصالح بعد أن تم
لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر، تلك الحملة التي كان
نابليون يبغي بها الوصول إلى الهند وإخراجهم منها، وأحبطوا في الغالب
كل خطط الفرنسيين والروس بغوا من وراثتها عزلهم عن الهند
وانتزعها من أيديهم.

والتصرف البريطانيون من بعد ذلك إلى حرب المرعتها فاجتاحوا أراضيهم
ودخلوا دهل على الوجه الذي بيناه من قبل.

حرب المرتها :

أناد البريطانيون من شيوخ الانقسام بين المرتها فاشتروا زعماءهم في ناجبور والكجرات بالرشاوى، ليتفرغوا من بعد ذلك إلى بيتى سندها وهواكر، أقوى طوائفهم، فاجتاح هستنج أقوى حصون سندها في كواليار عام ١٨٧٠م وأنزل به هزيمة شديدة ركن من بعدها المرتها صوما إلى السلام وهاضوا أعداءهم.

هذا ، وكان قد تم لمدھوجى سندھا بسط نفوذہ على دھلى، على ما بيناه من قبل، وهزم الراجپوتين، كما مد نفوذہ على كلفة اراضى المرتها القديمة حتى بونا عاصمتهم القديمة، ليوخله من بعد ذلك ابنه دولت راو عام ١٧٩٤م على هذه الاراضى كلها.

وكان ان دعى اليشوا باجى راو البريطانيين إلى شد أثره بغزاء خصومه في بونا، فقدموا من فورهم إليه ودخلوا معه المدينة ليمقتوا معه عام ١٨٠٣م معاهدة بسين التى اعترف لهم فيها بسيادتهم.

وحين ثار زعماء سندھا وبھوسلا على هذا التخلل الأجنبى. خاضوا مع البريطانيين غمار معاركه عنيفة حدى أساى انتهت بهزيمتهم وخضوعهم لشروط الشركة البريطانية ودخول البريطانيين دھلى وضياح أملاك سندھا عند الشمال والشرق من جمنه ولتغالها وكلفة الاراضى الواقعة بين الكنج وجمنه وإلى الغرب منها إلى أيدى المستعمرين.

وكان أن ترك البريطانيون بعض الاراضى بأيدى المرتها فعانى الراجپوتيون على الخصوص كثيرا من الأذى على أيديهم وكان قسى حسابهم أن أصحاب الشركة سوف يحمونهم من شرورهم.

وحين استشرى خطر صصابات البندارى المرتها في إقليم بهار بصفة خاصة، جردت الشركة كل جيوشها لتجهز عليها جميعا، حتى استسلم لها كل زمعتها عام ١٨١٧م فسمحت لقرى من صغارهم بلزوم بعض إمارات في مالوه

والكجرات. وقد سارع الراجبوتيون بدورهم إلى التحالف عندئذ مع البريطانيين فلم يخوضوا معهم حرباً جماعية أبداً^(١).

حرب الأفغان :

كان من أثر هزيمة الروسيا قارس عام ١٨٢٨م أن عظم نفوذها في تلك البلاد حتى حملت حكومتها على التعاون معها لمد نفوذها كذلك إلى أفغانستان^(٢) باب الهند إلى سهول البنجاب والكج.

وحين تبين لبرنيز مبعوث الهند البريطاني بكابل حرج موقف دوست محمد شاه الأفغان بلزاه نشاط مبعوث الروس الداهية فينكوفتس حتى اضطر إلى مصانعته برغم ميله للزوم الحياد التام، عقد أو كلاتند مدير الشركة الهندية العزم على اللزحف إلى أفغانستان وفي صحبته أميرها السابق الشاه شجاع الملك الذي كان قد طرده دوست محمد فلجاً إلى رنجيت سنگ أمير البنجاب.

وكان هذا الأخير قد بلغ يقومه السك إلى انتزاع هذا الإقليم من الأفغان، ثم أثر أن يهادن البريطانيين حين دخلوا دهلې ومدوا نفوذهم إلى مشارف ستلج.

وتم للبريطانيين إجلال شجاع الملك على عرش كابل من جديد حتى يضمّنوا بذلك القضاء على سماتس الروس وإبعاد نفوذهم عن حدود الهند.

على أن الأهلين ما لبثوا أن ثاروا عليهم في العاصمة ثورة عارمة أرغمتهم التسليم بعودة دوست محمد إلى مقامه القديم وإخلاء المدينة من قواتهم، لتنزل بهم من بعد ذلك كارثة بشعة وهم يتراجعون بين تلوج الطريق وضربات رجال القبائل على الجانبين، فلم ينج من حملتهم التي كانت تضم عشرين ألف رجل إلا شخص واحد.

(١) Dunbar 488.

(٢) إطلاق « بلاد الأفغان » على الإقليم الذي يعرف بهذه التسمية اليوم، هو من اصطلاح المصور الحديثة، ومن باب تسميم الجزء على الكل، فنزل الأفغان هي إلى الجنوب من طريق كابل - أما سكان كابل وغزني ولسان فهم خليط من عناصر العرب والفرس والترک :

هو الطبيب العسكري بريدون^(١) الذي كتب له أن يبلغ جلال آباد حيث كانت تنزل حامية عسكرية بها.

ورجع البريطانيون من جديد إلى أفغانستان في حملة انتقامية قدمت من كندهار وجلال آباد فوجدت الأملين في كابل قد قتلوا شجاع الملك، ونادوا بأنه فتح جنك مكانه.

على أن إرادة الأملين كانت أقوى من عنف الفرزة وأسلحتهم، فما لبث البريطانيون أن أرغموا على الرجوع ثانية عن أفغانستان بعد أن عاهدوا أميرها دوست محمد عام ١٨٤٣م على احترام حدوده.

ولم يكن مصير الحملات التي قادها اللورد روبرتس عامي ١٨٧٨، ١٨٧٩م تدخل بها كابل بأحسن حالا من حملات أو كالكند سالقة الذكر.

فلم أبناء القبائل الأفغانية، من الأيردي والمصودي والوزيرى، ببسالتهم وضراوتهم في القتال، البريطانيين كيف يحترمون مشيئة الأحرار الذين رفضوا على الدوام كل ما كان يعرض عليهم من مغريات مادية لقبول المستعمرين ببلادهم^(٢).

وقد باغت بالفشل كل المحاولات التي بذلها البريطانيون لطى بلاد الأفغان تحت نفوذهم.

وبقى شاه الأفغان محافظاً على عهوده مع البريطانيين محافظة تامة حتى بعد كل البعد عن المشاركة في ثورة التحرير التي نشبت بالهند عام ١٨٥٧م بزعامة فريق من المسلمين وكانت تنتهي إلى طرد المستعمرين منها.

إخضاع السك والبلوخ : تذرع البريطانيون بحروبهم الأفغانية لإخضاع السند بلاد البلوخ لسلطانهم، كما انتهزوا كذلك فرصة اعتداء السك على بعض مناطقهم بعد موت أميرهم رنجيت سنگ، فما زالوا

(1) Moreland 346.

(2) حاضر العالم الإسلامي ثان من ٢٩٢ - ٢٠٠

بطاردونهم حتى أفلوا بهم هزيمة قاصمة بالكجرات عام ١٨٤٩م^(١) ضموا من بعدها كشمير والبنجاب كله إليهم، وجردوا قوات هذه الطائفة من أسلحتها وصرفوا رجالها للعمل فى المزارع.

وكان السك والغور كها أبناء نبيل، لقي لم لم يخضع المستعمرون إلا بعضها، خير محاربين اعتمد عليهم البريطانيون فى كل الحروب التى خاضوها دفاعاً عن إمبراطوريتهم أو لالتهايم أراض جديدة.

ويتدخل البريطانيون على الدوام فيما كان يقع بين الأمراء من منازعات بالدمس والوقية، أفلوا آخر الأمر فى أن يضموا إليهم الإمارات الهندية التى لم يستولوا عليها بقوة السلاح.

وبات الأمراء الذين باندروا إلى مخالفة هؤلاء المستعمرين من أول الأمر، لحفظت عليهم إماراتهم، معدودين من أتباع بريطانيا، ومنعوا من ممارسة أى نشاط سياسى أو إدارى دون مشورة مستشاريهم البريطانيين الذين كانوا فى الواقع أصحاب السلطان المطلق فى هذه الأراضى.

وفرض على أمثال هؤلاء الأمراء أموال كثيرة يدفعونها للشركة نظير حمايتها لهم ودفاعها عن أراضيهم، وحين كان يعجز أحدهم عن الدفاع أو يتوقف، كانت الشركة تبادر بالاستيلاء على أراضيه لتفرض على سكان إمارته ما تلزم به غيرهم فى أملاكها من ضرائب الأراضى الباطنة، حتى اضطروا الكثيرون منهم إلى بيع أولادهم لعدد ما كانوا يلزمون به فعانى الملايين من أهل الهند أفظع ضروب القسوة والظلم وعاشوا فى شقاء لم تعرفه الإنسانية فى أهلك عصورها^(٢).

(1) Dunbar 502.

(٢) الهند وجيرانها ٤٠٣

خاتمة سلاطين الدولة المغولية :

لم يقرر غزو نادر شاه القرم ولا غزوات أحمد أبادلى، شاه الأفغان، المتكررة للهند مصير الدولة المغولية بقدر ما قررته معركة بكسر عام ١٧٦٥م ببهار. فطويت بانتصار البريطانيين فيها على شاه عالم السلطان التيمورى صفحة الحكم الإسلامى فى الهند.

ولم يكن البريطانيون ليتركوا شاه عالم ينزح من مقامه بالله آباد، حيث كان يعيش على المال الذى ربطوه له، إلى كتف المرتها بدلى إلا لوضيقوا الخناق عليه وعلى حلفائه من بعد ذلك، وقد باتوا على يقين، تلم من قرب وقوع شبه القارة الهندية بأيديهم وخلصها لهم بعد أن تم لهم هناك القضاء على نفوذ الفرنسيين أخطر منافسيهم وقواهم، وما تكشف لهم عن عجز قوات الهند الكثيرة على الوقوف أمام قواتهم، على قلة عددها، لحسن تدريب رجالها وما يليدها من أسلحة حديثة لا تعرف الهند لها نظيراً. حتى واجهوا، وصددهم مع حلفائهم من الوطنيين خمسة آلاف رجل، عشرة أضعافهم فى معركة بكسر سالفة الذكر، فانتصروا عليهم انتصاراً حاسماً لم يكلفهم أكثر من عشرين قتيلاً وبعض الجرحى.

ولئن كان شاه عالم ينكر للمرتها أنهم أمانه على العودة إلى دهملى ونظنوا إليه فى الغالب نظرتهم إلى أحد حلفائهم حتى سارعوا إلى إنقاذه من بين براتين التأثير الرومى غلام قادر، فى حين أعرض كونالث مدير الشركة البريطانية عن نجته فى محنته مع هذا الزعيم الأفغانى، وضيق عليه البريطانيون، من قبل، فى الله آباد بعد أن هزمه فى بكسر، فإنه على كل حال كان يداعبه الأمل فى أن تنتهى الحرب بين المرتها والبريطانيين، إلى إهلاك قواهما معاً، حتى يخرج المنتصر منهما وهو أمل سلوك طريق المودة معه. وعلى هذا رأى حرص كل للحرص على دوام اتصاله بالفرقتين المتحاربتين وإعلان تأييده لكل واحد منهما على حدة فى نفس الوقت.

على أن البريطانيين ما لبثوا حين دخل قندهم ولسلى مدينة دهملى عام ١٨٠٣م أن اتفردوا بالأمر كله فيها فلم يلتفتوا إلى السلطان إلا ليرتبوا له معاشاً لم يزد على ما كانوا قد أجروه عليه فى الله آباد من قبل.

أكبر شاه الثاني :

لم يكن للسلطان وأعضاء أسرته ما يثقلهم في ظل الحكم البريطاني إلا ضائقة ما رتب لهم من مال أصبح لا يفي بنفقاتهم^(١)، وإن وجد بخزائن شاه عالم بعد وفاته ما يزيد على المليون من الروبيات كان قد انخرها.

وحين قضى شاه عالم قبيل أواخر عام ١٨٠٦م بعد أن جلس على العرش خمسة وأربعين عامًا، فخلفه ثاني أبنائه أكبر شاه الثاني، ليقضى حياة يغلب عليها الخمول والضعف حتى عدل اللورد هاستنجز، حين خلف ولسلي على إدارة الشؤون الهندية، عن تصدير أوامر شركته ونشراتها بإرادة السلطان، ورفع عن خاتمه كذلك الرسم التقليدي الذي يصفه بأنه خادم السلطان المخلص، بل لقد رفض في لقائه له أن يخضع للمراسم التي لم يكن الحكام البريطانيون من قبله يجدون غضاضة في ممارستها. ولم يكتف بذلك حتى عرض نواب لوده على أن ينادي بنفسه سلطانًا، ولحقته رام موهان وصاحب جمعية براهما سماج الذي راح يدعو مجداً إلى القضاء على بيت التيموريين في الهند^(٢).

بهادر شاه الثاني :

وخلف أكبر الثاني ابنه بهادر شاه الثاني عام ١٨٣٧م ليعيش بدوره على الرزق الذي كان يجريه البريطانيون على أبيه، من قبل، بعيداً عن كل نشاط سياسي أو مشاركة في الحكم، فلم يكن يثق باله إلا معارضة المستعمرين في اختياره لولي عهده وعدم استجابتهم لشكواه من ضائقة معاشه الذي كان يراه لا يكفي لحفظ مظاهر الأبهة اللائقة بأمير تيموري.

(١) Spear, Twilight of the Mughals pp 36-9.

(٢) راج هذا الزعم، بتأثير حركات الإصلاح الديني السابقة يدعو إلى توحيد ديانات الهند في دين واحد يعبد إلهًا واحدًا هو براهما، دون تعدد في الآلهة أو الطبقات أو الزوجات، وينكر كل المادلات الهندية القبيحة كالسati وزواج الأطفال وغيرها.

وبقيام الثورة الوطنية الكبرى، التي يعرفها البريطانيون بثورة السباهي أو العصيان، عام ١٨٥٧م انتهت أيام بهادر شاه على عرش الهند، وطويت صفحة السلاطين الجابريين أبناء تيمورنك بالهند كلها.

الثورة الوطنية :

هذه الثورة المعروفة التي كادت تقضي على كل نفوذ للبريطانيين في الهند كلها، والتي كان مبعثها صيف الشركة البريطانية واستنزافها لثروات البلاد وإفقار أراضيها الخصبة، لا سيما في الشمال، نشبت في وقت واحد بالبنغال ودهلي وجونپور والبنجاب.

أما أخطر أدوارها فقد بدأ بالبنغال حيث الجيش الذي كان يعتمد عليه هؤلاء المستعمرون في حفظ النظام بالهند، وكان قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل فيهم عشرون ألفاً من البريطانيين. وقد بنى الثائرون خططهم على أن يسارع البريطانيون عندئذ إلى استدعاء كل قواتهم المنتشرة في الهند إلى البنغال فيدخلو لهم الجو بذلك ويثبتوا أقدامهم ويجمعوا شملهم من جديد، فلا يتمكن المستعمرون منهم بعد ذلك أبداً.

وعرف المتزعمون الثورة كيف يثيرون ثائرة جند البنغال، وكان أغلبهم من الراجبرتيين والبراهمة، حين انطلقوا يقولون في روعهم أن الشركة تعتزم تسييرهم إلى خارج الهند لحرب بورما، الأمر الذي يتنافى وعقائدهم التي تعد كل من يغادر موطنه خارجاً على طبقه منبوذاً، كما نبههم كذلك إلى معالجة البريطانيين لأسلحتهم وعجلاتهم بشحم للخنزير ودهن البقر المقدس، ويسمهم هذه الدمون فيما يقدمونه لهم من الطعام، بل إنهم كذلك قد عقدوا العزم على حملهم قسراً على اعتناق النصرانية بأيدي مبشريهم الذين جلبوهم لتحقيق هذا الغرض، وهامهم يقتلون في وجوههم باب الترقية حتى إلى أصغر رتب القيادة في الجيش، وهو ما لم يمنعه عليهم أحد من السلاطين المسلمين من قبل.

وانطلق المسلمون في دهلي يقودون الثورة، بزعامة بعض أبناء السلطان وفريق من الزعماء الأفغان المحليين ومعهم حملة مبروت الشمالية التي انضمت

إلى صفوفهم، وفي خطتهم أن يخرجوا المستعمرين من بلادهم ويعيدوا للمسلمين سابق سلطاتهم بالهند.

وما غدا المرهتها في جوناور أن نزعوا بدورهم إلى العصيان يترعمهم أميرهم نانا صاحب الذي كان فريق من رجاله قد حدثت إقامتهم هناك، كما انطلقت الشائعات في الوقت نفسه بزحف الروس والأفغان لشد أزر الثوار، حتى أصيب البريطانيون في الثورة بخسائر كثيرة وهزائم متكررة في أماكن عديدة^(١).

على أن المستعمرين ما لبثوا أن ألقوا الأمور في البنجاب بهمة قائدهم لورنس وحسن تدبيره، لينطلقوا على الثوار بكل مكان في قسوة بالغة وعنف، ويقصنوا بمدافعهم بدلهي، ثم ينفخوا بالسلطان المغولي الشيخ وهو في الثانية والثمانين من عمره، إلى محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه وراء ولده محمد بخت خان وميراث مغول في تزعمهما للثوار، ومسئوليته عن مقتل تسع وأربعين من البريطانيين بدلهي. وثورته على الحكومة البريطانية بوصفه أحد رعاياها، وإعلانه الحرب عليها ومناقلته بنفسه سلطانا على الهند.

هذا والثابت المعروف أن لحدا من السلاطين المغول، منذ أن صار شاه عالم في قبضة الشركة الهندية، لم يقبل الاعتراف بالحمالية البريطانية أبدا، كما أن بها درشاه نفسه لم يكن له أي مشاركة في هذه الثورة حتى اعتكر لزماتها بغراغ يده من المال، وأنه ليس له جيش أو قوة يقدمها لهم ولم يكن له بالتالي علاقة بملصقة صغيرة وجدت أثناء الثورة على حائط المسجد الجامع وبها نداء منسوب إلى شاه الفرس يدعو فيها المسلمين إلى تكلي خلافتهم وتوحيد صفوفهم حتى يقبل انجذتهم^(٢).

(1) Moreland pp 367-375.

(2) Spear, pp 200,222,28.

هذا وقد تبرى بعض الباحثين البريطانيين بمد مضى ستين عاما على هذا الثورة برئ السلطان الشيع من كل ما نسب إليه، ويدل على أن الشركة هي التي تارت قلوبنا على السلطان وليس هو عليها.

قضى البريطانيون في هذه المحاكمة عام ١٨٥٨م على السلطان الممن بهادر شاه بنفيه مع أفراد أسرته إلى رانجون، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلها إلى إمبراطوريتهم لتمارس الحكومة البريطانية حكمها بنفسها حكماً مباشراً. وعوضت الشركة الهندية عن إبعادها عن شئون الحكم بمبالغ طائلة وتعويضات سخية جعلت ديناً على الهند، هي وكل النقابات التي أنشأتها بريطانيا في حروبها الأفغانية وحروب بورما بدعوى تأمين حدود الهند والمحافظة على سلامتها.

وراح الحكام البريطانيون في الهند يذيمون بدورهم على الدنيا ما يبذلونه من جهود للهدوء بهذه البلاد وترقيتها، ومنها إنشاء الطرق الحديدية وتوسيع رقعة الأرض الزراعية ونشر الحضارة الأوروبية. ولم يكن هدفهم من وراء ذلك كله في الغالب إلا تنظيم ليعتزل ثروات هذه الأرض الواسعة الثنية، حتى كانت منتجاتها تنقلها في كل عام أكثر من عشرة آلاف سفينة، معظمها بريطانية، لتبيعها بريطانيا في أسواقها بخمسة أضعاف ثمناتها أو يزيد، فلا يعود من هذا الريح الوفير على أصحابه الأصليين، سوى القليل، وهم الذين دفع بجماهيرهم ليزرعوا الأرض لسادتهم على كفاح من العيش.

وأقام البريطانيون من جهاز حكمهم بالهند طبقة جديدة تُضاف إلى طبقات الهند وتعلوها جنيتاً، حتى حرموا على أهلها دهرًا طويلاً مجالستهم أو مطالعتهم أو مزاملتهم في سفر أو سمر.

قيام دولة باكستان :

نفى البريطانيون بهادر شاه الثاني، آخر السلاطين الباهيين من الهند بوصفه الزعيم الروحي لأهلها من المسلمين الذين رفضوا في الغالب الاعتراف بسلطانهم وأصر زعمائهم وأبناء الطبقة المستكبرة منهم على معاداتهم وتأييد أهل هذه البلاد جميعاً عليهم، حتى أعلن اللورد آلنبرو حاكم الهند البريطاني، في صراحة تامة، أن العنصر الإسلامي في الهند هو عدو بريطانيا الأميل، وأن السياسة البريطانية في الهند يجب أن تهدف

إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها لتستعين بهم فى القضاء على الخطر الذى يتهدد بريطانيا فى هذه البلاد^(١).

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) أكثر مما بطشوا بغيرهم من الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها فأقصوهم إقصاءً شاملاً عن كل وظائف الدولة التى كانوا يشغلون عدداً كبيراً منها، وجهدوا فى تقويض كل أوضاعهم الاقتصادية والثقافية، ثم اصطنعوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة فى الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها أبداً إلى المناصب الكبرى التى كانت جميعها، فى السلكين المدنى والعسكرى، وقفاً على المستعمرين.

حتى إذا ما أصدروا قوانين التملك الزراعى، الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضى الكثيرة والضياع الواسعة بالهند، صارت أغلب الأراضى التى كان المسلمون يمارسون زراعتها، بمقتضى هذا القانون، ملكاً لجباة الضرائب من الهنادكة، وانقلب زراعتها الأصلون الذين صودرت أراضيهم إلى إجراء عديم.

ولم يكف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يزيفون تاريخ الحكم الإسلامى بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين وعصائلهم بمظهر الطغاة. ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى إحياء ماضيتهم القديم قصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من المسلمين، لينجلى ذلك، كله فيما بعد، عن مذاهب رهيبة متكررة بينهم وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعاً حيناً طويلاً من الدهر عن محاولة الحكم البريطانى بالهند.

(١) بلغ من عدا هذا الحكم البريطانى للمسلمين أنه لم يزرع بعض بوابل وأما بقزقة حين دخل البريطانيون أفغانستان يزعم أنها أجزاء من معبد سومنات حملها محمود الغزنوى معه من الهند بعد أن خرب معبى الهنادكة هذا أو قبل القرن الخامس الهجرى. وحين حمل آنتيرو هذه البوابل إلى الهند، تقريباً منه إلى الهنادكة وتذكيراً لهم بعدوة المسلمين، اكتشفوا هناك أن هذه الأبنية هى من صنع سيكنكين أبى محمود الذى لم يتخطى حدود الهند فى غزواته.

Dunbar 489.90.

بعث اضطهاد البريطانيين للمسلمين في الهند شعوراً قوياً فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد ورفع معنوياتهم وإصلاح حالهم، حتى نهض السيد أحمد خان، في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ونصح عن هذا الشعور إقصاداً عملياً، فرسم لقومه المنهم الذي يبلغ بهم إلى تحقيق نهضتهم إلى أن نفورهم من البريطانيين لا يطي الستر الم العزلة والتخلف عن المشاركة في ركب الحياة الهندية، وأن الإطلاع على المدنية الحديثة وعلومها والقباس الصالح منها واجب على المسلمين لا يتعارض أبداً مع التقه في أمور دينهم ولتتمسك بأداب الإسلام وتقاليد^(١). ثم اتجه من بعد ذلك إلى البريطانيين يصارحهم بنبعاتهم ويؤكد لهم عدول المسلمين عن عدائهم لهم، حتى يخفف من حدة اضطهادهم لهم. إذ كانوا قد لحدوهم إيماناً شاملاً عن كل وظائف الدولة وطقسوا يخلقون أبواب الرزق في وجوههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً - ويتم لهم الدلول على أن صف شركتهم البريطانية وموء إدارتها هو الذي أدى إلى ثورة الوطنين عام ١٨٥٧م.

ولم يأبه السيد لاتهم بعض الرجعيين له بمالأة المستعمرين والمروق من الدين، فشر عن مساعد الجد في حزم وعزم وانطلق يعم إصلاحاته في أغلب نواحي الحياة الإسلامية ويدعو قومه إلى الاعتراف من علوم الغرب. وراح في مجلته « تهذيب الأخلاق » يقد أحوال المسلمين ويتقصى الأسباب التي أنت إلى زوال مجدهم القديم، ويمرض لكثير من الموضوعات العلمية والسياسية والاجتماعية التي يجب على المسلمين الإحاطة بأهدافها والاشتغال بها والمشاركة فيها. ونال من خلال أبحاثه هذه على مرونة اللغة الأوردوية، لغة المسلمين وأغلب أهل الهند، وصلاحياتها لتألمة لمسيرة المدنية الحديثة. وكان من أعظم أصاله الخالدة إنشاء كلية عليكر، شمال الهند، التي تحولت من بعد ذلك إلى جامعة حقب

(١) كان مما احتج به في هذا الشأن أن المسلمين حين شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا في دراسة كتب اليونان وسوام من غير أهل الملة، فلا حرج على المسلمين بهذا من دراسة كتب الغرب وعلومهم بل هو واجب عليهم : حاضر المالم الإسلامي أول ٢٧١ -

عودته من زيارته لبريطانيا عام ١٨٧٥م، وفيها قامت الدراسات الغربية والدراسات الإسلامية جنباً إلى جنب على أرقى منهج جامعي إذ ذاك^(١).

بجهود السيد أحمد خان ظهر من بين المسلمين طائفة من المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعدهم^(٢)، واتسع المجال لنقل فوض من المواقفات الأوروبية النافعة إلى الأوردوية، فضلاً عن إحياء التراث الإسلامي الهندي.

ولئن كان السيد أحمد خان قد أوقف حياته على النهضة بالمجتمع الإسلامي وسعى إلى حمايته حين نادى بضرورة تمثيل المسلمين في المجالس الهندية التشريعية بنواب مستقلين منهم، حتى لا تطغى طائفة الأغلبية على طائفة الأقلية في هذه البلاد التي تعد فيها العقائد أساس حياتها السياسية والاجتماعية، وجهر بأن المسلمين والهنداكة أمثان مختلفتان تمام الاختلاف في العقيدة والتقاليد وكل شيء، فإن تلاميذه الذين حملوا رسالته من بعده ما غدوا أن أعلنوا أن لفترة محاسنة البريطانيين، التي فرضها رقتهم من قبل. فقد استوفت أجلها، وأن واجب المسلمين غدا يفرض عليهم أن يقرروا حقوقهم من أيدي المستعمرين وكل من يقف في سبيلهم، حتى تصبح المفكر الملهم محمد إقبال، وهو من أبناء جامعة عليكر، عن وجوب قيام وطن خاص بالمسلمين وحدهم بالهند، ورسم حدود هذا الوطن على الأساس الذي تقوم عليه دولة باكستان اليوم في الغالب.

ولم تكن معارضة الهنداكة لقيام دولة خاصة بالمسلمين في الهند إلا لخوفهم، فيما ظنوا في الغالب، من أن ينقلبوا إلى مصدر متاعب لهم من جديد حين يشدد ساعدهم ويستعينوا بعض ملابضهم من القوة، في حين كان البريطانيون يرون مهددًا أن كل انقسام بين شعوب الهند فيه تحقيق لمصالحهم العليا على قاعدة الاستعمار المعروفة « فرق تسد ».

(١) Dunbar 558-90.

(٢) من أمثال هؤلاء السيد أمير علي وخدا بخش ومحمد إقبال ومحمد علي وأخوه شوكت علي. وفيهم من أخرج للناس باللغات الأوروبية كتباً قيمة عرفهم فيها بروح الإسلام وحقيقته وحضارته ومدنيته ترميماً بآبائهم.

وما لبث المسلمون آخر الأمر أن بلغوا بجهود زعيمهم محمد علي جنه، ومن ورائه الرابطة الإسلامية، إلى تحقيق قيام دولة لهم، بعد أن أصبروا على رفض جميع عروض المؤتمر الهندي، الذي كان يترعاه غاندي، ومستور عام ١٩٣٥م، حتى لا تضيق حقوق أقليتهم الكبيرة في تيار الغالبية الهندوكية، وحتى لا يكون لأحد وصاية عليهم^(١). فأعلنوا مولد باكستان في ٤ أغسطس ١٩٤٧م على حدود ترضيهم في الغالب، قبلوا ما ليضعوا بذلك حدا للمذابح الكثيرة التي سقط فيها من المسلمين أكثر مما سقط من الهنكدة. وهي تضم كراچی، مركز حكومتها إذ ذلك وإقليم بشاور والحدود، والسند والبنجاب في الغرب، وأغلب البنغال في الشرق.

وبباكستان^(٢) ما ينيف على المائة وشرين مليوناً من المسلمين يعيش إلى جانبهم أكثر من عشرين مليوناً من أصحاب المذاهب الأخرى الهندية. ولا يزال ما يزيد على ستين مليوناً من المسلمين يعيشون في جمهورية الهند.

واتخذت باكستان من مدينة كراچی عاصمة لها ثم انتقلت منها إلى روالپنڈی ثم إلى إسلام آباد عاصمتها الحالية.

ومن أسف أن يشهد للتناحر الحربي من بعد ذلك في باكستان الشرقية لينتهي الحال بنجاح الشيع مجيب الرحمن زعيم حزب عوامي في هزيمة قوات الدولة - حيث ناصرته جمهورية الهند بقواتها، والروس بأسلحتهم، ومن ثم أعلن استقلال باكستان الشرقية واتخذ من مدينة دكا عاصمة لها. وصارت هذه الدولة الجديدة تعرف باسم بنجالادش.

وفي فبراير عام ١٩٧٤ أعلن ذو الفقار علي بوتو رئيس وزراء باكستان في مؤتمر القمة الإسلامي أنان انعقاده بـلاهور اعتراف حكومته بدولة بنجالادش الجديدة حفاظاً منه على وحدة صفوف المسلمين.

(1) Moreland 463-501.

(2) باكستان هي الأرض المطهر - ولها جماع الحروف الأولى من اسماء المقاطعات التي تتكون الدولة منها.

مشكلة كشمير

عندما قسمت شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧م إلى جمهوريتي باكستان والهند أخذ الزعماء في هاتين الجمهوريتين يرددون عبارات الود والتمنيات الطيبة كل بالنسبة لجارته. على أن جمهورية الهاد الهندوكية ما لبثت أن انطلقت تقيم العراقيل في وجه جارتها باكستان التي ظفرت بوجودها بالرغم منها فمن ذلك أنها ظلت تسوف في دفع ما قدر للباكستان في مال الهند وهو أريمون مليوناً من الجنيهات يمثل ١٧,٥% من الاحتياطي حتى أخذ غاندي نفسه في الصوم إذ ذلك لوضع حد للخلاف بين البلدين. بل لقد قامت المذابح في البنجاب الشرقية بين المسلمين والسك من جديد، كما اضطر مائة ألف من سكان دلهي المسلمين إلى الاحتشاء بالقتلاع القديمة هناك حتى يرحلون إلى باكستان. وانتهى الأمر بين الدولتين - وفقاً للمذابح - إلى إخلاء المسلمين للبنجاب الشرقية على أن يخرج كل الهنالك من البنجاب الغربية. وتبادل الفريقان في ذلك ستة ملايين من السكان.

ولم تنته هذه المطنة الرهيبة حتى قلم ما يشبه الحرب الاقتصادية بين الدولتين فقد امتنعت الهند عن شراء الحبوب والقطن من باكستان وعدم تصدير الفحم لها، في حين امتنعت باكستان بدورها عن مد الهند بالجو، وكانت الهند في ذلك هي الخاسرة، إذ كانت الأسواق مفتوحة أمام باكستان لتصريف منتجاتها.

ولئن أمكن تسوية هذه المشاكل الاقتصادية فيما بعد، فإن أصعب ما واجه البلدين كانت مشكلة الإمارات الهندية التي كانت ترتبط مباشرة بالثقاج البريطانية. فقد نص قانون استقلال الهند على أن تنزل مثل هذه الإمارات حرة أو تنضم إلى إحدى الجمهوريتين على أساس عقيدة غالبية السكان فيها بصرف النظر عن عقيدة أميرها، إذ المعروف أن الاستعمار البريطاني كان يحرص على تنصيب أمراء

من غير أصحاب الديانة الغالبة في كل إمارة حتى يضمن ولاهم له من جهة، وحتى يستخدمونهم في الضغط على الأهلين من جهة أخرى. ورغم سكوت باكستان على ضم الهند لإمارة حيدر آباد الدكنية إليها، تلك الولاية التي كانت برغم هندوكية أغلب سكانها كانت تعد أهم مركز الثقافة الإسلامية هناك، فقد راحت الهند كذلك تطالب بإصرار بضم إمارة كشمير إليها، وهي التي يبلغ عدد سكانها أربعة ملايين ٨٠% منهم من المسلمين، وذلك بدعوى سيطرة الملك عليها في القرن الماضي وخضوعها في الوقت الحاضر لحكومة المهرلجا هاري سينغ منذ عام ١٩٢٥م. وفي هذا تقول باكستان أن المسلمين حكموا كشمير أكثر من خمسة قرون، وأن ثمانين في المائة من سكانها مسلمون، وهي فضلاً عن ذلك تعد من الناحية الجغرافية جزءاً متمماً لباكستان، فالحدود بين كشمير والهند وعرة جداً لا تخشى الهند منها شيئاً، في حين تتصل كشمير بباكستان بسهولة فسيحة تجرى فيها ثلاثة روافد للسند تحمل محصول الأخشاب أهم محصول كشمير. هذا كما تعد باكستان السوق الطبيعية لتصريف فولكه كشمير ثلثي معاصيلها المهمة: هي والصوف والبسط (السجاد) . وأفهار كشمير هذه يتوقف عليها سقى تسعة عشر مليوناً من الأكنة بباكستان، فلو أن كشمير ضمت إلى الهند لكان معنى هذا التهديد بانقطاع الماء عن كل هذه الأراضي عند حدوث أي خلاف بين البلدين. وقد حدث بالفعل خلاف شديد على مياه روافد سندية أخرى تجرى بالأراضي الهندية قبل دخول باكستان، واضطرت باكستان إلى دفع رسوم كبيرة ثمناً لما تسببه من مياه هذه الأنهار، مع أن المعروف أن المياه المشتركة هي أنهار دواية.

ولقد كان أهل كشمير، وأغلبهم من المسلمين، يعتقدون أن الوضع الطبيعي لبلادهم هو انضمامهم إلى باكستان، وذلك بالقياس على ما نالت به الهند نفسها واعتنقته بدورها من حقها في ضم الولايات ذات الأغلبية الهندوكية إليها. على أن

المهراجا الهندوكى هارى سنج، وهو الذى كان يخص نفسه ورجاله بـ ٨٠% من إيرادات كشمير، رأى أن يستجد بالهند وجيوشها لدخول بلاده. وأدى سلوكه هذا إلى ثورة المسلمين عليه هناك ثورة عارمة انتهت باستيلائهم على السلطة فى المناطق الغربية حيث كونوا حكومة كشمير الحرة برئاسة السيد راج محمد إبراهيم.

وما حدث قوات الهند أن أخذت تتوغل فى المناطق الجنوبية والشرقية وحين أرادت باكستان أن ترد على صنيع الهند هذا، انبرى الفيلد مارشال أو كلاكه يعطن أن عمل الهند هو عمل مشروع وهدد فى ذلك بسحب الضباط البريطانيين من جيش باكستان وكانوا إذ ذاك يضطلعون بمراكز رئيسية فيه. وحين اتفح لقوات باكستان دخول كشمير من بعد ذلك كانت القوات الهندية قد سبقتها إلى كسب عدة مراكز هامة.

وبرغم وقف القتال بين الطرفين فى يناير من عام ١٩٤٩ وتوقيع الطرفين على مبدأ الاستفتاء بتدخل هيئة الأمم المتحدة فلا تزال هذه المسألة دون حل حتى اليوم.

ومما هو جدير بالذكر أن باكستان تحتج فى ذلك بأن الهند حاولت أن تكسب تأكيد أمريكا وبريطانيا فى هذه المسألة فبادرت بالاعتراف بإسرائيل بدعوى الأمر الواقع مع أنها لم تكن بدورها قد اعترفت إذ ذاك بالصين الشعبية، فى الوقت الذى أعلنت فيه باكستان صراحة رفضها الأكيد الاعتراف بإسرائيل حتى لو اعترفت كل البلاد العربية نفسها بها.

حضارة الدولة المغولية

أقبل المسلمون، منذ فجر الإسلام، على الإفادة من حضارة الفرس واليونان بعد أن أطلعوا عليها، فلما دخلوا وتوغلوا في أراضيها واستقروا بها ومعهم ثقافتهم المزهرة، اشتاقوا كذلك إلى التعرف على ما عند الهنود من ثقافة ومدنية سمعوا الكثير عنها ووقفوا على قدر منها في بلادهم .

ونشأ عن امتزاج حضارة الحكّمين بحضارة المحكومين القديمة ومدينتهم حضارة ثالثة، اشتملت على عناصر هاتين الحضارتين، هي ما تعرف باسم الحضارة الإسلامية الهندية التي بدت في أكل صورها في عهد الدولة المغولية التي أقامها السلطان التيموري ظهير الدين محمد بابر وخلفاؤه فظلت تحكم هناك قرابة ثلاثة قرون .

جمع هؤلاء السلاطين البابريون في أشخاصهم كثيراً من الصفات المتناقضة التي ورثوها عن أبيهم الأكبر تيمورلنك، فكان فيهم وحشية وتسامح، وجبروت وحلم . وكانوا يقيمون من هجمات المتهورين على هيئة الأهرامات والمناظر ولا يجدون في ذلك حرجاً، ثم يشيدون، إلى جانب أكناس القلعي، منشآت الحضارة والمدنية وبيافون في حبيبهم وبذلهم للأدب والعلوم والفنون والمشتغلين بها . بل إنهم ليسعون إلى العلماء يشاركونهم الدرس ويدعونهم من أقصى الأرض إلى بلادهم . وعلى هذه الخطة وفد إلى بلاط الهند صفوة من علماء العرب والفرس ولترك يساهموا بجهودهم في بناء الحضارة الإسلامية الهندية هناك .

وأدى التامسح الذي اشتهر به سلاطين الدولة المغولية^(١)، إلى العمل على تقريب سكان الهند إليهم في الغالب، حتى أصبهروا إليهم، وتبعهم رجالهم في ذلك، وفتحوا لهم أبواب المناصب في الدولة، فساعد ذلك كله على نشر الإسلام بالهند

(١) يجمع المؤرخون على بعد سلاطين الدولة المغولية عن التصصب الديني، فمارس الأهليون في عهدهم طقوسهم الدينية بحرية تامة في الغالب .

Havell 426-Prasad 286,7.

حتى كانت غالبية المائة والعشرين مليون مسلم الغالبة بشبه القارة الهندية اليوم من أصول هندوكية خالصة .

وإذا كان بابر مؤسس هذه الدولة لم يطل به الأجل بعد إقراره للأمر في الهندستان، وإذا كان ابنه همايون قد أمضى عمره في صراع متواصل من أجل عرشه، فإن جلال الدين أكبر، ثالث السلاطين، هو أول من أنصَح من التسامح المطلق وجهر بالتكفُّ فسادى بأن الهند للهند من أهلها مسلمين وهنالك . وهو الذى بلغ كذلك بالدولة المغولية ذروة المجد والرقى . فقد نهض بالفنون والطبم والآداب نهضة شاملة، وزين الهند بكثير من المنشآت الفخمة وأرسى جهاز الحكم على نظم لامتت شعبه وإذاغت شهرته، وقده فيها الذين حكموا من بعده

نظام الحكم : كانت السلطات جميعها فى الدولة، من صكرية ومدنية ودينية، فى قبضة السلطان، على الرسم الغالب فى تلك المصور، وفى البلاد الإسلامية على الخصوص، وكان هواه هو دستورته وتشريعته . قطالما كان الجالس على العرش من أولى العزم والقوة، كان التماسك بعم الدولة الإسلامية كلها فى الهند، وإلا فإن حكام الولايات كانوا يسعون إلى إعلان استقلالهم وتأسيس إمارات لهم من فورهم ما فتحت لهم الفرصة بذلك . وعلى هذا القياس ازدهرت الدولة المغولية أيضا ازدهار عندما كان على رأسها رجال اقوياء كبار، وسقطت عندما خلت من مثلهم .

أما الوزراء والولاة والقادة والأمراء فكانوا صناعع للسلطان فى الغالب، يرفع من قدرهم ويخفض كوف يشاء، ويهبهم من أراضي الدولة، التى هى مجموعها بذاهة ملكه، حين يشاء ويقدر ما يشاء، ويستردّها كذلك على مشيئته .

هذا : وكانت أراضي الدولة على ضربين، منها ما يقطع للقادة والأمراء على أن ينفقوا من دخلها على جندهم الذين يساهمون بهم فى حروب الدولة، ويدفعوا نصيبا آخر معلوما من المال كذلك إلى بيت المال

فى كل عام، ومنها ما يستأجره الملتزمون على بدل سنوى يؤدونه . وكان هؤلاء جميعاً ذوى سلطان مطلق على الأهلىن بمنطقةهم فى الغالب .

وعدل أكبر نظام الإقطاع هذا إلى تقسيم البلاد إلى ولايات عليها نواب وعامل له، على النظام الذى بيناه فى موضعه سابقاً، وأنشأ جيشاً قوياً مديراً يتبعه رأساً وتقوم الدولة بدفع رواتب أفراد قوته من خزائنها^(١) . ونهج خلفاؤه نهجه فى الغالب حتى جاء لورنكزيب عالمكير فرجع إلى النظام الأول .

وأدى اهتمام الحكام المغوليين والسوريين^(٢) بالوقوف السريع على كل ما يجرى فى مختلف أنحاء بلادهم الواسعة، إلى تنظيم شئون البريد تنظيمًا محكمًا، وتمهيد الطرق والإكثار منها وتزويدها بعلامات يهتدى بها السعاة والمسافرون ولقائموها على هذه الطرق منازل كثيرة لنزول الناس والحوافى، ولأحواها جميعاً للمسلمين والهندكة . وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع صغار التجار عندها ورواج أحوالهم بالتالى .

وقد أعجب بهذه الطرق الرحالة الفرنسى تافرنيه، الذى ساج بالهند فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى، وصرح بأنها كانت خيرًا من طرق فرنسا ويطلقا إذا ذاك وأكثر أمنًا^(٣) .

وعلى هؤلاء السلاطين جميعاً كذلك بإقامة العدل بين رعاياهم وانتشار الأمن فى ربوع بلادهم، ولزموا التجار والصيارفة بمراعاة الأمانة، وراقبوا سلوكه عمالهم مراقبة دقيقة فى الغالب، فلم يترددوا فى أن يزلوا بهم أشد العقاب حين كانوا يتحققون من ظلمهم للأهلىن أو اعتدائهم على أموالهم .

المجتمع : إن مؤرخى الهند عامة لم ينوا فى الغالب إلا بحياة الحكام والسلاطين وأعمالهم وقترحاتهم، وما يتصل بذلك من حياة الولاة

(١) انظر ذلك كله بالتفصيل فى الفصل الخاص بأكبر .

(٢) السوريون هم آل شيرشاه ولولاده .

(٣) حضرات الهند ٤٨

والتواد وأعمالهم، فلم يلتفتوا، إلا إلى النادر، إلى الكثرة عن شعوب هذه البلاد وأحوالها الاجتماعية في شيء من التفصيل يذكر، اللهم إلا قلة يسيرة من المسلمين وفيهم أبو الفضل ابن المبارك، مؤرخ كبير ووزير، الذي تعد تدويناته من المصادر المهمة التي وصلتنا في هذا الباب، هي وما كتبه فريق من الأوروبيين من التجار والمبشرين الذين وفدوا على تلك البلاد في العصر الوسيط وما تلاه .

والمجتمع المغولي في الهند كان، كما قلنا من قبل، مجتمعًا إقطاعيًا خالصًا رأسه السلطان الذي كان يضافى في العادة على بلاطه من ضروب الأبهة والعظمة ما يخط لب الذين أتبع لهم الإطلاع عليها وأدهش وصفه كل من سمع بها، ففي بلاطه كان يتجلى بهاء الدولة ومجدها ورواها، ومنه تشع علامات المدنية وتنبثق آلاء الثقافة، وفيه تروج أنواع المعارف، وعندة وفي كنفه يعيش رجال العلوم والآداب والفنون .

ومن بعده يأتي الأمراء ورجال الدولة الذين كانوا على دين سلطانهم في الغالب في البذخ والترف والإسراف، حتى كلفت قصورهم تزجج بالجواري والغلمان وتتجمل بكل طريف أو فريد من الأثاث والمتاع، وتفيض مواعدهم بأطبائ الطعام، وإلى جانبها أكادس من الفاكهة المتنوعة الفاندة، المستوردة من بخارى وسمرقند، والأكبدية والأشربة الفاخرة التي لم يلتفت إلى تحريمها أحد من سلاطين المغول تحريمًا جديًا بللهد إلا أورنكزيب .

ولعل استيقان هؤلاء الأعيان من مصادرة السلطان لأموالهم وأماكنهم بعد موتهم، على العادة الغالبة إذ ذاك، أو حتى وهم على قيد الحياة حين يبلغ بعض الوشاه إلى الإيقاع بهم عند، كان ذلك يدفعهم في الغالب إلى إنفاق أموالهم في مثل هذه الوجوه في إسراف بالغ .

وكان لتجار بدورهم يحرصون، ولا سيما في المناطق البعيدة عن العاصمة، على إخفاء أموالهم عادة فلا يصادروا أحكامهم حين تشتد حاجتهم إلى المال أو يدفعهم جشعهم إلى طلبها .

هذا ؛ وكان أوسط الناس وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون في الغالب عيشة تتراوح بين الميسرة والمعصرة . أما أبناء الطبقات الدنيا وأصحاب الحرف الدينية، ومنهم خدم الأمراء والحكام ولجراؤهم، فكانوا في شغل من العيش والذل مقيم، لا ينالون إلا وجبات غذائية قليلة هزيلة ولجور ضئيلة، حتى كانت الأمانة تتعمد بينهم بدافع من حاجتهم إلى مد رمتهم وإجابة مطالب ذويهم . ومع هذا فيقول بعض المؤرخين بأن حالتهم برغم ذلك كله كانت أفضل بكثير منها في العصور الحديثة^(١) .

وكانت طبقات الشعب هذه، ومعها الزراعة وإجراء الأرض، هم اتصن الناس حظا وأشدهم بؤسا حين تجتاح الهند المجاعات بسبب انحباس الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من شح الأكروات وانتشار الأوبئة الفتاكه .

وقد اتفت أكبر، وأولاده من بعده، في الغالب، والتفاتا جديا إلى العناية بأمر هذه الطبقات والعمل على تحسين أحوالها ومد يد العون لها عند المجاعات والتعط^(٢) .

الصناعات : كذلك كان أكبر هو أول من على بأمر الصناعات الهندية ونهض بها، فكان عنده، كما يروى مؤرخه ليو الفضل، مائة مصنع للتسيج والأسلحة والصباغة، كل واحد منها كالمدينة في اتساعه^(٣) . ومنها ما كان يعد للسلطان في كل عام ألف حلة ليخلع أغلبها على رجاله .

وكانت أهم مراكز الصناعة المغولية هي في لاهور وأكرا وفتحبور وأحمد آباد ودكا . وكثير منها كان يصدر المنسوجات الفاخرة والسجاد إلى الخارج .

كذلك كانت الهند تصدر الصوف والتيلة والتوابل، وتقايض عليه في موانئها بالكماليات الشرقية والغربية التي اقتضتها حياة البذخ والإسراف التي كان يحياها

Muslim Rule 673. (١)

Eb. 546. (٢)

(٣) آيين لكبرى - آيين ٩

حكماها والتي كان من مساوئها دخول الطباق إلى هذه البلاد مستهل القرن السابع عشر الميلادي لتزرعه في أراضيها من بعد ذلك .

العمارة . أدى كلف الباريين البالغ بالحضارة والمدنية إلى أن التفتسوا إلى تعمير مدنهم وشغفوا بالعمارة شغفا بالغاً، حتى ظهر في عهدهم طراز معماري، هو مزيج من فنون المسلمين في الغالب وبعض الفنون الهندوكية، فشاخ في العالم باسم الطراز المغولي، ويتميز بالقباب البصلية الشكل والترصيع بالحجارة الكريمة والميناء والخزف، والأقواس الحادة، والأبواب الفخمة التي تعلوها نصف القبة .

لقد انتقد ظهير الدين بابر أبنية الهند منذ دخلها انتقاداً شديداً وأظهر امتعاضه من صارتها، ولم يمنعه اشتغاله بحروبه المتواصلة في هذه البلاد من إقامته من المنشآت على الطراز التيموري الذي عرفه في موطنه الأول ببلاد ما وراء النهر وصانده في مواضع كثيرة بخراسان وكابل، حتى لينكر في سيرته أنه كان يستخدم ٦٨٠ من النحاتين في بناء قصوره، بخلاف ١٤٩١ آخرين كانوا يعملون في منشأته الأخرى من الخزائن والمساجد بأكرا وبياتنه ودهوابور وكواليار^(١) . ولم يبق من منشأته الكثيرة هذه إلا مسجد كابل باغ في باني بت والمسجد الجامع في سنبهل، لوجي من بعده حفيد أكبر فيزين الهندستان بعدة منشآت فحصة جاءت صارتها أوبة في الإعجاز الفني . وقد بقي منها حتى اليوم ضريح هاليون وبعض قصوره في فتحبور سكري ثم بلندروازه (البوابة الكبيرة) التي أقامها تذكراً لفتوحاته الدكنية والتي تعد بارتفاعها الذي يبلغ ١٧٩ قدماً وحجبتها مثلاً لأروعة العمارة الهندية كلها . ويقوم غير بعيد منها ذلك المسجد الجامع، الذي حاكى به في تصميمه البيت الحرام، ثم حصن أكرا الذي استغرق بناؤه سنوات ثمانية .

ومما يذكر في هذا الصدد أن أكبر لم يغفل في عهده عن مراقبة أسعار مواد البناء حرصاً منه على تعمير الحياة لشعبه .

وما أذاع صيت العمارة المغولية في الخافقين هو « تاج محل » ذلك المثوى البديع الذي شيده شاهجهان لزوجته، أزعجند بانو ممتاز محل، ققام مثلاً على

(١) بابر نامة ٢٩١

الروعة في البناء وفي الوفاء، حتى رجح بعض المؤرخين، خطأ، إسماعلة شاهجهان في إقامته بالفنانيين الإيطاليين، كما نسبوا إلى باير من قبل استخدامه لتلاميذ سنان، معمارى العثمانيين، المشهور .

والثابت المعروف أن هذا البناء، الذى يعد بحق من روائع الفن المعماري المعودة، هو فى تصميمه وتقليده إسلامى خالص .

ومن منشآت شاهجهان الخالدة مدينة دهلى الجديدة، التى عرفت فى عهده باسم شاهجهان آباد، ولتى خططها على أحسن نمط فى عصره وأقام بها عدة قصور فخمة له ولأمراته، وخص التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقاشين وغيرهم، كل فريق منهم بمحلته، ليبهروا من بعد ذلك بمنتجاتهم ورواء مدينتهم أنظار الأوروبيين الذين زاروها إذ ذاك^(١) .

ونالت أكرا بدورها كذاك الكثير من رعاية السلاطين حتى أشاد الرحالة الألمانى مندلسو بنظافة طرقها الممهدة وجمال أبنيتها وإتساع رقعتها، وأحصى بها إذ ذاك سبعين مسجدًا وثمانمائة حمامًا^(٢) .

ويموت شاهجهان، وارتقاء ابنه الصوفى أورنگزيب عالمكير العرش من بعده وضعف خلفائه، فتر اهتمام الدولة بالتصميم والبناء .

وقاد الأمراء المسلمون، فى مختلف الإمارات الهندية، طراز العمارة المغولية، فظهرت أمثلة منها رائعة فى بيجانور وغولكونده وأحمد نكر ويران وبيدار وتخطتها إلى نيپال، بسفوح الهماليا، التى لم يدخلها المسلمون، فضلاً عن إمارة قباياتكر بالقصى الجنوب .

النقش : كان طبيعياً أن يستتبع شغف سلاطين الدولة المغولية بالعمارة شغفهم كذلك بنقش النقش والمغولية به، وأخذت مدرسته عندهم طابعها المغولى الخاص بها حتى أفرد لها أرباب الفنون بابًا خاصًا بها وتحدثوا فى أسفار كاملة عنها^(٣) .

Lane-Poole 367-72. (١)

Lane-Poole 333.5. (٢)

L. Binyon. The Court Painters of the Grand Moghul. Oxford 1921. (٣)

فهذا جدهم باير قد جلب معه إلى الهند جملة من روائع النقوش التي كانت في حوزة الأسرة التيمورية، ومن بينها لوحات لبهزاد مصور السلطان حسين بيقر، الذي يصنفه عمداً للفنانين بأنه رفايل الشرق^(١)، كما استمحب همليون معه في عودته من المنفى إلى الهند النقاشين المشهورين سيد علي تبريزي وخواجه عبد الصمد، ليحيى إليه أكبر من بعد ذلك فيقرر أن التصوير نوع من العبادة، وأن للفنان، فما يبدو له، طريقته الخاصة للإقرار بولحدالية الخالق المبدع، فهو حين يصور الكائنات وينقش أطرافها وملامحها على لوحه لا بد وأن يتصرف بذنه إلى التفكير في إبداع خالقها الذي نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وهو بعد ذلك يتم ببلاطه معرضاً للنقوش في كل أسبوع ويجيز المجندين من أصحابها تشجيعاً لهم، بل إنه ليستوى نوايغ النقاشين من خارج الهند بالمنح والمطايا ليندوا إليه، كما يمد تشجيعه وعنايته إلى فنانى الهانكة ويحضهم على التمتع في تفهم الفنون القديمة ودراستها، فكان من نوابغهم ببلاطه دسوت وسنوت وسنول وتراشند وحكمت، إلى جانب عبد الصمد وميرسيد علي وفرخ بك ومحمد نادر وأستاذ منصور .

وقد عهد أكبر إلى نقاشيه بتصوير وقائع جنكيز نامه، وظفر نامه، ورازنامه، وهي جميعاً من مؤلفات المسلمين . ثم المهابهارتا والراماينا . ملحمى الهانكة اللتين كان قد أمر بنقلهما وبعض كتب هندوكية أخرى إلى الفارسية، فزينت كلها بنقوش . نور حوادثها^(٢) . وقد تأثر بعض هؤلاء النقاشين بالفنون الأوروبية التي كان البرتغاليون قد جلبوا معهم إلى الهند بعض نماذج منها .

وورث جهانكير عن أبيه كثيراً من أحاسيسه الفنية حتى كان في مقدوره أن يتعرف في يسر على مقومات كل فنان وخصائصه حتى حين يشارك غيره في نقش واحد^(٣) .

(١) لهذا النقاش لوحات عدة بأشهر متاحف الفنون وهو يتكرر في نقوشه بمذهب الصوفيّة الفارسية، فهو بذلك من مدرسة الرمزية .

(٢) بدلوئي ثلث ٢٢٠، ٢٣٦

(٣) واملت جهانكيرى ٢٠، ٢٥٩

ويلغ الفنانون والنقاشون في عهد أورنكزيب بن الخط وزخارف الكتب مرتبة الأعجاز الفن الرائع، وساهم السلطان نفسه معهم بنصيب ملحوظ في نسخة القرآن الكريم في إبداع مشهور .

وتختلف عن بقاى الدولة المغولية لوحات كثيرة سجلت كثيرًا من مظاهر الحياة في البلاط وفي المجتمع الهندي، بل وفي البيئة الهندية كلها بأشجارها وأنهارها وطيورها وقبورها، تجدها اليوم هي وزخارفهم قد أزدلت بها متاحف العالم الكبرى .

حدائق المغول : يمثل كلف سلاطين الدولة المغولية بالجمال، وحجم للطبيعة ومباهجها، في حدائقهم التي أقاموها في مواضع كثيرة بالهند حتى ذاع صيتها وأقبل الأوروبيون في إيطاليا وبلاد الإنجليز، على الخصوص، يحتنون نمطها ويبنوا بها كثيرًا من منهم .

فهذا بابر تراه في مواطن كثيرة بسيرته لا يفتأ يتغنى بما أبدعته الطبيعة من آلائها . حتى إذا ما دخل الهند فشاهد حدائقها لأول وهلة، انتقدها انتقادًا شديدًا لسوء تسميقها وخلوها من الماء يجرى في جدولها بين الخمائل « فأين هي من مغاى فرغانة وكابل » . وما غدا أن أنشأ بالهندستان عددًا من البساتين والمنتزهات ما حاكى بها رياض موطنه، فكان من بينها جارباق الكابلى بظاهر أكرا الذى جعله على نمط نظيره بكابل وجلب إليه كثيرًا من النباتات والأشجار التي لم تكن الهند تعرفها من قبل (١) .

ورث عنه حفيده شاهجهان شغفة بالنباتات والحدائق والأشجار وكلفه بدراستها تصنيفاً (٢)، كما استهوت مغاى كشمير، بقتلتها، الأمراء البابرين جميعًا فكانوا يسارعون إليها في كل صيف طلبًا للالتجاع والمتعة، حتى أقاموا على غرارها بلاهور، قسبة البنغال، شالمار أخرى حاكوا به نظيرتها في التبت بأشجارها وجدولها وشلالاتها ومدرجاتها .

(١) بابرنامه ٣٨٠ب

(٢) واصلت جها نكبرى ٣٠٤، ٣٣٨، ٣٤٨، ٣٧٠

وما زال الشعراء حتى اليوم يتفنون في الفارسية والأوردية بمفاتيح هذه الرياض وجمالها .

الموسيقى : هذا والمطلع على موسيقى الهند اليوم لا يستطيع أن يغفل أسرار المؤثرات الإسلامية التي حملت فيها، سواء في ناحية الأصوات أو ناحية الآلات .

ومن المشهور كذلك أن سلاطين المغول كفوا على ولع شديد بالعزف والغناء، باستثناء أورنكزيب عالمكير الذي سرح للموسيقين والشعراء من بلاطه . فهذا بابر قد روى عنه تأليفه لبعض الأصوات، في حين كان ابنه همايون يعقد ندوة موسيقية ببلاطه في يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع: أما أكبر فقد استقدم إلى بلاطه مشاهير الموسيقيين رجالاً ونساء، من كشمير وإيران . ولا يزال مثنوى مطربة ميان نكس بكواليار مزاراً يقصده موسيقوا الهند حتى اليوم .

وفي إقبالنامه جهانكيرى، لمعتد خان، تفصيل لنشاط الموسيقيين ببلاط جهانكير، وقد كلف هذا السلطان نفسه بالموسيقى حتى ألف فيها أصواتاً كثيرة .

وفي عهد للدولة المغولية أدخل إلى الهند كثير من الآلات الموسيقية، مثل الرباب والسرود والداربى والطلووس، وجميعها فارسية الأصل^(١)، كما ألف، كثير من الأسفار في هذا الفن ترخر بها مكتبة لجنسى بأكرا اليوم، ولا يزال إلى وقتنا هذا لللكان المغولية رواج بالهند .

الحركة الفكرية : لم يبد سلاطين الدولة المغولية رعاة للحركة الفكرية في الهند وحماة للعلوم والأدب فحسب، بل كان منهم من ساهم بقلمه فيها وأخرج للناس كتباً قيمة . فمن ذلك السيرة القذة التي أنشأها بابر عن نفسه فألصقت عن إحاطته الواسعة بالتاريخ وترويض البلدان وكثير من العلوم العقلية والنقلية، وتمكنه التمام من الأدب العربية والفارسية والتركية . كذلك كتبت ابنته كلبدن بيكوم، هما يونناتمة التي تعد مرجعاً وثيقاً في تاريخ ثلثى سلاطين المغول . وشغف مثلاً بالأدب ككثيرات من نساء البيت المغولى، أشهرهن زيب النساء ابنة عالمكير التي كانت تقرأ الشعر

باللسانين العربى والفارسى فى رقة وعذوبة أودعتها ديوانها المشهور « ديوان مخفى » .

هذا، وكان همايون يحرص فى أسفاره على إلا تغلقه مكتبته الخاصة، وكان يميل بخاصة إلى المصنفات الجغرافية والفلكية، ولم يكن جواهر صاحب تذكرة الواقعات إلا تابعاً من اقتباعه ومقدم شرايه^(١) .

وصالحت سوق الثقافة والحياة الفكرية رولاً منقطع النظير عند أكبر، أعظم ملك عرفته الهند، حتى أوقف المؤرخ عبد القادر بدوائى للمجلد الثالث من كتابه، منتخب، على ذكر رجالها والمشتغلين بها فى عهده . فكان من أعلامهم ملا داود صاحب تاريخ ألقى، وأبو الفضل بن المبارك صاحب أكبر نامه وآيين أكبرى - والكتاب الأول يستعرض فيه تاريخ الدولة المغولية منذ نشأتها، فى حين يتحدث فى الكتاب الثانى عن رسوم هذه الدولة وتقاليدها ونظم الحكم فيها ومظاهر المدنية عندها - ثم أخوه أبو الفيض فيضى الشاعر الطيب الرياضى، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى، ومحمد عبد الباقي صاحب مآثر رحيمى، ومحمد قاسم هندوشاه صاحب تاريخ فرشته .

وأغلب هذه الكتب قد نشرتها المطابع ونقل بعضها إلى لغات كثيرة، وجميعها قد صنف بالفارسية التى كان لها ولآدابها رواج عظيم ومركز ممتاز بالهند أيام الحكم الإسلامى بعمامة وفى عهد الدولة المغولية بخاصة، حتى قبل كثير من الهنادكة على دراستها واشتهر نفر من برامة كشمير بإعادة للنظم بها .

ويبلغ من تقدير أكبر للعلماء أن استبد به الحزن حين بلغه خبر مقتل وزيره ومؤرخه أبى الفضل، حتى ود لو كان هو المقتول مكانه، فتولغ العلماء - على حد قوله - لا يوجد بهم للزمان إلا فى القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا .

ولاكبر يدين الهنادكة ببعث آدابهم السنسكريتية وإحيائها من جديد، وظهور طبقة منتزعة من كتابهم وشعراتهم . ويفضل نظراته المتسلحة وتشجيعه لقبل فريق

(١) كان لباير كذلك مكتبة قيمة عليها قيم يدعى عبد الله كتابدار .

من المسلمين أنفسهم على الاشتغال بتلك الأدب، حتى نظم الشاعر بالمنسكريتية الوزير عبد الرحيم حانخان الذى نقل ببرنامج من الجفتكية إلى الفارسية على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وفى عهد جهانكير كتب معتمد خان تاريخه المعروف بإقبالنامه جهانكيرى وكامرخان مآثر جهانكيرى، والشيخ نور الحق زبدة للتواريخ، كما ألف فى عهد شاهجهان، بادشاهنامه لعبد الحميد لاهورى ثم لأمين قزوينى، وشاهجهاننامه لعنایت خان وعمل صالح لمحمد صالح .

هذا : كما كتب داراشكوه بن شاهجهان بعض كتب فى التصوف المقارن مثل « مجمع البحرين »، وترجم لجمهور من أهل التصوف فى كتابه « سفينة الأولياء » . ودفعه شغفه بالإطلاع على فلسفة الهند القديمة وعقائدها إلى أن عهد إلى بعض المترجمين بأن ينقلوا إلى الفارسية قسراً من كتبها مثل « إيوانشاد » و« بهجفادجيتا » ويوجاماشيست .

حتى إذا بلغنا عصر أورنگزيب وجدنا عنده من المؤرخين محمد هاشم المعروف بخافى خان صاحب منتخب للباب وسخن رأى خترى صاحب خلاصة التواريخ، ثم محمد مستعد خان صاحب مآثر عالمكير ومحمد كاظم صاحب عالمكير نامه . وأشهر ما كتب فى عهد هذا السلطان هو الموسوعة الفقهية الكبرى، المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمكيرية التى عهد بتأليفها إلى فريق من خيرة علمائه، وبذل لهم فى سخاء، فأجملوا فيها الفقه الحنفى كله إجمالاً شاملاً . ولم يمس على الفراغ من تأليفها أكثر من قرن ونصف القرن حتى طبعت فى القاهرة ونشرت، وذلك قبل منتصف القرن التاسع عشر الميلادى مما يدل على قيام الروابط الثقافية الوثيقة بين الشعوب الإسلامية برغم بعد الشقة بينها، وما أصابها من انحلال وضعف فى ذلك القرن . ويعد هذا الكتاب من أهم المراجع التى اعتمد عليها المصلحون فى السنين الأخيرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية بمصر .

اللغة الأوردوية : كان من أجل مظاهر التجاوب القوي بين الثقافتين الهندية والإسلامية وأدبهما، تطور اللغة الأوردوية، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً،

والتي تعد مزيجًا من لغات الحاكمين والمحكومين، أى من الفارسية أساسًا، وما تسرب إليها من ألفاظ عربية كثيرة ومصطلحات اللهجات المحلية الهندية^(١) .

قد بدأت ألفاظ كثيرة من لغات الفاتحين تتسرب إلى لهجات الهند منذ أن غزا محمود الغزنوى هذه البلاد واستقر خلقاؤه من بعده بها، كما أخذت ألفاظ وعبارات هندية يتورها تجرى على لسان المسلمين في الهند، حتى تمكن فريق منهم من آداب البلاد المفتوحة تمكنا بيّنا ظهرت أمثلته عند خسرو الدهلوى الذى كان ينظم الشعر بالفارسية والبهاشا، لهجة دهلوى، على الأوزان السنسكريتية فى القرن الرابع عشر الميلادى .

حتى إذا ما أخذ الهنادكة يقبلون على تعلم الفارسية منذ أيام اللودهيّين طمعًا فى الالتحاق بالذولويّين، وجاء سلاطين المغول يقتحون لهم الأبواب إلى المناصب ويوطنون بالهضبة بالأدب الفارسية والسكريّة على السواء، ازداد تقرب الفاتحين من بعضهما واختلاطهما، ليظهر من أثر هذا المزج لهجة ثلاثة فى عهد شاهجهان فى القرن السابع عشر الميلادى، وقد بدأ عليها معالم النضج والاستقلال واضحة، وقد عرفت باسم « زبان اردو » أى لغة سوق المسكر دهلوى، حيث كان لها رواج ملحوظ .

وبقيت هذه اللغة الجديدة فى الغالب تساهم فى النشاط الأدبى بنصيب محدود لا تبلغ فيه بعض مقام الفارسية، حتى تم للبريطانيّين استعمار الهند فعملوا على اقتلاع الفارسية من هذه البلاد - بوصفها لسان المفكرين المسلمين الذين جروا على مناهضتهم حتى ترصوا آخر الأمر ثورة التحرير الهندية ضدهم فى منتصف القرن التاسع عشر - فهزلوا جهودًا كبيرة لتنظيم أصول الأوردوية ونحوها وطبعوا كتبها، حتى صمت الهند على حذافة عهدها وازدهرت آدابها ولا تزال للمطارحات الشعرية الأوردنية بالهند كلها سوق رائجة حتى اليوم .

(١) اللهجات الهندية هى فى الغالب خليط من اللغات الدرووية والأرية بما فيها المفسكريّة . وقد بقيت السنسكريتية الأدبية الخالصة وفقًا على أبناء الطبقات العليا منذ أن وضع « منو » الممت نظام الطبقات فمزلت نفسها بذلك فى الغلب عن عامة الناس .

وكانت الأوردوية هي لسان الزعماء المسلمين من أمثال السيد أحمد خان وإقبال وخلفتهما الذين نصبوا أنفسهم للخدمة بالمسلمين في الهند والدفاع عن حقوقهم بإزاء عداء البريطانيين المرير لهم .

وعالج بها نفير من المسلمين والهندكة كثيراً من الموضوعات الحديثة والقديمة فبرهنوا بذلك على مرونتها وصلابتها ككل الصلاحية في العصور الحديثة^(١) . وهي اليوم لغة باكستان الأولى ومن أكثر اللغات تداولاً بجمهورية الهند .

كان من أثر الإسلام البالغ بالهند، فضلاً عن اجتذابه للملايين من أهلها بسماعته وقوله بالمساواة بين الناس جميعاً، أن برز طائفة من المصلحين الهندكة ينادون بإفكار عبادة الأوثان من دون الله الواحد القهار^(٢)، كما أنكروا كذلك نظام الطبقات والوظائف الدينية وزواج الأطفال وعادة الساتى، وأباحوا زواج الأرامل وسمحوا لغير الهندو باعتناق دينهم .

ولم تكن دعوات تلك صاحب ديانة السك، وكبير صاحب مذهب بهتكي، ورام موهن صاحب « برهما سماج » وتعظيمهم جميعاً للأكتياء والمرسلين إلا صدق لتعاليم الإسلام الذي كان بالهند ديناً وحكماً ومدنية .

Leacy of India pp 293-5. (١)

(٢) ديانلت الهند القديمة كانت تقول أصلاً بالتوحيد في الغالب (البيروني : ذكر ما للهند من مقولة ... من ١٢) وإن لم يبدو عندها بالمظهر الراسخ المؤكد عند المسلمين حتى نحرف بها مدلتها من بعد ذلك فباعدها ما بينها وبين مبادئها الأولى .

أفغانستان

قلعة الإسلام الشامخة بقلب آسيا

تاريخها وكفاحها ضد الاستعمار في العصر الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم مُتَكَلِّمَاتُ

أحمدك اللهم وحملك، يا من صدق وعدك، ونصرت عبدك، وأعززت جنودك، وهزمت الأحزاب وحملك، وأسلم على نبيك وجيبيك المصطفى محمد بن عبد الله يا من بعثته رحمة لكل خلقك ونوراً يهتدى به كل من آمن بك وبه وأحبك، وجاهد بنفسه وماله في سبيل نصرته الإسلام واتباع دين الحق من عبيدك .

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والفرقان، ومن أولى بعهده من الله، فاستبشروا بيوكم الذي بايستم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

وبعد، فإن أفغانستان - قلعة الإسلام الشامخة بقلب آسيا - يحش شعبها المؤمن المجاهد العظيم محنة ضارية قاسية منذ مستهل عام ١٩٨٠م حين أقدم خائن مرتد من أبنائه وهوبارك كارميل على فتح جموع أبواب بلاده على كلفة مصاريحها لجحافل السوفييت الروس وذلك بعد أن خلع سلقه في حكم البلاد صيرل الروس السابق حفيظ الله أمين وقتله في ظل حروب السوفييت وأمرهم .

ولقد نهض أبناء الشعب الأفغاني الأبطال إلى مجاهدة عدوهم المستعمر الروسي الدخيل منذ اللحظة الأولى التي اقتحم فيها حدود ديارهم، لا يفت في عضدهم أبداً تنفق قواته الكثيفة على بلادهم، ولا ما يملك من أسلحة الموت والدمار الرهيبة بالقواس إلى ما بأيدي هؤلاء المجاهدين من المتاد غير الكثير والسلاح القليل.

وأطماع الروس في بلاد الأفغان - قلعة الإسلام الشامخة في قلب آسيا - ليست وليدة الصراعات السياسية في زمننا هذا فوالدعوات للمذهبية، إذ ترجع جذورها إلى مستهل القرن التاسع عشر الماضي، حين شرع القيصرية الروس يدفعون بقواتهم إلى التوغل في قلب آسيا بهدف الاستيلاء على التركستان والقضاء

(١) سورة التوبة : الآية ١١١

على الإمارات الإسلامية في هذا الإقليم الذي يعرف في التاريخ كذلك باسم « إقليم بخار الكبرى » .

وكانت بريطانيا تستكمل بدورها كذلك وضع أبنائها، في تلك الفترة على كل شبه القارة الهندية كلها .

وما لوسع المستعمر الروسي قدمه في تلك البلاد التي غزاها بآسيا الوسطى، وتبعه المستعمر البريطاني بدوره ؛ فأحكم من قبضته على شبه القارة الهندية، حتى طلق كل واحد من هذين المستعمرين يتطلع إلى الاستيلاء على أفغانستان بدعوى تأمين حدود مستعمراته الجديدة .

على أن وقع الأمر هو أن بريطانيا كانت تحرص كل الحرص على أن يبقى المحيط الهندي بحيره بريطانية خالصة لحماية لمصالحها الاستعمارية في جنوب آسيا وشرق أفريقيا، وأن عليها أن تمنع روسيا بذلك من الوصول إلى هذه المياه الدافئة عبر أفغانستان وإلى الجنوب منها بالتالي .

وقد وقعت أفغانستان وسط هذا الصراع، بين المستعمرين، الروسي والبريطاني، قلعة شامخة بفضل بسالة رجالها .

والئن كان البريطانيون قد استطاعوا، لفترات، دخول كابل وتكذيب صلاء لهم من الأفغان على عرش البلاد، إلا أن كل هذه المحاولات التي بذلها المستعمر لطى بلاد الأفغان في دائرة نفوذه قد باءت بالفشل، فضاعت للمستعمر جيوش يأكلها برغم بدقية أسلحة الأفغان بالقياس إلى أسلحة المستعمر الحديثة، وذلك على ما سنصله في الصفحات التالية، ولرغبت بذلك أفغانستان المستعمر على احترام إرادة أبنائها والاعتراف باستقلالها :

وفتتل ميدان الصراع بين الروس والبريطانيين من بعد ذلك إلى إيران، جارة أفغانستان، فصار للروس نفوذهم في الشمال والبريطانيين نفوذهم بالجنوب حتى جاء رضا شاه بهلوي الكبير فخلص بدوره بلاده من المستعمرين . وليس هذا موضوعنا على كل حال (١) .

(١) انظر كتابي « تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها » ص ١٥٥ وما بعدها .

وخرجت بريطانيا من شبه القارة الهندية بعد تقسيمها إلى جمهوريتي باكستان والهند المستقلتين، كما زال النفوذ البريطاني في جنوب شرقي آسيا، وبذلك خلا الجولسوفييت للذين لم تتحول أبدا أنظارهم عن أفغانستان لوتغيب أطماعهم عنها . ولم يكن هؤلاء الروس لينسوا كذلك أبدا لذلك الشعب الأفغاني المسلم موقعه منهم، حين لطلقتوا يتوغلون بقواتهم في الإمارات الإسلامية الممتدة من وسط آسيا حتى القوقاز، وطلقوا يخضعون لسلطانهم بقوة السلاح شعوب تلك المناطق الإسلامية طوال القرن التاسع عشر الماضي ولأوائل القرن العشرين الحالي، إذ سارع الأفغان آنذاك بفتح حدود بلادهم وأبواب دورهم لتلك الألوف المولقة من جموع المسلمين من التركمانيين وغيرهم الذين هاجروا بدينهم هربا من حرب الإبادة التي كان يمارسها المستعمر الروسي معهم في أيام القيصرة وفي عهد البلاشفة على السواء وقد رحب الأفغان بهؤلاء المهاجرين المسلمين واستقبلوهم كما استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين بالمدينة المنورة لعهد رسول الله ﷺ .

ولقد جالاد المسلمين في تلك الإمارات الإسلامية المستعمر الروسي في رسالة واستماتة حتى استشهد منهم طول تلك الفترة ما يقارب الملايين العشرة، دون أن يتلقوا معونات تذكر من الشعوب الإسلامية الأخرى التي كانت تزرع ثوباك الوقت في أحلال الاستعمار بدورها .

وحين حاول أبناء تلك البلاد عرض قضية بلادهم على عصبة الأمم القديمة، ثم على هيئة الأمم المتحدة من بعد ذلك، لم يلتفت إليهم أحد ولا تزال هناك بعض منظمات لهم، بألمانيا الغربية على الأخص، تسعى لتحقيق هذا الهدف .

وقد عمد السوفييت أخيرا إلى تهجير مجموعات من المسلمين من سكان التركمستان إلى مناطق متفرقة بقلب روسيا، ولحلل جموع من الروس البلاشفة محلهم . وغنى عن البيان أن هذه المناطق الإسلامية يعتمد السوفييت اعتمادا كبيرا على ما تنتجه من القطن والحبوب وما بها من بترول وثروات معدنية وافرة .

وقد جاءت الأنباء أخيرا بفرار نفر من المسلمين التركمانيين من قوات الغزو الروسية بأفغانستان وانضمامهم بأسلحتهم إلى صفوف المجاهدين الأفغان .

وقد كشف هؤلاء عن مدى خداع السوفييت لهم حين ألقوا في روعهم بأنهم إنما يتقدمون إلى تلك البلاد تلبية لدعوة الأفغان لهم في إلحاح لإتقاذهم من براثن الأمريكيين في بلادهم .

هذا والواضح الأكيد أن السوفييت يهدفون آخر الأمر إلى ضم بلاد الأفغان إلى تلك الدول الإمارات الإسلامية التي استعمروا أرضها واستمبدوا أهلها في تلك المناطق الممتدة من التركستان حتى القوقاز، والتي كان لها دور بارز في بناء الحضارة الإسلامية، فهي الأرض التي ظهر فيها ابن سينا والبيروني والأمام البخاري والبيهقي والترمذي وغيرهم بل إن روسيا نفسها تدين بنشأة كثير من معالم الحضارة والمدنية فيها إلى حكام تلك البلاد الذين بلغوا بفتوحاتهم مرات متكررة إلى موسكو القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . وظل دوق موسكو نفسه لسنين طويلة لا يمارس سلطانه إلا على إراداتهم .

وفي الصفحات التالية حديث عن تاريخ أفغانستان منذ الفتح الإسلامي حتى وقتنا هذا وما تعرضت له تلك البلاد في العصور الحديثة من محاولات المستعمرين - الروس والبريطانيين - لطيها تحت نفوذهم . وقد تصدى أبناء تلك البلاد لتلك المحاولات في بسالة وتمرس وبقتال أرغمت العدو نفسه على احترام مشيئتهم الحرة واستقلالهم . وهم فاعلون ذلك مرة أخرى مضطلمون به في هذه الأيام من جديد بإذن الله في مجالدتهم للغزوالروسي الحالي لبلادهم ومحاولتهم دفع هذا المستعمر الفاشم بحفاظه عن بلادهم .

ويلي ذلك حديث آخر عن السيد جمال الدين الأفغاني، ودعوته التي خرج بها من بلاده داعيًا إلى نقطة الشعوب الإسلامية في مختلف الأقطار، ومحرضًا لها على استردادها لحريتها وبعثها وإحيائها لأجداد الإسلام من جديد، وما أسفرت هذه الدعوة عن نتائج خطيرة وأثر صيقة لا تزال تكتس في أنحاء البلاد الإسلامية حتى اليوم، والله الموفق .

تاريخ بلاد الأفغان « أفغانستان »

منذ الفتح الإسلامي

لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم الذي تشتهر به اليوم إلا منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وإن تكررت القبائل الأفغانية في التاريخ من قديم واشتهرت مواطنها التي تتكلف منها هذه الدولة اليوم، اشتهرت « كابل » و « غزنة » بدورها في التاريخ الإسلامي، كما اشتهرت « هراة » بمكائنها المرموقة في ميلادين الثقافة الرفيعة، فضلاً عما لأراضيها وأراضي « بنخشان » و « مجستان » من خصب صميم، وعرفت « قندهار » شهرتها التجارية وموقعها الاستراتيجي الهام .

تقع بلاد الأفغان عند الركن الشمالي الشرقي من الهضبة الإيرانية الآسيوية . وإقليمها جبلي شديد الوعورة في أغلبية تصل مساحته إلى ربع المليون من الأميال المربعة، وتحيط به فارس وباكستان وتركستان .

وفي أمة الأفغان، التي يبلغ تعدادها خمسة عشر مليوناً من الألفس، تتمثل الشعوب الإسلامية كلها بعروقتها خير تمثيل . ففيهم من ينتسبون إلى العرب ؛ بل وإلى خير العرب من قريش، وفيهم من عناصر الترك والفرس والمغول .

وكما تتمثل شعوب المسلمين في أمة الأفغان، فكذلك تتمثل لغاتهم في « البشتو » لغة الأفغان الثانية بعد « الفارسية »، نجد فيها ألفاظاً ومصطلحات من العربية والفارسية والتركية .

هكذا يتمثل المسلمون، عروفاً وأسماء، في قلعة الإسلام الشامخة هذه .

وقد كان للأفغان - قبل دخول الإسلام إلى بلادهم - مساهمة في حضارة العالم القديم، كما عرفوا كذلك قديراً من حضارة الهند، وحضارة إيران، بحكم الجوار، وعرفوا حضارة اليونان حين كانت بلادهم جزءاً من دولة « قبطريا » التي أسسها قواد الإسكندر المقدوني في تلك الأثناء .

وأول ما دخل الإسلام بلاد الأفغان في القرن الأول الهجري، فلقد فتح المسلمون العرب بلاد فارس أيام ثلثي الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب كما هو معروف مشهور . حتى إذا ما ولي عثمان بن عفان ثالث أمراء المسلمين، وجدنا عبد الله بن عامر عامله على البصرة يبحث بقلته عبد الرحمن لغزو « سيستان » فلا يرجع من غزوته هذه حتى يبلغ جبال الغور ويدخل « كابل » فيأسر أميرها للبهدي (البوذى) ويحطم كل ما صادفه في طريقة من لوثان للبهديين، ومنها ما كان من ذهب محلى بالجواهر . وقد استسلمت له كذلك : « نيسابور » و « هرات » و « مرو » .

واشكت غزوات المسلمين في هذه النواحي أيام الأمويين حتى بلغت آسيا الوسطى وتخطت حدود الهند، وذلك بحسن تدبير القائد العربي المعروف « الحجاج بن يوسف الثقفي » بخاصة . واستقر على أثر هذه الغزوات كثير من أخذ القبائل العربية في البلاد المفتوحة، استقروا في بلاد وراء النهر وفي إقليم السند وفي خراسان ومنزل الأفغان، ولم ينتج عن استقرار العرب بهذه المناطق انتشار الإسلام بين الأهلين هناك على نطاق واسع فحسب، بل لقد ظهر كذلك من بعد ذلك بوقت قصير طبقة من أبناء هذه البلاد المفتوحة، تجيد العربية وتشتمل بطوم اللغة والقرآن والحديث .

وهنا نشير إلى حقيقتين هامتين : الأولى، هي أن العقائد التي كانت تسود هذه المناطق، من بوذية وزرانشية وغيرها، كانت تقوم على نظام الطبقات حتى كان الأمر يصل ببعضها إلى أن تحرم على أتباعها مجالسة غيرهم أو مطاعتهم، فضلاً عن استبداد كهنة هذه العقائد الشديد بأتباعهم، فحين قبل الإسلام فوجد فيه الأهلون المساواة التامة، لا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى، قبلوا على الدخول فيه دون إكراه . تقول دون إكراه وتمشهد في ذلك بما ذكره المستشرق بارتولد في كتابه عن تاريخ الحضارة الإسلامية من تشدد المعتصم العباسي في عقاب نفر من المسلمين كانوا قد تعرضوا لمعبد من معابد المجوس ببلاد الصغد . والحقيقة الثابتة، هي أن ما من بلد دخله الإسلام إلا وتحول أهله في الغالب عن لغاتهم وعقائدهم وعاداتهم إلى لغات المسلمين وعقائدهم ورسومهم .

جمهورية أفغانستان

وخلف العباسيون الأمويين، وفي عهدهم بدأت تظهر الدويلات الإسلامية المستقلة في القسم الشرقي من الدولة الإسلامية . فظهر الطاهريون ثم الصفاريون الذين بسطوا سلطانهم على كابل وهرات وطبرستان، وخلفهم السامانيون فضموا إلى ملكهم أراض كثيرة في بلاد ما وراء النهر . وكان من بين عمال الدولة السامانية أمير يدعى سبكتكين كان يحكم ولاية غزنة الأفغانية في القرن الرابع الهجري .

وعلى يد سبكتكين هذا قامت أول دولة أفغانية إسلامية هي الدولة الغزنوية التي اضططعت بدور من أعظم أدوار التاريخ الإسلامي .

فقد استطاع سبكتكين مدة حكمه القصير أن يمد حدود دولته حتى البنجاب ويضم إليه الخراسان وأجزاء من بلاد ما وراء النهر . وخلفه ابنه يمين الدولة محمود الغزنوي أعظم سلاطين المسلمين لعصره . ولا يرجع إلى محمود الفضل في نشر الإسلام ببلاد الأفغان كلها فصب، بل وفي الهند كذلك التي خرج إليها غازيا مجاهدا سبع عشرة مرة في مدى سبع وعشرين عاما ابتداء من آخر القرن الرابع الهجري، ولم يفر محمود ما عرضه عليه الهنادة من أموال طائلة ليفتكوا بها لوثاتهم، وهو في جهاده لنشر الإسلام ببلادهم، ورد عليهم بمقاتله المشهورة بأنه يؤثر أن يقال عنه بأنه محطم الأسنام على أن يقال عنه بأنه فاتح الأوثان .

وهنا تعرض لحادثة مهمة، ذلك أن المستعمرين البريطانيين، حين دخلوا كابل في القرن الماضي، عمدوا إلى نقل بعض حجارة منها إلى الهند انطلقوا بها يزعمون الهنادة بأنها من بقايا معابدهم التي خربها محمود الغزنوي قبل ذلك بألف عام ونقلها إلى بلادهم لينخلها في بناء مساجده . أولاد البريطانيون بصليهم هذا أن يزيدوا من الوقعة بين الهنادة والمسلمين بالهند، لكن أمرهم ما عدا أن الفتضح وظهر كذب ما ادعوه .

وفي عهد محمود، الذي امتدت دولته من شرق الهند حتى فارس صارت حاضرتة غزنة الأفغانية مركزا من أهم مراكز الثقافة الإسلامية . فكان ببلاطه

جمهور كثير من رجال العلوم والأدب والفنون، نذكر من بينهم العلامة أبا
الريحان البيروني والعيني المؤرخ ثم الفردوسي أعظم شعراء الفرس جميعاً .

وتعرضت الدولة الغزنوية لهزات عنيفة في عهد خلفاء محمود بسبب
حروبهم مع السلاجقة والغز، حتى ورثهم الغوريون الأفغان في القرن
السادس الهجري . وكان هؤلاء الغوريون هم خير جند الغزنويين أيام مجدهم .

وإذا كان بـ « محمود الغزنوي » يبدأ دور الحكم الإسلامي بالهند، فبجهود
الغوريين انتشر الإسلام هناك على نطاق واسع، واستقرت الحكومات الإسلامية التي
ظلت بأيدي سلاطين من الأفغان حتى أوائل القرن العاشر الهجري حين انتقلت
مقائد الأمور إلى أيدي الدولة المغولية التي أقامها هناك الأمير التيموري ظهير
الدين محمد بابر، وفي عهد هؤلاء الأمراء الأفغان ازدهرت الهند حكماً وحضارة
ومدنية .

وتعرضت بلاد الأفغان بدورها لمحنة الغزو المغولي التي نزلت بالعالم
الإسلامي على أيدي جنكيز خان ولولده، وأصاب الخراب أغلب مدنه . وظلت
بلاد الأفغان تخضع لأبناء جنكيز خان الذين كانوا يحكمون في فارس باسم
الإيلخانيين حتى ظهور تيمورلنك . وفي عهد الإيلخانيين بدأت الحضارة الإسلامية
تنتعش من جديد . فمن الحقائق المقررة أن جموع الترك والمغول المخربة، بعد
أن دخلوا في الإسلام، انقلبوا بفضل الحضارة الإسلامية إلى بناء للمدنية، حتى
ازدهرت على أيديهم الثقافة والمدنية الإسلامية ازدهاراً ملحوظاً نجد مثاله عند
الإيلخانيين المغول في فارس الذين ترجم كثير من المؤلفات في عصرهم، أي في
القرن الثامن الهجري، إلى الفارسية بأوروبا، وفي آثار تيمورلنك ولولده من بعده
ببخارى وسمرقند وهراة .

واستطاع تيمورلنك أن يقيم له دولة واسعة امتدت من قلب روسيا حتى
ضفاف الكنج الهندي . وصحبت اقتصاراته الحربية الكثيرة هذه نهضة حضارية
واسعة لم يشهدها القسم الشرقي من الدولة الإسلامية من قبل .

وفي عهد الأمراء التيموريين عمرت هراة الأفغانية بالمنشآت الفخمة من مساجد ومدارس ودور للشفاة وغيرها . وصارت هذه المدينة من أهم مراكز الثقافة الإسلامية، قصدها مشاهير الفقهاء والحكماء والشعراء والكتاب والمؤرخون والفتاوشون (أى المصورون) أولئك الذين أنادت الإنسانية جمعاء مما خلفوه من تراث فولاذ جليل . وكانت هذه المدينة هي كذلك أعظم مركز التجارة والسياسة بآسيا الوسطى في هاتيك الأوقات، حتى رأينا الأمير التيمورى ظهير الدين بابر يقول عنها، في سيرته القيمة المعروفة ببا برنامة، بأنها كانت أعظم مدن العالم الممكنون إذ ذاك .

وفيما كان حسين يقرأ آخر الأمراء التيموريين بخراسان يحكم في هراة التي بلغ نشاطها الحضارى والثقافى ذروته في عهده، كان ابن عمه ظهير الدين بابر يحكم في كابل وغزني . وظل بابر في بلاد الأفغان ما ينوف على العشرين عاما . حتى تم له في ختام الربيع الأول من القرن العاشر الهجرى الاستيلاء على الهندستان . أى شمال شبه القارة الهندية كله، حيث أقام دولته التي تعرف في التاريخ باسم الدولة المغولية، فظلت تحكم الهند أكثر من ثلاثة قرون حتى دخلها المستعمرون البريطانيون عليها . وفي عهد الدولة التيمورية هذه شهدت الهند دورا من أعظم أدوار الحضارة بها .

ولم ينس بابر، حين تم له الجلوس على عرش الهند، أن يبعث بقطعة من النقود الفضية تذكارا منه إلى كل قاطن بكابل، رجلا أو امرأة طفلا أو شيفا حوا أو عبدا . ولا يفتقر، وهو بالهند يتقن بمحاسن كابل، فلا يقوم جملة من الرياض على نمط مغايرها اشترعت باسم البسفان الكابلية فصعب، بل نراه كذلك يوصى بلن ينفن بهذه المدينة، وكان له ما تمناه فثرى على ريوه تطل على بلده الحبيب .

ظلت بلاد الأفغان تعد في الغالب جزاءا من الدولة التيمورية أى المغولية بالهند ، يرى فيها أصحابها موطن أبيهم الأكبر وحصلهم الذى يلوذون به حين تهددهم الأخطار .

حتى إذا ما أخذ الضعف يتسرب إلى الدولة المغولية بالهند، انطلق حكام
الفرس يخطفون بعض الأراضي الأفغانية في حين أخذت بعض القبائل الأفغانية
بدورها تتطلع إلى الاستقلال ببلادها وتطمح إليه .

واستولى على مقاليد الحكم بفارس، في النصف الأول من القرن الثاني عشر
الهجري - القرن الثامن عشر الميلادي - نادر شاه الأفشاري مكان الصفويين
ليجتاح من بعد ذلك بلاد الأفغان وينحدر إلى الهند فيدخل دلهي ويقل بها من
الدمار والخراب أكثر بما أنزل بها تيمورلنك من قبل، ويستولى على ما بها من
ثروات وأموال طمع من وراثتها إلى إعداد جيش قوى يكف به خطر العثمانيين عن
بلادها .

وكان نادر شاه قد عمد بعد دخوله بلاد الأفغان إلى ضم فريق منهم إلى
جده، وكان من بينهم قتي في الرابعة عشر من عمره يدعى أحمد قتل أبوه وجده
في حروبه معهم، وكان من زعماء الأبداليين الأكرياء . وسرعان ما وصل هذا
الفتى بطموحه وجده إلى قيادة فرقة الأبداليين الأفغان بالجيش الفارسي، وكانت
تضم بضعة آلاف من المحاربين الأتداء .

وحين قتل نادر شاه، بتكبير من القاجاريين في جيشه، سارعت الفرقة
الأفغانية تشق طريقها عائدة إلى بلادها، وهناك تودى بقاتلها أحمد، في مدينة
قندهار أميراً على بلاده باسم « أحمد شاه الأبدالي الدرائي »، وكان إذ ذاك في
الثالثة والعشرين من عمره، فكانت دولته هذه هي أول دولة في التاريخ تعرف باسم
« الدولة الأفغانية » .

وسار أحمد شاه هذا في حكمه سيرة عدل ألقت القلوب من حوله ولم يكن
يرى أمراً دون مشورة زعماء القبائل في بلاده .

وما إن تم له إرساء قواعد حكمته حتى انحدر إلى سهول البنجاب فخاض
حرباً حروب متكررة عند دلهي وما حولها، هدف من وراثتها إلى دفع خطر
الجماعات التي كانت تكيد للدولة الإسلامية بالهند وعلى رأسهم المرهتيا والسك .

وأعظم هذه المعارك هي التي كسر فيها ملتي ألف من محاربي المرهتها
الأشداء في سهل باتي بت إلى الشمال الغربي من دهل . وكانت جموعهم قد
زحفت من وسط الهند وجنوبها بهدف القضاء التام على الدولة الإسلامية بنسبه
القلارة الهندية .

ولولا ما تعرض له أحمد الأبدالي من متاعب، بسبب ضعف موارده المالية
وتفشى المرض في صفوف جنده، حتى اضطر إلى الرجوع إلى بلاده لكان قد
استطاع في الغالب أن يعود للحكومة الإسلامية بالهند سابق هيئتها ، ويعوق
بلا شك استعمار البريطانيين الشمال الهندي بعد أن كانوا قد تغلغلوا في الشرق
والجنوب .

وسار أبناء أحمد شاه من بعده سيرته فحاول تيمور شاه وزمان
شاه في غزوات متكررة إقراار الأمور في إقليم البنجاب أهم أقسام
باكستان الحالية .

ولم يكن البريطانيون بعد أن تم لهم دخول دهل ليستكروا على وجود الأفغان
الأشداء بالبنجاب، وهم يعلمون تمام العلم أن هؤلاء لم يقدموا الهند إلا لشد أزر
المسلمين أخطر أعدائهم بها .

هناك عمد هؤلاء المستعمرون إلى أسلحتهم الاستعمارية المشهورة فما
زالوا يشاء فارس حتى حملوه على مهاجمة بلاد الأفغان، فلم ينته الحال إلى
انسحاب الأمير الأفغاني من الهند فحصب، بل قد خلع كذلك عن عرشه
بتحريض منافسيه عليه .

حتى إذا ما جلس على عرش الأفغان الأمير القوي دوست محمد أوائل التسعين
التاسع عشر، عزم البريطانيون على غزو تلك البلاد التي تعد أقوى قلاع المسلمين
بآسيا إذ ذلك وكان قد تم لهم تثبيت أقدامهم بالهند وتنظيم لنتهاب خيراتها وثرواتها .
هناك انبروا يظاهرون شاه شجاع الملك في منافسته لأمر الأفغان الجديد على
العرش حتى سببوا معه فريقا من رجالهم وأمدوه بأسلحة حديثة خاض بها عدة
معارك انتهت بانتصار دوست محمد انتصارا حاسما . وقرن الأمير الأفغان

انتصاراته هذه بفوز آخر، كتب له عدة حدوده الغربية، إذ دفع عنها خطر الفرس الذين كانوا قد أقبلوا بهاجمونه بتحريض من الروس وعون منهم .

صالح دوست محمد البريطانيين كما صالح الروس بدورهم كذلك، وكانت ولايات آسيا الوسطى الإسلامية قد أخذت تتسلط بأيديهم الواحدة بعد الأخرى فضلا عن ازدياد نفوذهم ببلاد فارس :

ولم يتعرف البريطانيون بموقف الحياد الذي التزمه أمير الأفغان بإزاء المنافسة الشديدة التي قامت بين روسيا وبريطانيا في هذه المنطقة حتى زعموا أن المندوب الروسي فيتكوفتش لم يكن يمارس نشاطه بالعاصمة الأفغانية لولا تأييد دوست محمد له، وتكرعوا بهذه الحجة فزحلوا على بلاد الأفغان .

ولئن كان قد تم لهؤلاء المستعمرين دخول كابل ولجلاس ربيهم شجاع الملك على عرشها بعض الوقت، فإن إرادة الأفغان كانت أمضى من أسلحة الاستعمار، إذ قلموا قومة رجل واحد فلم يكتفوا بإخراج هؤلاء للخلاء وصنيعتهم من العاصمة فصب، بل وتمكوا كذلك، على قلة عددهم، من أن يبيدوا في بعض المواقع جيوشا بريطانية بأكملها، كما حدث عند « خورد كابل » حيث أبعد جيش بريطاني بأكمله قومه عشرون ألفا من الجند المجهز بأحدث الأسلحة، فلم ينج من رجاله جومبا إلا طبيب شاب يدعى « بريدون » استطاع أن يصل إلى مدينته في جلال آباد فيخبرهم بالكارثة التي نزلت بجيش الإمبراطورية التي لم تكن تفرب الشمس عن أملاكها .

وعاد البريطانيون إلى بلاد الأفغان من جديد طلبا للتأثير فزالت بهم الهزائم، وسقط الوطنيون على ربيهم شجاع الملك فقتلوه، فلم يروا بدا آخر الأمر من مصالحة دوست محمد والاعتراف به أميرا على الأفغان .

وما إن مات الأمير عام ١٨٦٣م وخلفه ابنه « شير علي » حتى عمد البريطانيون إلى محاولة التدخل في شئون هذه البلاد من جديد بحجة تأمين حدود الهند من هجمات قبائل الأفغان عليها . والواقع أنهم كانوا هذه المرة يهدفون لتنفيذ خطة بعينها، رسمها « نذراني » داهيتهم المشهور، ترمى إلى مهاجمة الروس في

آسيا الوسطى لو تعرضت الأمثلة إذ ذلك لخطر استيلائهم عليها، وقد تمكن البريطانيون عام ١٨٧٨م من دخول كابل مرة أخرى في جيوش كثيفة، وفر من وجههم أميرها « شير علي » حيث ولفاء أجله بعد ذلك بعام واحد .

ولم يقل الشعب الأفغاني أن يولى عليه « يعقوب خان بن شير علي »، على أن تقوم إلى جانبه بكابل بعثة بريطانية . فانتقل وقلوب المحتلين في كل مكان حتى قتل كل أعضاء بعثة الاستعمار وأُزيل بقوات الاحتلال خسائر كبيرة وهزائم متكررة اضطرتهم إلى الجلاء من قورهم .

هناك قبض على أزمة الحكم الأمير عبد الرحمن، خفيد « دوست محمد » فمضى في عزم وحزم يقر الأمور ويشيع الأمن في بلاده ويصلح نظم الحكومة وينظم الجيش ويوفر له عدده وأسلحته حتى ولفاء أجله عام ١٩٠١م.

وخلفه ابنه حبيب الله خان فسار سيرته، وأثر أن يهادن البريطانيين إبان الحرب العالمية الأولى حتى رفض أن يستجيب إلى نداء العثمانيين والألمان مع ما بثلوه من جهد لحمل الأفغان على حرب البريطانيين بدعوى الجهاد . ولم تقدر له بريطانيا صنيعة هذا فأصرت على الاحتفاظ ببعض مناطق الحدود الأفغانية بدعوى تأمين حدود الهند .

وقتل هذا الأمير عام ١٩١٩ وهو في مصطلاه بلخان دون أن يهتدى أحد إلى قاتله . وبعد حبيب الله خان رائد النهضة الحديثة في بلاد الأفغان بلا نزاع .

وخلفه ابنه أمان الله خان ، ويجهد هذا الأمير تحقق لبلاد الأفغان استقلالها الكامل، إذ استرد بقوة السلاح كافة الأراضي التي كان البريطانيون قد انتزعوها، وبلغ إلى أن اعترفت بريطانيا له بالاستقلال التام، وضمت له مرور ما يحتاج إليه من سلاح وعتاد عن طريق الهند، وولفت على إنشاء شقة حرام بين حدوده وحدود الهند .

هكذا بعثت حكومة الأفغان لأول مرة بالسفراء الرسميين إلى الدول الأخرى، وولفت من علاقاتها بصفة خاصة مع روسيا وتركيا الحديثة وإيران . واهتم أمان

الله خان ملك الأفغان اهتموا بالغا بتنظيم حكومته وجيشه ونشر التعليم، وعنى عناية شديدة بتعمير بلاده، كما وضع أسس الحياة الدستورية بها، غير أنه نزع إلى تقليد مصطفى كمال أتاتورك في نبذ كثير من التقاليد الإسلامية وجهر بذلك في رحلته المشهورة التي خرج فيها عام ١٩٢٨م إلى بعض البلاد الشرقية والغربية . حتى إذا ما عاد إلى بلاده ثار عليه فريق من قومه ومعهم طائفة من العلماء ثورة عارمة انتهت بخروجه من بلاده . هناك سارع إلى بلاد الأفغان محمد نادر شاه، أحد أبناء عصمته، وكان يعاني من المرض الشديد بالخارج، ففرض على أسباب الثورة وسار في حكم أمته على مقتضى العدل والحزم ملتزماً بقواعد الشرع متمسكاً بمكارم الأخلاق والتقاليد الإسلامية . وتجلت همه نادر شاه فيما بذله من جهود للنهوض بالبلاد من جديد بعد تلك الفتنة العارمة التي كانت قد أنهكت قواها واستنزفت مولدها ومحمد نادر شاه هذا هو الذي قاد جيوش الأفغان في حربها مع البريطانيين عامي ١٩١٩، ١٩٢٠، فهو بحق بطل استقلالها، وقد اختلته يد أليمة عام ١٩٣٣ .

وخلقه ابنه محمد ظاهر شاه فنشر سيرته في تدعيم الحياة الدستورية والنهوض بالجيش ونشر التعليم وتقوية للتصديقات البلاد وتسييرها واستثمار ما بأرضها من ثروات فضلاً عن توثيق علاقاتها بجيرانها بعملة وبالبلاد الإسلامية بخاصة .

وفي ١٧ يوليو عام ١٩٧٣ أعلنت أفغانستان إلغاء النظام الملكي وتبني الجمهورية برئاسة محمد داود زين عم الملك السابق محمد ظاهر شاه .

وظهرت ميول داود هذا إلى توثيق علاقاته بالسوفييت واضحة منذ أن أمسك بزمام الحكم في بلاده . وما لبث هؤلاء أن دفعوا بسيل من أوليائهم، وهو سور الدين تره كي، فسيطر على « محمد داود » رئيس الجمهورية في ١٨ أبريل ١٩٧٨ وقتل به وبأسرته، ثم اتخذ مكانه ولم يطل : « تره كي » الأجل إذ باعته بامر من الروس عميل آخر لهم هو حفيظ الله أمين فقتله في منتصف سبتمبر عام ١٩٧٩، ولم يهنا حفيظ الله بالحكم بدوره إلا شهراً ثلاثة، إذ رأى الروس في سيل وخائن

آخر، هو بايرك^(١) كارميل، رجلهم المنشود الذي بادر بأمرهم وفي ظلال سيوفهم إلى خلق حيظ الله أمين في ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩ ثم قتله في اليوم التالي واتخذ مكانه.

لقد بدأ تسلل الروس إلى بلاد الأفغان كخبراء وأصدقاء - على عانتهم - أيام محمد داود ثم في عهد نور الدين ترة كي الذي شرع يمهّد الأرض أمام الغزو السوفيتي لأفغانستان، ذلك الغزو الذي كشف عن وجهه أيام حيظ الله أمين وبلغ ذروته ابتداء من ولاية بايرك كارميل وفي عهده .

والواضح المؤكد الجلي هو أن السوفييت لا يهدفون من وراء غزوهم لأفغانستان إلى مجرد الاستيلاء على الموارد الطبيعية والثروات المعدنية بتلك البلاد، ومن بينها مصادر الغاز الطبيعي الغنية، فحسب . بل إنهم يهدفون أساساً وفي المقام الأول كذلك الوصول إلى منابع البترول في الخليج، تلك المنابع التي تعدّ بلا مبالغة، حصب الحياة للدول الصناعية الكبرى، وهم أي السوفييت، في تطلعاتهم هذه لا يرغب عن تفكيرهم أو يسقط من حسابهم وتخطيطاتهم، ما أنت إليه ثورة إيران الخميني من اضطراب واضح بالمنطقة والحصار الوجود للسياسي الأمريكي هناك بالتالي .

إن بلاد الأفغان لا يزيد عدد سكانها على خمسة عشر مليوناً من الألفس ومساحتها كذلك ليست بالكبيرة بالنسبة إلى أراضي جيرانها كإيران وباكستان، وليس في جيرانها بدورهم من له من القوة الحربية ما يستطيع أن ينجذ به جاره، وهذه أوضاع واضحة معروفة لدى الجميع كافة دون مرية أو شك .

ويرغم ذلك كله فإن الروس بدّلوا غزوهم لأفغانستان بقوات تقرب من اثني عشر ألف جندي أخذت من بعد ذلك - وعلى ضوء مقاومة الشعب الأفغاني الباسلة - تزيد في تتفّق جنودها على تلك البلاد حتى تجاوز عددهم المائة والعشرين ألفاً، إلى جانب أمبراب الطائرات وحشود المدرعات والدبابات وأسلحة الدمار الأخرى .

(١) بايرك : الأمد الصغير .

إن السوفييت حين أُلْصقوا على غزو أفغانستان، لم يكن يغيب عن بالهم أو لا يدخل في حسابهم تاريخ شعب أفغانستان المجيد ومواقفه الباسلة وضراوته في قتال أعدائه حرصا على حريته واستقلاله حتى أُنْقى للمستعمر عدوه جيوشا بأكملها في القرن التاسع عشر الماضي على ما أشرنا إليه من قبل .

ولقد أيقن الغزاة السوفييت أنهم بالفن هذه المرة بأسلحتهم الكثيفة المدمرة إلى ما لم يبلغوه هم وغيرهم من قبل بالقضاء التام على . إرادة هذا الشعب الأفغاني الأبى، ولم يلق هذا المستعمر بالا إلى ما حدث في حرب رمضان - أكتوبر بسيناء، حيث أُلْصق جند مصر الدليل القاطع الأكيد على أن السلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح .

وهكذا لم يتردد المجاهدون الأفغان بأسلحتهم القليلة البسيطة صن التصدي لغزاة بلادهم بكل شبر من أرضهم، فألقوا جموعا عدة من قواتهم وأستولوا على مقابر كبيرة من عتادهم وأسلحتهم الحديثة التي ما غدوا أن استخدموها بدورهم في حربهم، فضلا عما أستولوه لهم من طائراتهم .

صنع المجاهدون الأفغان هذا كله ويدومون على صنعه كل يوم برغم ما يستخدمه الغزاة من أسلحة ليجتمع المجتمع الإنساني المتحضر على حظر استخدامها .

إن المجاهدين الأفغان الأبطال ببسالتهم وضراوتهم في القتال واستماتتهم في الدفاع عن كل شبر من أرض، هم جديرون بكل حق ويكل فخر أن يكونوا أفضا أولئك الأشخاص الأجد الذين طموا المستعمر في القرن الماضي كيف يحترم مشيئة الأحرار .

وخير مثال لتقيس الأفغان لمعالي الحرية والاستقلال نراه في تلك الدعوة التي انطلق جمال الدين الأفغاني يجاهد بها في سبيل يقظة الشعوب الإسلامية جساء وينفخ فيها من روح الجهاد . ويحرضها على طلب الحرية والتفاني في سبيلها .

ودعاء إلى الله أن يكال جهود المجاهدين الأفغان بالنصر المبين .

« وإن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

السيد جمال الدين الأفغانى ودعوته ليقظة الشعوب الإسلامية

تجمع المصادر والآراء على أن هدف السيد جمال الدين الأساسى الذى كرس كل جهوده طوال حياته وتحقيقه كان هو إيقاظ الشعوب الإسلامية من نللكه الميأى الذى كان يريم عليها وإلهاضها من ضمتها حتى تلحق بركاب الأمم القوية فيعود للإسلام - عقيدة وحضارة ومدنية - مجده بالثلى وعلو شأنه .

وقبل أن نعرض بالحديث عن جهاد السيد وجلائه فى سبيل تحقيق غاياته وتوقيع أهدافه، نشير هنا إلى حقيقة بالغ إلهيا لأحد علماء المسلمين قبل أن يعلنها العلماء المحضون بأكثر من ألف علم وذلك حين قرر عالما « المقلسى » الجغرافى من تجربة ويؤمن بأن « اللبأع تكثير فى الطباع » وهو ما يصرف اليوم بأثر البيئة الراسخ فى مزاج الفرد ومقومات حياته وطرائق تفكيره .

ويئنة السيد الأفغانى الذى خرج من كراچا عام ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م وحلش لأحداثها هى أفغانستان التى تعرضت قبل مولد هذا الزعيم وإبان حياته ومن بعد ملكه لعدوان أكبر دول الاستعمار فى المنطقة إذ ذلك وهى روسيا وبريطانيا .

ولى القرن الذى علش فيه السيد جمال الدين، أى القرن التاسع عشر الماضى كانت بريطانيا قد أرستت أقدامها فى الهند وأخذت تتهاى للاقتضاء على بلاد الأفغان ضد حدود الهند الشمالية الغربية بدعوى تأمين حدود مستعمرتها الهندية فى حين انطلقت روسيا تتخطف بلاد المسلمين فى آسيا الوسطى والتركستان . ولئن تالست هاتان الدولتان وسلبتا بدعوى الاستعمار فى وسط آسيا، فقد كان يجمعها فى الواقع اشتراك راسخ يهدف لقضاء على كل كيان للمسلمين أولما وجنوه .

وبين هاتين القوتين العظيمين بجيوشهما الجرارة ولقت أفغانستان كلمة للإسلام شامخة فى وسط آسيا تنفع عن حدودها جند المستعمرين فى صلابة أبطال حطين وضروة جند عين جالوت .

وحين غادر السيد جمال الدين بلاده عام ١٨٦٩م لم يكن قد مضى إلا سنوات قليلة حين تمكن الشعب الأفغانى وعلى رأسه بطله الكبير « دوست

محمد » من أن يقبلي لبريطانيا جيشاً بأكمله عند « خورد كابول » قوامه عشرون ألفاً من الجند لم ينج منه إلا ضابط واحد يدعى برينوت عاد إلى قومه ليقتضى إليهم بأخبار تلك الكارثة . وهكذا كانت إرادة الأفغان أقوى من أسلحة الاستعمار، فلم يسمحوا أبداً على مدى تاريخهم الطويل لمستعمر أن يطأ تراب بلادهم .

فعل صناديد الأفغان ذلك وكثير منه فوما بعد حين انطلق جمال الدين من بلاده ليستنهض هم المسلمين في الهند وفارس وتركيا ومصر، يدعهم إلى توحيد صفوفهم بإزاء المستعمر والعمل على استرجاع ممالك أمجادهم .

وكان أطول مدة قضائها السيد في بلد إسلامي واحد بختياره هي تلك التي عاشها بمصر وتربد على سنوات ثمان (١٢٨٨هـ - ١٢٩٦هـ) (١٨٧١م - ١٨٧٩م) .

ولنا هنا أن نتساءل عن الأسباب التي أفضت بالبقاء هذه الحقة غير القصيرة بمصر بالذات .

فبالقطع لم يكن يخيب عن بال السيد الأفغاني أنه من مصر خرجت تلك القوات التي دمرت جيوش الصليبيين في حطين . والمصريون هم كذلك الذين أوقفوا زحف المغول عند عين جالوت، ولم يكن من أثر هذا النصر الحاسم إحصار خطر المغول عن العالم الإسلامي فحصب، بل إننا نجد من بعد ذلك أبناء هولاكو ممن حكموا في إيران وما حولها لا يلبثون بفعل الإسلام - عقيدة ومدنية - أن يقبلوا على الدخول في دين الحق وينقلبوا إلى حمة له . هكذا ولأول مرة في التاريخ يدخل الغالبون في دين المظلومين .

عرف السيد جمال الدين ذلك عن مصر الإسلامية دون شك، كما عرف كذلك عن مصر في القرن الذي عاش فيه أن المصريين لم يسكتوا حين دخل بلادهم نابليون بونابرت أعظم قواد عصره فحاربوا جنده في شوارع القاهرة وأزقتها وطاردهم في كل شبر بقرى الريف ودمكروه .

وعرف كذلك أن الشعب المصري وحده وبمفرده هو الذي رد الحملة الإنجليزية بقيادة الجنرال كريزر عند رشيد .

وفي مصر كذلك - أولاً وقيل كل شيء - كان وما زال الأزهر الشريف الذي تتمثل فيه الوحدة الإسلامية الواقعية بأروقته التي كانت تضم الطلاب من كافة أرجاء العالم الإسلامي ابتداء من رواق المغاربة عند أقصى المحيط الأطلسي غرباً حتى رواق جلوه عند بحر الصين بأقصى الشرق .

ومن أبناء الأزهر من أمثال محمد عبده ومسعد زغول والفتاوى ثم عبد الله النديم ومعهم فريق آخر - ممن أفادوا من جهود الطهطاوى والطار والطيول وعلى مبارك وشار أفكارهم - من هؤلاء جميعاً ومن أبناء البلاد الشرقية الأخرى من أمثال أدب إسحق وسليم النقاش كان حوارهم جمال الدين الذين وجد فيهم الأرض الطيبة لغرس أفكاره التي صمت الشرق كله فيما بعد .

وفي مصر كان الرائد الزعيم الأفغانى هو أول من جهر بأن الشعب هو أساس الدولة وأنه هو مصدر السلطان كله، وأنه لا إصلاح للحكومة إلا عن طريق إصلاح الشعب بكفالة حقوقه الكاملة في الحياة الحرة الكريمة .

وفي مصر كان السيد كذلك هو أول من وجه الصحافة وجهها الصحيحة لخدمة الشعب والنهوض به .

وحين بان لدول الاستعمار خطر السواد عليها من وجوده بمصر التي كانوا يمهّدون لاحتلالها، ما زالوا بالخديو توفيق حتى أخرجه من مصر في السادس من رمضان عام ١٢٩٦هـ ؛ أي لمائة عام خلت (٢٤ أغسطس ١٨٧٩م) .

وفي الهند التي نفى جمال الدين إليها، فبرغم ما فرضه البريطانيون عليه من الرقابة الدقيقة هناك، فقد استطاع أن يجنب إلى خلقه العديد من الأحرار المسلمين هناك، ومن بينهم الشاب محمد إقبال .

وكانت تعاليم جمال الدين ودعوته إلى تمكين كيان المسلمين هي التي ألوحّت فيما بعد للفيلسوف محمد إقبال بالجهير بدعوته إلى قيام وطن خاص بالمسلمين في شبه القارة الهندية هو باكستان .

وسمح البريطانيون للسيد جمال الدين بمغادرة الهند وذلك بعد أن تم لهم احتلال مصر والتضاء على العراقيين بها، وفي باريس لحق بالسيد حواريه الشيخ محمد عبده بعد نفيه من مصر بدور، فأصنرا ومعهم ميرزا محمد باقر صحيفة « العروة الوثقى » التي دوى صوتها في كافة أنحاء العالم الإسلامي، حتى انتبه المستعمرون إلى خطرها فأغلقوها .

ويسافر السيد من بعد ذلك عام ١٨٨٦م إلى روسيا حيث أمضى هناك أربع سنوات جهد فيها على أن يحمل القصور ورجال حكومته على وقف حملات التتصير والإبادة التي كان يمارسها جند الروس في القوقاز والتركستان بآسيا الوسطى .

ويرغم المقاومة المجيدة المستميتة التي لقيها المعتكفون الروس هناك والتي استمرت حتى النصف الأول من هذا القرن العشرين فسقط فيها ملايين عديدة من شهاداء المسلمين هناك فإن أحدًا من الشعوب الإسلامية لم يمد - مع الأسف - يد العون الجدى إلى تلك البلاد ذات الماضى الحضارى الإسلامى العريق والتي ظهر فيها من علماء المسلمين من أمثال ابن سينا والبخارى والترمذى والبيهقى والبيرونى ومئات غيرهم، والتي كان أصحابها قد وصلوا بفتوحاتهم كذلك منارات متعددة إلى مومسكو نفسها .

وفي ألمانيا التقى جمال الدين عام ١٨٨٩م بناصر الدين شاه للفرس وكان يجوب أوروبا وقد خرج إليها من بلاده لأول مرة . وقبل السيد جمال الدين دعوة الشاه بالعودة معه إلى بلاده وفي خاطره أن العاهل القارسمى لا يلبث أن ينهض ببلاده بعد ما رأى ما صارت إليه شعوب أوروبا من تقدم وما تمارسه من الحرية والاستقلال .

ولكن خاب ظن السيد في صاحبه ؛ فهام الروس يتخطفون أراضي إيران في الشمال، وهام الإنجليز ينزلون في الشرق والجنوب فضلاً عن تدخلهم في اقتصاد إيران واحتكارهم لبعض منتجاتها، وناصر الدين في شغل عن ذلك كله يرفض أن يستمع لمطالب شعبه بالمستور حتى طلق ينكّل بأحاراهم وينصرف

بكلية في جمع المال مع إسرائفه الشديد حتى أغرق بلاده في الديون بدوره على غرار ما كان يفعل معاصره إسماعيل خنيو مصر السابق .

وما أن يجهر السيد الأفغاني بمعارضته في ذلك حتى يبعث الشاء بزيارته فتلقى به خارج إيران بعد أن أذلقه العذاب النُكر .

وما أن استقر جمال الدين بلندن حاضرة بريطانيا حتى ولفاء هناك مبعوثوا السلطان عبد الحميد فزيتوا له القدوم إلى دار الخلافة في استانبول، وكان السلطان التركي يهدف بذلك إلى إبعاد السيد عن أحرار التتركة ودعاة الإصلاح ممن أفلتوا من سجونهم ومعتقلاتهم إلى أوروبا، ويغد منه في الوقت نفسه في الدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية التي انطلق ينادى بها عبد الحميد تحقيقاً لأمره فحسب .

وما من شك في أن السيد جمال الدين كان يرى في الدولة العثمانية، برغم ما أصابها من التفتخ، آخر قوة عسكرية حقيقية كبرى للإسلام، فضلاً عما يقده المسلمون في كافة أنحاء الأرض من آمال كبيرة على الخلافة في استانبول، وأن الجيوش العثمانية في حروبها الأوربية إنما تولجه في الواقع تلك الدول الصليبية، وأن جميع شعوبها مجمعة على عدائها للإسلام .

وقد أثبت صدق مقالة السيد هذه فيما بعد ما تضمنته نصوص معاهدة فرساي ومؤتمر الصلح الذي عقد عقب الحرب العالمية الأولى .

ومن هنا كان جمال الدين يرى وجوب تضافر الجهود لتحقيق قيام الجامعة الإسلامية، وما هم المسلمون وتربطهم جميعاً روابط حضارية وثيقة بفضل عقيدتهم على اختلاف عروقهم .

ولئن كان عبد الحميد قد أسمع أذنيه عن الاستجابة لأراء السيد جمال الدين وخططه لإصلاح أحوال المسلمين والنهوض بهم، ثم مكربه واعتقله في قفس من ذهب حتى لقي ربه عام ١٨٩٧، فإن جذور دعوة الزعيم الأفغاني ومبادئه كانت على كل حال قد رسخت قوية عميقة متمسكة في أغلب بقاع العالم الإسلامي، ثم ما لبثت ابتداء من الربع الأول من القرن العشرين للحالي، ولما يمضي ثلثا وعشرون عاماً على وفاة السيد، حتى أخرج الزرع شطاء واستغلظ واستوى على

سوقه وصنم كالطود الراسخ أمام عواصف المستعمر وطغيانه وجبروته، فكان من أنضج ثماره وأصلبها ظهور قوى عسكرية إسلامية حقيقية مظفرة تمثلت في تركيا كمال أتاتورك وإيران رضا شاه بهلوي، وأفغانستان أمان الله خان ونادر شاه، أولئك الذين انتظم عقدهم في حلف سعد أبداً المشهور بعد أن حققوا الاستقلال الكامل لبلادهم بقوة السلاح .

ويطبيعة الحال فإن ما حققه هؤلاء الأبطال العسكريين من آمال لبلادهم قد قوى في سواعد الشعوب الإسلامية الأخرى وهي في كفاحها لتحرير أراضيها من الغاصب المحتل .

حتى جاء من بعد ذلك دور مصر العسكري الحاسم في العاشر من رمضان، السادس من أكتوبر، فاطلق أنصارها، أحفاد أولئك العراقيين - أصحاب السيد الأفغاني وأول من تكاثروا بدعوته واستجابوا لها - فطلق صناديد مصر في العاشر من رمضان صواعق خارقة كاسحة يدمرون السدود والقيود ويحققون بانتصاراتهم الكرامة والعزة لكل مسلم فيما بين المحيط الأطلسي وبحار الصين، ويمهدون بذلك الأرض تمهيداً حقيقياً لقيام الوحدة الإسلامية القوية منطقتي كفاح السيد الأفغان طوال سبلى حياته .

وأبطال حرب رمضان - أكتوبر - أحفاد العراقيين أصحاب السيد جمال الدين الأفغاني وتلامذته - هم الذين يضطلعون اليوم بتكريب المجاهدين الأفغان على استخدام الأسلحة الحديثة في حربهم مع غزاة بلادهم من السوفييت . هذا وتقدم جمهورية مصر العربية إلى هؤلاء المجاهدين المزيد من هذه الأسلحة الحديثة إلى جانب المساعدات الأخرى مما تستلزمه المعارك . كما بادرت بعض الدول الإسلامية بدورها بمد المجاهدين بالمساعدات .

أهم مراجع الكتاب

أهم مراجع الكتاب

- ١ - تاريخ الطبرى لابن جرير الطبرى - القاهرة : ١٣٢٣هـ .
 - ٢ - تاريخ الكامل لابن الأثير - القاهرة ١٣٠٢هـ .
 - ٣ - تاريخ فرشته (فارسي) لمحمد قاسم هندوشاه - لكتو ١٣٢٣هـ .
 - ٤ - حبيب السير لخواالدмир (فارسي) - طهران ١٣٧٣هـ - ش .
 - ٥ - مخزن أفعالي (فارسي) لنعمت الله - لندن ١٨٢٩م .
 - ٦ - تاريخ سلاطين أفغاني (فارسي) لأحمد يادكر - تهران .
 - ٧ - تمة البيان در تاريخ أفغاني (فارسي) للسيد جمال الدين الأنعماني - القاهرة ١٣٢٢هـ .
 - ٨ - حاضر العالم الإسلامي تأليف (لو تر ب) وترجمة زعوتتر ، مع تعليقات مستفيضة بقلم الأمير شكيب أرسلان القاهرة : ١٤٥٢هـ .
 - ٩ - تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم - تأليف د. أحمد محمود الساداتي .
القاهرة - مكتبة الآداب ١٩٨٠م .
 - ١٠ - تاريخ الدول للإسلامية بآسيا وحضارتها - تأليف د. أحمد محمود الساداتي - القاهرة ١٩٧٩م .
 - ١١ - تاريخ بخارا ، تأليف أرمينيوس فامبرى ، وترجمة د. أحمد محمود الساداتي ، مع إضافات وتعليقات مستفيضة - القاهرة ١٩٦٥م .
 - ١٢ - أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث - ١٩٤٨م .
- 1- Ikbal Ali Shah: Afghanistan London 1928.
 - 2- Ferrier, T. P.: History of the Afghans. London 1858.
 - 3- Sykes, Percy: A History of Afghanistan. London 1940.

- 4- Brockelmann, Karl: Geschichte der Islamischer Voelker. Leipzig 1940.
- 5- Kuhn, Hars: Geschichte der nationaleu Bewegunger im Orient Leipzig 1930.
- 6- Haidar Bammat: Visages de L'Islam. Lussanne 1946.
- 7- Baymira Hayit: Turkestan Darmstadt 1957.
- 8- Ichwari Prasad: Muslim Rule in India, Allahabad 1933.
- 9- Havell. E. The History of Aryan Rule in India. London.

مكتبة البحث

مراجع فارسية :

- ١ - إقبالنامه جها نكيرى : لمعتمد خان . كلكتا ١٨٦٥م
- ٢ - أكبر نامه ، أو تاريخ أكبر شاه بانقصيل أحوال بدرش همايون ، لأبى الفضل بن المبارك - مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨م تاريخ فارسى .
- ٣ - انتخابات جهانكيرى - غير معروف مؤلفه .
- (مجموعة إليوت ٦)
- ٤ - آيين أكبرى لأبى الفضل بن المبارك .
- مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠ تاريخ فارسى .
- ٥ - بابر نامه (بالتركية الجغتائية) - نشر السيدة .
- بنوت بغريدج .
- الترجمة للفرسية لعبد الرحيم خان خفان - نشرها
- محمد شيرازى
- ٦ - تاريخ بيهقى - ترجمة الخشاب ونشأت -
- بمباى ١٣٠٨هـ
- القاهرة ١٩٦٥م
- ٧ - بادشا هنلمه - لعبد الحميد لاهورى .
- (مجموعة إليوت ٧)
- ٨ - تاريخ أحمد شاهى ، غير معروف مؤلفه .
- (مجموعة إليوت ٨)
- ٩ - تاريخ آقى ، لأحمد دلود .
- (مجموعة إليوت ٥)
- ١٠ - تاريخ للمغول لعباس إقبال
- تهران ١٩٣٣م
- ١١ - تاريخ جهانكشاي ، لعلاء الدين عطا ملك الجوينى .
- ٣ م - لندن ١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧
- ١٢ - تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد البشر .
- تأليف غوث الدين بن همام الدين الحسينى المعروف بخواندمير ٤م .
- (طهران ١٣٧٣هـ)

١٣ - تاريخ رشيدى ، اميرزا محمد حيدر دوغلات الترجمة الإنجليزية اسير
دنيسون روس مع تعليقات له . لندن ١٨٩٨م

١٤ - تاريخ سلاطين أفغانى لأحمد يادكر . (مجموعة اليوت ٥)

١٥ - تاريخ شير شاه اعباس خان سروانى . (مجموعة اليوت ٤)

١٦ - تاريخ عالمكير ثاب ، غير معروف مؤلفه . (مجموعة اليوت ٨)

١٧ - تاريخ عمومى ايران لعباس اقبال . طهران

١٨ - تاريخ فرشته محمد قاسم هندوشاه ، جزءان فى مجلد .

لكنو ١٣٧٣هـ

١٩ - تاريخ كجرات لشاه أبى تراب ولى . كلكتا ١٨٩٩م

٢٠ - تاريخ مظفرى ، لمحمد على خان . (مجموعة اليوت ٨)

٢١ - تاريخ هندى ، لرستم على . (مجموعة اليوت)

٢٢ - تلمة والقمات ، جها نكيرى لمحمد هادى . (مجموعة اليوت ٦)

٢٣ - تذكرة آندرام مخلص . (مجموعة اليوت ٨)

٢٤ - تذكرة الوقعات أو هما يو ننامه : لجوهر . (مجموعة اليوت ٥)

٢٥ - تكملة أكبر نامه ، لعناية الله (مجموعة اليوت ٦) .

٢٦ - جهاز مقالة لنظامى عروضى سمرقندى مع تعليقات القزوينى : ترجمة حزام
والخشاب . القاهرة ١٩٤٩م

٢٧ - رياض السلاطين : أو تاريخ بنغالة .

تأليف غلام حسين سليم : كلكتا ١٨٩٠ ، ١٨٩٨م

٢٨ - سير المتأخرين لغلام حسين خان . (مجموعة اليوت ٨)

٢٩ - شاهجهان نامه ، لطيفه الله . (مجموعة اليوت ٧)

٣٠ - طبقات اكبرى ، لنظام الدين أحمد بخشى . (مجموعة اليوت ٥)

٣١ - طبقات ناصرى لمنهاج السراج ترجمة رالترتى .

لندن ١٨٧٣ - ١٨٩٧م

- ٣٢ - ظفر نامه ، لنظام الدين شامى . بيروت ١٩٣٧
ظفر نامه ، لشرف الدين يزدى - كلكتا ١٨٨٥ - ٨٧م
٣٣ - عالمكير نامه ، لمتشى محمد كانظم بن محمد أمين .
كلكتا ١٦٦٨م
٣٤ - مير نكاه ، لمحمد قاسم . (مجموعة البوت ٧)
٣٥ - عمل صالح : لمحمد صالح لاهورى . كلكتا ١٩١٢م
٣٦ - فرحة الناظرين : لمحمد اسلام . (مجموعة البوت ٨)
٣٧ - مآثر الأمراء لشاه نواز خان - ٤م . كلكتا ١٨٨٠ - ١٨٩٦
٣٨ - مآثر عالمكيرى لمحمد سالى مستعد خان . كلكتا ١٨٧٧م
٣٩ - مرآة سكوندى لاسكندر بن محمد .
٤٠ - منتخب التواريخ ، لعبد القادر بن ملوك شاه بدوى - ٣م . (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢ تاريخ فارسى)
كلكتا ١٨٦٨م
٤١ - منتخب اللباب لخالى خان . (مجموعة البوت ٧)
٤٢ - واقعات جهانكيرى ، سيرة جهانكير . (مجموعة البوت ٦)
٤٣ - وقايعى (حالات) لأسعد قزوینى . (مجموعة البوت ٦)
مراجع عربية : (مساعدة)
١ - اختلال التوازن العالمى ، لغو بى تاف لويون ، ترجمة صلاح الدين وصفى .
القاهرة ١٩٢٨م
٢ - تاريخ الحضارة الإسلامية ، لبارتولد ، ترجمة حمزة طاهر .
القاهرة ١٩٣٣م
٣ - تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبرى . القاهرة ١٣٢٣هـ
٤ - تاريخ العتبى على هلمش الفتى الوهيبى . القاهرة ١٢٨٦هـ
٥ - تاريخ الكامل ، لابن الأثير - ١٢ج . القاهرة ١٣٠٢هـ

- ٦ - جنكيز خان . لهارواد لامب ، ترجمة بهاء الدين ثورى .
 بغداد ١٩٤٦م
- ٧ - حاضِر العالم الإسلامى ، تاليف لوترب ، تعريب عجاج نويهض . (انظر تعليقات الأمير شكيب أرسلان عليه) م٤ .
 القاهرة ١٣٥٢هـ
- ٨ - حضارات الهند : لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر .
 القاهرة ١٩٤٨م
- ٩ - الدعوة إلى الإسلام ، لتوماس أرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين .
 القاهرة ١٩٤٧م
- ١٠ - ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للقل أو مرذولة ، لأبى الريحانى البيرونى
 (نشر زخلو) لندن ١٨٨٧م
- ١١ - ضحى الإسلام لأحمد أمين .
 القاهرة ١٩٣٨م
- ١٢ - فتوح البلدان للبلاذرى .
 ليدن ١٨٦٦م
- ١٣ - المختصر فى أخبار البشر ، لأبى الفداء .
 القاهرة ١٣٥٢هـ
- ١٤ - مروج الذهب للمسعودى .
 القاهرة ١٣٤٩هـ
- ١٥ - معجم البلدان ، لياقوت الحموى م٨ .
 القاهرة ١٩٠٦م
- ١٦ - الهند وجيرانها ، لول ديورانت ، ترجمة زكى نجيب محمود .
 القاهرة ١٩٥٠م

مراجع أوروبية :

- 1 - Ameer Ali, *The Spirit of Islam*, London 1923
- 2 - Barthold W. *Histoire des Turcs d'Asie Central*, Adapt. Fr. par Mme Douskies Paris 1945
- 3 - Barthold, *Turkestan* London 1928
- 4 - Binyon, Laurence, *The Court Painters of the Grand Moghul* Oxford 1931
- 5 - *Cambridge History of India* 5 Vols. Cambr. 1922-29
- 6 - Cunningham, J. *Hist of the Sikhs*, London 1916
- 7 - Czaplina, M. A. *The Turks of Central Asia*, Oxford 1918
- 8 - Deguignes, J. *Histoire générale des Huns, des Turcs, des Mongols etc...* 5 Vols. Paris 1756-58
- 9 - d'Otsson, Percin C. *Histoire des Mongols*, Amsterdam : 1852
- 10 - Elphinstone, H. *Hist of the Mahrattas*, 2 Vols. 1921
- 11 - Danbar, O. A. *History of India from the Earliest Times to the Present Day*, London 1936
- 12 - Elliot H. M. & Dowson, John, *The History of India as told by its own Historians. The Mohammedan Period*, 5 Vols. London 1867-77
- 13 - *The English History Review*, 1898
- 14 - Gubler, H. C. *Ueber die Sprache der Hazaras*, Z. Dong, Bd XX.
- 15 - Gait, Edward, *Hist of Assam* Calcutta 1929
- 16 - Garraff, G. T. *The Legacy of India* Oxford 1938
- 17 - Carret Ed. *Anglo-Pale in India* 1930
- 18 - Grenard Fer, *Esher* Paris 1930
- 19 - Grosset, R. *L'Empire Mongol*, Paris 1941
- 20 - Grosset, R. *Hist. de l'Extrême Orient*, 2 Vols. Paris 1920
- 21 - Hammer, J. D. *Histoire de l'Empire Ottoman*, 18 Vols. Paris 1830

- 22 - Havell, E. B. The History of Aryan Rule in India London
- 23 - Howorth, H. History of the Mongols. 3 Vols London 1846
- 24 - Iqbal Ali : Afghanistan London 1928
- 25 - The Indian Muslims by an Indian. Mohammedan. London 1938
- 26 - Ishwari Prasad: medieval India 1935
- 27 - Ishwari Prasad. A short History of Muslim Rule
in India. Allahabad 1933
- 28 - Islamic Culture Review (1938)
- 29 - Lane-Poole, St. Medieval India under Mohammedan
Rule. London 1917
- 30 - Moreland, W. H. & Chatterje. A short History of
India. London 1936
- 31 - Mueller A. Der Islam in morgen-und Abendland Berlin 1887
- 32 - Sarkar. Hist. of Aurangzeb. 2 Vols Calcutta 1912-24
- 33 - Sarkar. Shivaji and his times. Calcutta 1919
- 34 - Smith, V. A. Hist. of Fine arts in India and Ceylon.
Oxford 1930
- 35 - Sirdar Iqbal Ali Shah. Afghans London 1928
- 36 - Spear, P. Twilight of the Mughals. Cambridge 1951
- 37 - Vambery, A. A. History of Bokhara London 1873

فهرس ابجدی عام

أحمد شاه ٤٢٩ ، ٤٨٨	آجمیر ٦٥
أحمد شاکر کجراتی ١٦٢	آشوک - آزوکا ٢٤ ، ٢٥
أحمد میرزا ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤	أصف خان ٣١٢
أحمد نکر ١٧٢ ، ٣٢٤	آنجبالا ٦٩
إدوارد ملک الإنجلیز	إبراهیم الفزاری ٦٠
أدهم خان ٣٠٩ ، ٣١٠	إبراهیم شاه سوری ٣٠٧
أرجمند باتو (النظر : ممتاز محل)	إبراهیم شاه شرقی ١٦٧ - ١٧٩
إسماعیل الصفوی ٢٣٩ ، ٢٤٠	إبراهیم عادل شاه ١٧٢
أعظم بن أورنگزیب ٣٩٩ ، ٤١٩	إبراهیم لودھی ١٨٩ - ١٩٢ ،
الأفغان ٤٨١	٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨
إقبال خان (طو) ١٤٩ ، ١٥٠ ،	ابن الأعرابی ٥٩
١٥٩	ابن بطوطة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ،
أكبر (جلال الدین) ٣٠١ - ٣٥١	١٩٦ - ١٩٨
أكبر شاه لثانی ٤٤٨	أبو الريحان البیرونی ٣٥
الشمس ٩٥ وما بعدها	أبو الفضل بن المبارك ٣٢٦ ، ٣٤٦ ،
الجایتو خدا بندہ	٣٤٩
ألف بیک بن ابی سعید ٢٣٧	أبو الفیض فیضی (انظر: فیضی)
ألف بیک بن شاهرخ ٢٢٤	أبو سعید میرزا ٢٢٤ ، ٢٢٥
أمان الله خان ٤٩١	أبو معشر نجیب السندی ٥٨ ، ٥٩
أورنگزیب عالمگیر ٣٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨	اثراد ٢١٧
- ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٤١٦	آتش شاه خوارزم ٢١٢
أورخون ٢٩٩ ، ٢١٤	أحمد ابدالی ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
أوزون حسن ٢٢٥	٤٣٥
اوکتای ٢١٨ وما بعدها	أحمد أصفهانی ٢٤٠ ، ٢٤١

الأويغور ٢١٠ وما بعدها

أبيك ٨٩

(ب)

بابر (ظهير الدين محمد) ١٩٢ -

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ -

٢٨٤

بابر نامه ٢٧٩ - ٢٨٢

باتو خان ٢١٩

باكستان ٤٥٣

بلكي بت ١٥٤ ، ٣٤٧

البند ١٤ ، ١٥ ، ١٦

بدلوني ٣٤٦

بدخشي منعم شاه ٤١٩

بدر ١٧٩

برار ١٧٠

براساد ٧٤

البرامكة ٦١

براهما سدهنتا ٦٠

البرتغاليون ١٦٣ ، ١٦٤

برسنغ ديو ٣٥٤

بريدون ٤٤٥

البريطانيون ٤٢٣

بشر بن دلود ٥٦

بقرا خان بن بلين ١٠٦ وما بعدها

بكسر ٤٣٤

بلاجي دلو

بلامى ٤٣٣

بلين ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ - ١١٠

بهادر خان كجراتي ٢٨٨ ، ٢٨٩

بهادر شاه بن اورنگزيب ٤١٩

بهادر شاه الثاني ٤٤٩ ، ٤٥١

بهار

بهرام الغزنوي ٨٣

بهرام بن التمش ١٠٠ ، ١٠١

بهبوان داس ٣٢٧ ، ٣٣٥

بهبول لودهي ١٦٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠

- ١٨٥

بهرم خان التركماني ٢٩٩ ، ٣٠١

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

بهر محمد حفيد بتمور ١٥٢

بهرير ٤٤٤

البيروني (النظر - أبو الريحاني

البيروني)

(ت)

تاج محل ٤٦٩

تاريخ رشيدى

تلكسيلا ٣٣

تبار هنداه

تكرمل ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٤١

تلكه الهندي ٧٨ ، ٧٩

توماس راو ٣٦٥

تهور خان ٣٩٨

توبو سلطان ٤٤١ ، ٤٤٢

تيمور لنگ ۱۵۰ - ۱۶۰ ، ۲۰۷ ،

۲۱۹ وما بعدها ، ۲۳

(ج)

الجالظ ۶۱

جارچی ۳۲

جعفر خان ۴۳۳

جغتای ۲۱۹ وما بعدها

جلال الدين شاه خوارزم ۹۶ ، ۹۷ ،

جلال الدين فيروز الخلجي ۱۱۴ ،

۱۱۵ ، ۱۱۶

جمال الدين ياقوت ۱۰۰

جندرا کيتا ۲۲

جنکيز خان ۹۶ ، ۱۱۴ ، ۲۰۷ ،

۲۱۵ ، وما بعدها

جوجی ۲۱۹

جو نيور ۱۶۹

جو نيور ۱۶۵

جوهر صاحب تذكرة الوقعات

جهان آرا ۳۷۶

جهان نادر ۴۷۱

جها نكير ۳۵۲ - ۳۶۷

جيبال ۶۴ وما بعدها

الجينية ۱۴ ، ۱۵ ، ۱۶

(ح)

حبيب الله خان ۴۹۱

الحجاج بن يوسف ۴۳ ، ۴۴ ، ۴۵ ،

۴۶ ، ۴۷۲

حسن خان مواتی ۲۶۰ ، ۲۶۴

حسن كلكوی (جتجو) ۱۳۹ ،

۱۶۸

حسين بيگرا ۲۲۵ ، ۲۳۷

حميد القرمطی ۵۸

حميدة بلقو ۳۰۸

(خ)

خان جهان لوحانی ۱۸۵

خانش ۱۶۵

خاقزاده بيگم ۲۴۰

خاقوه ۲۵۴ ، ۲۵۸

خسرو الدهلوی ۱۱۰

خسرو التزنوی ۸۳

خسرو بن جها نكير ۳۵۵

خسر وقائد مبارك شاه ۱۲۸ - ۱۳۰

خضر خان ۱۶۰ ، ۱۷۶ ، ۱۷۷ ،

۱۷۸

الخلجيون ۱۱۴ وما بعدها

(د)

دارا شكوه ۲۸۱

دائيل خان ۳۲۵

داود بن يزيد ۵۶

داود القرمطی ۷۰

داود المغولی ۱۱۸

داهر ملك السند ٤٤ وما بعدها

درغا داس ٣٩٨

دزرائيلي ٤٩٠

دمتور لمل ٣٥٣

الذكن ١٦٨

دلور خان لودهي ١٦٤ ، ١٦٥

دندلقان ٨٠

الدواب

دولوكس ٤٤٠

دوست محمد شاه ٤٤٥ ، ٤٨٩

دولت آباد ١٣٥

دولت خان لودهي ١٦٠ ، ١٩١ ،

٢٤٦ ، ٢٤٧

دهلي ٦٥

ديبل ٤٥ ، ٤٦

دين إلهي (انظر : المذهب الإلهي) .

(ر)

راجا جسوانت ٣٩٤ ، ٣٩٨

الراجپوتيون ٩ ، ٧٢ وما بعدها ،

٤٢٠

دام داس ٤١١

الراماينا ١٢ ، ٣٢٨

رانا سنكا ٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٣٥٧ ،

٢٥٩

رائي دروكتي ٣١٢

رضية ٩٩ وما بعدها

رفع الدرجات ٤٢٤

رفع الثمان ٤٢٢

رتجيت سنغ ٥٤٦

رويرتس ٤٤٥

(س)

سادات خان ١٤٩

سارنگه خان ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،

١٥٢ ، ١٧٧

السامانيون ٢٨٨

سيكتكين ٦٣ ، ٦٥ ، ٤٨٢

السك ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٤٦

سكندر شاه سوري ٣٠٦

سكندر شاه لودهي ١٨٥ - ١٨٩

السلاجة ٢١٤

سلطان بن أورنگزيب

سليم بن أكبر (انظر : جهانكير)

سليم جشتي ٣١٩ ، ٣١٧

سليم شاه سور ٢٩٨

سليمان بن عبد الملك ٥٠ ، ٥١

سنان ٢٧٤

سنجر السلجوقي ٢١٢

سومناث ٧٢ وما بعدها

سيالكوت ٧٨

(ش)

شاه عالم ٤١٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ -

٤٣٨

(ع)

عادل شاه سور (انظر محمد عادل)
عالمكير : انظر أورنگزيب
عالمكير الثاني ٤٣٠
عبادة تخافه ٣٢٦ ، ٣٢٧
عباس الصقوى ٣٢٣ ، ٣٥٨
عبد الله خان أوزبك ٣١٢ ، ٣٢٢
عبد النبي (صدر الصدور) ٣٤٦
عثمان بن عفان ٤٤ ، ٤٨٢
عزيز ككا ٣٤٩ ، ٣٥٤
الصجدى ٧٦
صكرى بن باير ٢٦٧ ، ٢٨٧ ،
٢٩٧
عظيم الشأن ٤٢٢
علاء الدين الخلقى ١١٥ ، ١١٦ -
١٢٧ ، ١٩٦
علاء الدين علم خان ١٩١ ، ١٩٢
علاء الدين كلكوى (انظر : حسن
كلكوى)
علاء الدين مسعود حفيد التمش ١٠١
علاء الدين العزوى ٨٢
علاء الملك ١١٩
على جوهر ٤٣٣
على مردان ٣٧٧
عمر بن الخطاب ٤٣ ، ٤٨٢
عمر بن عبد العزيز الأموى ٥٢

شاهجهان ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ،
٣٨٨
شاهجى ٣٧٥ ، ٤٠٢
شاهو ٤٢١ ، ٢٤٥
شايسته خان ٣٩٢ ، ٣٤٠ ، ٤١٥
شجاع الملك ٤٤٤ ، ٤٨٩
شمبهوى ٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩
شمس الدين محمد أتكه ٣١٠
شمس الدين التمش (انظر التمش)
شهر يار ٣٥٩
شيبانى خان الأوزبك ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
شير أفكن ٢٦٢
شير شاه ٣٨٧ - ٢٩٥
شير شاه الثاني ٣٠٧
شير على ٤٩٠
شيو ١٨
شيولجى ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٥
(ض)
ضياء الدين بارنى ١١٩
(ط)
طبقات ناصرى ٩٩
طغرل شاه بنقالى ١٠٧ وما بعدها
طهما سب ٢٩٦ ، ٢٩٧
(ظ)
ظهير الدين محمد باير (انظر باير)

عمر بن عبد العزيز الهباري ٥٧
عمر شيخ ميرزا ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٣

عمرو بن محمد بن القاسم ٥٣
عمرو بن مسلم الباهلي ٥٢
حنيفة الله ٣٤٦
العنصرى ٧٦

(غ)

غازى الدين نظام الملوك (انظر :
نظام الملوك)
الغز ٢١٤

الغزنويون ٦٢ وما بعدها
الغوريون ٨٦ وما بعدها
غور كها ٤٤٦
غوريندا ٤٢٣

غياث الدين تغلق ١٢٩ - ١٣٢

(ف)

فاهيان ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥
الفتاوى الهندية (العالمكيرية) ٤٧٦
فتحبور سكري ٣٢٦
فرخ سير ٤٢٢
الفرديوسى ٧٦
فيالانكر ١٧٤

فيروز تغلق ١٤٠ - ١٤٦

فيضى بن المبارك ٣٢٦ ، ٣٤٧

(ق)

قاسم خان ٣٧٣

قباچه ٩٨

القوجاق ٢١١

ثم بن الجلس ٢٤٥

القرغيز ٢١١

القره خانيون ٢١٤

القره ختاي ٢١١ ، ٢١٢

القرل باش ٢٤١

قطب الدين لبيب (انظر : لبيب)

قطب الدين مياك شاه ١٢٧ ، ١٢٨ ،
١٣١

قوج ٧١ وما بعدها ، ٢٦٦

(ك)

كلقور ١٢٢ - ١٢٧

كلم بخش ٤١٩

كام ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٧

الكجرات ١٦١ - ١٦٤

كشمير ٤٥٨

كلنجر ٦٥

كوفند سنغ ٤٢٠

كولا ٣٠

كوهينور ٢٥٢

كوخسرو حفيد بلين ١١١

كوتيلان بن بلين ١١٠ ، ١١٣

كانكوى (انظر : علاء الدين)

(ل)

الليث بن ظريف ٥٥

لورنس ٤٥٢

(م)

مادهجي سنديا ٤٣٧

مانكو المغولي ١٠٢

ماهم آنكه ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

مبارك شاه الخلجي : انظر قطب الدين

مبارك شاه شرقي ١٥٩

مبارك ناكوري ٣٢٦

مجنود بن مسعود ٨٢

محمد إقبال ٤٥٦

محمد بن يختيار الخلجي ٩٠

محمد بن الحارث العلاقي ٤٤

محمد بن القاسم ٤٥ وما بعدها

محمد بخت خان

محمد تغلق ١٣٢ - ١٤٠ ، ١٩٨

محمد شاه الشهيد بن بابن ١٠٦ ،

١٠٧

محمد شاه شاهجان الثاني ٤٧٤ ،

٤٧٩ ، ٤٧٦

محمد ظاهر شاه ٤٩٢

محمد صالح ٤٧٦

محمد عادل شاه سوري ٢٩٩ ،

٢٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

محمد عبد الباقي ٣٤٦ ، ٤٧٥

محمد علي جلّه ٤٥٨

محمد الغزنوي ٨١

محمد الغوري (انظر أيضا شهاب

الدين الغوري ومعز الدين)

محمد قاسم هندوشاه ١١٤ ، ٣٤٦ ،

٤٧٥

محمد ناصر شاه ٤٩٢

محمود بيكر كجراتي ١٦٣ ، ١٦٤ ،

محمود تغلق ١٤٨ - ١٥٥ ، ١٥٩ ،

١٦٠

محمود جوان ١٦٩

محمود الغزنوي ٦٦ وما بعدها ،

١٩٩ ، ٢٠٠

محمود ميرزا ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤

المذهب الإلهي ٣٣٢

المرهتياها ٤٠١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ،

٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢

مسعود الغزنوي ٧٧ وما بعدها

مسلم بن قتيبة ٢٢٦

مظفر خان ١٦٢

المعتصم العباسي ٢١٤

معظم خان ٣٩٩ ، ٤١٩

المغول والترك ٢٠٩ وما بعدها

الملتان ٤٩ وما بعدها

ملك خنير ٣٥٧ ، ٣٥٩

ممتاز محل ٣٧٠ ، ٣٧١

من سنغ ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥

منو ١٣

منير مرغوانى ٢٢٣

مودود بن مسعود ٨١

الموريا ٢٢

مهايت خان ٣٦٠ ، ٣٧١

المهابهارتا ١٢ ، ٣٢٨

مهاوير ١٤

ميان تانس ٤٧٤

مير جملة (محمد سيد) ٣٦٠ ،

٣٩٢

ميرزا حكيم ٣٢٠ ، ٣٢١

ميفاستين ٧١ ، ٢٢

الميمندى (انظر : ابو القاسم

الميمندى)

(ن)

نابليون بونابرت ٤٤١

ناجور

نادر شاه ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩

ناصر الدين محمود بن التمش ١٠١

نجيب الدولة ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٥

نظام الدين احمد ٣٤٦

نظام الملك (نظام حيدر آباد) ٤٢٤ ،

٣٢٦ ، ٤٣٠

نور جهان ٣٤٩ ، ٣٦١ - ٣٦٣ ،

٣٦٨

نيكتور ٢٣

(و)

وشنو ١٨

والى ٣٣٨

الوليد بن عبد الملك ٥٠

وايم هوكتز ٣٦٥

(هـ)

هار غووند ٣٩٧

هارى سنغ ٤٥٩ ، ٤٦٠

هرشا ٧٦ ، ٢٧

هشام بن عمرو التغلبى ٥٤

هنايون بن باير ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤

٢٦٨ ، ٢٨٥ - ٣٠٠

هندال ٢٧٨ ، ٢٩٧

هوج نو ٢٠٩ ، ٢١١

هيمو ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥

هيمون سنغ ٣٣

(ي)

لياىسا ٢١٩

يعقوب خان ٩٠

يلدز ٩٢

يوسف عادل شاه ١٧١ ، ١٧٢

ينزاي ٣٢٢

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

